سلسلة الدراسات التاريخية (1)

الكُتّاب في العصر العباسي الأول

دراسة في النظم والثقافة والمجتمع

(132 - 247 هـ ـ 749 - 861م)

د. عفاف عبد الحفيظ محمد رحمه

وحدة البحوث والنشر - مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر - السودان

2021م

الكُتّاب في العصر العباسي الأول - د. عفاف عبد الحفيظ محمد رحمه

ردمك ISBN 978-99988-804-7-4

رقم الإيداع: 0678

دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution

تصميم الغلاف: علي عبد الحليم كابتود

سلسلة الدراسات التاريخية (1)

الكُتّاب في العصر العباسي الاول

دراسة في النظم والثقافة والمجتمع

(132-247هـ/ 749-861م)

د. عفاف عبد الحفيظ محمد رحمه

الطبعة الأولى 2021م

الكتاب : الكُتاب في العصر العباسي الأول (دراسة في النظم والثقافة والمجتمع 132– 247 هـ/ 749– 861م)
الكاتب : د. عفاف عبد الحفيظ محمد رحمه
تاريخ النشر : الطبعة الأولى 2021م
رقم الإيداع :(2021/0678)
التصميم والإخراج: عادل محمد عبد القادر

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر - السودان
928.109 عفاف عبد الحفيظ محمد رحمه
ع ع.ك
الكتاب في العصر العباسي الأول (132 - 147)/ عفاف عبد الحفيظ محمد رحمه-
الخرطوم: دار آريثيريا 2021
ص؛ 24سم
ردمك : ISBN: 978-99988-804-7-4
1. المؤلفون العرب- تاريخ. 2- الدولة العباسية أ. العنوان

حقوق النشر محفوظة للمؤلف
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه كنسخة إلكترونية أو نقله بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلف .

إن دار إريثيريا للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن أراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الأراء والأفكار الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار.

دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution
جوال: 00249910785855 - 00249121566207
arithriaforpublishing@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمدالله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد،

القارئ الكريم،

سلسلة الدراسات التاريخية هي مجموعة من الدراسات والبحوث العلمية الرصينة الهادفة، عملت دار آرثيريا للنشر والتوزيع على تبنيها والاهتمام بها ونشرها؛ خدمة للبحث العلمي في مجال الدراسات الانسانية والبحوث التاريخية. وبين يديك القارئ الكريم اول إصدارات هذه السلسلة وهو كتاب الدكتورة/عفاف عبد الحفيظ محمد رحمه، بعنوان: الكُتّاب في العصر العباسي الأول: دراسة في النظم والثقافة والمجتمع (132- 247 هـ/ 749 861-م)، وهو كما ترون دراسة تقع في حقل التاريخ الإسلامي، وتدرس جماعة الكُتّاب والوزراء في العصر العباسي الأول فترصد ادوارهم في السياسة والثقافة والمجتمع في ذلك العصر. وسيجد القارئ انها سياحة فكرية وتاريخية ممتعة بين النظم بأصولها وترتيباتها، والسياسة بنكباتها ومآزقها، والثقافة بتجلياتها وتأثيراتها، والمجتمع بطبقاته واعياده، والقصور برسومها وتقاليدها، والناس بأزيائهم ومطاعمهم ومشاربهم. ولجودة العمل وجدته، ولما بذل فيه من جهد كبير ومثابرة؛ نتوقع أن يجد القبول والاستحسان من المختصين والمفكرين والباحثين في مجال الدراسات التاريخية بمختلف توجهاتهم.

القارئ الكريم:

ان دار آرثيريا للنشر والتوزيع اذ تثمن المجهودات العلمية لجميع الباحثين داخل وخارج الوطن العربي، تؤكد بأنها سوف تعمل بكل جد واجتهاد على توسيع قاعدة النشر العلمي وإتاحته عبر الدار وشركائها، لنشر البحوث التي تسهم في رفد المكتبة العربية والعالمية بالجديد المفيد وبالدراسات الاصيلة والهادفة. القارئ الكريم يؤمن العالم اليوم بالعمل الجاد والبحوث العلمية الرصينة ذات المردود الايجابي على الفرد والمجتمع، ومن خلال هذا المبدأ سنعمل دائما بحول الله كي تكون الدار منبراً علمياً يشار إليه بالبنان. ومن الله نرجو التوفيق واياه نسأل الاعانة.

إهداء

إلى والدي الحاج عبد الحفيظ محمد رحمه

(معلمي الأول والى الابد)

تقبلك الله في الصالحين

واسكنك الجنة في اعلى عليين

مع الشهداء والصديقين

اللهم امين

تـقـديـم:

إنـه لمـن دواعـي سروري واعتـزازي أن أقـدم لهـذا الكتـاب المعنـون الكُتّـاب في العـصر العبـاسي الأول (دراسـة في النظـم والثقافـة والمجتمـع 132-247هـ 749-861م). ويدفعنـي في ذلـك أن مؤلـف هـذا الكتـاب هـي الدكتـورة عفـاف عبـد الحفيـظ محمـد رحمـه التـي تعـد مـن أميـز الأكاديميـين ولهـا مسـتقبل واعـد في إغنـاء المكتبـة العربيـة الاسـلامية بالمزيـد مـن المؤلفـات في مجـال التاريـخ الإسـلامي الـذي تهـدده غوائـل الآخـر. ودافعـي الثـاني خلـف هـذا التقديـم هـو أن دراسـة النظـم الاسـلامية تمثـل مدخـلا مهـماً للغايـة لفهـم التيـارات المهمـة والعنـاصر الخفيـة التـي أثـرت في المجتمـع الاسـلامي ومـن شـان دراسـتها بتمعـن أن تكشـف لنـا خفايـا الكثـير مـن الحـركات والتطـورات الاجتماعيـة والفكريـة في الدولـة الإسـلامية، وهـي نظـم سـبق بعضهـا الاسـلام حيـث أن النظـم العربيـة في الجاهليـة كانـت منبـع النظـم الإسـلامية الأولي كـما يشـير لنـا شـيخ المؤرخـين الدكتـور عبـد العزيـز الـدوري.

إن افتقـار المكتبـة العربيـة الى الكتـب التاريخيـة النقديـة والتأمليـة في التاريـخ عـلى السـواء يزيـد العتمـة عـلى ماهـي عليـه، وإذ يـكاد التاريـخ بمفاجآتـه أن يكـون هـو الصـوغ العقـلي بسـبب مـا في أحداثـه مـن فـوضى ترخـى بسـدولها أحيانـاً عـلى حاضرنـا، لـذا كان مـن المنطقـي أن يسـتجاب لحاجـة العقـل البـشري التاريخـي في الفهـم العميـق لوقائـع التاريـخ الإسـلامي بشـكل علمـي منهجـي. لقد بـرزت في العصر العبـاسي الأول والـذي بـدأ بعهـد السـفاح (132 – 136 هــ) وانتهـى بعهـد المتـوكل (232 – 247 هـ) متغيرات كـبرى، وبالرغـم مـن ان طبقـة الـوزراء والكُتّـاب هيمنـت عـلى المشـهد العبـاسي إلاّ أنهـا مهـدت السـبيل الى بـروز مظاهـر ثقافيـة كان أميزهـا الترجمـة وهـي أهـم مظهـر ثقـافي في العـصر العبـاسي الأول بالرغـم مـما شـابها مـن تأثـر سـلبي بالثقافـة الاجتماعيـة الفارسـية. ويمكننـا رؤيـة خطـورة تأثيرهـم في أن طبقـة الـوزراء والكُتّـاب جـاءت بعـد الخلافـة مبـاشرة مـن حيـث الأهميـة السياسـية والاداريـة في المجتمع العربي الإسـلامي، وعندمـا تمكنـت عنـاصر طامعـة منهـا في الخلافـة مـن غـير البيـت العبـاسي، البرامكـة مثـلا، فجـر ذلـك صراعاً دمويـاً في ذلـك العـصر كانـت نتائجـه مؤلمـة عـلى الدولـة والمجتمع. سـيجد القـارئ تماثـلاً علميـاً ومنهجيـاً في هـذا الكتـاب وهـو أداء حـاذق اتصفـت بـه الدكتـورة عفـاف مؤلـف هـذا الكتـاب، فقـد اسـتخدمت مصادر أصليـة أعانتهـا في ترصـين هـذا المحتـوي الـذي بـين أيديكـم، ولم تبخـل برؤيتهـا النقديـة وإثرائهـا الفكـري في صفحـات هـذا المؤلـف الـذي يعـد إضافـة نوعيـة للمكتبـة العربيـة والاسـلامية.

أ. د. أبوبكر حسن محمد باشا
جامعة الزعيم الأزهري
25 /2021/9م

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الاهداء	4
تقديم	5
فهرس موضوعات الدراسة	6
مقدمة	9
المصادر والدراسات التي اهتمت بالكتابة والوزارة	24-15
الفصل الاول: الكتابة والوزارة	
الدواوين	27
نشأة الدواوين في الدولة الاسلامية	28
أنواع الدواوين	29
تعدد الدواوين وتشعبها	38
الكـتـــابة والكُتّاب	40
تاريخ الكتابة في الدولة الإسلامية	41
الكاتب: هيئته وثقافته	46
انواع الكُتّاب في العصر العباسي الاول	48
الوزارة والوزراء	51
تاريخ الوزارة في الدولة الاسلامية	52
شـــروط الوزارة	54
انـــواع الوزارة	55

الموضوع	الصفحة
صيغة تقليد الوزارة	56
مراسم تقليد الوزراء	56
رسوم الوزير في الزي والعمل	57
دور وصلاحيات الوزير في العصر العباسي الاول	58
التدرج في وضع الكاتب	58
الكتابة والطريق الى الوزارة	59
الفصل الثاني: صلاحيات ونكبات الوزراء	
أبو سلمة الخلال في مستهل العصر العباسي الاول	71
يعقوب بن داؤود في عهد المهدى	84
البرامكة في عهد الرشيد	91
يحي بن خالد البرمكي ودوره في اخذ البيعة لهرون الرشيد	95
الدور السياسي للبرامكة في دولة الرشيد	100
نكبة البرامكة في سنة 187هـ واسبابها	106
الفضل بن سهل في عهد المأمون	114
دور الفضل بن سهل في بيعة المأمون	114
دور الفضل بن سهل في دولة المأمون	119
دور الفضل بن سهل في البيعة لعلى بن موسى الرضا	121
الفصل الثالث: التثاقف والترجمة والتأليف	
غلبة الطابع الفارسي في الإدارة والثقافة	129
حركة الترجمة والتأليف	141

الموضوع	الصفحة
ادخال صناعة الورق الى بغداد	145
ترجمة كتب الوصايا والعهود ووضع مؤلفات الفكر السياسي	148
وضع مؤلفات اصول صناعة الكتابة وثقافة الكاتب	153
تطور صناعة ومؤسسة الكتابة	161
تطور رسوم تحرير الرسائل الديوانية	163
الفصل الرابع: طبقة الكتاب وتأثيرها في مجتمع بغداد	
الحياة والثقافة في بغداد خلال العصر العباسي الأول	173
طبقية المجتمع في العصر العباسي الأول	177
طبقة الكُتّاب	179
طبيعة مجتمع الكُتّاب	182
ظهور العائلات التي احتكرت صناعة الكتابة	185
اتخاذ الكتابة وسيلة للتواصل الاجتماعي	189
علاقات الخلفاء ووزرائهم	196
الوزراء وسيط بين الحضرة والعلماء والادباء	201
الوزراء والشعر والشعراء	206
الخاتمة	211
المصادر والمراجع	213

مقـــدمـــة:

تستطلع هذه الدراسة الحياة السياسية، والثقافية، والاجتماعية في العصر العباسي الأول (132-247هـ 749-861م)، من خلال دراسة جماعة الكُتّاب في العصر العباسي الأول، وفهم الأدوار المختلفة التي لعبها الكُتّاب والوزراء في هذا العصر. يشير مصطلح (الكُتّاب) الى فئة معينة من المختصين بالتدبير الكتابي لشئون الدولة منذ نشأة الدولة الإسلامية، كانوا يقومون بأمر دواوين الادارة وكانوا يمثلون نخبة المثقفين في الدولة الاسلامية. ويشير مصطلح (الكِتابة) الى الكِتابة كفن وصنعة او صناعة رافقت دواوين الادارة في الدولة الإسلامية منذ بداياتها الاولي، وتدرب عليها وعلى فنونها وقوانينها وتقاليدها الكُتّاب الذين عملوا في هذه الدواوين وفق شروط ومؤهلات معينة. كان الكُتّاب في العصر العباسي ركن أساسي من مؤسسة الخلافة بمالهم من أثر فعلى في ادارة الدولة وكانت لهم هيئة ومهام وثقافة لا يشاركهم فيها أحد. والعلاقة بين الوزراء والكُتّاب علاقة وثيقة الصلة، فجميعهم كانوا في طبقة اجتماعية واحدة تأتى بعد الطبقة الحاكمة مباشرة، كان الكُتّاب هم الكثرة الغالبة فيها والوزراء قلة. وذلك لان الوزراء كانوا هم من يثبتون جدارة وكفاءة استثنائية من الكُتّاب فيرتقون في أعمالهم ويتم ترشيحهم للوزارة. فالوزراء اذن هم نخبة الكُتّاب وكان الوزير يسمى (كاتب التدبير). ويمثل (كاتب التدبير) اعلى مراتب صناعة الكِتابة وكان لا يصل الى هذه المرتبة الا اعداد قليلة من الكُتّاب القديرين الذين كانوا على الاغلب قد مارسوا صنعتهم مدة طويلة واكتسبوا خبرة واسعة في مختلف جوانب الحياة العامة في الدولة. ولقد لعب الكُتّاب والوزراء أدواراً محورية في المجالات السياسية، والثقافية، والاجتماعية في العصر العباسي الأول. وستتناول الدراسة موضوعي الكِتابة والوزارة لما لهما من أهمية وعلاقة وقيمة تخصصية إدارية.

عرف العرب الكِتابة منذ الجاهلية، إلا أنها صارت صناعةً وفناً منذ عهد الفتوحات الإسلامية التي أضافت إلى حظيرة الدولة الإسلامية أراضي وبلدان جديدة. وكانت هذه البلدان ذات نظم إدارية أفاد منها المسلمون فاعتمدوا الدواوين لحساب الجزية وتنظيم أعطيات الجند. كان فن الكِتابة في البداية مرتبطاً بالموالي، ونشأ بمعزل عن اللغة العربية في البلدان المفتوحة حديثا. ثم ما لبث أن ارتبط بها بعد تعريب الدواوين في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (65-86هـ). انضم الكُتّاب من العرب في هذه المرحلة للعمل بهذه الدواوين، وتطور دور الكاتب واتسعت صلاحياته خلال عهد الدولة الأموية إلى مستهل العصر العباسي، فأصبحت للكاتب مكانة مرموقة مع ازدياد الحاجة للأعمال الكتابية في العاصمة والولايات.

كان من مطلوبات عمل الكاتب التمتع بثقافة معرفية عالية، وامتلاك مهارات عديدة كامتلاك ناصية اللغة العربية، ومعرفة أمثال وأشعار العرب، وخطبهم وأيامهم، ليكون قادراً على الاستشهاد بها والاقتباس منها وتضمينها وقت الحاجة. ذلك بجانب حفظ القرآن الكريم، والحديث الشريف، والإلمام بالأحكام السلطانية في الإمامة، والإمارة، والقضاء، والحِسْبة، ومعرفة أحوال الأمم السابقة، ومناظراتهم ومحاوراتهم وعاداتهم. وكان يتوقع منه أيضا معرفة لغة أخرى غير العربية تزيد من مقدراته على التواصل في مجتمع متعدد الشعوب والجنسيات. وكل هذا

يعني أن الوصول إلى مرتبة الكاتب لم يكن بداية بالمهمة السهلة؛ فلابد له من أن يكون موسوعيَّ المعرفة، غزير العلم، جمّ الثقافة. وكان الكُتّاب يمتحنون امتحاناً دقيقاً، تتبدّى من خلاله معرفتهم الأدبية والفكرية قبل أن يتم قبولهم للعمل في الدواوين. وكان من يلتحق بهذه الدواوين من الكُتّاب يحرص على تجويد عمله، فإذا أظهر مهارة أمكنه أن يترقى إلى رئاسة الديوان الذي يعمل فيه. فإذا ما اجتهد في أعماله قد يصبح رئيساً لمجموعة من الدواوين، وقد يصبح والياً على أحد الأقاليم أو يلتحق بخدمة أحد القادة أو الولاة، وإذا أثبت كفاءة وجداره وصادف حظاً جيدا، يصبح وزيراً للخليفة.

بنهاية العصر العباسي الأول تطورت الكِتابة باعتبارها فناً وصناعة بلغت قمة الرقي والكمال، وأصبحت الصنعة التي يمتهنها كل من طمحت نفسه للغايات العظيمة، يحدوهم ما كانت تدره من أرزاق وحظوة. فصارت الكِتابة في العصر العباسي الأول الجسر الذي يصِل الكاتب إلى أرفع المناصب، وأصبح للكاتب في هذا العصر شخصية مؤثرة، وارتقى ليكون مؤهلا لأعمال الإدارة والسياسة في آن معا، مدعوما بثقافة دينية وعقلية وبمعرفة حرفية واسعة.

أما مؤسسة الوزارة في الدولة العباسية فكانت بعد الخلافة مباشرة من حيث الأهمية السياسية والإدارية، وأسهمت بدور فاعل في توجيه نظام الدولة العربية والإسلامية ورسم سياستها العامة. نشأت هذه المؤسسة بشكل بسيط وتدرجت في النمو؛ ذلك لأن المؤسسات السياسية والإدارية في الدولة الإسلامية نشأت وتطورت بفعل الحاجة المستجدة لها وتطور مجتمع الدولة الاسلامية ونموه. وبلغت هذه المؤسسة أوج عظمتها وتنظيمها خلال القرن الثالث الهجري حيث رسخت أسسها، وتحددت مفاهيمها، واتسعت سلطاتها، وبانت مؤهلات من يصلح لتقلدها. وبدأت بالضعف والانهيار مع ضعف مركز الخلافة ابتداء من القرن الرابع الهجري، نتيجة لتغول عناصر الجيش على مؤسستي الخلافة والوزارة كلتيهما. ومع ذلك فإن تراث هذه المؤسسة ساهم في تشكيل النظم السياسية والإدارية في الدولة الإسلامية حتى بعد انقضاء العصر العباسي.

لم تكن الوزارة من مستحدثات الإسلام فقد عرفها الفرس، وبنو إسرائيل، والمماليك التي كانت في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام. ويذكر الثعالبي أن ملوك الفرس واليونان والهند قبل الإسلام اتخذت لدولها الوزراء، وكانت لهم في ذلك أوضاع وقوانين. وفي صدر الإسلام، كانت تحيط بالنبي الكريم (ﷺ) جماعة من أجلاء الصحابة وأولو السبق في الإسلام يعاونونه ويدبرون الأمور إلى جانبه. ولم يكن هؤلاء يحملون لقب الوزراء وإن قاموا بأعمالهم، ولم تكن مؤسسة الوزارة رسمية في عهد الرسول(ﷺ) ولم يكن هناك منصب وزير، وسار الخلفاء الراشدون على سنة رسول الله (ﷺ). ففي خلافة أبي بكر الصديق كان عمر بن الخطاب بمثابة الوزير للخليفة ولما افضت إليه الخلافة كان عمر يستشير عثمان وعلي ويستنير بآرائهما ويستعين بهما. وكان عثمان وعلي يقومان بالمعاونة والمساعدة دون أن يسمَى أحدهم وزيرا وقد انتهى العصر الراشدي دون تسمية منصب رسمي للوزير.

لمّا جاء العهد الأُموي اختار الخلفاء الأمويون بعض الرجال البارزين من ذوي الرأي والسياسة ليستشيروهم في الأمور المهمة ويستعينوا بهم في أعباء الحكم. وكان هؤلاء يقومون بأعمال

الوزراء من غير أن يلقبوا بالوزراء، وكان الأمويون يطلقون على هؤلاء المعاونين لقب (الكاتب) أو (المشير). وبرزت في ذلك العصر شخصية (الكاتب) نتيجة لاتساع حدود الدولة وتوسع وتشعب مرافقها الإدارية، وكان الكاتب في غالب الأمر من الموالي ومن العناصر غير العربية من البلاد المفتوحة التي كانت علاقتها بالسلطة الأموية تتسم بالولاء. وكان الكاتب يساعد في تسيير الأعمال الكتابية والحسابية في الدواوين. وأصبحت هذه الشخصية تلعب دورا مهما في الحياة السياسية والثقافية والإدارية. بنهاية العصر الأموي توسعت مسؤوليات الكُتّاب وتعددت مهامهم وأصبح الخليفة الأموي يعتمد عليهم في الكثير من شؤون الدولة. وأصبحت علاقة الكُتّاب بالسياسة علاقة وثيقة، إذ أصبحوا لسان حال الدولة، والمعبّر عن سياستها، وكان لمنزلتهم أثر لا يجحد في سياسة الدولة، والتأثير في شؤون الحكم.

لما انتقلت الخلافة إلى العباسيين، اتخذوا نظم الحكم عن الفرس ومنها الوزارة. وأصبح (الوزير) يمارس الأعمال ويطَّلع بالمهام التي كان يطلع بها الكاتب في العصر الأموي. ويورد المسعودي في التنبيه والإشراف عند مبتدأ حديثه عن نظام الوزارة في الدولة العباسية، أنه لما جاء الإسلام ونزل القرآن فيما قص الله تعالى من خبر نبيه موسى في سورة طه الآية 29-32: (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي *اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) استخارت بنو العباس في تسمية (الكاتب) (وزيرا). فالواضح أن الكُتّاب كانوا من موظفي الدولة ممن يحسنون أمور التدبير ويتقنون فنون السياسة ونظام الدولة. وكان الواحد منهم لا يبلغ منزلة الكاتب إلا بعد أن تكون ثقافته ومداركه غاية في الرقي والكمال. ومن ثم صار الخلفاء يختارون من بين هؤلاء الكُتّاب من يسندون إليه الوزارة. ويبدو أن الخلفاء العباسيين حين أقروا نظام الوزارة راعوا تطور الدولة واتجاهها نحو التمركز وتوزيع السلطات. وإن كانت سلطات الوزارة لم تتحدد بصورة واضحة في بداية العصر العباسي الأول إلا أنها نمت وتدرجت حتى اتخذت شكلها النهائي في أواخر العصر.

بمجيء عهد الخليفة العباسي المهدي (158-169هـ) كانت الأمور السياسية والإدارية قد استقرت في الدولة. واستقر كذلك منصب الوزارة، وأصبح الوزراء يعينون تبعا لحذقهم، وعلمهم، وخبرتهم، واستقامتهم، وكفاءتهم الإدارية والكتابية، فلعبت هذه المؤهلات الشخصية دورا مؤثرا في تعيينهم، ونتيجة لهذا الاهتمام بمؤهلات الوزير كان من الطبيعي أن يُعطى صلاحيات واسعة في النظر في الدواوين والشؤون الإدارية والسياسية الأخرى. واتسعت بذلك سلطة الوزراء، واستطاع بعضهم أن يساهم في تنظيم الأمور المالية والاقتصادية وإرساء نظمها وقوانينها، مثل عبيد الله معاوية بن يسار[1] وزير الخليفة المهدي الذي ساهم في وضع أحكام الخراج وأدخل عليه نظام المقاسمة، وكان أول من وضع كتابا في أحكام الخراج ما لبث أن تبعه فيه كُتّاب كثيرون.

سار نظام الوزارة نحو الرسوخ وبلغ أقصى مدارجه في خلافة هارون الرشيد (170-193هـ) وأصبحت الوزارة حينئذ أرفع مرتبة وأعلى مقاما؛ لاتساع سلطات الوزير التي شملت أمور

(1)معاوية بن عبيد الله بن يسار الأشعري الكاتب، وصف بالكمال وحزم الرأي، ولاه المهدي وزارته سنة 159هـ وكان يعتمد على رأيه وسياسته وحسن تدبيره.

الدواوين والسياسة فصار اسمه جامعا لخطتي السيف والقلم. وخير مثال لهذا النوع من الوزراء الذي تمتع بصلاحيات مطلقة في العصر العباسي، يحيى بن خالد[1] في عهد الرشيد. وكان لظهور فكرة الوزارة واشتراك الفرس في النظام الجديد ثم ظهور وزراء أقوياء فيما بعد مثل البرامكة، أثره الكبير في تكوين نظام الوزراء الحقيقي ورسوخه أساساً للإدارة العباسية. وباستقراء تاريخ العصر العباسي الأول نستطيع إدراك أن وزراء العصر العباسي كان معظمهم من الفرس، وكانوا يهيمنون على مرافق الدولة المختلفة. فالوزير هو رئيس الدواوين ورئيس الكُتّاب وهو مساعد الخليفة، بل قد ينوب عنه في حكم البلاد. وكانت من واجباته أن يُنصِّب العمال ويُشرف على الضرائب، ويجمع في شخصه السلطتين المدنية والحربية. هذا بجانب نصح الخليفة ومساعدته في الواجبات العادية. ومما يسترعى الانتباه تقديم الوزير على القواد وخضوعهم له، فقد اقتضت مراسم الوزارة أن يسير الوزير الجديد إلى دار الوزارة وبين يديه الأمراء والقادة والعلماء والقضاة والفقهاء والأعيان. وفى بعض الأحيان كان الناس يخرجون لاستقبال الوزير الجديد إكراما وتعظيما له.

على الرغم من هذه الصلاحيات الواسعة التي أعطيت للوزراء إلا أن الخليفة كان يستطيع أن ينتزع صلاحيات الوزير متى ما أراد ودونما تردد، في مظهر من التنكيل تشير إليه المصادر بـ (النكبة). وتتعدد أوجه (النكبة) بين القتل، أو السجن، أو السجن والتعذيب، أو تصفية الأموال. وقد ينكب الخليفة أسرة الوزير فيقتل أبناءه أو إخوته أو أقاربه او عماله ممن استعان بهم في الأعمال، أو يسجنهم ويستصفى أموالهم. وقد شكلت (النكبة) أهم مظاهر علاقة السلطة العباسية بوزرائها خلال العصر العباسي الأول. وكان الخليفة يلجأ لهذه الإجراءات عندما تبرز ظاهرة تنازع الصلاحيات، فيحصل تصادم بين سلطة الخليفة وصلاحيات الوزير. وقد يلجأ الخلفاء إلى إعطاء الوزير صلاحيات محدودة منذ البداية، إذ يجتهد الخليفة دائما للحيلولة دون خروج السلطة إلى مساعديه الذين لا يأمن انحرافهم عنه أو انقلابهم عليه. وهذا مما يوضح لنا أسباب النكبة التي حاقت بالكثير من وزراء هذا العصر، ويفسر اتخاذ بعض الخلفاء الأقوياء -مثل أبو جعفر المنصور- وزراء بدرجة (كُتّاب)، حيث تكون الصلاحيات التي تعطى لهم محدودة للغاية، وإشراف الخليفة بنفسه على جميع أموره.

كان منصب الوزارة مرتبطا ارتباطا عضويا بالخلافة ومنها يستمد سلطته وتفويضه، لذلك نجد أن منصب الوزارة فقد أهميته وبدأ بالتدهور التدريجي مع تدهور مركز الخلافة ابتداء من القرن الرابع الهجري. وترافق ذلك مع سيطرة العناصر العسكرية على أمور الدولة في أعقاب مقتل الخليفة العباسي المتوكل على الله في سنة 247هـ وليس ثمة شك في أن تدهور مركز الوزارة وتعرضها للضعف والانحطاط أمام القوة الضاربة للجيش كانت من أهم الأسباب التي أدت إلى ضياع وحدة الدولة واقتطاع أطرافها. وقد ساعد في ذلك -من ضمن أسباب اخري- غياب دور الوزير، وتعاقب وزراء ضِعاف على الإدارة، أضافة الى ان نكبات الوزراء وتغييرهم المستمر أثر سلبا على الجهاز الإداري حيث كانت يؤدى في كل مرة الى تغيير الطاقم الإداري من اوله الى اخره تبعا

(1)يحي بن خالد البرمكي (120-190هـ): كان كاتبا ومؤدبا للرشيد قبل أن يُولى الخلافة وكان الرشيد يعتبره أبا له. وقد ساند الرشيد حين حاول الهادي أن يقصيه عن ولاية العرش. وحين وليَ الرشيد الخلافة جعله وزيرا له ونال أبناؤه جعفر والفضل من الحظوة ما نالوا في دولة الرشيد حتى نكبهم بعد سبعة عشر عاما من خلافته فحبس يحي والفضل وقتل جعفر.

لتغير الوزير وادي ذلك كله الى شل الجهاز الإداري وتصدع كيان الدولة فتلاشى تأثير مؤسسة الوزارة في سياسة الدولة او كاد.

لعب وزراء وكُتّاب العصر العباسي الأول أدواراً سياسية، وثقافية، واجتماعية مهمة انبثقت من الصلاحيات السياسية والإدارية التي أعطيت لهم، ومن علاقاتهم المباشرة مع الخلفاء. كما أثرت خلفياتهم الثقافية في شمول وأهمية هذه الأدوار. وبرز الوزراء في المجال السياسي أكثر من الكُتّاب؛ إذ كان الوزراء مصدراً للقرار السياسي، ومارسوا في المجال السياسي أدواراً غاية في الأهمية أثَّرت على سياسة الدولة العامة. بينما كان المجال الثقافي هو المجال الطبيعي الذي برع فيه عامة الكُتّاب فتنفسوا وأبدعوا فيه.

ساهم كُتّاب ووزراء العصر العباسي الأول الذين كان جلّهم من الفرس، في صبغ الحياة والإدارة بالطابع الفارسي. وأثروا في المجتمع وشكلوا الحضارة بما ورثوه عن الحضارة الفارسية، فصبغوا الدولة العباسية بصبغتهم وأدخلوا فيها نظمهم في الحكم والإدارة. كما أدخلوا تقاليدهم وكل مظاهر حضارتهم من أطعمة، وأشربة، وأزياء، وأعياد، وعادات، وتقاليد، ورسوم في الإدارة والبلاط وفي مجتمع الدولة العباسية. ونستطيع أن نلمس مدى التأثير الثقافي الذي ساهم فيه الكُتّاب في المجال الثقافي في هذا العصر في حركة الترجمة التي أثْرت الحضارة العربية بمعارف الأمم الأخرى، وساهمت في رقي الحضارة في العصر العباسي الأول. كما شهد العصر إدخال صناعة الورق إلى بغداد، ما أحدث نقلة ثقافية هائلة كان من أهم ملامحها ظهور المكتبات وتطور صناعة الورَّاقة: (وتشمل أعمال النسخ، والتصحيح، والتجليد، والتصوير، والخط، والتذهيب، وتزويق الكتب، وبيع الورق والأحبار وسائر أدوات الكتابة)، مما أسهم بدوره في ظهور المصنفات والفهارس والمكتبات وتطور حركة الإنتاج الفكري والتأليف. ولعب الكُتّاب دورا ثقافيا مميزا في هذا العصر تمثل في اضافتهم للثقافة العربية من ناحية النثر الفني وتطور الفكر السياسي. وكان هذا النوع من الأدب نامياً ومعروفاً في الدول ما قبل الإسلام، مثل الدولة الفارسية واليونانية. وقد ترجم الكُتّاب خلال العصر العباسي الأول الكثير من المؤلفات الفارسية والهندية التي تتصل بناحية الفكر السياسي وتجلت هذه المنجزات في ترجمات ابن المقفع[1] وفي جهود سهل بن هارون،[2] والفضل بن سهل،[3] وأخيه الحسن وغيرهم. وكان من نتاج هذه

(1)أبو محمد عبد الله بن المقفع (106-142هـ): مفكر ومترجم فارسي ولد مجوسيا واعتنق الإسلام. عاصر الدولة الأموية والعباسية. له مساهمات هامة في الفكر السياسي والنثر. نقل من البهلوية إلى العربية كليلة ودمنة وله في الكتب المنقولة الأدب الكبير والأدب الصغير. راجع سيرته في الفهرست لابن النديم، بيروت: دار المعرفة (د.ت)، ص172

(2) سهل بن هرون بن راهبوني: كاتب ومترجم وفيلسوف وأديب. ولد في البصرة لأسرة فارسية ونشأ في بغداد، تعلم علم الكلام في البصرة وقرأ عدة ترجمات يونانية وفارسية وهندية. ثم ارتحل إلى بغداد أملا في الشهرة فانتهلت عقليته من ثقافات عدة. اتصل ببحيي البرمكي الذي قدمه للخليفة هرون الرشيد فألحقه بالدواوين ثم بدار الحكمة وعينه مشرفا عليها وعلى ما يترجم فيها من كتب أجنبية، ثم تولى مكتبة المأمون. كان فصيحا، حاول تقليد كتاب كليلة ودمنة فالف على غراره قصصا كثيرة مثل (ثعلة وعفراء) و(النمر والثعلب). له مؤلفات عديدة أخرى منها: (تدبير الملك والرئاسة) و(رسالة البخل) التي انتقد فيها الكرم العربي واتهم بسببها بالشعوبية. وله رسائل مجموعة. توفي في 215هـ راجع الجاحظ، البيان والتبيين، بيروت: دار الكتب العلمية 1998، ج3، ص352.

(3) الحسن والفضل ابني سهل: كان الحسن وأخاه الفضل وأباهما من أهل بيت الرياسة في المجوس وأسلموا في زمن هارون الرشيد وقيل في خلافة المهدي. دخل الفضل في خدمة المأمون قبل توليه الخلافة وكان له دور في إحداث الفتنة بين الأمين والمأمون. كان وزيرا للمأمون وحظي عنده وقد استوزر المأمون أخوه الحسن بعد مقتله سنة 202هـ وتزوج المأمون بابنة الحسن المسماة بوران.

المجهودات في الترجمة والتأليف ظهور الكتابات التي يطلق عليها: (مرايا الأمراء)[1] التي تأتي في طليعة الفكر السياسي الذي أبدعه الكُتّاب في هذا العصر. ويقصد (بمرايا الأمراء) النصائح السياسية التي يُسديها الكاتب إلى الحاكم أو وليّ عهده لكي يكون سياسياً ناجحا. وقد حظيت هذه الكتابات باحتفاء بالغ مع أن مصادرها كانت بعيدة كلّ البعد عن أصول الإسلام. وتأتي كتابات ابن المقفع في صدارة هذا النوع من الكتابة السياسية، كما في مؤلفاته: (الأدب الكبير والأدب الصغير)[2] و(كليلة ودمنة)[3]، وكذلك ترجماته عن الفارسية. من ناحية أخرى، ساهم الكُتّاب في وضع المؤلفات التي عُنيت بأصول الكتابة ووضعت القواعد لثقافة الكاتب والتي سميت فيما بعد (أدب الكاتب) أو (أدب الكُتّاب). وكان هذا بداية لتيار أدبي أسس لمؤلفات متخصصة في صناعة الكتابة، ركزت على أصول هذه الصناعة وفروعها ورسومها مما يجب أن يلم به من أراد امتهانها. واستمرت هذه المؤلفات في الظهور حتى عهود متأخرة من العصر العباسي الثاني، وساهم فيها الكثير من الكتاب والمؤلفين. وفي العصر العباسي الأول ساهم الكُتّاب أيضا في وضع الأسس والقواعد والأصول لتحرير الرسائل الديوانية التي عرفت (بقانون الكتابة) مما ساهم في تطور رسوم وأصول كتابة الرسائل الديوانية في هذا العصر وما تلاه.

أما في المجال الاجتماعي، فتتيح هذه الدراسة نظرة متأنية للمجتمع في العصر الأول للدولة العباسية، وتكشف لنا هذه النظرة مدى تأثر هذا المجتمع بالثقافة الفارسية. كما كان المجتمع متمايزا بطبقية معينة ظهرت هي نفسها بسبب تأثير نظم الفرس في الحكم والإدارة. وقد نجح الكُتّاب في مجتمع العصر العباسي الأول في تنظيم أنفسهم في طبقة اجتماعية حازت امتيازات وحقوق معينة في المجتمع. كما حاولوا الحفاظ على امتيازاتهم باحتكار صناعة الكتابة. وخلقوا تقاليد للتواصل والاحتفال بمناسباتهم الاجتماعية عبر الرسائل الإخوانية. وقد حفظ لنا التاريخ توثيقهم لكثير من صلاتهم ومناسباتهم عبر هذه الرسائل. ولعب الوزراء في هذا العصر دور الوسيط بين الخلافة وبين طبقة العلماء والأدباء والشعراء، وكان من أهم ثمرات لعبهم لهذا الدور أن أصبحت بغداد مركزا علميا جاذبا لكل المتأدبين والشعراء والعلماء وطلاب العلم. وقد رحل هؤلاء إليها من كل أقاليم الدولة الإسلامية فخلقوا فيها مناخا علميا وثقافيا مميزا. كما رفعت صلات الوزراء المالية للشعراء وتقديرهم المعنوي لهم من مكانة الشعر والشاعر، فاجتهد الشعراء في تجويد أعمالهم واشتركوا بفعالية في الحياة الحضارية.

(1)مرايا الأمراء: كتابات في الحكمة السياسية والأخلاق والتعاملية. وهو نوع من الفلسفة راج استخدامه في المشرق العربي خلال العصور الوسطى وعرف بأسماء عديدة منها الفلسفة السياسية العملية، أو الحكمة العملية السياسية، أو علم تدبير المنازل.

(2) الأدب الكبير والأدب الصغير: الأدب الكبير هو كتاب نصائح للسلطان، أما الأدب الصغير فهو كتاب نصائح للعامة.

(3) كليلة ودمنة: هي مجموعة قصص رمزية للحيوانات ذات طابع يرتبط بالحكمة والأخلاق، ويرجح أنها تعود لأصول هندية. وقد ترجمها ابن المقفع من اللغة السنسكريتية أي الفارسية القديمة إلى العربية. وهو كتاب يهدف إلى النصح الخلقي والإصلاح الاجتماعي والتوجيه السياسي. فمن خلال القصص يتعرض الكتاب لمبادئ أخلاقية وسياسية هامة مثل واجبات السلطة القضائية، وتوجيهات أصول الحكم، وتوجيهات في السياسة الخارجية، بينما تقدم بعض القصص نوع من النصح الأخلاقي والعظات الفردية المختلفة، راجع كتاب كليلة ودمنة، القاهرة: المطبعة الأميرية 1937م.

المصادر والدراسات التي اهتمت بالوزارة والكتابة:

سأتعرض في هذا الجزء لكتابات بعض المؤرخين التي اهتمت بالوزارة والوزراء والكتابة والكُتّاب، وسألقي نظرة بصحبة القارئ على أهم هذه المصادر والمراجع القديمة والحديثة. هناك من المؤرخين من انفرد بالكتابة عن الوزراء والكُتّاب في مختلف العصور، وفى العصر العباسي على وجه الخصوص. وهذا النوع يعتبر من المصادر المهمة لأنها تصور جانبا من جوانب الحضارة العربية والإسلامية وحلقة من حلقات التاريخ الإسلامي والنظام الإداري فيه. ومع أن عددا غير قليل من المؤرخين القدامى ألفوا في هذا الموضوع، إلا أن ما وصل إلينا من مصادر يعتبر قليلا إذا ما قورن بكتب التاريخ العامة، وبأهمية هذا الموضوع وحيويته في إعطاء صورة واضحة عن النظام الإداري والتطور الثقافي في الدولة الإسلامية. بالنسبة للدراسات الحديثة فقد لاحظت أن موضوع الكتابة حظي بالإضافة لاهتمام باحثي التاريخ باهتمام الباحثين في اللغة العربية في ربطهم له بتطور فنون النثر في العصر العباسي الأول. ولنبدأ بأهم المصادر القديمة التي اختصت بهذا الموضوع:

كتاب الوزراء والكُتّاب للجهشيارى المتوفى في 331هـ :

هو ابو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى. مؤرخ من المؤرخين الثقاة الذين يعتمد عليهم في التأريخ للدولة العباسية. عاصر الجهشيارى المسعودي المتوفى 345هـ والطبري المتوفى 310هـ وعاصر الجهشيارى علي بن عيسى الذي تولى الوزارة للمقتدر في سنة 301هـ[1] وتوفى الجهشيارى في العام 331هـ[2] يعتبر كتابه (الوزراء والكُتّاب) مرجعا قيما فصل فيه تاريخ الكتابة منذ تأسيس الدولة الاسلامية في عهد النبي (ﷺ)، وتاريخ الوزارة في الدولة الاسلامية الى نهاية القرن الثالث الهجري. احتوى الكتاب على ادب وتاريخ جماعة الكُتّاب والوزراء حتى اوائل خلافة المأمون عبد الله بن الرشيد العباسي. وتناول الجهشيارى فيه أيضا تاريخ الخلفاء بحكم اتصالهم بالكُتّاب والوزراء، فتحدث عن حياة القصور، ومظاهر الحضارة الفارسية التي اقتبسها المسلمون عن الفرس وخاصة في النواحي السياسية والادارية.

يتمتع هذا المصدر بميزة هامة وهي أن المؤلف لم يلجأ الى سرد الاحداث سردا اجماليا بل عمد إلى ابراز تفاصيل حياة الاشخاص الذين كتب عنهم وصور حياتهم ومواقفهم سواء كانوا من الخلفاء او الوزراء او الكُتّاب. ولذلك فان كتابته تقدم الشخصية التاريخية في مرتبة متقدمة عن الحدث التاريخي. يحتوي الكتاب على معلومات هامة عن نشأة الدواوين الاسلامية والكُتّاب الذين احتلوا مناصب ادارية مهمة في الفترة التي أرخ لها المؤلف. كما حوى نصوصا مهمة حول الكُتّاب أنفسهم وحول كتاباتهم كرسالة عبد الحميد الكاتب[3] الى الكُتّاب والتي تعتبر مرجعا مهما

(1) ضيف الله يحي الزهراني، النفقات وادارتها في الدولة العباسية، مكة: مكتبة الطالب الجامعي 1986م، ص22

(2) احمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، بيروت: دار النهضة العربية، (د.ت)، ص 206

(3) عبد الحميد الكاتب: هو عبد الحميد بن يحي بن سعد الكاتب مولى العلاء بن وهب العامري القرشي، من أصل فارسي، قيل ان جده من سبى القادسية وانضم الى عامر بن لؤي بالحلف والموالاة وانتسب اليه، ولد في حوالي سنة 80 او 81هـ في

في تطور الكتابة الديوانية، وفي تكوين ثقافة الكاتب اواخر العصر الأموي وبداية العصر العباسي. كذلك فان الكتاب يوفر تفاصيل مهمة عن اسماء وشخصيات القائمين بالأعمال الادارية والدواوين التي عملوا فيها مع توفير تفاصيل عن علاقة الكاتب بالخليفة او بالوزير او بالعامل الذي انصرف الى خدمته من ولاة الاقاليم او الدواوين. من اجل ذلك كله يعتبر هذا الكتاب من الكتب القيمة والمهمة في تاريخ النظم الإسلامية. وهو حافل بذكر الكثير من الحوادث التاريخية التي لم تذكر فيما عاصره من مؤلفات الا بإيجاز. وقد نقل عنه الكثير من المؤرخين مثل المسعودي في مروج الذهب وابن خلكان في وفيات الاعيان والحموي في معجم البلدان واشاروا الى نقلهم عنه. فيما نجد ان في كتاب الفخري في الآداب السلطانية لابن طباطبا نقول كثيرة عنه لم يذكر ابن طباطبا انه نقلها عنه واغفل نسبتها الى الجهشياري.[1] ألف العلماء في تأريخ الوزارة والكُتّاب والوزراء كتبا كثيرة قبل الجهشياري وبعده، ولكن العلماء يذكرون ان كتاب الجهشياري من اجل هذه المصنفات واكثرها فائدة. يقع الكتاب في جزء واحد وقد طبع في القاهرة بمطبعة عبد الحميد احمد حنفي في العام 1938م وحققه وراجع أصله وصدره ووضع مقدمته وفهارسه الاستاذ عبد الله اسماعيل الصاوي.

كتاب الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي المتوفى في 337هـ:

هو قدامة بن جعفر بن قدامة ابن زياد البغدادي الكاتب. ترجم له ابن النديم في كتابه الفهرست وابن الجوزي في المنتظم وابو الفداء في العطايا السنية وغيرهم. على الرغم من ذلك فان كل ترجماته لا تعطى الكثير من المعلومات عن حياته. وكل الذي نستخلصه منها انه كان نصرانيا فاسلم على يد المكتفي بالله واشتهر بالكتابة والحساب والمنطق والبلاغة ونقد الشعر. وانه كان أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء وممن يشار اليه بالبنان في علم المنطق.[2] وذكر ياقوت الحموي انه كتب لابن الفرات ويقال انه كتب لمعز الدولة البويهي وتوفى في ايام الخليفة المطيع العباسي. وله كتب كثيرة منها كتاب (الخراج)، و(نقد الشعر)، و(صناعة الجدل). اما كتابه

دمشق او قريبا منها. كان مثقفا بثقافة عربية وفارسية ويونانية وقد علم نفسه بالاطلاع والقراءة في كل المعارف التي كانت متاحة في عصره. امتهن في بداية حياته حرفة التعليم فلم يستقر في بلد وعاش متنقلا ثم عمل مؤدبا بمعنى اختص بتعليم طلاب بعينهم وتثقيفهم وتعليمهم ثم التحق بديوان الرسائل الأموي واختص بمروان بن محمد اخر خلفاء بنى امية. لقب بعبد الحميد الكاتب او الأكبر تعظيما لدوره في تطور فن الرسائل في العهد الأموي ومن المؤرخين من يعتبره الاستاذ الاول لأهل صناعة كتابة الرسائل وتتلمذ على يديه سالم كاتب هشام بن عبد الملك وغيره من كتاب العصر الأموي، له رسائل شهيرة اهمها رسالته الى الكتاب وهى رسالة في الوصايا تبين ما كان يتوقع من الكاتب من ثقافة وصفات. قتل مع مروان بن محمد في صعيد مصر في سنة 132هـ راجع فيصل حسين طحيمر العلى، فن الترسل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الادب العربي، جامعة النجاح الوطنية بفلسطين، 2001.

(1) الجهشيارى (ابوعبد الله محمد)، الوزراء والكتاب، القاهرة: مطبعة عبد الحميد حنفى،1938، المقدمة.

(2) ابن النديم، (محمد بن اسحق)، الفهرست، بيروت: دار المعرفة (د.ت)، ص188

الموسوم (الخراج) فقد الفه في القرن الرابع الهجري ويرجح انه الفه بعد سنة 316هـ بقليل حيث اشار ابو حيان التوحيدي (توفى 414هـ)[1] ان قدامة عرض كتابه (الخراج) على علّى بن عيسى سنة 320هـ وان علىّ بن عيسى امتدحه قائلا: «ما رأيت احدا تناهى في وصف النثر بجميع ما فيه وعليه غير قدامة بن جعفر في المنزلة الثالثة من كتابه.»[2]

رتب قدامة كتابه على ثماني منازل خصص كل منزلة منها لبحث موضوع مستقل عن غيره. ويبدو ان المنازل الاربعة الاولى قد فقدت، وكان المستشرق الهولندي دي خويه (توفى 1909م) قد حقق المنزلة السادسة وهي في (ذكر ديوان البريد والسكك والطرق الى نواحي المشرق والمغرب) ونشرها في 1898م مطبعة بريل في ليدن بعنوان (نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة)، ملحقا له بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة (توفى 300هـ). في ثمانينات القرن الماضي حقق الدكتور مصطفى الحيارى المنزلة السادسة منه ونشرها في العام 1981م. وانبرى الدكتور محمد حسين الزبيدي في نفس العام لتحقيق بقية المنازل فحقق المنازل الاربعة الاخيرة وهي: الخامسة والتي تحدث فيها قدامة عن الدواوين، والسادسة التي تحدث فيها قدامة عن دراسة جغرافية الارض، والسابعة التي تحدث فيها عن دراسة وجوه الاموال وشئون المجتمع الإنساني واسباب قوته وعوامل ضعفه وانحطاطه وتدهوره، والثامنة التي تحدث فيها عن نظم الحكم في البلاد. وقام الزبيدي بنشر الكتاب مع مقدمة وصف فيها مخطوط الكتاب وقدم فيها للمؤلف وذكر ضياع المنازل الاربعة الأولى. وأوضح الزبيدي انه يبدو من حديث قدامة في المنزلة الخامسة انه كان قد عالج في المنزلة الثالثة امر البلاغة واوجه تعلمها وفى الرابعة ذكر مجلس الانشاء او ديوان الانشاء اما المنزلتين الاولى والثانية فلم يعرف ما هي الموضوعات التي عولجت فيهما.

نقل قدامة في كتابه (الخراج) عن فتوح البلدان والمسالك والممالك لابن خرداذبة كما ذكر اراء كثيرة لكثير من الفقهاء كابى حنيفة ومالك بن انس وابى يوسف وزفر وسفيان الثوري.[3] والكتاب عموما من المصادر المهمة للغاية فالمؤلف ينتمي لطبقة الكُتّاب. والكتاب يهتم بشكل من اشكال الادب راج في القرن الرابع الهجري وسمى (ثقافة الكاتب) وهي انواع المعارف التي يمكن ان يحتاجها الكاتب في صناعته. كما ان قرب عهد المؤلف بالفترة موضوع البحث جعلت منه مصدرا هاما للمعلومات وعلى وجه الخصوص بالنسبة للمواضيع التي تمت معالجتها في المرتبة الخامسة، وهي تنظيم الدواوين وطريقة عملها فقدمها بشكل عمومي احيانا وأحيانا اخري بتفاصيل دقيقة وتحدث عن تطور طبقة الكُتّاب وثقافتهم.

(1) ابو حيان التوحيدي: هو على بن محمد بن العباس التوحيدي البغدادي: فيلسوف، متصوف، واديب من اعلام القرن الرابع الهجري. عاش معظم حياته في بغداد واليها ينسب. له عدة مؤلفات تمتاز بالتنوع والموسوعية منها: الامتاع والمؤانسة، الذخائر والبصائر، الصداقة والصديق، واخلاق الوزيرين وغيرها.

(2) ابو حيان التوحيدي (على بن محمد بن العباس)، الامتاع والمؤانسة، تحقيق احمد امين واحمد الزين، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1944م، ج3، ص 145-146

(3) قدامة بن جعفر الكاتب، كتاب الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، بغداد: دار الرشيد للنشر 1981م، ص 8

كتاب رسائل الجاحظ لأبي عمرو الجاحظ المتوفى في سنة255هـ:

هو ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي (159-255هـ). كان من كبار ائمة الادب في العصر العباسي. وهو صاحب كتاب (الحيوان) و(التاج) و(البيان والتبيين). وقد تراوحت مؤلفاته بين علم الكلام والادب والدين والفلسفة والتاريخ والسياسة والاخلاق والنبات والحيوان والصناعة والنساء وغيرها. كانت مؤلفات الجاحظ كثيرة حتى زعم الجوزي انها بلغت 360 كتابا تناول فيها مواضيع شتى على غير وحدة في الجوهر او تسلسل في المنطق.[1] ولد الجاحظ في خلافة المهدى ثالث الخلفاء العباسيين وتوفى في خلافة المهتدي بالله العباسي. فيكون بذلك قد عاصر المهدى والهادي والرشيد والامين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى بالله. وقد عاصر الجاحظ القرن الذي كانت الثقافة العربية فيه في قمة ازدهارها ومجدها فهو شاهد عيان على عصره بحق اضافة الى عقليته الناقدة والتي تجلت أكثر ما تجلت في كتابه (الرسائل) الذي نحن بصدد تقديمه.

يحتوي كتاب الجاحظ (الرسائل) على عدة رسائل ادبية وسياسية واجتماعية. ولكن الرسالة التي تهمنا في هذه الدراسة هي (رسالة ذم اخلاق الكُتّاب). وفيها يورد الجاحظ معلومات عن طبقة الكُتّاب ومراكزهم، وارزاقهم، ونفسياتهم، وحبهم للكسب والترقي في دواوين الدولة، وتحاسدهم في ذلك، ومحاولتهم الاساءة الى نظرائهم في سبيل ذلك، ونوعية ثقافتهم. وينتقد الجاحظ ميلهم وانكبابهم على العلوم الفارسية واهمالهم دراسة القران والعلوم الدينية. وتعتبر (رسالة ذم اخلاق الكُتّاب) من المصادر القيمة فعلى الرغم من انها مليئة بالروح النقدية الا انها توفر معلومات قيمة عن تكون طبقة الكُتّاب وانواع اعمالهم ومصادر ثقافتهم.

كتاب تحفة الوزارة للثعالبي المتوفى في سنة 429هـ :

هو ابو منصور عبد الملك بن محمد (350-429هـ). وهو صاحب كتاب (يتيمة الدهر) وهو كتاب يحوي الكثير من التراجم المهمة لمن عاصره من الشعراء. لقب بالثعالبي لأنه كان حائكا لجلودها، او لأنه كان فراء. وترجم له ابن خلكان فذكر انه كان من اهم مؤلفي زمانه «وقد سار ذكره سير المثل وضربت اليه اباط الإبل وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب.»[2] اطلع الثعالبي على ما زخر به عصره من آداب وفنون واطلع على ما ترجم الى العربية من ثقافات واحاط بجميع ما صنف من كتب، وحفظ ما تناول الرواة من جيد الشعر والكلام في مختلف الاصقاع. إضافة الى ذلك وعى الادب الإبداعي من الاندلس غربا الى خراسان والتركستان شرقا. ووعى الى جانب ذلك انواع الفنون والآداب المزدهرة في بلاط الدولة البويهية في العراق وفارس والسامانية في التركستان والحمدانية في حلب والفاطمية بمصر والمروانية في الاندلس. ولم يترك الرجل صنفا من صنوف الفكر الا وعاها، ولم يترك كتابا صنف الا اطلع عليه واودعه بطون كتبه واسفاره.

(1) جميل جبر: الجاحظ ومجتمع عصره في بغداد، بيروت: دار صادر (د.ت)، ص 14

(2) ابن خلكان (ابى العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابى بكر)، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، بيروت: دار صادر 1972، ج3، ص 178-180

كان الثعالبي على علاقة طيبة بأدباء عصر مثل الباخرزى صاحب كتاب (دمية القصر) الذي بادله رسائلا في الاخوانيات. وكان على علاقة جيدة مع حكام عصره، وكان كريم المنزلة عندهم، عاش في كنفهم وألف الكتب برسمهم واهداها لهم ونال من ذلك الجوائز والاعطيات. كان الثعالبي اضافة الى ذلك شاعرا صافي الديباجة لطيف الخيال، خفيف الروح، بعيدا عن التكلف. وكان كاتبا متخيرا للفظ سهل الاسلوب وله أكثر من ثمانين كتابا تدور كلها حول اللغة والادب والتاريخ. [1] ومن كتبه المطبوعة: (محاسن كلام النبي والصحابة والتابعين وملوك الجاهلية)، طبع في ليدن 1844م وكتابه (الاقتباس من كلام القران الكريم) تحقيق ابتسام مرهون، طبع في بغداد 1975م وكتابه (التمثيل والمحاضرة) تحقيق عبد الفتاح الحلو، طبع في القاهرة 1961م وغيرها.[2]

رتب الثعالبي كتابه (تحفة الوزارة) في خمسة ابواب كل باب مقسم الى جملة من الفصول والابواب. خصص الباب الاول للحديث عن أصل الوزارة واشتقاقها. وتحدث فيه عن كلمة الوزارة وورودها في القران الكريم. ومن ثم ذكر ما يتعلق بتاريخ منصب الوزارة عند اليونان والفرس وملوك الهند. ثم ذكر شروط الوزير الصالح. وفى الباب الثاني ذكرا فضلا في فضائلها ومنافعها حيث استشهد بايات وأحاديث شريفة واقوال ابتدأها بوصايا ملوك الفرس. ثم ذكر اقوال بعض وزراء بنى العباس. وعالج في الباب الثالث آدابها وحقوقها وما ينبغي اجتماعه من خصال حميدة وافعال رشيدة وجودة التدبير عند الوزير، وضرورة ان يكون متمتعا بالرأي السديد والنزاهة والشجاعة. ثم ذكر فصلا في حق الملك على الوزير، ثم فصلا في حق الوزير على الملك. اما في الباب الرابع فتحدث عن اقسام الوزارة ورسومها حيث قسمها الى وزارة مطلقة واخرى مقيدة. فالأولى هي وزارة التفويض وهي أكمل انواع الوزارات لأنها وزارة تامة، وذكر صفات الوزير المطلق وعرض بإيجاز للنوع الثاني وهي وزارة التنفيذ. ثم انبرى لتبيان الفرق بين الوزارتين المذكورتين. وذكر من ثم فصلا في المشورة وفضلها، وفصلا في كتمان الاسرار، وذكر اخبارا عن الوزراء والحكام العرب. وفى الباب الخامس ذكر الوزراء وطرفا من الفاظهم ومدائحهم. وتحدث في هذا الباب عن بعض الوزراء الذين جمعوا بين البلاغة والسياسة وتدبير الحروب. وذكر منهم زياد بن ابيه والحجاج بن يوسف وعدد من بلغاء وزراء بنى العباس وولاتهم. وهذا الباب من اطول الابواب لكثرة الاخبار التي نقلها المؤلف عن وزراء العصر الإسلامي. وقد اورد فيه الكثير من النصوص الادبية والتوقيعات البلاغية (والتوقيعات تعنى التعليقات التي يكتبها الوزراء على الامور التي ترد إليهم وفيها نواحي بلاغية وتمتاز بالاختصار وبلاغة الكلمة) مع تعليقاته النقدية عليها. واعتمد الثعالبي في عرضه على الموضوعات وليس على الفترات او الاحداث التاريخية.[3]

(1) يسرى عبد الغنى، معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني الهجري، بيروت: دار الكتب العلمية، 1999م، ص 58 وما بعدها

(2) الثعالبي (ابو منصور محمد بن عبد الملك بن محمد)، تحفة الوزراء، تحقيق حبيب على الراوي وابتسام مرهون، بيروت: الدار العربية للموسوعات، (د.ت)، ص5-6

(3) نفسه، ص 17-22

كتاب الوزراء أو تحفة الامراء في تاريخ الوزراء للصابئ المتوفى في سنة 448هـ :

هو هلال بن المحسن بن ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهرون بن حبون الصابئ الحراني (359-448هـ). وهو من اسرة نبغت في العلم والادب والتاريخ والطب وكان لها قدم عند الحاكمين. كان جده الاكبر ابراهيم بن زهرون طبيبا مشهورا توفى في سنة 309هـ. وجده ابو اسحق ابراهيم بن هلال كان اديبا كاتبا شاعرا تقلد ديوان الرسائل وله مؤلفات عديدة. واما امه فهي اخت المؤرخ الطبيب ثابت بن سنان بن قرة الذي كان كاتبا عند فخر الملك ابى غالب محمد بن خلف. كان الصابئ يدين بديانة الصابئة كاهل بيته جميعا ثم اعتنق الاسلام سنة 339هـ [1] اطلع الصابئ على كتابات الجهشيارى والصولي[2] في الوزراء وذكر انه لم ير بعدهما من تم ابتدائهما ولا همّ به. وذلك على الرغم من ان الكثيرين من المؤلفين المعاصرين للجهشيارى والصولي الفوا في الوزراء وتمموا بعد الجهشيارى والصولي وقبل وبعد هلال بن المحسن، ولعل هذه الكتب لم تصل الى المؤلف. ترجم الصابئ في كتابه المذكور لعدد من الوزراء وقص اخبارهم وهم ابن الفرات[3] وابوعلى الخاقانى[4] وعلى بن عيسى،[5] وفى اثناء ذلك عرض لوزراء اخرين يتصلون بالمترجم لهم. وهو لا يسير حسب التسلسل التاريخي بل يتناول كل وزير ووزارته الى ان يستوفيها ثم يورد اخبارا منثورة عنه ثم ينتقل الى الوزير التالي وهكذا.[6] ذكر الصابئ في مقدمة كتابه انه اراد بتأليف كتابه ان يكمل ما انتهى اليه الجهشيارى في مؤلفه (الوزراء والكتاب) في رواية متصلة غير منفصلة اذ وقف عند نهاية خلافة المقتدر. ولم يقم الصابئ وزنا لما الفه الصولي عن الوزراء حيث قال انه اطلع على كتابه لكنه انتقده قائلا انه (ملأ كتابه بحشوه الزائد وكسفه بشعره البارد).[7]

اتيحت للصابئ الاطلاع على مصادر مهمة جعلت كتابه يعد من المراجع الموثوقة. والسبب في ذلك ان صفته الرسمية في الدولة حينما ولى ديوان الانشاء زمن خلافة القائم بأمر الله مهدت طريقه الى الوثائق الرسمية.[8] فقد ارتقى اعلى المناصب وعمره لم يتجاوز العشرين عاما. اضافة على اطلاعه على تاريخ ثابت بن سنان[9] خال جده والذي أرخ من اواخر القرن الثالث الهجري

(1) يسرى عبد الغنى، مرجع سابق، ص 183-184

(2) الصولي: هو ابوبكر محمد بن يحي بن عبد الله الصولي المتوفى في سنة 335هـ. عاصر ثلاث من خلفاء بنى العباس هم الراضي والمكتفي والمقتدر ترجم له ابن النديم والزركلي وكتابه المذكور مفقود.

(3) ابن الفرات: هو ابو الحسن على بن ابى جعفر محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات الكاتب، ولى الوزارة في زمن المكتفي والمقتدر وكان محمودا مهتما بقضاء حوائج الناس، نكبه المقتدر فقتله هو وابنه.

(4) ابو على الخاقانى: هو محمد بن عبيد الله بن يحي بن خاقان، كان وزيرا في عهد المقتدر وكان سيء السيرة والتدبير كثير التولية والعزل.

(5) على بن عيسى بن داؤود الجراح: كان أصله من الفرس، وزر للمقتدر والقاهر، توفى سنة 535هـ

(6) الصابي (ابو الحسن الهلال بن المحسن)، الوزراء او تحفة الامراء في تاريخ الوزراء تحقيق عبد الستار احمد فراج، القاهرة: مكتبة الاعيان (د.ت)، المقدمة

(7) نفسه، المقدمة

(8) عبد الرحمن حسين العزاوي: التاريخ والمؤرخون، بغداد: دار الشئون الثقافية العامة، 1993م، ص 71-75

(9) ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة: طبيب ومؤرخ بغدادي، ولد لأسرة اشتهرت بالعلم والطب وترعرع في بغداد، كان ابوه طبيبا ماهرا، وكان جده من أكبر الاطباء والمترجمين في القرن الثالث الهجري.

الى سنة 360هـ وهي فترة عاصرها ولقى معاصريها. والامر الثاني ما نقله عن المؤرخ القاضي ابى على المحسن التنوخي (327-384هـ). يضاف الى ذلك ان الصابئ كان قد اطلع على كتابي الجهشيارى والصولي كما ذكرنا. كما تلقى عن طريق الرواية والسند اخبارا من اناس اتصلوا بالدواوين وخالطوا الحكام وذلك مثبت في اغلب الكتاب. وللصابئ مؤلفات اخرى في هذا الموضوع وقريبا منه الا انها فقدت ومنها كتاب (الرسالات) عن الملوك والوزراء وهو مجموعة من الرسائل الرسمية وهو مفقود. وكتاب (رسوم دار الخلافة) وهو كتاب ذو موضوعات طريفة وضعه حينما كان متوليا ديوان الانشاء بدار الخلافة. وقد طبع في بغداد وهو ايضا من ضمن مصادر هذه الدراسة.[1] وقد نقل عنه الكثير من المؤرخين منهم ياقوت الحموي (574-626هـ) في معجم البلدان وابن خلكان (608هـ681-هـ) في وفيات الاعيان.[2]

يؤرخ كتاب الصابئ للفترة الممتدة من خلافة المعتضد الى خلافة المقتدر (279-319هـ) وهو مصدر مفيد في تصور الصورة الكلية التي سار عليها نظام الوزارة واوضاع الكُتّاب قبل وبعد الفترة التي تعالجها الدراسة الحالية. كما يوفر هذا المصدر الكثير من التفصيلات الادارية والسياسية التي تكشف عن تطور النظم الاسلامية حتى نهاية العصر العباسي الثاني بحيث تكون صورة الحدث التاريخي مكتملة غير منبتة وحتى يتسنى لنا الحكم الصحيح على ما بين ايدينا من حقائق واحداث تاريخية.

الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية لابن طباطبا المتوفى في سنة 709هـ:

هو محمد بن على بن طباطبا العلوي والمعروف بابن الطقطقا (660-709هـ). ولد وعاش في الفترة التي تلت سقوط بغداد بيد التتار سنة 656هـ تلقى علوم الدين واللغة واولع بالتاريخ والادب فالف كتابه (الفخري في الآداب السلطانية) في عام 701هـ في الموصل واهداه الى واليها فخرالدين عيسى بن ابراهيم. ابن طباطبا مؤرخ عرف بالموضوعية في سرد وتعليل الاحداث التي عاصرها او أرخ لها. وكتابه (الفخري) يؤرخ لتاريخ الدولة الاسلامية منذ عهد الراشدين الى خلافة المستعصم بالله العباسي.

يقول الكاتب في المقدمة: (هذا كتاب تحدثت فيه عن احوال الدول وامور الملك، وذكرت فيه ما استظرفته من اخبار الملوك الفضلاء واستقريته من سر الخلفاء والوزراء). وقد فصل المؤلف الكتاب في فصلين: فالفصل الاول تكلم فيه عن الامور السلطانية والسياسات الملكية وخواص الملك التي يتميز بها عن السوقة والتي يجب ان تكون موجودة او معروفة فيه، وما يجب له على رعيته وما يجب لهم عليه. وتحدث في الفصل الثاني عن الدولة الاسلامية منذ عهد الراشدين وحتى دولة بنى العباس بالتسلسل التاريخي. ثم تحدث عن الدول التي قامت في اثناء هذه الدول الكبريات كالدولة البويهية والفاطمية ذاكرا ابتداء هذ الدول وانتهاؤها وطرفا من محاسن ملوكها واخبار سلاطينها. وقد استعان في ذلك بذكر ما عنّ له من الشعر والحكايات او الآيات

(1) نفس المرجع، ص77

(2) نفسه، نفس المكان

الشريفة والأحاديث النبوية. ذكر ابن طباطبا انه التزم في تأليف كتابه بأمرين الاول الحيادية (الا اميل الا مع الحق ولا انطق الا بالعدل وان اعزل سلطان الهوى).[1] والثاني ان يلتزم بالكتابة في لغة سهلة واضحة مبتعدا عن العبارات التي يقصد منها اظهار الفصاحة واثبات البلاغة حتى يضمن الافادة من كتابه، حيث ذكر انه كثيرا ما ادت محاولات اثبات البلاغة من المؤلفين الى ان تصبح مؤلفاتهم عصية على الفهم وبالتالي الافادة منها (فطالما رأيت مصنفي الكتب قد اعترضتهم محبة اظهار الفصاحة والبلاغة فخفيت اغراضهم، واعتاصت معانيهم فقلت الفائدة بمصنفاتهم).[2] واما من ناحية الغرض من وراء وضعه لكتابه فيقول ابن طباطبا ان (الفخري) كتاب يحتاج اليه من يسوس الجمهور ويدبر الأمور، وانه ان أنصفه الناس لأخذوا اولادهم بدرسه وتدبر معانيه لأنه كتاب يستفاد منه في قواعد السياسة وادوات الرياسة. ودعا ابن طباطبا من يشك في ذلك الى الاطلاع على الكتب المصنفة في هذا الفن (واظنه يقصد نظم الحكم واخبار الملوك والوزراء والخلفاء)، فلعله لا يرى فيها كتابا اجمع للمعنى الذي قصد به من هذا الكتاب.[3] اما عن المراجع والدراسات الحديثة التي عالجت الموضوع فاني اخترت منها:

كتاب الدواوين من كتاب الخراج تحقيق مصطفى الحيارى:

هذا الكتاب هو عبارة عن تحقيق للمنزلة الخامسة وهي المعنية ببحث (الدواوين واعمالها) في كتاب (الخراج) لقدامة بن جعفر الكاتب المتقدم ذكره. قام بتحقيق هذه المنزلة الدكتور مصطفى الحيارى وقدم لها بدراستين طويلتين ممتعتين ربط فيهما بين تطور نظم الدولة العربية الاسلامية وحاجتها الى المؤسسات الادارية المختلفة في المراحل المختلفة وتطور صناعة الكتابة. كما بين ان تطور عملية تدريب الكتاب ارتبط بتطور الادارة خاصة خلال العصر العباسي وحتى النصف الاول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وتكرمت الجامعة الاردنية بدعم نشر الكتاب فنشرته في عمان دار شقير وعكشة في العام 1986م. بالنسبة للدراستين اللتين قدم بهما الدكتور الحيارى المنزلة الخامسة من كتاب قدامة فقد حوت هاتان الدراستان وصفا لدواوين الدولة في العهد العباسي، وانواع الكُتّاب، والمعرفة المتخصصة التي ينبغي للكاتب ان يكون له المام بها واتقانها قبل مباشرته العمل في الدواوين. وكذلك تحدثت عن التنظيم الداخلي لعمل الدواوين، وبعض التطورات المتعلقة بالدواوين واعمالها الكتابية. كما حوى الكتاب تفسيرا مسعفا لكل المصطلحات الديوانية والعباسية.

النظم الاسلامية لحسن ابراهيم حسن (1892-1968م) وعلى ابراهيم حسن:

مؤرخان مصريان تصديا لدراسة موضوع النظم الاسلامية في عمل مشترك هو كتاب (النظم الإسلامية) الذي نشر في العام 1939م في القاهرة. اشار المؤلفان الى ان موضوع النظم ليس موضوعا جديدا بالكامل اذ ان الكثير من علماء وفقهاء ومؤرخي المسلمين بحثوه بحثا وافيا،

(1) ابن طباطبا (محمد بن على)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية، بيروت: دار صادر 1970م، ص 14

(2) نفس المصدر، ص 237

(3) نفسه، ص 16

ويذكـران عـلى وجـه التحديـد المـاوردي واحكامـه السـلطانية وابـن طباطبـا صاحـب الفخـري وابـن خلـدون المتـوفى في سـنة 808هـ كـما ذكـرا طائفـة مـن الفقهـاء والمؤرخـين الذيـن تناولـوا اطرافـا مختلفـة مـن هـذه النظـم مثـل الكنـدي المتـوفى في سـنة 350هـ والعسـقلاني المتـوفى في 853هـ اللذيـن كتبـا في القضـاء، والجهشـيارى والصابـئ اللـذان كتبـا في الـوزراء وابى يوسـف المتـوفى في سـنة 708هـ وابـن سـلام المتـوفى في سـنة 224هـ وقدامـة بـن جعفـر المتـوفى في سـنة 337هـ الذيـن كتبـوا في النظـم الماليـة وغيرهـم.[1] ولكـن اضافتهـما تكمـن في تقديـم موضـوع قديـم في قالـب جديـد. فقـد بـذل المؤرخـان جهدهـما في تقديـم النظـم الاسـلامية بمـا يشـمل النظـام الإداري والمـالي والقضـائي برؤيـة حديثـة. شـملت هـذه الرؤيـة دراسـة هـذه النظـم عـبر جميـع العهـود الاسـلامية حتـى انتهـوا الى العـصر العبـاسي وعهـد الدولـة الطولونيـة والاخشـيدية والفاطميـة ثـم عـصر المماليـك في مـصر فجـاءت دراسـتهما وافيـة برؤيـة شـاملة معـاصرة.

قسـم المؤلفـان دراسـتهما الى خمسـة أبـواب: عالجـا في البـاب الاول نظـام الخلافـة وتاريخهـا حتـى زالـت عـلى أيـدي التتـار في سـنة 656هـ ثـم عـادت للحيـاة مـرة اخـرى في عهـد دولـة المماليـك ومـن ثـم تحولهـا للعثمانيـين. شـمل هـذا البـاب كذلـك مباحـث في الـوزارة والكتابـة والحجابـة. وتحدثـا في البـاب الثـاني عـن النظـام الإداري مـن حيـث سـلطة الـولاة عـلى ولاياتهـم والدواويـن وتعريبهـا في عهـد عبـد الملـك بـن مـروان (56-86هـ) ومـا كان لـه مـن أثـر سـياسي وادبى في الدولـة الاسـلامية. وافـردا البـاب الثالـث لدراسـة النظـام المـالي فتنـاولا بالدراسـة مـوارد بيـت المـال وعنيـا بدراسـة الخـراج والجزيـة والـزكاة والغنائـم والعشـور، مفرديـن مبحثـا مسـتقلا للضرائـب وطـرق جمعهـا والاوجـه التـي تـصرف فيهـا مـوارد بيـت مـال المسـلمين عـبر جميـع العصـور الاسـلامية. وبحـث البـاب الرابـع النظـام القضـائي خـلال العصـور الاسـلامية المختلفـة، بينـما بحـث البـاب الخامـس في الـرق والاسرى والمـوالي.

النظم الاسلامية للدكتور عبد العزيز الدوري (1919-2010):

يعـد عبـد العزيـز عبـد الكريـم الـدوري شـيخا للمؤرخـين واماما للتاريخيـين المعاصريـن. وهـو صاحـب كتـاب (مقدمـة في تاريـخ صـدر الإسـلام) 1945، وكتـاب (العـصر العبـاسي الاول دراسـة في التاريـخ السـياسي والإداري والمـالي) 1945م، غيرهـما مـن مراجـع التاريـخ الإسـلامي القيمـة. يقـع كتـاب النظـم الاسـلامية (نـشر في طبعتـه الاولى في بـيروت في العـام 2008م) في ثلاثـة فصـول ومقدمـة. تنـاول الـدوري في الفصـل الاول النظـم الاسـلامية السياسـية، متعرضـا لأصـول النظـم السياسـية، ونظـام الخلافـة وتطـوره عـبر عهـود الراشـدين والامويـين والعباسـيين. كـما تعـرض لنظريـات الخلافـة كـما يراهـا اهـل السـنة والخـوارج والشـيعة. ثـم انتقـل في الفصـل الثـاني لدراسـة النظـم الماليـة فتحـدث عـن احـكام الأراضي التـي فتحـت عنـوة والتـي فتحـت صلحـا. انتقـل مـن ثـم لتنظيـمات الخليفـة عمـر بـن الخطـاب في العـراق والجزيـرة والشـام ومـصر. ثـم انتقـل لدراسـة نظـام الضرائـب في العهديـن الأمـوي والعبـاسي. ودرس في الفصـل الثالـث النظـم الاداريـة فتعـرض للدواويـن العباسـية ونظـام الـوزارة ونشـأته وتطـوره. يعتقـد الـدوري ان دراسـة النظـم الاسـلامية مهمـة للغايـة لفهـم العنـاصر الخفيـة والتيـارات المهمـة التـي

(1) حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن، النظم الاسلامية، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية 1939م، المقدمة

اثرت في المجتمع الإسلامي، وان دراسة هذه النظم بتمعن من شانه ان يكشف لنا خفايا الكثير من الحركات والتطورات الاجتماعية والفكرية. كما انها (أي النظم) تتطور وتتبدل فهي تجتاز ادوارا ومراحلا مختلفة ولا يمكن فهمها الا إذا تتبعنا تطورها خلال العصور المختلفة. ويركز الدوري على ان هذه النظم لم تتشكل كلها بعد الاسلام ولم تنضج في وقت قصير وان اصول بعضها يعود الى الانظمة التي كانت سائدة في الشرق الادنى قبل الاسلام. ويضيف ان النظم العربية في الجاهلية كانت منبع النظم الاسلامية الاولى كما افاد العرب من الانظمة التي كانت موجودة في البلاد التي شملتها الفتوحات الاسلامية مثل الانظمة الساسانية والبيزنطية في الشئون الادارية والمالية. كما افادوا من التراث الثقافي للشعوب في الأراضي التي فتحوها بشكل عام. اعتمد الدوري في دراسته عن النظم الاسلامية على امهات الكتب الاسلامية التي درست الموضوع مثل (الفخري في الآداب السلطانية) لابن طباطبا، و(الاحكام السلطانية) للماوردي، وكتب القصص التاريخي وكتب الوزراء، والكتب التي صنفت لتهذيب الكتاب، وكتب التواريخ العامة والمعاجم. ويقر الدوري ان هذه المصادر كان يعتريها التضارب نسبة لاختلاف عصور المؤرخين، وعدم ثبوت النظم على شكل واحد، وتوسع بعضها، واختفاء بعضها، واختلاف الواقع عن النظريات، واختلاف المعلومات باختلاف الغرض الذي من اجله دونت هذه المصنفات.[1] ويعتبر كتابه (النظم الاسلامية) من اقيم المراجع المعاصرة التي اهتمت بهذا الموضوع وقدمته برؤية حديثة وقد بذل الدوري جهدا كبيرا في التدقيق بحيث استطاع ان يقدم معلوماته بشكل متسلسل وموضوعي.

(1) عبد العزيز الدوري: النظم الاسلامية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية 2008م، ص 12

الفصل الأول

الكتابة والوزارة

الـدواويـن:

ورث العباسيون النظم الادارية المتمثلة في الدواوين التي كانت تضطلع بالأعمال الحسابية والادارية من الدولة الاموية. ومع ان النظم التي اعتمد عليها العباسيون في الحكم ظلت في جوهرها هي النظم التي ورثوها عن الامويين، (وقد استمرت بعض هذه النظم في الضرائب والادارة المحلية والجيش والدواوين فاعلة في العهد العباسي)، الا ان الادارة العباسية اتخذت شكلا مختلفا عن الادارة الاموية. ذلك ان العباسيين لجأوا في سبيل تطوير النظام الإداري لدولتهم الي إدخال تعديلات جوهرية ساعدت على جعل السلطة مركزية عن طريق الإدارة. ولتحقيق ذلك ادخلت الادارة العباسية نوعا من التخصصية في عمل الدواوين. وزاد العباسيون على ذلك ادخالهم نظام (الوزارة) ووسعوا من سلطة الوزير لتشمل الاشراف على الدواوين الشيء الذي ساعد على تقوية قبضة المركز على الاطراف.

بالنسبة للكِتابة فقد عرفت في مجال التنظيم الإداري منذ عهد الرسول عليه السلام، ولكنها تطورت تدريجيا خلال العصور المختلفة للدولة الاسلامية مترافقة مع تطور الدواوين ومع تطور وتوسع الجهاز الإداري في الدولة الاسلامية. ارتبطت الكِتابة بعمل الدواوين واضطلع بها في البداية كُتّاب من الموالي ولكنها ما لبثت ان استخدمت العربية اداة لها بعد تعريب الدواوين في عهد الخليفة الأموي مروان بن عبد الملك (65-86هـ) الشيء الذي فتح الباب على مصراعيه لتطور فنون البلاغة والنثر الفني العربي من خلال صناعة الكتابة، ومن خلال تطور فنون اللغة الادارية وخاصة في ديوان الانشاء. كانت العلاقة بين الكِتابة والوزارة علاقة وثيقة الصلة اذ انبثقت الثانية من الأولى، فكانت الكِتابة هي الطريق الذي يوصل الى اعلى المناصب الادارية وهي الوزارة. وبالطبع كانت هناك جملة من الانظمة والترتيبات الادارية كالأمارة على الولايات والجيش والبريد والشرطة الا اننا سوف نقصر اهتمامنا في هذا الفصل على دراسة النظم الادارية التي لها علاقة مباشرة بموضوع هذه الدراسة وهي: الدواوين ونظم عملها (وما يتعلق بها من نظم الكِتابة)، والوزارة وانواعها ومراسم تقلدها وصلاحيات الوزير.

يورد القلقشندي ان (الدِيوان) اسم لموضع يجلس الكتّاب فيه وهو بكسر الدال واصله (دِوّان) فأبدلت أحد الدواوين ياء فقيل (دِيوان) ويجمع على (دواوين). وقد اختلف في أصله فذهب قوم الى انه عربي وان كلمة (دِيوان) تعنى الاصل الذي يُرجع اليه ويُعمل بما فيه، ومنه قول ابن عباس (إذا سألتموني عن شيء من غريب القران فالتمسوه في الشعر فان الشعر دِيوان العرب)، ويقال دونته إذا أثبته.[1] ويقول ابن خلدون: ان كلمة (الديوان) كانت تطلق على السجل الذي يدّون فيه دخل الدولة ومنصرفه وتطلق ايضا على المكان الذي يجلس فيه العمال الذين يتولون تسجيل هذه المعلومات المالية. ويورد ايضا في أصل هذه الكلمة ان كسرى نظر يوما فرأى كتاب الحسابات يحسبون مع أنفسهم كأنهم يتحدثون فقال (دِيوانه) أي (مجانين) بلغة الفرس

(1) ابو العباس احمد (القلقشندي)، صبح الاعشى في كتابة الانشاء، القاهرة: دار الكتب المصرية 1922م، ج1، ص 90

فسمى موضعهم بذلك وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال فقيل (دِيوان)، وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها. وقيل ايضا انه اسم للشياطين بالفارسية وقد أطلق على الكتاب لسرعة نفوذهم في فهم الامور ووقوفهم على الجلي منها والخفي وجمعهم لما شذ وتفرق، ثم نقل الاسم بعد ذلك لمكان جلوسهم لمباشرة تلك الاعمال.[1]

نشأة الدواوين في الدولة الاسلامية:

ظهرت الدواوين في الدولة الاسلامية كبقية المؤسسات نتيجةً لحاجة العرب الى التنظيم العسكري والإداري والمالي. اذ يبدأ بقيام الدولة ظهور المؤسسات المختلفة التي يقصد بها اساسا تنظيم شئون الافراد في المجتمع وفى علاقاتهم مع بعضهم البعض وعلاقاتهم مع السلطة العليا. ونشأت الدواوين في البداية متأثرة بالنظم الادارية التي اوجدها العرب في البلاد التي فتحوها والتي كانت ارقي من العرب مدنية وحضارة واقوى في نظمها اجتماعية ولذلك كان من الطبيعي ان تسود مدنيتهم وحضارتهم ونظمهم في هذه الدواوين. وقد عدل العرب فيما بعد هذه النظم بما يتوافق مع عقليتهم.[2] بدأت هذه الدواوين بسيطة محدودة ثم تدرجت ونمت وتعددت وتفرعت حسب التطورات والضرورات والاحوال. في البداية كانت هناك دواوين في الامصار المفتوحة والتي كان يحكمها البيزنطيون والساسانيون مثل الشام والعراق. وقد استمرت هذه الدواوين في الاقاليم تضطلع بنفس الاعمال التي كانت تعملها في عهد هاتين الدولتين من حسابات للدخل والمنصرف وجمع الضرائب وما الى ذلك. وقد بقيت هذه الدواوين الاقليمية تستخدم اللغات الاجنبية على حالها السابق،[3] يقول الجهشياري: «لم يزل بالبصرة ديوانان احداهما بالعربية لإحصاء الناس واعطياتهم وهذا الذي كان قد رسمه عمر واخر لوجوه الاموال بالفارسية، وكان بالشام مثل ذلك، أحدهما بالعربية والاخر بالرومية وجرى الامر على ذلك الى ايام عبد الملك بن مروان.» [4]

كانت الحسابات في هذ الدواوين الاقليمية تتم بلغات مختلفة فكانت تتم في مصر بالأرقام القبطية، وفى سوريا وفلسطين بالأرقام الرومية، وفى العراق وفارس بالأرقام الفهلوية.[5] وقد عربت هذه الدواوين الاقليمية في ايام عبد الملك بن مروان (65-86هـ) والوليد بن عبد الملك (86-96هـ) في اواسط عهد الدولة الاموية. اما الدواوين المركزية فكانت في العاصمة وهذه انشأها العرب أنفسهم وكانت تستخدم اللغة العربية. وفى مرحلة متقدمة من تاريخ الدولة الاسلامية اتجهت اصول هذه الدواوين نحو التقارب والانسجام حتى اتخذت شكلا موحدا لكل نوع منها في مختلف الولايات وانطبعت بطابع الوحدة مثل غيرها من المؤسسات. واتخذت الدواوين الاقليمية

(1) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دمشق: دار يعرب 2004م ، ج1، ص 426

(2) محمد نبيه حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي الاول: دراسة تحليلية نقدية لتطور الاساليب، مكة: مكتبة الطالب الجامعي، 1986م، ص 77

(3) عبد العزيز الدوري، النظم الاسلامية، ص161

(4) الجهشياري، مصدر سابق، ص23

(5) نفسه، ص 25-27

شكلا مصغرا عن الدواوين المركزية في العاصمة خصوصا بعد تعريبها كما ذكرنا.[1] استمرت الدواوين بالتوسع والتطور طوال العهود اللاحقة لتناسب الحاجات المختلفة التي كانت تظهر في الدولة الإسلامية فنشأت دواوين جديدة. ومع ان الدواوين لم تستقر بشكلها النهائي الا في عهد الدولة العباسية فإننا نستطيع ان نقول ان اسسها العامة وضعت في العصر الأموي.[2]

اعتمدت خطة العباسيين الادارية فيما يخص الدواوين على تقوية الجهاز المركزي الإداري لكي يكون في الامكان اخضاع الاطراف للمركز، وذلك بإحداث جهاز ادارى متشعب في المركز والاطراف بحيث تكون دواوين الاطراف نسخة مصغرة عن دواوين المركز. وقد كانت الدواوين الاساسية التي ورثتها دولة بنى العباس من الادارة الاموية هي ديوان الرسائل والخراج، والجند، والبريد والخاتم. واتجهت السلطة العباسية الى تقسيم الدواوين في مسئوليات متشعبة ومتخصصة. وبلغ الجهاز الإداري في الدولة العباسية مدى من الاتساع والتشعب لم يبلغه في الدولة الاموية. واصلت الدواوين التطور والتوسع طوال عهود السفاح (132-136هـ) والمنصور (136-158هـ) والمهدى (158-169هـ). فلمّا جاء عهد الهادي (170-196هـ) وصلت الدواوين مرحلة بعيدة من التنظيم والتشعب. وافضت الخلافة الى الهادي والدواوين مدونة مرتبة فمن ديوان الخراج الى ديوان الضياع الى ديوان الزمام الى ديوان التواقيع الى ديوان النظر أي المكاتبات والمراجعات الى ديوان الرسائل الى ديوان البريد والخرائط الى غير ذلك من الدواوين.[3]

أنواع الدواوين:

ورث العباسيون نظام الدواوين كما أسلفنا من الدولة الاموية فطوروها حسب الظروف والحاجة والمستجدات فأحدثوا دواوين جديدة ثم اتسعت سلطة الوزير حتى شملت الاشراف على جميع الدواوين. وقسمت الدواوين الاساسية الى اقسام متخصصة كل قسم منها يهتم بعمل محدد من اعمال ذلك الديوان. وكان يشار الى هذه الاقسام باسم المجالس فكل قسم او ادارة هي مجلس مثل مجلس الجيش ومجلس الحساب ومجلس التفصيل بديوان الخراج ومجلسا التقرير والمقابلة في ديوان الجيش.[4] وفيما يلي نذكر بعض الدواوين الرئيسية لبيان كيفية العمل والادارة في ذلك العصر ومن ثم نركز على ديوان (الانشاء) وانشطته اذ كان هو الديوان المرتبط بالأعمال الثقافية في الدولة وكان كتّابه هم الكُتّاب المرشحين لتولى الوزارة.

ديوان الجند او ديوان الجيش:

تجمع المصادر على ان اول من وضع الدواوين في الدولة الاسلامية هو الخليفة عمر بن الخطاب[5] حين وردت إليهم اموال كثيرة من البلاد المفتوحة ورغب الخليفة عمر ان يقوم

(1) عبد العزيز الدوري، النظم الاسلامية، ص 161

(2) نفس المرجع، ص169

(3) محمد كرد على، الادارة الاسلامية في عز العرب، القاهرة: مطبعة مصر، 1934م، ص 137

(4) مصطفى الحيارى، الدواوين من كتاب الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر الكاتب، عمان: الجامعة الاردنية 1986م ، ص11

(5) عبد العزيز الدوري، النظم الاسلامية، ص 162

بتنظيم توزيعها، فأشار عليه خالد بن الوليد بالديوان لما رأى المعاناة في ضبط المال وقسمته، قال للخليفة: (رأيت ملوك الشام يدّونون).[1] وقد اجمع المؤرخون ان ذلك كان في سنة 20هـ.[2] كان الخليفة عمر يريد ان يجعل من العرب امة عسكرية وان يوجهها في سبيل الجهاد لنصرة الاسلام وسيادته، فأراد ان يخصص للمقاتلين رواتب واعطيات من بيت المال ليكفيهم مؤنة العمل. كما اراد ان يحفظ سجلا بأسماء المحاربين واهلهم فأنشأ بيت المال لضبط نفقات الدولة وضبط المستفيدين منها. وأنشأ ديوان الجند لتقدير الميزانية، وضبط الواردات والنفقات، ولضبط نفقات الجند وتنظيم المغانم على الفاتحين.[3] كانت منشأ فكرة الديوان في الدولة الاسلامية هو الاحساس بالحاجة الى تنظيم موارد الدولة. ومن هنا يمكن ان نرى هذه الصلة بين تنظيم الجند وتنظيم الاعطيات وبين انشاء الديوان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب. لم يفرض الخليفة عمر العطاء لجميع العرب في ديوان الجند بل دون اسماء اهل المدينة وهم قلب الامة الإسلامية. ثم دون القبائل المقاتلة التي اشتركت في الفتوحات ومن لحق بهؤلاء من القبائل لتعزيز قوة المسلمين العسكرية. ولم يفرض عطاء لأهل مكة لأنه لم يرسلهم في الغزوات ولم يفرض ايضا عطاء للأعراب الذين بقوا في الجزيرة بل كان يوزع على المحتاجين منهم من اموال الصدقات. وهكذا صنف عمر الناس الى درجات حسب سابقتهم في الاسلام وقرابتهم لرسول الله (ﷺ). ثم روعي في الترتيب عند انقراض اهل السوابق التقدم في الشجاعة والبلاء في الجهاد.[4] ولتنفيذ هذه الخطة اختار هيئة خاصة لتقوم بتسجيل الناس على قبائلهم وافخاذهم وكانت تتألف من عقيل بن ابي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا كُتّاب قريش فقال لهم (اكتبوا على منازلهم).[5] فسجل له هؤلاء الكُتّاب سجلات بأسماء الجند واوصافهم واسماءهم واعطياتهم. كان هذا الديوان متوفرا في الاجناد وفي الثغور. وكان الموظف الإداري القيم عليه يسمى (العريف).[6] والعريف كاتب بمعنى انه يتولى كتابة الاعطيات وتوزيعها. ظل هذا الديوان يعمل على الاساس الذي وضعه عمر بن الخطاب طوال العهد الأموي والعهد العباسي.[7] وقد جرى تنظيمه في العهد العباسي للقيام بمهامه بتقسيمه الى مجلسين هما مجلس التقرير ومجلس المقابلة. وفيما يلي تفصيل اعمال كل مجلس منهما:

مجلس التقرير:

هو المجلس الذي تجرى فيه أكثر اعمال ديوان الجند. وهو مختص بالأعمال المتعلقة بتنظيم وتسجيل استحقاقات الجند، واوقات اعطياتهم حسب الرسوم المقررة في جرائد الديوان.

(1) ابن خلدون، المقدمة، ج1، ص 427

(2) احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح (اليعقوبي)، تاريخ اليعقوبي، ج2، ليدن: 1883م، مصدر سابق، ص 175، انظر ايضا البلاذري (احمد بن يحي بن جابر البغدادي)، فتوح البلدان، القاهرة: شركة طبع الكتب العربية 1901م، ص 455

(3) عبد العزيز الدوري، النظم الاسلامية، ص 162

(4) الماوردي، مصدر سابق، ص 260-264

(5) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص 175

(6) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص153

(7) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، القاهرة: دار المعارف، 1967م، ص 20

كما يعمل في تقدير النفقات والاعطيات الواجب صرفها في كل وقت من الاوقات المقررة وارسالها الى المراكز المختلفة التي تنفق فيها، وتدقيق قوائم الصرف التي تم صرفها والتي ترسل الى الديوان بعد انتهاء عملية الانفاق.[1]

مجلس المقابلة:

مهمة هذا المجلس هي المقابلة بين ما هو موجود في أصل الديوان من جرائد مفصلة للجند واوقات العطاء والانفاق وبين ما ورد للديوان من كتب مفصلة للإنفاق وتلك التي يبعث بها المتولون للإنفاق على الجند، وما يصدر من الكتب لهؤلاء المنفقين وما يرد منهم واخراج المفارقة او الخلاف في ذلك لضبط الحسابات.[2]

ديوان الخراج:

يعتبر ديوان الخراج من اهم الدواوين في الدولة الاسلامية وذلك لعظم المسئوليات التي كان يضطلع بها هذا الديوان. فكان يتولى جباية ضريبة الارض، وجمعها، والنظر في مشكلاتها، وهو عماد المالية اذ ترسل وارداته الى بيت المال. انشأه عمر بن الخطاب ذلك ان الدولة عندما اعتمدت جباية الضريبة على الارض في الامصار المفتوحة اضطرت الى توفير قوانين خاصة بهذه الجباية. وبما ان الفاتحين المسلمين لم يكونوا على معرفة بالقوانين الادارية المعقدة فقد لجاوا الى الاستعانة بالقوانين التي كان معمولا بها في الامصار المفتوحة. وهكذا أصبح هناك ديوانا للخراج في جميع ولايات الدولة الاسلامية منها الشام والعراق وحمص وخراسان.[3] كان هذا الديوان في العصر العباسي يقوم بجباية الاموال واستيفاء حقوق بيت المال من واجبات الأراضي وغير ذلك من الجبايات والضرائب، زيادة على تثبيت حقوق الغير في ملكية الارض اذ كانت الأراضي مسجلة في هذا الديوان كما كانت مسجلة في ديوان الخراج المحلى في كل اقليم اذ كان في كل اقليم من اقاليم الدولة ديوان خراج خاص به يقوم مقام خزانة الدولة ضمن الاقليم. كان تقدير الخراج يتم على ثلاث مراحل في اوقات مختلفة فالفترة الاولى تسمى وقت (العمارة) وهي فترة حرث الارض وتجهيزها وبذرها. والثانية اسمها وقت (التقدير) وهي التي يحدد فيها التقدير الاولى للناتج الكلى للأرض. وتسمى الفترة الثالثة وقت (شُبهت) وفيها تجمع الغلات في البيادر قبل احصائها من قبل ممثلي السلطة والتي يكون فيها الحرز والتخمين.[4]

توسعت مهام هذا الديوان في العصر العباسي فشملت الاشراف على الأراضي والصرف على عمارة تلك الأراضي. وكانت من مهامه ايضا استحداث مشاريع جديدة كتشييد القناطر، والجسور، والنواظم، وانشاء القنوات للري، وتقديم المقترحات عن المشاريع، واستقدام المهندسين والفعلة، وتوفير المواد اللازمة للمشاريع، ومتابعة العمل فيها، وتطهير الانهار العظام والقنوات والمجاري

(1) قدامة بن جعفر الكاتب، مصدر سابق، ص 21

(2) نفس المصدر، ص 23

(3) حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن، النظم الاسلامية، ص224

(4) مصطفى الحيارى، مرجع سابق، ص24

والمساقى. اضافة الى مسئوليات كثيرة ومتعددة منها صرف اعطيات الجند، والنفقات الراتبة، وايصال الرصيد الى الديوان المركزي في عاصمة الخلافة. [1] شهد هذا الديوان تطورا في عهد الخليفة العباسي المهدى، اذ يذكر صاحب الفخري ان وزير المهدى عبيد الله معاوية بن يسار جمع له حاصل المملكة ورتب الديوان، وقرر القواعد. وكان ابو عبيد الله معاوية بن يسار قد صنف كتابا في الخراج ذكر فيه احكامه الشرعية ودقائقه وقواعده فكان الخلفاء قبل المهدى يأخذون خراجا عن الغلات فقط ففرض المهدى نظام المقاسمة.[2] ثم حدد الطريقة التي ينبغي ان تحصّل الجبايات بها بما لا يضر المكلفين ولا يؤدى الى خسارة الدولة.[3] كان ديوان الخراج مقسما الى عدد من الادارات وهي كالاتي:

مجلس الاصل:

يحوي سجلا مفصلا لكل الأراضي الخراجية في ولايات الدولة المختلفة وتقدير خراجها بالإضافة الى أراضي الدولة الاخرى التي يدفع عنها ضريبة للدولة. وهو المرجعية في حالة الخلافات التي قد تنشأ بين عمّال الخراج واصحاب الارض في تقدير ناتج الارض او الضريبة المستحقة عليهم.

مجلس الحساب:

وكان يعمل حساب الواردات الواصلة الى ديوان الخراج من مختلف الاقاليم والولايات ومقابلة هذا الدخل مع الدواوين الأخرى.[4]

مجلس التفصيل:

وفيه يعمل حساب التفصيل لكل نوع من انواع الواردات الواصلة الى ديوان الخراج حسب ما يرفع اليه من عمال الولايات. وتقارن هذه الواردات مع الاصل الذي يوجد في الديوان واخراج الخلاف ان وجد بين الحسابين، والتحقق من المخالفات ومتابعتها حتى تنتظم الامور في العمل حسب الاصول.

مجلس الجهبذة:

يشرف على اعمال جباية الخراج في الولايات، وعنده ممثلون في كل الولايات والاقاليم يجمعون الواردات في مراكز ولاياتهم ويرسلون بها الى المركز مع وثائق مفصلة.

مجلس الجيش:

مهمته ادارة الاموال الخاصة بجيش الخلافة في المركز والولايات. وفيه تحدد الاعطيات التي تصرف للجند واوقاتها. وكانت هناك مجالس اخرى لهذا الديوان تتولى الارشفة والمراسلات والمكاتبات الخاصة به وهي:

مجلس الاسكدار:

(1) ضيف الله يحي الزهراني، مرجع سابق، ص 121-122

(2) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 182

(3) مصطفى الحيارى، مرجع سابق، ص 21

(4) نفس المرجع، ص22

مهمته عمل سجل بكل المراسلات والمكاتبات الواردة الى ديوان الخراج وتوزيع الوارد من المراسلات الى كل مجلس من مجالس الديوان كل حسب اختصاصه، وثبت اخر بالأجوبة الصادرة عن المجالس المختلفة وعن صاحب ديوان الخراج.

مجلس الانشاء والتحرير:

مهمته كتابة مسودات الرسائل وتدقيقها وتحريرها قبل ارسالها الى المجلس الاخير.

مجلس النسخ:

مهمته اصدار نسخ من المكاتبات الصادرة الى الجهات المختلفة وارسالها الى أصحابها.[1]

كان هناك جهاز كبير يتبع لديوان الخراج يضم عددا من العاملين في الميدان والتابعين لديوان الخراج منهم عامل الخراج وهو رأس جهاز الجباية في الولايات، وكاتب الخراج الذي يستعمله عامل الخراج ويقع عليه العبء الاكبر في جمع الخراج. يقوم عامل الخراج باختيار (المُسّاح) ويرسلهم لعمل المساحة لكل البلاد العامرة في ولايته وينظمها حتى كتابة الكشوف الخاصة. ثم يسلمها الى رجال يسمون (المستخرجين) وهؤلاء يقومون بجمع الخراج من الوحدات الصغيرة والكور وتقسيماتها. وعددهم هؤلاء العمال يقل ويكثر حسب حجم هذه الوحدات والكور وطبيعة ارضها في الإنتاج.[2] وكان هذا المنصب يقلد عادة لبعض القواد الذين لهم خبرة بالمناظرة والمعرفة بأساليب التهرب والتحايل التي يستعملها اصحاب الارض في التهرب من دفع ما عليهم من ضرائب. ثم هناك (المستحثين) وهم جند مهمتهم حث اصحاب الأراضي والفلاحين على دفع ما عليهم من خراج.[3]

ديوان البريد:

البريد عند الخليل بن احمد لفظ عربي وذهب اخرون الى انه فارسي معرب.[4] أنشأ هذا الديوان معاوية بن ابي سفيان مستعينا بخبرة الروم والفرس في ذلك وكانت تستخدم فيه الجمال والخيل.[5] ويمكن القول ان الخليفة عبد الملك بن مروان هو اول من عمل البريد مؤسسة ادارية منظمة مستقلة اذ لم يكن في عهد معاوية ديوانا متكاملا مستقلا. وقد اهتم به عبد الملك اذ اعتبره عصب الدولة الحساس ولذلك اقام له المحطات وفتح له المسالك ونظم مواعيده.[6] اما في العصر العباسي فقد كان هذا الديوان من الدواوين الهامة نظرا للمهام التي يقوم بها. ومع ذلك فلم يكن له مجالس خاصة به في المركز لعدم الحاجة الى كثير من الكُتّاب فيه. كانت مهمة هذا الديوان الرئيسية هي نقل الاخبار والرسائل بين العاصمة والولايات. وكانت ترد اليه كل خرائط كتب الدولة الرسمية التي يرسلها اصحاب البريد في الولايات والنواحي حيث يقوم صاحبه بعرض هذه الكتب على

(1) نفس المرجع، ص23

(2) نفسه، ص 24

(3) نفسه، ص25

(4) القلقشندي، مصدر سابق، ج14، ص 366

(5) عبد العزيز الدوري، النظم الاسلامية، ص179

(6) على محمد الصلابي، الدولة الاموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار بيروت: دار المعرفة، 2008م، ج1، ص663

الخليفة إذا كان يقرأ كل الكتب الواردة اليه بنفسه، والا يُعمل له قوائم جامعة بها لعرضها عليه.[1]

اهتم ابو جعفر المنصور بهذا الديوان في عهده اذ كان شديد المحاسبة لعماله، وكان يطلب مراقبة الاسعار والاسواق ليطلع على احوال الولايات. كلف المنصور العاملين في ديوان البريد بالإضافة الى اعمالهم في نقل الرسائل ان يطلعوه يوميا على سعر القمح والحبوب والادم وبسعر كل مأكول (ليتلافى المجاعات)، وبكل ما يقضى به القاضي في نواحيهم وبما يعمل به الوالي وبما يرد بيت المال من المال وكل حدث.[2] ولهذا السبب كان الغالب على متولي ديوان البريد ان يكون أحد المقربين من الخليفة. ولذلك فإننا نلاحظ ان هذا الديوان مستقل الى حد ما عن الدواوين الأخرى. وأحيانا لم يولّ عليه كاتب ذلك انه لا يطلب من متوليه التمرس بصناعة الكتابة أكثر من تمتعه بالحرص والتحفظ. يقول قدامة بن جعفر[3] صاحب كتاب الخراج: «والذي يحتاج اليه في صاحب هذا الديوان ان يكون ثقة اما في نفسه او عند الخليفة القائم بالأمر في وقته، لان ليس في هذا الديوان من العمل ما يُحتاج معه الى الكافي المتصفح وانما يُحتاج الى الثقة المتحفظ».[4]

كانت من مهام صاحب هذا الديوان ايضا تعيين عمال البريد في سائر المناطق التابعة للخلافة اذ كان هناك عامل في كل ولاية يتبع له عمال اخرون في المراكز التابعة لولايته.[5] وكان يطلب من والي البريد في كل ولاية حصر العاملين لديه فيكتب الى الخليفة بأسمائهم وعدتهم وارزاقهم وعدد السكك في عمله ومسافاتها واماكنها. ووالى البريد هو المسئول عن سرعة ايصال الرسائل حيث يطلب من عماله اثبات مواقيت ارسالها بدقة حتى لا يتأخر أحد في الوصول الى السكة المطلوبة في الوقت المحدد له.[6] كانت الرسائل تصنف من قبل عمال البريد في الولايات حسب موضوعاتها، فهناك اخبار الخراج والضياع، واخبار الاحداث، واخبار وارزاق الجند، وما يجرى في دور الضرب والاسعار والاعطاءات حتى يسهل توجيه هذه الكتب الى الديوان المختص به في لعاصمة.[7]

كان من مهام صاحب ديوان البريد الاشراف على دواب البريد ونفقاتها، والنظر في امور الطرق والتي كان عددها في القرن الثالث الهجري قد بلغ تسعمائة وثلاثين سكة.[8] وكان يُنتظر منه ان يعرفها معرفة كافية لا يحتاج معها الى ملاحظات غيره. وهو المسئول امام الخليفة عن

(1) قدامة بن جعفر، مصدر سابق، ص 77

(2) عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الاول: دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، بيروت: دار الطليعة 1997م، ص 80

(3) قدامة بن جعفر بن قدامة ابن زياد البغدادي الكاتب: كان نصرانيا فاسلم على يد المكتفي بالله واشتهر بالكتابة والحساب والمنطق والبلاغة ونقد الشعر. وله كتب كثيرة منها كتاب (الخراج) و(نقد الشعر) و(صناعة الجدل). اما كتابه الموسوم (الخراج) فقد الفه في القرن الرابع الهجري ويرجح انه الفه بعد سنة 316هـ وهو مصدر هام عن طريقة عمل الدواوين العباسية حتى بداية القرن الرابع الهجري. توفي في سنة 337هـ انظر مقدمة كتابه الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، بغداد: دار الرشيد للنشر 1981م

(4) مصطفى الحيارى، مرجع سابق، ص 91

(5) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 204

(6) قدامة بن جعفر، مصدر سابق، ص77

(7) مصطفى الحيارى، مرجع سابق، ص 41

(8) ابن خرداذبة (ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله)، المسالك والممالك، ليدن: مطبعة بريل، 1889م، ص 153

ضبط الطرق وحفظها وصيانتها من القطاع والجواسيس في البر والبحر.[1] وكان صاحب ديوان البريد يملك سجلا وافيا عن الطرق ومواضع السكك والمسالك الى جميع المناطق والأطراف. ويملك إضافة الى ذلك وصفا دقيقا وموجزا لكل موضع في هذه الطرق وكل سكة بريد، حتى إذا استدعت الضرورة خروج الخليفة الى أي منطقة في بلاد الاسلام او انفاذ جيش في مهمة ما قدّم صاحب البريد سجلا للطرق التي يمكن السير فيها. مع وصف مفصل للاماكن والمواضع، وعدد الاميال والفراسخ في كل سكة، وما يتوفر فيها من ماء وغذاء وعشب ومرعى الى غير ذلك من الامور التي يُحتاج اليها.[2] كانت الطرق مقسمة الى محطات مع وجود بدّالات من الدواب والراكبين. وطول ما بين المحطات فرسخين الى اربعة فراسخ. وقد اضاف المهدى خطوطا جديدة للبريد، اذ اقام البريد بين المدينة ومكة واليمن.[3] كما استخدمت دواب البريد في نقل بعض المواد والاغراض للدولة مثل انواع الفواكه والتمر. كما استخدم في الحالات الطارئة في نقل المسافرين اذ استعمله الهادي للوصول الى بغداد على وجه السرعة حينما بلغه خبر وفاة المهدى وهو في جرجان فقدم مسرعا على دواب البريد.[4]

ديوان الخاتم وديوان الفض:

أنشأ ديوان الخاتم معاوية بن ابى سفيان. وكان أكبر دواوين الدولة في العهد الأموي. وكانت مهمته نسخ اوامر الخليفة بعد ان تحزم بخيط وتختم بالشمع وتختم بخاتم صاحب الديوان. ويرجع سبب انشاء هذا الديوان ان معاوية احال رجلا بمائة ألف درهم الى زياد بن ابيه عامله في العراق. فمضى ذلك الرجل وقرأ الكتاب، ولما كانت توقيعاتهم غير مختومة فقد اضاف بنفسه مائة ألف درهم الى المائة التي منحها له معاوية. فلما رفع زياد حسابه الى معاوية انتبه لهذه المغالطة في العدد، فأوضح له زياد انه اعطى الرجل مائتين ألف درهم، فقال معاوية «ما احلته الا بمائة ألف». ثم انه استعاد المال من الرجل، ووضع ديوان الخاتم فصارت التوقيعات تصدر مختومة لا يعلم أحد ما تشتمل عليه، ولا يستطيع أحد ان يضيف اليها او يحذف منها شيء.[5] اضيف ديوان اخر الى هذا الديوان يسمى دوان الفضّ في العصر العباسي. وأصبح الرسم المتبع في امر الكتب الواردة من العمال في مختلف الولايات والاعمال ان تُحمل اولا الى دار الخلافة حيث يقوم كتّاب ديوان الفض بفتحها وعمل قائمة جامعة بها حسب موضوعاتها. ويطلع الخليفة هذه الجوامع ويوقع عليها تحت توقيع صاحب هذا الديوان بعمل ما يراه مناسبا، ومن ثم ترسل هذه الجوامع الى دواوين الدولة المختلفة كل حسب ما يخصه.[6] وكان هذا الديوان يضم عددا من الكُتّاب منهم من يعمل في الارشفة والتوثيق، ومنهم يعمل جوامع الوارد من الرسائل والتي

(1) عبد العزيز الدوري، النظم الاسلامية، ص 80

(2) قدامة بن جعفر، مصدر سابق، 78

(3) محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة العباسية، بيروت: دار النفائس2009م، ص 76

(4) عبد العزيز الدوري، النظم الاسلامية، ص181

(5) حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن، النظم الاسلامية، ص171

(6) مصطفى الحيارى، مرجع سابق، ص 35

تعرض على الخليفة او الوزير للتوقيع، واخرين لعمل النسخ التي تُرسل الى الدواوين المختلفة. واما ديوان الخاتم فله صاحب مسئول عن خاتم الخليفة، واليه ترسل الكتب التي تحتاج الى الختم بخاتم الخليفة حيث تُثبت فيه وتُرسل منها نسخ مختومة الى صاحب الكتاب للعمل بما يأمر به الخليفة.[1]

ديوان الرسائل او ديوان الانشاء:

يقول القلقشندي ان هذا الديوان اول ديوان وضع في الدولة الإسلامية، وانه يرجع الى عهد الرسول (ﷺ) حيث كان عليه الصلاة والسلام يكاتب امراءه واصحاب سراياه من الصحابة رضوان الله عليهم. وكتب الى من قرب من ملوك الارض يدعوهم الى الإسلام.[2] والواقع ان هذا القول يبدو مبالغا به حيث لم يعرف المسلمون في عهد الرسول الدواوين ولم يعتمدوها في ادارتهم. بل ان الدولة الاسلامية نفسها لم تكن قد توسعت وعرفت النظم الادارية، ولكن يصح ان تعتبر المراسلات الاولى للرسول (ﷺ) مع ملوك وحكام الدول المجاورة لهم البذرة الاولى لما عرف فيما بعد بالمراسلات الديوانية. تولى مكاتبات الرسول (ﷺ) نفر من كرام الصحابة من أشهرهم ابوبكر الصديق وعلى بن ابى طالب وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد ومعاوية بن ابى سفيان. وقد ذكر القضاعي في كتابه (عيون المعارف وفنون اخبار الخلائف) ان زيد بن ثابت كان ترجمان النبي (ﷺ) وكان كاتبه الى الملوك لأنه كان يعرف الفارسية واليونانية، وان الزبير بن العوام والجهم بن الصلت كانا يكتبان للنبي اموال الصدقات، وان المغيرة بن شعبة والحصين بن النمير كانا يكتبان المداينات والمعاملات.[3] وهكذا نرى ان الكتابة كانت موجودة في عصر النبي (ﷺ) وفى عصر الخلفاء الراشدين. واما اتخاذ ديوان للرسائل كنوع من التنظيم الإداري فالراجح انه يعود العصر الأموي. وكان هذا الديوان جهاز تنفيذي بحت انحصرت مهمته في تنفيذ قرارات الخليفة او الوالي وانفاذ اوامرهما وتحرير رسائل الخليفة واوامره في الداخل، ومكاتباته في الخارج، والاهتمام بربط الاطراف مع المركز، وكان متوفرا في جميع الولايات. وكان الكاتب الذي يتولى هذه المهام من اهم الموظفين المدنيين في العصر الأموي. وكان بمثابة المساعد للخليفة ومعاونه غير انه كان بمنأى عن الاخطار التي تهددت الوزير العباسي فيما بعد. وكان يقوم بأنواع الكتابة الادارية المختلفة ومن الثابت ان غير المسلمين من الموالي كانوا هم المتولون لهذه الاعمال وخصوصا قبل تعريب الدواوين في عهد عبد الملك بن مروان. ظل لفظ الكاتب يطلق طوال عهد بنى امية على متولي المكاتبات. ومنذ عهد معاوية بن ابى سفيان كان ديوان الرسائل يسند الى كاتب يقيمه الى زمن انقراض دولتهم.[4]

في العصر العباسي زادت المكاتبات الادارية زيادة دعت الى تنظيمها واسناد مهامها الى

(1) نفس المرجع، ص35

(2) القلقشندي، مصدر سابق، ص 91

(3) القضاعي (محمد بن سلامة بن جعفر الشافعي)، عيون المعارف وفنون اخبار الخلائف، تحقيق جميل عبد الله محمد المصري، القاهرة: مركز البحوث واحياء التراث الإسلامي، 1995م، ص238

(4) المسعودي، (ابو الحسن على بن الحسين)، التنبيه والاشراف، ليدن: 1893م، مطبعة بريل، ص 339

ديـوان الرسـائل الـذي توسـعت مهامـه وبـدأت تتحـدد مـع مـرور الزمـن. كان هـذا الديـوان في العـصر العبـاسي مـن الدواويـن المهمـة في الدولـة. وكان مهنـة صاحـب هـذا الديـوان اذاعـة المراسـيم والـبراءات، وتحريـر الرسـائل السياسـية، وختمهـا بخاتـم الخلافـة بعـد اعتمادهـا مـن الخليفـة، ومراجعـة الرسـائل الرسـمية ووضعهـا في الصيغـة النهائيـة. كـما كان في كل ديـوان مـن دواويـن الدولـة قسـم خـاص بالإنشـاء والتحريـر.[1] كانـت اهـم المكاتبـات هـي المتعلقـة بالعهـود والولايـات وهـي التـي تظهـر براعـة الكاتـب وسـعة معرفتـه والتـي كانـت عـادة مـا تبـدأ بأمـر الخليفـة لكاتـب الولايـة بتقـوى اللـه وخشـيته والعمـل بالحـق والعـدل والصـدق. يتبـع ذلـك كيفيـة قيامـه بأمـور ولايتـه في صـورة اوامـر محـددة وواضحـة مـن الخليفـة. كـما كان كاتـب الرسـائل يجلـس مـع الخليفـة في مجلـس القضـاء للنظـر في المظـالم، ويختـم الاحـكام بخاتـم الخليفـة. وقـد جـرت العـادة ان يتسـلم الشـاكي او المدعـى صـورة مـن الحكـم وتحفـظ الصـورة الاصليـة في دار السـجلات. وكانـت مـن اميـز الاوجـه التـي تميـز كاتـب ديـوان الانشـاء هـي توقيعاتـه في قصـص الظلامـات. والتوقيعـات هـي عبـارة موجـزة بليغـة تعـود ملـوك الفـرس ووزراؤهـم ان يوقعـوا بهـا عـلى مـا يقـدم إليهـم مـن تظلـمات الافـراد مـن الرعيـة وشـكواهم وحاكاهـم خلفـاء بنـى العبـاس ووزراؤهـم في هـذا الصنيـع.[2] ويقصـد بالتوقيـع جلـوس الكاتـب بـين يـدي السـلطان في مجـال حكمـه وفصلـه، وتوقيعـه عـلى القصـص المرفوعـة اليـه احكامهـا والفصـل فيهـا باوجـز لفـظ وابلغـه. وكان جعفـر بـن يحـي البرمـكي 142) 187-هـ) بارعـا في هـذه التواقيـع، وكان يوقـع بـين يـدي هـرون الرشـيد ويرمـى بالقصـة الى صاحبهـا فـكان البلغـاء يتنافسـون في تحصيـل توقيعاتـه للوقـوف عـلى اسـاليب البلاغـة فيهـا حتـى قيـل ان كل توقيـع كان يبـاع بدينـار.[3]

حـرص الخلفـاء عـلى تدويـن الرسـائل بأسـلوب شـيق بليـغ وكانـوا يختـارون للعمـل في هـذا الديـوان رجـال مـن أعـرق الاسر ممـن عرفـوا بسـعة العلـم ورصانـة الأسـلوب.[4] وكان كتـاب الانشـاء يجتهـدون في كتابـة أوامـر الخليفـة او رسـائله بشـكل فنـي مبتكـر، ويحاولـون في سـبيل ذلـك طـرق كل معنـى جديـد، واسـتخدام الاسـاليب البلاغيـة وفنـون النـثر في الانشـاء. ويحـكى قدامـة بـن جعفـر هـذه القصـة التـي تبـين مـدى اهتـمام كُتّـاب هـذا النـوع بصناعتهـم وطـرق الجديـد مـن المعـاني في صياغتهـم لأوامـر الخليفـة، يقـول: «حـكى احمـد بـن يوسـف بـن القاسـم بـن صبيـح[5] كاتـب المأمـون وكان يتولى له ديـوان الرسـائل انـه قـال: «أمـرني المأمـون امـير المؤمنـين ان اكتـب الزيـادة في قناديـل المسـاجد الجامعـة في جميـع الامصـار في ليـالي شـهر رمضـان. ولم يكـن سـبق الى هـذا المعنـى أحـد فآخـذه واسـتعين ببعـض

(1) مصطفى الحيارى، مرجع سابق، ص10

(2) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 489

(3) ابن خلدون، المقدمة، ج1، ص 430

(4) حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن، النظم الاسلامية، ص 141

(5) احمـد بـن يوسـف بـن القاسـم: يكنـى ابـو جعفـر وهـو مـولى بنـى عجيـل مـن اهـل الكوفـة. كان يتـولى ديـوان الرسـائل للمأمـون وكان مـن افاضـل كتابـه وازكاهـم وافطنهـم واجمعهـم للمحاسـن. وكان يقـول الشـعر في الغـزل والمديـح والهجـاء ينتمـي الى اسرة مـن المتأدبـين اذ كان ابـوه يكتـب لعبـد اللـه بـن عـلى عـم المنصـور وكان اخـوه ابـو القاسـم شـاعرا واولادهـما جميعـا اهـل ادب، تـوفى في سـنة 223هــ راجـع ابـو عبـد اللـه محمـد بـن عبـد اللـه بـن ابى بكـر (القضاعـي)، اعتـاب الكتـاب، تحقيـق صالـح الاشـتر، دمشـق: مجمـع اللغـة العربيـة 1961م، ص30

ما قاله. فأرقت مفكرا في معنى اركبه. ثم نمت فرأيت في المنام كأن آتيا أتاني فقال قل: (فان فيها انساً للسابلة، واضاءةً للمجتهدة، ونشاطاً للمتعبدين، ونفياً لمكامن الريب، وتنزيهاً لبيوت الله عن وحشة الظلم)».[1] فمثل هذه القصة تعطينا فكرة واضحة عن مدى اهتمام كتاب ديوان الرسائل بأعمالهم ومراعاتهم لاختيار الجديد من الالفاظ في صياغتهم لأوامر الخليفة.

حظي هذا الديوان باهتمام اصحاب كتب التراجم أكثر من غيرهم. وارتبط العمل فيه بمنصب الوزير الذي كان في احيان كثيرة يتولى الاشراف على هذا الديوان بنفسه وأحيانا كان يوليه من ينوب عنه ويكون تحت اشرافه المباشر. ولذلك يقول عنه القلقشندي: «ان الامور السلطانية من المكاتبات والولايات تبدأ عنه وتنشأ منه».[2] وصاحب هذا الديوان هو كاتم سر الخليفة، ولذلك فان مرتبته كانت ارفع مرتبة ومحله أعظم محل. اليه تلقى اسرار المملكة وخفاياها وبرأيه يستضاء في مشكلاتها وعلى تدبيره يعول في مهماتها، واليه ترد المكاتبات وعنه تصدر. ومن ديوانه تكتب الى الولايات السلطانية كافة، ويقوم توقيعه على القصص في نفوذ الاوامر مقام السلطان.[3] وبفضل هذا الديوان ظهر جماعة من البلغاء صاروا مضرب الامثال في الكتابة والبلاغة امثال يحي البرمكي، والحسن بن سهل وزير المأمون، وعمرو بن مسعدة[4] كاتب المأمون، وابن المقفع وغيرهم. كان كُتّاب ديوان الرسائل أكثر شهرة من غيرهم من الكُتّاب ومنهم يختار الخلفاء على الاغلب وزراءهم. وقد شهد هذا الديوان في العصر العباسي اول محاولات الكتابة النثرية باللغة العربية حيث تطورت فيه تقاليد الكتابة البلاغية وزخرفة الاسلوب في النثر مما دعا فيما بعد ان يطلق عليه ديوان الانشاء.

تعدد الدواوين وتشعبها:

ذكر اليعقوبي في حديثه عن بناء بغداد الدواوين التي نقلها المنصور اليها. وبعد ان اشار الى بيت المال، وخزانة السلاح، ذكر ديوان الرسائل، وديوان الخراج وديوان الخاتم، وديوان الجند، وديوان النفقات، وديوان الاحكام، وهذا الاخير هو ديوان الذين هم في خدمة البلاط. كما يظهر ديوان الحوائج ويبدو ان مهمة صاحب هذا الديوان كانت ان يجمع رقاع الحوائج ويقدمها الى الخليفة لينظر فيها وينصف المشتكين. ويذكر اليعقوبي ديوان الصدقات في محل اخر وكان ينظر في زكاة المواشي خاصة.[5] والمستخلص ان العباسيين وثوا نظام الدواوين فطوروه حسب ظروفهم، وزادوا

(1) قدامة بن جعفر، مصدر سابق، ص 38

(2) القلقشندي، مصدر سابق، ج1، ص 90

(3) نفس المصدر، ص102

(4) عمرو بن مسعدة: كان جده الاعلى (صول) أحد ملوك جرجان وكان من الترك الذين اعتنقوا المجوسية وتشبهوا بالفرس واعتنق الاسلام في زمن بنى امية. كتب والده مسعدة لخالد البرمكي في وزارته للسفاح والمنصور. قلده ابو ايوب الموريانى ديوان الرسائل وعندما ولد له عمرو اهتم بتأديبه ليعمل في الدواوين فأتقن كل فنون الكتابة والحساب والفقه مما يتصل بأعمال الخراج. كما تثقف بثقافة عربية وفارسية. اتخذه جعفر البرمكي كاتبا له فأفاد منه في فن التوقيعات. عمل كاتبا ايضا للفضل بن سهل والحسن بن سهل وزراء المأمون فعينه المأمون على ديوان الرسائل، توفى سنة 217هـ. راجع سيرته في الفهرست لابن النديم، ص 178

(5) عبد العزيز الدوري، النظم الاسلامية، ص173

في المركزية ولاسيما بعد استحداث منصب الوزارة، وأحدثوا دواوين جديدة مثل ديوان المظالم الذي اضافه المهدى للنظر في المظالم وكان يباشرها بنفسه مع القضاة. واضاف الرشيد ديوانا سماه ديوان الصوافي للنظر في الأراضي التابعة له. كما اضاف ديوانا سماه الضياع للنظر في ضياع الخليفة وضياع اسرته. واضاف المأمون ديوانا سماه الجهبذة ومهمته التدقيق في حسابات بيت المال.[1] وهكذا تعددت هذه الدواوين في العصر العباسي وتشعبت حسب الحاجة لها. وشهدت هذه الدواوين إثر تشعبها وتعددها محاولات لترقية الخدمة وتنظيم العمل فيها. ومن امثلة التنظيم الإداري التي ادخلها العباسيون على الدواوين ان جُعلت السجلات في دفاتر بدلا من ان تكون في صحف متفرقة كما كان الحال في عهد الامويين وذلك لحفظها من الضياع. وقد قام بذلك خالد البرمكي في عهد الخليفة العباسي ابو العباس السفاح.[2] وقد كان الفضل بن يحي (-147 193هـ) قد أنشأ في عهد الرشيد مصنعا ببغداد للورق ففشت الكتابة فيه لخفته وغلبت على الكتابة في الجلود والقراطيس.[3] ثم استخدم جعفر بن يحي الورق في الدواوين وجرى استخدامه في الامصار كلها. وقد ادى استخدام الورق الى حدوث نقلة كبيرة في الادارة في العصر العباسي. ومن الدواوين التي استحدثت في العصر العباسي ديوان الخبر الذي كانت مهمته جمع كل صغيرة وكبيرة من الاخبار فيبلغونها لصاحب ديوان الخبر الذي يقوم بدوره بتبليغها للخليفة، وكان يعمل على خدمة هؤلاء ديوان البريد. وقد عكس انشاء هذا الديوان اهتمام الخلفاء العباسيين بأهمية الاتصال والمواصلات مما عزز سلطة المركز على الأطراف.[4] وفي عهد المهدى استحدث ديوان اخر سمى ديوان الازّمة في سنة 162هـ وكانت مهمته الاشراف على الدواوين الكبيرة ومراقبة النواحي المالية فيها على وجه الخصوص مما يشير الى توسع اعمال الدواوين القديمة وتعقد اعمالها. ثم أحدث المهدى سنة 168هـ ديوانا اخر للإشراف على دواوين الازّمة وتنظيم اعمالها سماه ديوان زمام الازمة. ويظهر ان هذا الديوان انتشر ايضا في الولايات وهذه الخطوة تشير الى تنظيم الادارة بشكل يضمن المركزية[5]. وقد رتب المهدى امور الكُتّاب الموظفين في الدواوين فامر بان يستريحوا يوم الخميس وينظروا في امورهم الشخصية فلا يحضرون للدواوين، بينما يتخذ يوم الجمعة للصلاة والعبادة. فعمل بهذا الى ان أبطله المعتصم فامر الكتّاب بالعمل في يوم الخميس.[6]

ادى تعدد الدواوين في عصر الدولة العباسية الى تعدد فرص العمل للكُتّاب، كما ادى التشعب الإداري وتوسع العلوم الى ان يتم التمييز بين انواع مختلفة من الكُتّاب. تبعا لذلك ظهرت التخصصية في اعمال الكتابة فأصبح هناك كاتب الخراج الذي يشترط ان يكون عالما بالحساب والمساحة. وكاتب الاحكام الذي يشترط فيه ان يكون عالما بالحلال والحرام والاحتجاج والاجماع

(1) عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الاول، ص 174

(2) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 59

(3) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص103

(4) عصام سليمان الموسى، الورق وتطور صناعته في العصر العباسي، مجلة جامعة دمشق المجلد 27، العدد 3، 2011م، ص 233-234

(5) محمد كرد على، الادارة الاسلامية في عز العرب، ص 136

(6) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 125

والفروع الفقهية. وكاتب المعونة الذي يشترط ان يكون عالما بالقصاص والحدود والجراحات والمواثبات والسياسة. وكاتب الجيش الذي يشترط ان يكون عالما بحلى الرجال والنسب والحساب. وكاتب الرسائل الذي يشترط ان يكون عالما بالفصول والصدور والاطالة والايجاز وحسن البلاغة والخط.[1] وفيما يلي من هذا القسم نعطى لمحة تاريخية عن الكتابة في الدولة الاسلامية وعن وضع الكُتّاب وانواعهم وانواع المعارف التي كانوا يحتاجون اليها للعمل في دواوين الإدارة المختلفة في الدولة العباسية.

الكتـــابة والكُتّاب:

افرد القلقشندي فصلا كاملا في كتابه صبح الاعشى لتوضيح مدلول الكتابة في اللغة والاصطلاح وبيان معنى الانشاء واضافتها اليه وفى ذلك يقول: الكتابة في اللغة: مصدر كتب يقال كتب يكتبُ كتبا وكتابةَ ومكتبة وكتبة فهو كاتب. ويقول تكتبت القوم إذا اجتمعوا ومنه قيل لجماعة الخيل كتيبة وكتبتُ البغلة إذا جمعت بين شفريها بحلقة او سير ونحوه. ومن ثم سُمى الخط كِتابة لجمع الحروف بعضها الى بعضٍ (...). قال ابن الأعرابي: وقد تطلق الكتابة على العلم ومنه قوله تعالى (أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)[2] أي يعلمون. وعلى حد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في كتابه لأهل اليمن حين بعث إليهم معاذا وغيره «انى بعثت اليكم كاتبا»، قال ابن الاثير في غريب الحديث: اراد عالما، سمى بذلك لان الغالب على من كان يعلم الكتابة ان عنده علما ومعرفة وكان الكاتب عندهم قليلا وفيهم عزيزا. اما في الاصطلاح فيذكر القلقشندي: انها صناعة روحانية تظهر بآلة، جثمانيه، دالة على المراد بتوسط نظمها.[3] ونرى من هذا ان القلقشندي ربط في عرضه للمعنى اللغوي ما بين الكتابة والعلم. بينما اشار الى ان الكتابة في الاصطلاح هي صناعة روحانية يعنى بذلك الالفاظ التي يتخيلها الكاتب في اوهامه ويصّور من ضم بعضها الى بعض صورة باطنة قائمة في نفسه. اما الجثمانية فهي الخط الذي يخطه بالقلم، وتقيد به تلك الصورة وتصير بعد ان كانت صورة معقولة باطنة صورة محسوسة ظاهرة واما الالة فهي القلم.

ويقول ابن وهب[4] في فضل الكتابة و الكُتّاب:[5] «بيّن الله عز وجل فضيلة الكتاب والخط ومعونتهما على الحفظ والضبط فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ

(1) عبد العزيز الدوري، النظم الاسلامية، ص175-176

(2) سورة القلم، اية 47

(3) القلقشندي، مصدر سابق، ص 51

(4) ابن وهب: هو ابو الحسين اسحق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب: كاتب ونحوى وناقد ومؤلف عاصر النصف الاخير من القرن الثالث الهجري والنصف الاول من القرن الرابع الهجري. ينتمي الى اسرة ال وهب وهي اسرة من الكتاب خدمت في دواوين الدولة الاسلامية لمدة ثلاث قرون متوالية فقد كان جده الأكبر (فنال) كاتبا ليزيد بن ابى سفيان بالشام، وكان جده سليمان من جملة الكتاب الذين وزاروا للخليفتين المهتدي بالله والمعتمد على الله العباسيين. لاقت اسرته حظوة عند العباسيين أكثر مما لقوها عند الامويين.

(5) ابن وهب (ابو الحسين اسحق بن ابراهيم بن سليمان)، البرهان في وجوه البيان، تحقيق حنفي محمد شرف، القاهرة: مطبعة الرسالة، (د.ت)، ص255-256

مُسَمّىً فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ)[1] ،ثم بين العلة في امره بذلك فقال: (وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا)[2]، وبين الله تعالى منزلة الكُتّاب واحوج الناس اليهم وامرهم بمعاونة من استعان بهم فقال تعالى: (وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً).[3] ويفرد الصولي في كتابه (ادب الكُتّاب) فصلا عن فضل الكتابة يقول فيه: «وبالكتابة حُفظ القران وحُفظت الالسن والاثار، ووكدت وأُثبتت الحقوق وسيقت التواريخ وبقيت السكوك وامن الانسان النسيان وقُيدت الشهادات».[4] وفي فضل الكتابة ايضا يقول القلقشندي: «ان اعظم شاهد لجليل قدرها واقوى دليل على رفعة شأنها - أي الكتابة - ان الله تعالى نسب تعليمها الي نفسه واعتده من وافر كرمه وافضاله، فقال عز اسمه: (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ).[5] مع ما يروى من ان هذه الآية وما قبلها مفتتح الوحى واول التنزيل على اشرف نبي واكرم مرسل (ﷺ)، وفي ذلك من الاهتمام برفعة شأنها ورفعة محلها ما لا خفاء فيه. ثم بين الله سبحانه وتعالى شرفها بان وصف بها الحفظة الكرام من ملائكته، فقال جلت قدرته: (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ).[6] ولا اعلى رتبة ولا ابذخ شرفا مما وصف الله تعالى به ملائكته ونعت به حفظته. ثم انه سبحانه وتعالي زاد ذلك تأكيدا ووفر محله اجلالا وتعظيما بان اقسم بالقلم الذي هو الة الكتابة وما يسطر به فقال سبحانه وتعالى: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ).[7] ثم كان من نتيجة تفضيلها واثرة تعظيمها وتبجيلها ان الشارع ندب الى مقصدها الاسنى وحث على مطلبها الاغنى فقال (ص): «قيدوا العلم بالكتاب».[8] ويضيف ابن وهب انه بالكتابة اراد الحق عز وجل اتمام منافعه على عباده وايجاب الحجة عليهم. فانه لولا الكتاب الذي قيد اخبار ما مضى من الرسل، ونقل الينا اخبار ما اتوا به من الكتب، لما قامت لله تعالى حجة علينا، اذ كنا لم نشاهدهم ولم نسمع حججهم، ولم نعاين آياتهم، وانقرضت العلوم والآيات بانقراض اهلها وموت من تحملها. فلما اعطى الله سبحانه الناس هذه الموهبة قيدوا بها ذلك اجمع وحُفظ، فصار من قرأ كتب الاولين وتأمل اخبار الماضين كمن كان معهم واخذ عنهم وسمع منهم. ولذلك قيل: الكتاب أحد اللسانين لأنك إذا قرأت كتابا كأنك قد سمعت لفظ صاحبه. وقيل: القلم أبقي

(1) سورة البقرة، اية 282

(2) نفس السورة، نفس الآية

(3) نفس السورة، نفس الآية

(4) الصولي (ابو بكر محمد بن يحي بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول): ادب الكتاب، القاهرة: المكتبة السلفية 1431هـ ص 24

(5) سورة العلق، الآية 3-5

(6) سورة الانفطار، الآية 11

(7) سورة القلم، الآية 1

(8) القلقشندي، مصدر سابق، ج1، ص 35-36

اثرا واللسان أكثر هذرا، وقالوا: اللسان مقصور على الشاهد والقلم ينطق في الشاهد والغائب.[1]

تاريخ الكِتابة في الدولة الاسلامية:

ان الكِتابة سواء كانت في تدوين العلوم والفنون وضبط الشئون العامة ام في انشاء الرسائل ومعالجة الكلام المنثور، لا ترقى بل لا تكون الا في الامم التي اخذت بقسط من التحضر، فكانت لها حكومة منظمة ودواوين معددة وصناعة منوعة وزراعة نامية وتجارة رائجة. ولذلك لم يكن لاحد من الشعوب العربية في الجاهلية حظ من الكتابة الا بمقدار ماله من حظ من الحضارة. لم يكن العرب في الجاهلية يهتمون بتعلم الكِتابة لان الامية كانت صفتهم التي يتميزون بها، وكان الحفظ عندهم اهم من الكتابة. يقول ابن خلدون عن حديثه عن علوم الحساب والكتابة عند العرب «اما حال الجباية والحساب والانفاق فلم يكن عندهم - أي العرب- برتبة لان القوم كانوا عربا اميين لا يحسنون الكتاب والحساب، فكانوا يستعملون في الحساب اهل الكتاب او افرادا من موالي العجم ممن يجيده وكان قليل فيهم. واما أشرافهم فلم يكونوا يجيدونه لان الامية كانت صفتهم التي امتازوا بها، وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الامور فلم تكن عندهم رتبة خاصة للامية التي كانت فيهم.»[2] وقد كانت الكِتابة معروفة عند التبابعة جنوبا وعند المناذرة والغساسنة في الشمال حين كان لهؤلاء واولئك من الحضارة نصيب. اما البدو من سكان اواسط الجزيرة فلم يعرفوا الكتابة الا حين عرفوا الخط في اواخر العصر الجاهلي.[3] وقد كان حظ الكِتابة فيهم حظها في امة بادئة قليلة الشئون لذلك لم ينلها من الرقى ما نال الشعر والخطابة. وبظهور الاسلام، كان هناك القليل من الذين يعرفون الكِتابة في مكة وكان هؤلاء يسمون (الكملة) و(الكملة) اسم أطلق في الجاهلية واول الاسلام على الذين كانوا يكتبون بالعربية ويحسنون العوم والرمي.[4] وكان منهم على بن ابى طالب وابوبكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان والزبير وغيرهم. وكان عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن ابى طالب وزيد بن ثابت ومعاوية بن ابى سفيان والمغيرة بن شعبة وسعيد بن العاص يكتبون القران ويحررون الكتب التي كان الرسول الكريم يحررها للملوك والامراء.[5]

عندما انتشر الاسلام واستقر مجتمعه في المدينة حرص الرسول (ص) على تعليم المسلمين القراءة والكتابة لتعلم القران والتعاليم الدينية بصورة صحيحة. فأصبح عدد الذين يعرفون الكتابة مع الرسول (ﷺ) اثنان واربعون اخذوا بالتزايد تدريجيا. لقد توزعت الكتابة في العهد النبوي في اربعة حقول: حقل الكتابة الى الملوك، وحقل كتابة المغانم، وحقل الكتابة بين القوم في قبائلهم ومياههم، وحقل تسجيل اسماء القبائل والحكم بما يقع عليها او يصير عليها. [6] وقد كانت تلك

(1) ابن وهب، مصدر سابق، ص254-255

(2) ابن خلدون، المقدمة، ج1، ص 420

(3) احمد فريد الرفاعي، عصر المأمون، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1927م، ج1، ص 52

(4) البلاذري، مصدر سابق، ص479

(5) محمد كرد على، الادارة الاسلامية في عز العرب، ص 13

(6) على يوسف السبكي، الرسائل النبوية: دراسة وتحقيق، القاهرة: (د.ن)، 1980م، ص 7

اولى عمليات تنظيم المجتمع وان كانت كل هذه المكاتبات تتم دون وجود نظام ادارى معين. وكان للرسول (ﷺ) كُتّاب ليس للرسائل فقط بل هناك من كتب الوحي او الرسائل والصدقات او المعاملات او المداينات والمغانم وغير ذلك. وقد تراوح عدد هؤلاء ما بين ستة وعشرين وثلاثة اربعين كاتبا.[1] ومع وجود هؤلاء الكتبة وتعددهم نراهم اخذوا يتدربون ويتمرنون على الكتابة واخذت خبرتهم تزيد مرة بعد مرة فقل التكرار وسهل عليهم استعمال اللغة.[2] ان كل هذه المعلومات تشير الى ان انشاء الديوان في عهد الخليفة عمر لم يتم من دون وجود أي ممهدات له بل انه يمثل توجيها لاستخدام الكتابة في مجال التنظيم الإداري، وهو امر أصبح ملحا بعد تحقيق الفتوحات في عهد عمر. ولما ولى ابوبكر اتخذ عثمان بن عفان كاتبا له.[3] شهد عهد عمر بن الخطاب تأسيس اول ديوان في الدولة الإسلامية، وبدء استعمال الكُتّاب لتدوين موارد بيت المال، واعطيات الجنود وغير ذلك. فامر عمر بكتابة وتدوين اسماء الجند وانسابهم واعطياتهم. ثم زاد على ذلك استخدام الكتابة في تدوين ايرادات الدولة من الخراج والجزية والعشر فعيّن أشهر الكُتّاب لإدارة هذه المؤسسة المهمة.[4] وكان الموظف الإداري الذي يقوم بهذه الاعمال في عهد عمر يسمى (العريف) وكان يتولى تقدير الاعطيات وتوزيعها. وكان هناك عدد من الكُتّاب يستخدمهم الخليفة في كتابة رسائله مع انه لم يكن هناك ديوان مخصص للرسائل في ذلك العهد.[5] ولما ولى عثمان بن عفان الخلافة اتخذ مروان بن الحكم كاتبا له[6] ليرسل برسائله الى اصحاب الشأن من المحاربين واهل الثغور والى الولاة والقضاة.

لما أصبح للعرب حكومة منظمة وفتح الله عليهم اقطار الارض اشتدت حاجتهم الى الكتابة. فأخذت الكتابة كصناعة طريقها الى الرقى والكمال حين صارت حاجة من حاجات الدولة. تشمل الكتابة الديوانية التي نشأت مع التنظيم الإداري المتمثل بالديوان في خلافة عمر بن الخطاب على كتابة الانشاء بالإضافة الى كتابة الحسابات. ويُراد الانشاء كل ما رجع من صناعة الكتابة الى تأليف الكلام وترتيب المعاني: من المكاتبات والولايات والمسامحات والاطلاقات ومناشير الاقطاعات والهدن والامانات والايمان وما في معنى ذلك ككتابة الحكم ونحوها. واما كتابة الاموال فالمراد منها كل ما رجع من معنى صناعة الكتابة الى تحصيل المال وصرفه، وما يجرى مجرى ذلك ككتابة بيت المال، والخزائن السلطانية، وما يجبى اليها من اموال الخراج وما في معناه، وصرف ما يصرف منها من الجاري والنفقات وغير ذلك، وما في معنى ذلك ككتابة الجيوش وغيرها مما ينجر القول فيه الى صنعة الحساب.[7] يقول القلقشندي: «على ان الكتابة وان كثرت اقسامها وتعددت انواعها لا تخرج عن أصلين هما كتابة الانشاء وكتابة الأموال، الا ان العرف فيما تقدم من الزمان قد خص

(1) شاكر محمود عبد المنعم، كتّاب النبي (ص)، مجلة المؤرخ العربي (بغداد)، العدد 4، 1977م، ص 174-175

(2) طه حسين، من تاريخ الادب العربي، بيروت: دار العلم للملايين1991م، ص 41

(3) حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن، النظم الاسلامية، ص 140

(4) عبد العزيز الدوري: النظم الاسلامية، ص 163

(5) نفس المرجع، ص169

(6) المرجع السابق، نفس المكان

(7) القلقشندي، مصدر سابق، ج1، ص54

لفظ الكتابة بصناعة الانشاء، حتى كانت الكتابة إذا أطلقت لا يراد بها غير كتابة الانشاء، والكاتب إذا أطلق لا يراد به غير كاتبها حتى سمى العسكري كتابه (الصناعتين الشعر والكتابة) يريد كتابة الانشاء، وسمى ابن الاثير كتابه (المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر) يريد كاتب الانشاء.[1] ومما لا شك فيه ان الكتابة التي ارتبطت بشخص الكاتب والوزير فيما بعد انما نعنى بها كتابة الانشاء، فهي على حد تعبير القلقشندي: «البيان الدال على لطائف المعاني التي هي زبد الأفكار وجواهر الالفاظ التي هي حلية الالسن، وفيها يتنافس اصحاب المناصب الخطيرة والمنازل الجليلة أكثر من تنافسهم في الدر والجوهر».[2] بدأ ديوان الانشاء كجهاز تنفيذي ينفذ أوامر الخليفة في مكاتباته وانفاذ أوامره في المكاتبات. وتدريجيا ظهرت محاولات الكتابة النثرية باللغة العربية في هذا الديوان. وبرزت في اطاره أهمية حسن الصياغة وجمال الأسلوب وهو ما دعا بتسميته (ديوان الانشاء).

عند انتقال الخلافة الى الامويين في سنة 41هـ بدأت الية الكتابة تتوسع بصورة تدريجية. الا ان الاعتماد في هذه المهام ظل على كُتّاب من اصول فارسية ورومية.[3] واستخدمت الكتابة في إطار الدواوين الرسمية كوسيلة لتفي بأغراض ادارية واقتصادية واجتماعية وسياسية، يتم بفضلها تنظيم الانتاج والاستهلاك وتنظيم امور الدولة، وترتيب طبقات الناس، وتمييز الفئات والمجموعات، بالإضافة الى تولى مراسلات الخليفة مع ولاته ومع من يراسل من ملوك وقادة البلدان الأخرى. وهو امر حتمته ظروف الادارة في البلاد الاسلامية التي اتسعت بعد الفتوحات وازدادت مواردها واصبحت هناك حاجة لتنظيم هذه الموارد وتسهيل الإدارة.

نتيجة لتعدد مهام الدولة تعدد الكُتّاب في العصر الأموي، فأصبح هناك خمسة انواع من الكُتّاب: كاتب الرسائل، وكاتب الخراج، وكاتب الجند، وكاتب الشرطة، وكاتب القاضي. وكان كاتب الرسائل اهم هؤلاء الكُتّاب. وكان الخلفاء الامويون لا يولون هذا المنصب الا اقرباءهم وخاصتهم ظلوا على ذلك الى ايام العباسيين.[4] وكان اهم الكُتّاب الذين ذاع صيتهم في عهد بنى امية هم: زياد بن ابيه[5] كاتب ابو موسى الأشعري، وسالم[6] كاتب هشام بن عبد الملك، وعبد الحميد الكاتب[7] كاتب مروان بن محمد، وبفضله تطورت صناعة الكتابة تطورا حقيقيا وكثيرا ما عده نقاد الادب من رواد الترسل. شهد عصر عبد الملك بن مروان تعريب الدواوين حيث استعان بأشهر الكُتّاب لهذا الغرض، حيث نجح هؤلاء في نقل دواوين العراق من الفارسية الى العربية. وتواصل بعدها تعريب الدواوين في مصر وخراسان في عهد الوليد وهشام ابناء عبد الملك. وأصبحت اللغة العربية

(1) نفس المصدر، ج1، ص51-52

(2) نفسه، ج1، ص 55

(3) زين العابدين موسى الجعفر وخلود كريم وسوسن عباس: الكتابة الرسمية في صدر الاسلام حتى القرن الرابع الهجري، مجلة آداب البصرة (العراق)، 2011م، العدد 56، ص206

(4) حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن، النظم الاسلامية، ص140

(5) زياد بن ابيه الثقفي: وهو زياد بن سمية وهو زياد بن ابى سفيان الذي استلحقه معاوية بانه اخوه. كان كاتبا لأبو موسى الأشعري زمن إمرته على البصرة.

(6) سالم الكاتب: كان مولى للخليفة هشام بن عبد الملك وكان يتولى له ديوان الرسائل.

(7) تقدمت ترجمته في مقدمة هذه الدراسة.

هـي لغـة الدواويـن الرسـمية واصبحـت هـي مجـال البلاغـة في الكتابـة الرسـمية.

بـدأت مؤسسـة كاملـة للكتابـة والتدويـن تأخـذ في التطـور المسـتمر منـذ عهـد الخليفـة عمـر بـن الخطـاب الى ان بلغـت أرقـي مراحـل تطورهـا بدخـول عـصر الدولـة العباسـية. ويعكـس لنـا الـتراث المرتبـط بهـذه المؤسسـة والـذي يعـود معظمـه الى العصريـن الأمـوي والعبـاسي مـدى اهميـة الكتابـة في المجـال الإداري والثقـافي، ومـدى اهتـمام علـماء ذلـك العـصر بالكتابـة كعلـم وكصنعـة. ففـي ذلـك الوقت توسـعت الدولـة الاسـلامية وتوسـعت مرافقهـا الإداريـة. وقـد ادى هـذا التوسـع الإداري بمـا احتيـج اليـه مـن تخصـص في الاعـمال في كل ديـوان مـن دواويـن هـذه المؤسسـات الى توفـر عـدد كبـير مـن الكُتّـاب في كل مجـال مـن مجـالات العمـل الإداري في الدولـة. احتـاج مركـز الدولـة في بغـداد الى عـدد كبـير مـن الكُتّـاب المدربـين لتـولى مختلـف الاعـمال الديوانيـة بـإشراف الوزيـر. وكان لا يصـل الى هـذه المراتـب الا أكـبر الكُتّـاب شـأنا في صناعتهـم. واحتاجـت الولايـات الى عـدد اخـر مـن الكُتّـاب يتناسـب وحجـم الاعـمال المتوافـرة في الولايـة. كذلـك احتـاج امـراء الجنـد في المركـز وفى الولايـات الى الكُتّـاب لـلإشراف عـلى اعمالهـم وضياعهـم. وكانـت لحاشـية الخليفـة كُتّابهـا المختصـون بهـا الذيـن يشرفـون عـلى الضيـاع التـي يمنحهـا لهـم الخليفـة، الى غـير ذلـك مـن الفئـات التـي كانـت طبيعـة اعمالهـا تتطلـب متخصصـين مـن الكُتّـاب لـلإشراف عليهـا. وهكـذا فانـه بتطـور المؤسسـات الاداريـة وتفرعهـا ازدادت الحاجـة الى الكُتّـاب المدربـين والقادريـن عـلى القيـام بالأعـمال التـي تـوكل إليهـم مـع معرفـة باللغـة واصـول صنعـة الكتابـة.

كانـت الكتابـة في مراحلهـا الاولى ناشـئة مبتدئـة ليـس لهـا تقاليـد مرسـومة او قواعـد محكمـة لغتهـا بسـيطة، خالصـة، صريحـة، تشـبه لغـة الحديـث ويُقصـد منهـا الافهـام. ولم تتطـور لغـة الرسـائل كثـيرا مـع شـيوع نظـام الامـلاء حيـث يفسـح الطريـق لإبـراز شـخصية الكاتـب ولتجويـده وتفننـه. ولكنهـا مـا لبثـت ان بـدأت بالتطـور لعـدة اسـباب منهـا كـثرة الحاجـة لهـا، وشـيوعها، ووجـود الدواويـن وانتشـارها، وظهـور الكُتّـاب الخاصـين بالـولاة والامـراء. ومـع ذلـك فـان الكتابـة لم تكـن فنيـة بالمعنـى المصطلـح عليـه، لكنهـا كانـت تسـير نحـو الفـن بخطـى حثيثـة.

نلاحـظ ان تطـور الكتابـة كصناعـة فنيـة في العـصر الأمـوي كان قـد مـر بمرحلتـين: المرحلـة الاولى تمتـد منـذ قيـام الدولـة الامويـة سـنة 40هـ الى عهـد الوليـد بـن عبـد الملـك (86-96هـ). وفى هـذه المرحلـة حافظـت الكتابـة عـلى مـا كانـت عليـه في صـدر الاسـلام مـن الايجـاز والوضـوح والسـهولة والبسـاطة وقلـة التكلـف والارتجـال. واما المرحلـة الثانيـة فهـي مـن ولايـة الوليـد بـن عبـد الملـك الى نهايـة الدولـة الامويـة 132هـ في هـذه المرحلـة اخـذت الكتابـة تتـدرج في التأنـق والصنعـة والاطنـاب واشراق البيـان حتـى صـارت صناعـة فنيـة لهـا اصولهـا وقواعدهـا. وكان زمامهـا في هـذه المرحلـة بأيـدي الكُتّـاب المـوالي المثقفـين بثقافـة عربيـة واسـعة، اضافـة الى خلفياتهـم الثقافيـة الاخـرى مـن يونانيـة وفارسـية. وفى هـذه المرحلـة ظهـرت معـالم الصنعـة في فـن الكتابـة حيـث الاطالـة والسـجع والمجانسـة. وتجـاوز الكُتّـاب الإقنـاع الى الامتـاع وكـثرة التفاصيـل. فأصبحـت قبـل ان ينقـضي العـصر الأمـوي صناعـة لهـا اصـول. مـع دخـول العـصر العبـاسي الاول وصلـت الكتابـة أرقـي مـا وصـل اليـه الانشـاء العـربي. وقـد أثـر نمـو الحضـارة والسـلطان في العـصر العبـاسي في الانشـاء تأثـيراً زاده تأنقـا. وبنقـل العلـوم

اليونانية والفارسية الى اللغة العربية اتسعت الكتابة ودخلت الكثير من الالفاظ الجديدة. واغرقت الرسائل في الصناعة فباتت مسرحا للجناس، والطباق، والسجع، والاطناب، وسائر المحسنات اللفظية والمعنوية، مع استخدام التضمين والتفخيم وجوامع الكلم، حتى إذا وصلت نهاية العصر العباسي ثبتت لها اصولها ومصطلحاتها.[1]

الكاتب: هيئته وثقافته:

يشير مصطلح (الكُتّاب) الى فئة معينة من المختصين بالتدبير الكتابي لشئون الدولة وذلك منذ نشأة الدولة الإسلامية. وكان الكُتّاب يقومون بأمر الدواوين وكانوا يمثلون نخبة العلماء في الدولة الاسلامية. كان الكُتّاب في العصر العباسي ركن أساسي من مؤسسة الخلافة بمالهم من أثر فعلى في ادارة الدولة وقد كانت لهم هيئة ومهام وثقافة لا يشاركهم فيها أحد.

كان الكُتّاب يلبسون السواد شعار العباسيين مثل معظم المتصلين بخدمة الإدارة في العصر العباسي. وكانوا يهتمون بلبسهم فكانوا يلبسون الدرائع[2] والعمائِم وتحتها القلانِس[3] وكانوا يلبسون الخُف[4] وكانت الخِفاف الحُمر زي المتعطلين من الكُتّاب. وفي اخر المطاف أصبح القِباء[5] والسي والمِنطقة[6] والشَاشِية[7] زيا رسميا للكتاب.[8] وكان الكاتب يتمتع بثقافة راقية بل ان ذلك كان من متطلبات عمله. وقد ذكر ابن الأثير (ت 637 هـ) أن الكاتب ينبغي أن يتعلّق بكل علم، بخلاف النحوي، أو الفقيه أو المتكلم. ومما يجدر بالكاتب ـ عنده ـ الإلمام بالعربية والتمكن منها، وأمثال واشعار العرب وخطبهم وأيامهم ليكون قادرا على الاستشهاد بها والاقتباس منها وتضمينها وقت الحاجة. يضاف الي ذلك حفظ القرآن الكريم، والحديث الشريف، والمامه بالأحكام السلطانية في الإمامة والإمارة والقضاء والحِسْبة، ومعرفته بأحوال الامم السابقة ومناظراتهم ومحاوراتهم وعاداتهم. ويضاف أيضا معرفته ايضا بلغة اخرى غير العربية، فقد ترد الى الخليفة رسالة بلغة اجنبية مع اتساع رقعة البلاد ودخول شعوب اخرى غير العربية تحت حكم العباسيين فيجنب الكاتب الخليفة حرج اللجوء الى ترجمان. إذن، لم يكن الوصول إلى مرتبة الكاتب بالمرتقى السهل؛

(1) فيصل حسين طحيمر العلى، مرجع سابق، ص 37-45

(2) الدرائع: مفردها دُرّاعة (بضم الدال وفتح العين): هي جبة واسعة مشقوقة المقدم وتختلف اشكالها حسب المناطق والبلدان، راجع الصابي (ابو الحسين هلال بن محسن)، رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، بيروت: دار الرائد العربي 1986م، ص 96

(3) قلانس وقلانيس وقلاس وقلاسي، ومفردها قلنسوة، وهي لباس للرأس مختلف الاشكال والانواع، راجع الصابي، رسوم دار الخلافة، ص ص43

(4) الخف: ما يلبس في الرجل من جلد رقيق. راجع الصابي، رسوم دار الخلافة، ص ص43

(5) قباء (بفتح القاف والباء) وتجمع على اقبية: وهي كلمة فارسية الاصل وهو ثوب يلبس فوق الثياب او القميص ويتمنطق عليه، راجع الصابي، رسوم دار الخلافة، ص 17

(6)المنطقة: تجمع على مناطق وهي ما يشد به الوسط، راجع الصابي، رسوم دار الخلافة، ص 11

(7) الشاشية: ما يوضع على الرأس وتلف عليه العمامة او توضع عليه القلنسوة، كانت تصنع في الشاش من ديار ما وراء النهر فنسبت اليها، راجع الصابي، رسوم دار الخلافة، مرجع سابق، ص43

(8) عبد السلام جمعة وطلب صبار محل، كتاب الرسائل في العصر العباسي الاول: هيئتهم (ازياؤهم) وادواتهم ومهامهم ورسومهم، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية (العراق)، المجلد 14، العدد9 ،2007م، ص 107

إذ لا بـد للمـرء أن يكـون موسـوعيَّ المعرفـة، غزيـر العلـم، جـمّ الثقافـة. وقـد كان الكاتـب يُمتحـن امتحانـاً دقيقـاً، تتبـدّى مـن خلالـه معرفتـه الأدبيـة والفكريـة. وثمـة دلائـل عديـدة، ونصـوص كثـيرة في العـصر العبـاسي الأول» تُرينـا مـا كان يُطلـب في الكاتـب مـن ثقافـة واسـعة، ومـن حصافـة وتهذيـب في الـذوق، وحلـم وأنـاة وذكاء، وقـدرة عـلى تصريـف الأمـور، وإحسـان للجـواب، ولباقـة في الخطـاب، وبلاغـة في الـكلام، بحيـث يجـذب القلـوب والأسـماع إليـه، بـل بحيـث يسـترق أفئـدة الرجـال، ويسـتولي عـلى عقولهـم اسـتيلاء».[1] وكان الفـرس يعنـون عنايـة بالغـة بالكُتّـاب وبتنشـئتهم والاهتـمام بهـم ثـم بعـد ذلـك بتقييمهـم وامتحانهـم امتحانـا قاسـيا ليختـاروا مـن بينهـم مـن يمكـن ان يخـدم في دواويـن الحـكام وعـلى ذلـك اسـتمرت العـادة في امتحـان الكتـاب أيـام العـصر العبـاسي الأول، يقـول الجهشـياري: «كان الرسـم جاريـا في ايـام الفـرس ان يجتمـع الاحـداث مـن الكُتّـاب ومـن نشـأ منهـم بـباب الملـك متعرضـين للأعـمال فيأمـر الملـك رؤسـاء كُتّابـه بامتحانهـم والتفتيـش عـن عقولهـم، فمـن رضى منهـم عـرض عليـه اسـمه وامـر بملازمـة البـاب ليسـتعان بـه، ثـم امـر الملـك بضمهـم الى العـمال وتصريفهـم في الاعـمال وتنقلهـم عـلى قـدر اثارهـم وكفايتهـم مـن حـال الى حـال حتـى ينتهـى بـكل واحـد منهـم الى مـا يسـتحقه مـن المنزلـة.»[2] وقـد انتقـل هـذا الاهتـمام بالكُتّـاب الى دولـة الاسـلام في عهـد العباسـيين فـكان الكاتـب في العـصر العبـاسي مطالبـا بإتقـان الصنعـة والالمـام بثقافـة لغويـة وادبيـة وتاريخيـة وسياسـية ودينيـة وغـير ذلـك. وتمثـل رسـالة عبـد الحميـد الكاتـب للكُتّـاب خـير مثـال للنمـوذج الـذي كان جماعـة الكُتّـاب يتطلعـون الى ادراكـه. وهـي رسـالة طويلـة في الوصايـا التـي يـوصى بهـا كاتـب محنـك جماعـة الكُتّـاب والمتطلعـين للعمـل في هـذا المنصـب المهـم في الدولـة فيقـول: «وليـس أحـد مـن اهـل الصناعـات كلهـا احـوج الى اسـتخراج خـلال الخـير المحمـودة منكـم، وخصـال الفضـل المذكـورة المعـدودة منكـم. ايهـا الكُتّـاب ان كنتـم عـلى مـا سـبق بـه الكتّـاب مـن صفتكـم فـان الكاتـب يحتـاج مـن نفسـه ويحتـاج منـه صاحبـه الـذي يثـق بـه في مهـمات امـوره الى ان يكـون حليـماً في موضـع الحلـم، فقيهـاً في موضـع الحكـم، مقداماً في موضـع الاقـدام، ومحجـما في موضـع الاحجـام، لينـاً في موضـع اللـين، شـديداً في موضـع الشـدة، مؤثـراً للعفـاف والفضـل والانصـاف، كتومـاً لـلأسرار، وفيـاً عنـد الشـدائد، عالمـاً بمـا يـأتي ويـذر ويضـع الامـور في مواضعهـا، قـد نظـر في كل صنـف مـن صنـوف العلـم فاحكمـه فـان لم يحكمـه شـدا منـه شـدوا يكتفـى بـه. فنافسـوا يـا معـشر الكُتّـاب في صنـوف العلـم والادب، وتفقهـوا في الديـن، وابـدأوا بعلـم كتـاب اللـه عـز وجـل والفرائـض، ثـم العربيـة فإنهـا ثِقـاف السـنتكم وأجيـدوا الخـط فانـه حِليـة كتبكـم واروووا الاشـعار واعرفـوا غريبهـا ومعانيهـا وايـام العـرب والعجـم وأحاديثهـا وسِـيرها فـان ذلـك مُعـين لكـم عـلى مـا تسـمون اليـه بهممكـم ولا يضعُـف نظركـم في الخـراج فانـه قـوام كُتّـاب الخـراج منكـم.»[3]

ان مثـل هـذه الوصيـة والادب العـام لجماعـة الكُتّـاب والتـي شـكلت اساسـاً لمـا تبعهـا مـن كتـب الوصايـا للكُتّـاب وكتـب الاحـكام السـلطانية يبـين لنـا الى أي درجـة كانـت هـذه الجماعـة تهتـم بوضعهـا الإداري والاجتماعـي والسـياسي في الدولـة، وكيـف كان الكاتـب يسـعى جاهـدا ليكـون في مسـتوى الحرفيـة

(1) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 485.

(2) الجهشياري، مصدر سابق، ص 2-3

(3) نفس المصدر، والوصية طويلة اوردها الجهشياري كاملة ص 48-51، واوردها ابن خلدون ايضا كاملة في المقدمة، ج1، ص 431-435

والمثالية والموسوعية الذي يتطلبه المنصب. في اواخر العهد الأموي توسعت مسئوليات الكُتّاب وتعددت مهامهم. حينئذ بات من الممكن عدّ منصب الوزير الذي اتضح فيما بعد خلفا للكاتب الأموي.[1] فعند انتقال السلطة في الدولة الاسلامية الى العباسيين اصبحت مؤسسة الكتابة في اوج عظمتها، واستحدث نظام الوزارة حيث ارتقى عدد من الكُتّاب الى درجة الوزير. وابتداء من عهد الخليفة المهدى كان الوزير هو بالضرورة كاتب ورئيس الدواوين والكتبة ويقف على رأس النظام الإداري في الدولة كما سنبين مراحل ذلك بالتفصيل فيما يلي من هذا الفصل.

انواع الكتّاب في العصر العباسي الاول:

ازدادت الدواوين في العصر العباسي وتنوعت اعمالها وتفرعها. وتخصص كل فرع في جانب محدد من جوانب العمل وتنوعت المهام التي كان الكُتّاب يؤدونها فيها. وظهرت الحاجة الى الكُتّاب المتخصصين في كل فرع من فروع دواوين الدولة، فتنوع الكُتّاب تبعا لذلك تنوعا كبيرا بحيث كما يقول ابن وهب: «صار لكل فئة منهم منهجا مختلفا عن غيره في الكتابة.»[2] ويفصل ابن وهب انواع الكُتّاب في العصر العباسي فيقول: والكُتّاب خمسة: كاتب خط وكاتب عقد وكاتب حكم وكاتب تدبير وكاتب لفظ.[3] وفيما يلي نوضح اهم المهارات التي يحتاجها كل نوع من هؤلاء الكُتّاب في صناعته واهم المهام التي ينجزها:

كاتب الخط:

يكون كاتب الخط اما وراقا ناسخا او محررا. وفى كلتا الحالتين يحتاج هذين النوعين الى مهارات مشتركة وهي حلاوة الخط، وسواد المداد وجودته، وتفقد القلم، وجودة التقدير في الكتب من ترك مسافات بيضاء متساوية عن يمين الكتاب وعن شماله واعلاه واسفله، وان تكون رؤوس السطور واواخرها متساوية، وتباعد ما بين السطور على مسافة واحدة وان تكون سعة الفقرات وضيقها على مقدار الكلام.[4] يحتاج هذان الكاتبان الى معرفة شيء من النحو بما يتناسب والعمل الذي يقومان به بحيث يسلمان من اللحن والخطأ في المكاتبات. اما الكاتب المحرر فيحتاج علاوة على ذلك الى معرفة بمراتب من يكتب إليهم من الامراء والحكام والولاة وارباب الوظائف، واستحقاق كل منهم في الرسم والادعية في مخاطبتهم في المكاتبات.[5] اضافة الى معرفة اصناف التحرير، وما يليق بكل صنف من خطوط.

كاتب اللفظ وهو المترسل:

هو المختص بالرسائل والمكاتبات التي تصدر عن الخليفة او الوزير الى سائر الناس في الدولة

(1) حمدان عبد المجيد الكبيسي، مؤسسة الوزارة في الدولة الاسلامية اصولها وتطورها، مجلة المؤرخ العربي العدد29، السنة الثانية عشرة، 1986م، ص 140

(2) ابن وهب، مصدر سابق، ص 256

(3) نفس المصدر، نفس المكان

(4) مصطفى الحيارى، مرجع سابق، ص 9-10

(5) ابن وهب، مصدر سابق، ص 271

الاسلامية او خارجها في مختلف الشئون.[1] ويحتاج هذا الكاتب الى معرفة اشمل وأدق من كاتب الخط فيحتاج الى معرفة البلاغة، ووجوه البيان المختلفة خاصة مواقع القول واوقاته واحتمال المخاطبين فلا يطيل في موقع الايجاز، ولا يوجز في موقع الاطالة، ولا يستعمل الفاظ الخاصة في مخاطبة العامة، ولا كلام الملوك مع السوقة، بل يعطى لكل نوع مقداره ووزنه.[2] ويستحب لهذا الكاتب ادخال الشعر في الكتب في حالات معينة اقتصارا وتمثيلا.[3] يحتاج هذا الكاتب ان يكون متصرفا في جميع فنون المكاتبات واضعا لما ينشئه في موضعه اذ كان للوزير ان يأمر بالمكاتبة في كل فن من الفنون المعروفة والغريبة الواردة. وكان هؤلاء الكُتّاب يجتهدون في الكتابة بأسلوب منمق وجديد بينما كان في كل ديوان قسم خاص يسمي (مجلس) يختص بالإنشاء والتحرير.[4]

كاتب العقد الكاتب الحساب:

هذا النوع من الكُتّاب لا يحتاجون الى معرفة اللغة والاعراب والبلاغة، لكنهم يحتاجون الى معرفة اصول عملهم واسرار صنعتهم مثل التقدير وحساب الجمل، والتفصيلات ومعرفة الحساب من الجمع والتفريق، والتضعيف والتصريف، والنسبة، وتثمين الذهب والفضة، وتصريف اثمان الغلات ببعضها البعض، والنسبة في تصريف الذهب والفضة بالورق والعكس. ينبغي لهذا النوع من الكُتّاب ان كونوا ضابطين لفنون الحساب حتى لا يقعوا في الخطأ مع السرعة والمهارة التي تزيد من كمالهم.[5]

ويضم هذا النوع ثلاثة اصناف من الكُتّاب وهم:

(أ) **كاتب مجلس:** يعمل كُتّاب المجلس في مجالس الدواوين المختلفة أي ادارتها في مركز الدولة. ويجب ان يتوفر لهم مع علمهم بالحساب المعرفة بأحكام الخراج وان يتمرسوا في كتابة الكتب المتعلقة بعملهم حسب اصولها المرعية وترتيب ابوابها في المعاملات الخراجية حسب الاصول الديوانية. وان يعدوا كشوفات المطالبات ليتمكنوا من مقارنتها مع كشوفات الوارد إليهم من الولايات واستخراج المخالفة فيها.[6] يجب على كاتب المجلس ايضا ان يكون عالما برسوم العبر أي تقدير معدل الغلات التي تنتجها الارض، وما يجوز ان يضاف اليها إذا لزم الامر ذلك. وان يعرف احكام الخراج، وما يجب رده على العمال من النفقات، ومردود الجاري والاحتسابات، وما ينبغي ان يحسب لهم كما ينبغي ان يعرف اساليب العمال في العمل.[7]

(ب) **كاتب عامل:** اما كاتب العامل فيعمل في الميدان أي في دواوين الولايات والاعمال. ولذلك فان الخبرة في عمله ضرورية فيجب ان يكون متمرسا بعلم الزرع، وقياس مساحات الارض لكثرة ما يرد ذلك في عمله.[8] كما يجب عليه ان يكون عارفا بطرق المعاملة مع اصحاب الارض

(1) نفس المصدر، ص284
(2) المرجع السابق، ص 10
(3) ابن وهب، مصدر سابق، ص 284
(4) المرجع السابق، ص10
(5) المصدر السابق، ص 287
(6) نفس المصدر، ص 290
(7) مصطفى الحيارى، مرجع سابق، ص12
(8) ابن وهب، مصدر سابق، ص 291

والمزارعين والذين يلجئون احيانا الى الحيلة للتهرب من دفع ما عليهم من ضرائب.[1]

(ج) **كاتب جيش:** واما كاتب الجيش فيجب ان يكون مع مهارته في الحساب وضبطه على معرفة بثلاث امور: الاطماع واوقاتها، والحلى واحكام اخذها، والارزاق وما يتوفر منها. فالأرزاق هي الاعطيات التي تعطى للجند في المرة الواحدة والتي تكون مثبتة في اصول ديوان الجند، اما الاوقات فهي المدة التي تستحق في نهايتها مخصصات كل فئة من فئات المنتسبين للخدمة العسكرية في الدولة،[2] واما الحلى فهي وصف الرجل الذي يفصل بينه وبين غيره ممن يوافق اسمه اسمه.[3]

كاتب الحكم:

هذا النوع من الكتابة هو اهم انواع الكتابة لأنها متعلقة بتطبيق احكام الشريعة الاسلامية ومن ثم الاحكام السلطانية من مظالم وغيرها. يقول ابن وهب ان كُتّاب هذا النوع لا بد ان يكونوا «عدولا في أنفسهم، عالمين بما توجبه مراتب اعمالهم، غير متعدين لرسوم احكامهم، يرحمون المظلوم ويخشنون على الظالم، يؤثرون الحق، ولا يميلون مع الهوى ولا يشرهون الى حطام الدنيا».[4] ويتعدد هذا النوع من الكُتّاب بين:

(أ) **كاتب القاضي:** اما كاتب القاضي ينبغي ان تكون عنده معرفة كافية بالأحكام الشرعية والسنن كالحلال والحرام، فاليه ترد كتب الشروط والاقرارات من بيع واجارة، او صلح ووكالة، او رهن ووصية، وكتب المحاضر والسجلات في الدعاوى التي تقدم للقاضي للفصل فيها. وعليه ان يكون على معرفة بأصول الكتابة مميزا لما تحتمله الالفاظ وملما بمذاهب الفقهاء واختلافاتهم.[5]

(ب) **كاتب المظالم:** اما كاتب المظالم فهو لا يختلف عن كاتب القاضي في الصفات التي يجب ان يتحلى بها من عدل وامانة ورأفة، وفي العلم بالشروط وما يوجبه الحكم فيها. لكنه يختلف عنه في انه لا يحتاج الى الكتب والسجلات والشهادات لأنه لا يحكم بشيء به. كما لا يحتاج التي تعديل الشهود كما هو الحال بالنسبة لقاضي الكاتب وانما عليه فقط ان يتوخى ان يكونوا من اهل الصلاح والستر في الامور التي ينظر فيها لإحقاق الحق وابطال الباطل وإذا تساوت لديه الشهادات فعليه ان يتوصل الى حكم بين الخصوم.[6]

(ج) **كاتب الخراج:** وكاتب الخراج عليه ان يكون ذا معرفة بأصول الاموال المستحقة للدولة وطرق جبايتها وتحصيلها، ووجوه انفاقها واحكام الأراضي في وظائفها، واملاك اهلها، وما يجوز للإمام اقتطاعه منها ووجوه إنفاق هذه الاموال، وسبل توزيعها. وهو في عمله يتقيد بالأصول التي يجدها في الديوان والتي على اساسها يقوم بجباية الاموال من المعاملين في الولايات.[7]

(د) **كاتب الشرطة:** اما كاتب الشرطة فعليه ان يكون ملما بالأحكام التي تحتاجها طبيعة صاحب

(1) المرجع السابق، ص 12-13
(2) نفس المرجع، ص13
(3) ابن وهب، مصدر سابق، ص 295-296
(4) ابن وهب مصدر سابق، ص 301
(5) نفسه، ص 302
(6) مصطفى الحيارى، مرجع سابق، ص 16
(7) نفس المرجع، ص17

الشرطة حتى يتمكن من اتخاذ الاحكام المناسبة بحق مرتكبيها، وهذه المعرفة ترتكز على لمعرفة والفهم لأحكام الله سبحانه في الجنايات والديات والحدود والجراح.[1]

كاتب التدبير او الوزير:

يمثل كاتب التدبير اعلى مراتب صناعة الكتابة. وكان لا يصل الى هذه المرتبة الا اعداد قليلة من الكُتّاب القديرين الذين كانوا على الاغلب قد مارسوا صنعتهم مدة طويلة واكتسبوا خبرة واسعة في مختلف جوانب الحياة العامة في الدولة. ونظرا للصلاحيات الواسعة التي تمتع بها الوزراء في الخلافة العباسية فقد كان على الخليفة ان يختار الوزراء بدقة ويتوخى فيهم ان يكونوا ممن يجمعون مع الصلاح ادبا وحكمة، ومع العقل تجربة وحنكة.[2] وفيما يلي نفصل كل ما يتعلق بنظام الوزارة وشروطها وانواعها كما نفصل في نهاية هذا الفصل التدرج الذي سار عليه الكُتّاب في عصور الدولة الاسلامية حتى استطاع بعضهم ان يصل الى مرتبة الوزير.

الـــــوزارة والوزراء:

اختلف العلماء في اشتقاق كلمة (الوزارة) يقول الماوردي انها مشتقة على ثلاثة اوجه: أحدها انه مأخوذ من الوزر وهو الثِقل لأنه يحمل عن الملك اثقاله. والثاني انه مأخوذ من الوَزر وهو الملجأ قال الله تعالى (كَلَّا لَا وَزَرَ)[3] أي لا ملجأ فسمى بذلك لان الملك يلجأ الى رأيه ومعونته. والثالث انه مأخوذ من الازر وهو الظهر لان الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بالظهر.[4] ويؤيد ابن طباطبا انها اما مشتقة من الوزر بفتح الزال والراء ومعناه الملجأ والمعتصم وهذا يعنى ان الوزير يرجع اليه ويُلجأ الى رأيه وتدبيره، او من الوِزر بكسر الواو وهو الثِقل وهذا يعنى ان الوزير يحمل الثِقل.[5] ويقول ابن خلدون: الوزارة هي ام الخطط السلطانية، والرتب الملوكية لان اسمها يدل على مطلق الاعانة، فان الوزارة مأخوذة اما من المؤازرة وهي المعاونة، او من الوزر وهو الثقل كأنه يحمل مع الملك اثقاله وهو راجع الى المعاونة المطلقة.[6] ان المعنى الذي يبين من هذه الوجوه كلها ان اسم الوزارة يدل على مطلق المعاونة والمساندة، وليس هناك ايضا مجال لترجيح أحد هذه الوجوه على الاخرى لان العلماء وان اختلفوا على أصل اشتقاق الكلمة فقد اتفقوا على معناها ودلالتها.

ورد لفظ وزير في القران الكريم على لسان نبي الله موسى مخاطبا ربه (وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي)[7] أي معينا ومساعدا. وقال (ص): (ما من نبي الا وله وزيران من اهل السماء ووزيران من اهل الارض فأما وزيراي من اهل السماء فجبريل وميكائيل واما وزيراي من اهل

(1) المصدر سابق، ص 321
(2) نفسه، ص 328
(3) سورة القيامة، اية 11
(4) الماوردي، مصدر سابق، ص33
(5) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 153
(6) ابن خلدون المقدمة، ج1، ص419
(7) سورة طه، الآية 29

الارض فأبوبكر وعمر).[1] وقد قال ايضا: (من ولى منكم عملا فأراد الله به خير اجعل له وزيرا صالحا ان نسى ذكره وان ذكر اعانه).[2] وقد وردت كلمة وزير ايضا في اقوال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، اذ روى عن الخليفة عمر بن الخطاب انه أرسل عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود الى ال الكوفة وقال: (انى بعثت اليكم بعمار بن ياسر اميرا وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا).[3] وكانت الوزارة بمدلولها اللغوي والاصطلاحي معروفة لدى المسلمين منذ وقت مبكر اذ جاور المسلمون دولتي الفرس والروم وكانت هاتين الدولتين تعرفان رتبة الوزير وتطلقانها على من يعين في هذا المنصب. يقول الثعالبي: « فأما اتخاذ الملوك الوزراء فلم تزل ملوك الفرس تنتخب الوزراء واهل المشورة والتدبير وقلما كان ملك من عظماء ملوكهم الا وكان له ثلاث وزراء او اكثر الى سبعة وعشرة.»[4] فأما العرب فكانوا يطلقون اسماء عديدة على معاون الملك دون ان يسمونه وزيرا. يقول المسعودي: «كانت العرب تسمى وزير الملك من ملوك اليمن والشام والحيرة (الراهن) و(الزعيم) و(الكافي) و(الكامل) تريد بذلك انه مرتهن بالتدبير، زعيم بصواب الرأي، كاف للملك مهمات الامور، كامل الفضائل. وكانت العجم تسمى وزير الملك من ملوكها حامل الثقل، ووسادة العضد، ورئيس الكفاة، ومدبر الامور العظام، اذ بهم نظام الامور، وجمال الملك، وبهاء السلطان، وهم الالسن الناطقة عن الملوك وخزان اموالهم وامناؤهم على رعيتهم وبلادهم).[5] ولم يختلف مدلول لفظ الوزير في هذه الدول عن مدلولها الذي أطلقت عليه في الدولة الاسلامية بعد ان قننت قوانينها وتأسست دعائمها في العصر العباسي.

تاريخ الوزارة في الدولة الاسلامية:

لما جاء الاسلام كان النبي (ﷺ) يشاور اصحابه في الامور العامة والخاصة وان لم يطلق عليهم لقب وزراء، لأنه صلى الله عليه وسلم كان مأمورا بان يستشير اصحابه والاخذ برأي العالم البصير بالأمور في كل واقعة على حده، قال تعالى (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ).[6] وكان (ص) مع ذلك يخص ابوبكر ببعض الامور،[7] فكان العرب الذين عرفوا احوال الدول والملوك الذين سبقوا الاسلام مثل كسرى وقيصر والنجاشي يسمون ابوبكر وزير الرسول (ص).[8] ولكن لم تكن مؤسسة الوزارة رسمية في عهد الرسول ولم يكن هناك منصب وزير. واستمر الحال كذلك في العصر الراشدي، اذ كان ابو بكر الصديق يستشير عمر ويستعين به في حمل اعباء الحكم فقد كان عمر يوزع الزكاة في عهد ابوبكر على مستحقيها ويجلس للقضاء. وكذلك الحال لما افضت الخلافة الى عمر كان عمر يستشير

(1) الترمذي (ابو عيسى محمد بن عيسى)، سنن الترمذي: القاهرة: الباب الحلبي، 1965م، ج5، ص616، حديث رقم 2680

(2) القرطبي (ابو عبد الله محمد احمد): الجامع لأحكام القران، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية 1963م، ج 11، ص 193

(3) حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن، النظم الاسلامية، ص113

(4) الثعالبي، مصدر سابق، ص41

(5) المسعودي، التنبيه والاشراف، ص 339-340

(6) سورة ال عمران، الآية 159

(7) حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن، النظم الاسلامية، ص 113

(8) ابن خلدون، المقدمة، ج1، ص 420

عثمان وعلي.[1] كان هؤلاء الاعوان يعملون عمل الوزراء وان كان اسم الوزير لم يطلق عليهم وذلك لبساطة امور الدولة وبعدها عن ابهة الحكم.[2] وقد انتهى العصر الراشدي دون ان يكون هناك منصب رسمي للوزير. وفي العهد الاموي اختار الخلفاء الامويون بعض الرجال البارزين من ذوي الرأي والسياسة ليستشيروهم في الامور المهمة ويستعينوا بهم في اعباء الحكم ويقوموا بأعمال الوزراء من غير ان يلقبوا بالوزراء.[3] وفي ذلك يقول المسعودي[4]: «كانت بنو امية تنكر ان تخاطب كاتبا بالوزارة، وتقول الوزير مشتق من الوزارة والخليفة اجلّ من ان يحتاج الى مؤازرة».[5] وكان الامويون يطلقون على الوزير (كاتبا) أو (مشيرا).

اما في بداية العصر العباسي ونتيجة لاتساع الاعمال الادارية وتشعبها فقد ظهر منصب الشخص الثاني بعد الخليفة، وهو الشخص المعاون الرئيسي للخليفة في تسيير الامور الادارية والملازم له. وكان في البداية يشار اليه بعدة القاب منها المعاون للخليفة، والمدبر للأمور والمكلف بالعرض على الخليفة وكاتب الخليفة ووزيره ثم تغلب لقب الوزير على التسميات الاخرى وأصبح يطلق على صاحب المرتبة الثانية بعد الخليفة.[6] فكان الخليفة هو مصدر كل قوة، كما كان مرجع كل الاوامر المتعلقة بإدارة الدولة، وكان الوزير هو معاونه وساعده الايمن، يقضى باسمه في جميع شئون الدولة. فكان له الحق في تنصيب العمال وصرفهم والاشراف على جمع الضرائب والقيام على موارد الدولة ومصروفاته. كما أشرف على الدواوين فناب عن الخليفة في حكم البلاد وجمع في شخصه السلطتين المدنية والحربية بجانب الواجبات العادية من معاونة الخليفة، ونصحه ومساعدته. وكانت حكومة الخليفة تعرف (بديوان العزيز) وكانت مهمة الوزير الاشراف على هذا الديوان. وقد ظهر بتوالي الايام ان واجبات الوزير كثيرة مرهقة لا يستطيع القيام بها رجل واحد فأصبح يختار موظفين للإشراف على الدواوين ومساعدته في اعبائه.[7]

اشار ابن طباطبا الى ان عصر الدولة العباسية هو العصر الذي شهد تقنين قوانين الوزارة وتأسيس دعائمها بقوله: «والوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها الا في دولة بنى العباس، فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين بل كان لكل واحد من الملوك اتباع وحاشية، فاذا حدث امر استشار ذوي الحجا والآراء الصائبة فكل منهم يجرى مجرى الوزير، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسُمّى الوزير وزيرا وكان قبل ذلك يُسمى كاتبا او

(1) نفس المصدر، ص114

(2) حمدان عبد المجيد الكبيسي، مرجع سابق، ص 140

(3) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 153

(4) المسعودي، التنبيه والاشراف، ص 339

(5) يشيرون الى ان كلمة (وزير) مشتقة من الوزر بفتح الزال والراء ومعناه الملجأ والمعتصم وهذا يعنى ان الوزير يرجع اليه ويُلجأ الى رأيه وتدبيره، او من الوِزر بكسر الواو وهو الثِقل وهذا يعنى ان الوزير يحمل الثِقل فيعين الخليفة ويحمل عنه اعباءه.

(6) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 153

(7) حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن، النظم الاسلامية، ص 164

مشيرا.»[1] بالوصول الى خلافة الرشيد اصبحت كلمة ومنصب الوزير وظيفة ظاهرة وثابتة المعالم، وأصبح يُطلق على الوزير وزيرا ويتقاضى راتب وزير وله صلاحيات النظر والبت في امور اقرها له الخليفة. وباستقرار نظام الخلافة وتطور النظم الإدارية تطورت سلطة الوزير في تصريف شئون الحكم، وكانت لهم في بعض الفترات صلاحيات غير محدودة كالصلاحيات التي اعطيت ليحي البرمكي في زمن الرشيد مثلا، وان كانت هذه الصلاحيات ترتبط بشخص الخليفة الى درجة بعيدة فبعض الخلفاء مال الى تحجيم دور وزرائه كثيرا بينما اعطى البعض الاخر وزراؤهم صلاحيات واسعة.

من هنا نرى ان نظام الوزارة في الدولة الاسلامية نشأ من اولويات بسيطة وتدرج في النمو حسب وضع الخلفاء وقوتهم وتطور الاتجاهات الإدارية. اما الاسس النظرية التي وضعها الفقهاء فقد جاءت متأخرة نسبيا ومتأثرة بالواقع. لذلك فان نظرية الوزارة وشروطها وضعت متأخرة مستفيدة من التجارب السابقة مع اضافة شيء من التهذيب والكثير من الآراء النظرية. اسهمت مؤسسة الوزارة بدور فاعل في توجيه نظام الدولة الاسلامية ورسم سياستها العامة. وتعتبر المصادر التي ذكرتها في الفصل الاول هي امثلة من المرجعية لفهم الفكر السياسي والإداري للدولة الاسلامية ولفهم نظام الوزارة وتدرج السلطات والصلاحيات التي اعطيت للوزراء حتى نهاية العصر العباسي الثاني، بل وحتى عصر الدولتين الفاطمية والمملوكية اذ ورثتا نظام الوزارة بكل قواعده ومراسمه من عصر الدولة العباسية.

شـــــروط الوزارة:

اورد المؤرخون والعلماء شروطا كثيرة للوزارة تتمحور كلها حول بعض الصفات الجوهرية التي ينبغي للوزير ان يتمتع بها، ومنها العلم، والكفاءة، والصدق، والامانة، والقدرة على التعامل مع الملوك من جهة، ومع عامة الناس من جهة أخرى. يقول ابن طباطبا في ذلك: «الوزير وسيط بين الملك ورعيته فيجب ان يكون في طبيعته شطر يناسب طباع الملوك، وشطر يناسب طباع العوام، ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة، والامانة والصدق رأس ماله. قيل: إذا خان السفير بطل التدبير وقيل: ليس لمكذوب رأى، والكفاءة والشهامة من مهماته، والفطنة والتيقظ والدهاء والحزم من ضروریاته، ولا يستغنى ان يكون مفضالا مطعاما ليستميل بذلك الاعناق، وليكون مشكورا بكل لسان، والرفق والاناة والتثبت في الامور، والحلم والوقار، والتمكن ونفاذ القول، مما لابد منه».[2] وقد اشترط على الوزير ايضا ان يكون على معرفة بالأمور الادارية وادارة الدواوين، وكيفية ادارة اموال الدولة واستثمارها وموازنة الامور المالية، والقدرة على التعامل مع الجند، وضمان السيطرة عليهم لحفظ الامن وتأمين البلاد والثغور. يقول الثعالبي: « ينبغي ان يختار للوزارة من اجتمعت فيه الاخلاق الحميدة والافعال الرشيدة وعرف بالآراء السديدة وجودة التدبير وصواب الآراء المفيدة، فتكون فيه العدالة والنزاهة والشجاعة والسياسة. وإذا كان زمان

(1) المصدر السابق، نفس المكان

(2) نفسه، ص152

الصلح والهدنة يصلح ان يكون الوزير حليما ساكنا. وإذا كان زمان الفتن والحروب يصلح ان يكون شجاعا صارما. وقال بعض الفضلاء شرائط الوزارة خمسة: اولها العدل: ليكون منصفا في حكمه وتسلم الرعية من ظلم غيره وظلمه، والثاني: الامانة ليفي بما عليه ويتوفى ما له ولا يختزل لنفسه فتسير عماله بسيرته، والثالث: الكفاية وهي العلم بالأعمال الديوانية والتصرفات ووجوه تثمير الاموال والاستخراجات فيضع الامور في مواضعها ويرتب الاعمال على قواعدها، والرابع: السياسة فيعرف مداراة الجند وتأليفهم وجمعهم وتفريقهم ويكون خبيرا بالمكائد الحربية والخدع وحفظ البلاد والثغور والقلاع.»[1]

لقد جهد الخلفاء العباسيون في التماس هذه الخصال بعضها او كلها في وزرائهم. وكانت معايير اختيارهم لهؤلاء الوزراء عالية وتتطلب الكثير من الكفاءة الحرفية والشخصية والإدارية. يحكى الماوردي ان الخليفة العباسي المأمون كتب في اختيار وزير: «انى التمست لأموري رجلا جامعا لخصال الخير، ذا عفة في خلائقه، واستقامة في طرائقه، قد هذبته الآداب واحكمته التجارب، ان اؤتمن على الاسرار قام بها، وان قلد مهمات الامور نهض فيها، يسكته الحلم وينطقه العلم وتكفيه اللحظة وتغنيه اللمحة. له صولة الامراء، واناة الحكماء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، ان أحسن اليه شكر وان ابتلى بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه.»[2] اضافة الى هذه الشروط الادبية والاخلاقية يورد الثعالبي ان الوزير يحتاج ايضا ان تجتمع فيه شروط اخرى وهي: الاسلام والبلوغ والعقل والعدالة واما الحرية فقد اختلف في اشتراطها والصحيح انها لا تشترط كالملك وامامة الصلوات. ويحتاج مع ذلك ان يكون موصوفا برزانة العقل، وجودة الآراء، والمعرفة بالسياسة، لا تبهره الامور وان عظمت، ولا تدهشه الآراء والاعمال إذا تكاثرت، وليكن فيه الثبات والوقار والنهضة والتنفيذ والتقرير.[3]

انـــواع الوزارة

قسم فقهاء المسلمين الوزارة إلى نوعين:

وزارة التفويض: وهي ان يعهد الخليفة بالوزارة الى رجل يفوض اليه النظر في امور الدولة والتصرف في شئونها دون الرجوع اليه ولم يبق للخليفة بعد ذلك الا ولاية العهد وسلطة عزل من يوليهم الوزير.[4] يقول الماوردي انه يُعتبر في شروط هذه الوزارة جميع شروط الامامة الا النسب، ويحتاج الى شرط زائد على شروط الامامة وهو ان يكون من اهل الكفاية فيما يوكل اليه من امر الحرب والخراج. يجوز لوزير التفويض ان يحكم وان يقلد الحكام، وان ينظر في المظالم ويستنيب فيها، ويجوز له ان يتولى الجهاد بنفسه وان يقلد من يتولاه، وان يباشر الامور التي دبرها وان يستنيب في تنفيذها. ويرى الماوردي ان وزير التفويض بذلك يصح له كل ما يصح للخليفة الا ثلاثة اشياء هي: ولاية العهد لأنها من حق الخليفة فهو الذي يجوز له وحده ان يعهد بها الى من يرى

(1) الثعالبي، مصدر سابق، ص61-62

(2) الماوردي، مصدر سابق، ص 30-31

(3) المصدر السابق، ص 77

(4) حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن، النظم الاسلامية، ص121

وليس ذلك للوزير. والثانية ان يستعفى الامة من الامامة وليس ذلك للوزير. والثالثة ان يعزل من قلده الوزير بينما لا يستطيع الوزير ان يعزل من قلده الخليفة.[1] ومن حق هذا الوزير ان يتنقل في الاقاليم لأنه يصلح البلاد ويسوس العباد بينما يسكن الخليفة سرة البلاد (أي مركزها) ووسطها.[2]

وزارة التنفيذ: وهي حين يكون الوزير وسيطاً بين الخليفة والرعية والولاة. وتقتصر مهمته في هذه الوزارة على تنفيذ اوامر الخليفة وعدم التصرف في شئون الدولة من تلقاء نفسه بل يعرض امور الدولة على الخليفة ويتلقى اوامره فيها ويكون الوزير بهذا واسطة بين الخليفة ورعيته.[3] يرى الماوردي ان وزارة التنفيذ حكمها أضعف وشروطها اقل من وزارة التفويض، لان النظر فيها مقصور على رأى الامام وتدبيره وهذا الوزير وسيط بينه وبين الرعايا والولاة يؤدى عنه ما امر وينفذ عنه ما ذكر، ويمضي ما حكم، ويخبر بتقليد الولاة وتجهيز الجيوش، ويعرض عليه ماورد من احداث مهمة ليعمل فيها ما يؤمر به. فهو معنى بتنفيذ الامور وليس بوال عليها ولا متقلد لها. وتراعى فيه شروط ذكرها الماوردي وهي: الامانة حتى لا يخون فيما اؤتمن عليه والصدق حتى يوثق بخبره فيما يؤديه، وقلة الطمع حتى لا يرتشى فيما يلي، وان يسلم ما بينه وبين الناس من عداوة وشحناء لان العداوة تصده عن انصاف الناس وتمنع تعاطفه معهم، وان يكون حاضر الذهن (ذكورا لما يؤديه الى الخليفة وعنه لأنه شاهد له وعليه)، واخيرا الذكاء والفطنة حتى لا تشتبه عليه الأمور.[4] ووزير التنفيذ يتعين عليه الا يغيب عن موضع الملك لأنه يحتاج الى مشورته ومراجعته في أكثر الامور الحوادث فلا يبعد عنه ليلا ولا نهارا.[5]

صيغة تقليد الوزارة:

لا يحتاج وزير التنفيذ الى عقد وصيغة خاصة في توليه الوزارة وانما يكتفى فيها بمجرد الاذن ومطلق الاسم لأنه منفذ لأوامر الخليفة فحسب، وليس متقلدا لها ولا مستقلا بالسلطة ومن ثم فانه لا يحتاج الى تقليد.[6] واما وزارة التفويض فإنها عقد والعقد لا يتم الا بالقول الصحيح، ويجب ان يلاقى عرضه القبول من جانب الوزير. ويصح ان يقول الخليفة للوزير: (فوضت اليك وزارتي) لتنعقد بذلك وزارة التفويض. وقد استحسن الماوردي هذه الصيغة وقال انها أفخم صيغة عقدت بها وزارة التفويض واوجزها.[7] وبموجب هذه الصيغة تكون للوزير المفوض صلاحيات واسعة ومطلقة. وخير تصوير لهذه الصلاحيات المطلقة التي اعطيت لوزير التفويض في العهد العباسي هي الصلاحيات التي اعطيت ليحي البرمكي في عهد هارون الرشيد الذي عين يحيى بن خالد البرمكي وزيرا مفوضا عنه وقال له «قلدتك امر الرعية واخرجته من عنقي اليك فاحكم في

(1) الماوردي، مصدر سابق، ص 30
(2) الثعالبي، مصدر سابق، ص 81-82
(3) حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن، النظم الاسلامية، ص 121
(4) الماوردي: مصدر سابق، ص 34
(5) الثعالبي، مصدر سابق، ص 82
(6) الماوردي، مصدر سابق، ص 34-35
(7) الثعالبي، مصدر سابق، ص34

ذلك ما ترى من الصواب واستعمل من رأيته اعزل من رأيت وامضي في الامور على ما ترى.»[1]

مراسم تقليد الوزراء:

كان الخليفة العباسي إذا وقع اختياره على من يرشحه لمنصب الوزارة أرسل اثنين من الامراء يحملان كتاب الخليفة الى الانسان الذي وقع عليه الاختيار لمنصب الوزارة. فيسير الزير المختار الى دار الخلافة ثم يمثل بين يدي الخليفة، وينصرف بعد ذلك الى حجرة اخرى في دار الخلافة حيث يرتدى لباس التشريف ثم يمثل به مرة اخرى بين يدي الخليفة، فيقبل يده ثم ينصرف. فاذا بلغ الباب وجد حصانا مزينا في انتظاره فيمتطيه ويسير به الى دار الوزارة وقد سار امامه كبار الموظفين والقواد ورجال البلاط وحجاب القصر والموالي. فاذا وصل ترجل وسط مظاهر الاحتفال ثم يقرا سجل تعيينه.[2] كما اورد الصابي ايضا ان العادة كانت إذا قرر الخليفة ان ينتخب أحدهم للوزارة ان يستدعيه لمقابلته ثم يخطره باختياره للمنصب ثم يعود في الغد فيخلع عليه الخليفة الوزارة، فيخرج من قصر الخلافة في موكب يضم الحجاب والامراء والقواد وكبار رجال الدولة حتى يصل الى داره.[3] فاذا وصل الوزير الى داره حضر الناس على طبقاتهم للسلام والتهنئة، كان الخليفة يرسل له مالا وثيابا وطِيبا وطعاما واشربة وثلجا.[4]

رسوم الوزير في الزي والعمل:

كان رسم الوزير في لبسه هو رسم سائر العمال في الدولة فكان يلبس دُرّاعَة وقميصا مبطنة[5] وخفاً. وكان السواد هو اللباس الرسمي للوزراء، واما في ايام الاحتفالات الرسمية فكان الوزير يرتدى ثياب الموكب وهي قِباء وسيف بمنطقة وعمامة سوداء وهي الجزء الذي لا ينزعه الوزير من لباسه عادة.[6] كان من رسم الوزير ان يغدو اليه الكتاب فيوافقهم على الاعمال، ويسلم الى كل منهم ما يتعلق بديوانه، ويوصيه بما يريد وصايته به. ثم يروحون اليه بما يعملونه من اعماله فيوافقهم عليه، وعلى ما اخرجوه من الخروج وقضوه من الامور ويقيمون عنده الى بعض الليل فتعرض عليه الكتب بالنفقات والتسبيبات والحسبانات. فاذا خف العمل قام من مجلسه وانصرفت الجماعة بعد قيامه. وفي مثل هذا المجلس كان الكُتّاب يجلسون امام الوزير كل في مكانه ومعه دواته وكان رئيس هؤلاء الكُتّاب يجلس متقدما عليهم.[7]

كان رسم الوزير ايضا الا يذهب الى دار الخلافة الا في ايام الموكب وكان ذلك يومي الاثنين والخميس في بداية القرن الرابع الهجري. وقد جرى الرسم ان يساير الوزير إذا ذهب الى

(1) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 134

(2) حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن، النظم الاسلامية، ص 116

(3) الصابي، الوزراء، ص 82

(4) ادم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري او عصر النهضة في الاسلام، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة، بيروت: دار الكتاب العربي، (د.ت)، ص 170

(5) مبطنة: ضرب من الاردية يلبس فوق الثياب له بطانة قوية ثخينة، راجع الصابي، رسوم دار الخلافة، ص96

(6) ادم متز، مرجع سابق، ص 169

(7) نفس المرجع، ص 170-171

دار الخلافة واحد من كُتّابه الاربعة الذين يتولون الديوان. وكان للوزير في دار الخلافة دار مفردة يجلس فيها والخواصي والحواش بين يديه حتى يستدعيه الخليفة.[1] وكان الوزير إذا جلس الى الخليفة يجلس مواليا له بوجهه وهي عادة المرؤوس بالنسبة لرئيسه. وإذا اراد ان يكتب شيئا في حضرة الخليفة تحضر له دواة لطيفة بسلسلة فيمسكها بيديه اليسرى ويكتب بيده اليمنى، وكان الخليفة المقتدر قد امر بذلك لما رأى مرة مشقة ذلك على وزيره على بن عيسى فامر بان يقف بعض الخدم فيمسك الدواة الى ان يفرغ من الكتابة. وكان على بن عيسى اول وزير يكرم بهذا ثم صار رسما للوزراء من بعده.[2] كانت دار الوزارة حتى عام 320هـ هي الدار التي كانت قديما لسليمان بنو وهب[3] على الشاطئ الشرقي لنهر دجلة والتي كانت تسمى (دار المخرم) وهي دار واسعة كانت تربو في مساحتها على ثلاثمائة ألف ذراع. وكان يقف على باب الوزير في هذه الدار كثير من الرجال لحراستها. واما في مجلسه فكان هناك غلمان مسلحون يسيرون بين يدي الوجوه من الناس ويخرجون بين يدي الوزير دائما يجرون سيوفهم والناس يشاهدونهم.[4] وعادة كانت العلاقة بين الخليفة ووزيره علاقة احترام تشوبها المودة على اقل تقدير فقد كانت العادة ان يتفقد الخليفة احوال وزيره ويواسيه عندما تنزل به الشدائد او تلم به الخطوب.[5]

دور وصلاحيات الوزير في العصر العباسي الاول

كان الوزراء كُتّابا بالدرجة الاولى بثقافتهم ومؤهلاتهم.[6] وكان الوزير يساعد الخليفة وينوب عنه في حكم البلاد، وتنصيب العمال، والاشراف على الضرائب، وكان يجمع في شخصه السلطتين المدنية والحربية بجانب الواجبات العادية من نصح الخليفة ومساعدته. كانت من اهم اعمال الوزير في الدولة العباسية هي الاشراف على حسابات الدولة من دخل ومنصرف. وكانت هذه المهمة تتطلب منه دراية واسعة بإيرادات الدولة ومواردها الاقتصادية في مختلف الامصار والاقاليم. وكان بحكم منصبه هو المشرف على ديواني الخراج وهما ديوان الدخل وديوان النفقات (هو ديوان المنصرف). وكانت قدرة الوزير الادارية تظهر في المحافظة على ميزانية الدولة بين الدخل والمنصرف. والى جانب ذلك كان الوزير ايضا هو المسئول عن ديوان الانشاء، ولهذا جرت العادة ان يكون الوزير من بلغاء اللغة لأنه هو الذي يتولى بنفسه الاشراف على ديوان الرسائل

(1) نفسه، ص 172

(2) نفس المرجع، نفس المكان

(3) سليمان بن وهب بن سعيد بن عمرو بن الحصين الحارثي (190هـ - 272هـ). ينتمي الى عائلة بنو وهب واصلهم من نصارى العراق. توارث عشرة منهم أرقي المناصب في الدولة العباسية. وكان اربعة منهم وزراء منهم سليمان المذكور. وهو أخو الحسن بن وهب، كان جدهما سعيد نصرانيا يكتب في دواوين الخراج ثم استخدم الفضل بن سهل وهبا ونوه بذكره وولاه نظر فارس. وهو جد ابو الحسين اسحق بن ابراهيم بن سليمان واضع كتاب البرهان في وجوه البيان. تأدب سليمان في صغره وكتب للمأمون وهو حدث ووزر للمهتدى وللمعتمد العباسيين. نكبه الخليفة الموفق بالله وحبسه حتى مات في الحبس. راجع سيرته في القضاعي، مصدر سابق، ص41

(4) ادم متز، مرجع سابق ص171-172

(5) حمدان عبد المجيد الكبيسي، مرجع سابق، ص 142

(6) عبد العزيز الدوري، النظم الاسلامية، ص 192

الـذي سـمى فيـما بعـد بديـوان الانشـاء.[1] كذلـك كان عـلى الوزيـر ان يكـون ملـمًا بأصـول الآداب السـلطانية ليعـرف كيـف يعامـل الخلفـاء، وان يكـون دارسـا لعقليـة الجماهـير ليعـرف كيـف يسوسـهم.[2]

كـما هـو معـروف فـان منصـب الـوزارة في الدولـة العباسـية ارتبـط بشـخصية ابى سـلمة الخـلال اول وزيـر لآل العبـاس، والـذي ابـلى في اول امـر الدعـوة العباسـية ولكنـه حـاول في النهايـة تحويـل الخلافـة للعلويـين فتخلـص منـه ابـو العباس السـفاح سـنة 132هـ. وقـد ادت النهاية المأسـاوية لأبى سـلمة ان يتحـاشى مـن اتى بعـده التسـمي بالـوزارة لأنهـم اعتقـدوا بانهـا (اى الـوزارة) شـؤم عـلى صاحبهـا. [3] وإذا دققنـا النظـر في الصلاحيـات التـي اعطيـت لأبى سـلمة في اول خلافـة ابى العبـاس السـفاح فنجـد ان السـفاح اسـتوزره وأطلـق عليـه (وزيـر ال محمـد). وقـد اجمـع الكثـير مـن المؤرخـين ان ابـا سـلمة كان قـد حـاز عـلى هـذا اللقـب قبـل فـترة الدعـوة، وان كانـوا قـد اختلفـوا حـول الصلاحيـات التـي منحـت لـه فقـد كان الرجـل صاحـب السـلطة الفعليـة في الكوفـة، كـما اسـس دواويـن جديـدة وقـام بتعيـين الـولاة والعـمال عـلى الاقاليـم المختلفـة، اذ مـما يـورد الجهشـيارى يُفهـم انـه عسـكر في (حـمام اعـين) قـرب الكوفـة واقـام بهـا ووزع عمالـه وأنشـأ دواوينـا جديـدة، ولكنـه لم يتـول ديـواني الرسـائل والخـراج اذ ولاهمـا ابـو العبـاس لخالـد بـن برمـك.[4]

وباسـتقرار نظـام الخلافـة وتطـور النظـم الإداريـة في الدولـة العباسـية تطـورت سـلطة الوزيـر في تصريـف شـئون الحكـم. ولم تكـن صلاحيـات مـن تولـوا هـذا المنصـب محـدودة، بـل كانـت تتوقـف عـلى مـدى سـلطة الخليفـة مـن قـوة وضعـف. فقـد تمتـع بعـض الـوزراء بصلاحيـات وسـلطات إداريـة واسـعة وبعضهـم لم يعـط إلا سـلطات محـدودة. ومـع ذلـك فانـه يمكـن القـول ان ظهـور فكـرة الـوزارة واشـتراك الفـرس في النظـام الجديـد، ثـم ظهـور وزراء اقويـاء فيـما بعـد مثـل البرامكـة ادى بمـرور الزمـن الى تكـون نظـام الـوزراء الحقيقـي والى رسـوخه كأسـاس لـلإدارة العباسـية، حيـث بـدأت شـخصيات الـوزراء تسـطع مـع بدايـة عهـد الخليفـة العبـاسي المهـدى (158-169هـ) لمـا سـاد الدولـة مـن هـدوء نسـبى. ثـم صـار للـوزارة شـأن كبـير في خلافـة هـارون الرشـيد (170-193هـ)، والمأمـون (198-218هـ) لاعتـماد الأول عـلى البرامكـة، والثـاني عـلى بنـى سـهل، فمُنِـحَ يحيـى البرمـكي وزيـر الرشـيد، والحسـن بـن سـهل وزيـر المأمـون صلاحيـات وسـلطات واسـعة جعلـت نفوذهـما يمتـد إلى مرافـق الدولـة جميعهـا.

الكتابة والطريق الى الوزارة:

يقـدم هـذا الجـزء لمحـة موجـزة للتطـور الـذي طـرأ عـلى دور الكاتـب منـذ صـدر الدولـة الاسـلامية وانتهـى بوقوفـه عـلى رأس الجهـاز الإداري في الدولـة العباسـية في بدايـة عهدهـا الأول. وبكلمـة اخـرى فانـه يبحـث في التـدرج الـذي طـرأ في وضـع الكاتـب حتـى انتهـى الى الـوزارة. فقـد بـدأ الكاتـب معاونـا لا غـير في العمليـات الكتابيـة في صـدر الاسـلام، ولم يكـن يملـك حريـة التـصرف في النـص الـذي يحـرره. وتطـور دوره تدريجيـا الى دور الناصـح والمعـين للخليفـة في العهـد الأمـوي وتطـورت صلاحياتـه في

(1) القلقشندي، مصدر سابق، ص 90

(2) احمد مختار العبادي، مرجع سابق، ص 35

(3) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 156

(4) الجهشيارى، مصدر سابق، ص58

الكتابة للخليفة فأصبح يتحكم في محتوى النص، وطريقة الكتابة، واقتصر دور الخليفة على الاطلاع على الرسائل وتوقيعها بعد الموافقة عليها. ثم تطور دور الكاتب ومهامه حتى ظهر منصب الوزارة في بداية الدولة العباسية فتقلدها المتميزين من الكتاب في الدولة. ان دراسة هذا التطور الذي طرأ في دور الكاتب يكشف لنا الكثير من تطور نظم الحكم في الدولة الاسلامية، والاتجاهات والتيارات الحضارية التي اتخذتها وتأثرت بها. كما يكشف ايضا عن طبيعة مجتمعها وعلاقته بالعلم والادب. ويفسر دور الكاتب كيف بدأت الوزارة مؤسسة ادارية ويبين لنا علاقة الوزير بطبقة الكتاب وبهذا يمهد لفهم الادوار السياسية والثقافية والاجتماعية التي مثلها كُتّاب العصر العباسي الاول.

كان الكاتب في عهد الراشدين محدود الصلاحيات وكان تابعا للخليفة او الوالي بحيث لم يكن في مقدوره ان يتحكم في محتوى الرسائل، او شكلها، وكان يكتفى بكتابة ما يملى عليه حرفيا، ولم يكن له الحق في انفاذ الرسائل، وتلقيها، ولا فتحها قبل ان يطلع عليها الخليفة. وتلك ظاهرة اشار اليها الجهشيارى في قوله: « كان عمر بن الخطاب يملى على كاتب بين يديه، فكتب الكاتب غير ما قال عمر فقال له زياد بن ابيه: يا امير المؤمنين قد كتب غير ما قلت، فنظر في الكتاب فكان كما قال زياد فقال عمر: انىّ علمت هذا؟ فقال زياد: رأيت رجع فِيك وخطه فرأيت ما احارت كفه غير ما رجعت به شفتيك».[1] فهذه الرواية قد تكون غير موثقة تاريخيا الا ان دلالتها مهمة اذ تشير الى ان الكاتب في ذلك العصر لم يكن في مقدوره ان يقوم بتحوير المادة التي تملى عليه، وان المهمة المتوقعة منه هو ان يكتب ما يملى عليه بحيث يكون المنطوق صورة عن المكتوب لا أثر فيه لصياغة مستحدثة ومن هنا يأتي التأكيد على علاقة الاملاء التي تربط الخليفة بالكاتب.

في بداية العصر الأموي ظلت صلاحيات الكاتب محدودة. وعمد ابو جعفر المنصور الى اتخاذ سياسة صارمة مع معاونيه فيما بعد والذين ظلوا في مرتبة الكُتّاب والمعاونين ولم يرق احد منهم الى التلقب بالوزارة وفى ذلك يقول ابن طباطبا: «فلم تكن الوزارة في ايامه طائله لاستبداده واستغنائه برأيه وكفاءته مع انه كان يشاور في الامور دائما وانما كانت هيبته تصُغر لها هيبة الوزراء وكانوا لا يزالون على وجل منه وخوف فلا يظهر لهم ابهة ولا رونق».[2] كان الاشراف على الدواوين والفصل في القضايا يعود للمنصور بصورة نهائية وكان المنصور يشرف على كافة الاعمال الادارية ويتردد بنفسه على الدواوين بصورة مستمرة. ووفقا لما يرويه الجهشيارى فقد تضايق كتّابه من اشرافه المستمر على امور الدواوين بنفسه فتامروا على ان يقنعوه بشرب شيء من شراب مسكر على انه شراب يبرد معدته حتى ينشغل عنهم. يقول فشربه في اليوم الاول فاستطابه، ثم شربه في اليوم الثاني والثالث فتأخر عن صلاة الظهر والعصر والعشاء، فدعا بالشراب وامر بهرقه وقال «ما ينبغي لمثلى ان يشرب شيئا يشغله».[3] وروى عن المنصور ايضا انه كان يقول «ما أحوجني ان يكون على بابي نفر لا يكون على بابي اعف منهم، هم اركان الدولة ولا يصلح الملك

(1) الجهشيارى، مصدر سابق، ص12

(2) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 174

(3) المصدر السابق، ص 101-102

الا بهم، اما احدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم، والاخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية» ثم عضّ على اصبعه السبابة ثلاث مرات وقال: آه آه ، قيل ما هو يا امير المؤمنين؟ ، قال: «صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة».[1] ويشير ذلك كله الى ان المنصور كان يباشر اعماله بنفسه مستغنيا عن احد يوكل له اعماله بالكامل، حتى ان كتابه ضاقوا من مباشرته الاعمال بنفسه. اضافة الى انه لم يكن يعتقد انه في حاجة الى رجل في منصب الوزير، بل كانت حاجته مقصورة على القاضي وصاحب الشرطة والخراج والبريد لذلك ذكرهم ولم يذكر رئيسا للدواوين او وزيرا يعاونه وكل ذلك يدل على ان منصب الوزارة لم يكن حتى ذلك الوقت ركنا ثابتا من اركان السلطة.

مع كل ما ذكرت عن المنصور فإننا نجد في حالة سليمان بن مخلد ابو ايوب الموريانى[2] تقدما فيما يختص بصلاحية ودور الكاتب في عهده وهي تعتبر البدايات لاندماج دور الوزير في دور الكاتب. عمل الموريانى كاتبا للمنصور وهو رجل من اهل الاحواز فارسي الاصل، اتصل بالمنصور عن طريق كاتبه عبد الملك بن حميد الذي وثق به المنصور، وطلب منه ان ينتخب من ينوب عنه للكتابة لأبي جعفر إذا ما اعاق حضوره شخصيا عارض. فرشّح عبد الملك للمنصور ابا ايوب الموريانى الذي كان شابا صغيرا في السن، وصفه الجهشيارى بانه كان (خفيفا ظريفا على القلب متأتيا لما يريده منه ابو جعفر)، وكان عالما في الكيمياء والطب والنجوم والحساب والسحر. فصدف ان اعتل عبد الملك من مرض المّ به فلزم بيته، يقول الجهشيارى «فلم يزل رأى ابو ايوب يعلو ومحله من رأى ابو جعفر يزيد حتى قلّده وزارته وفوّض اليه امره كله.» [3]

قلد ابو جعفر الموريانى الدواوين وتدبير شئون الدولة فاستعمل الموريانى اقرباءه في الاعمال.[4] وشارك الموريانى فيما بعد المنصور في اتخاذ القرارات السياسية ومنها: القضاء على أعداء أبي جعفر، فهو الذي طمأن أبا مسلم الخراساني عندما أراد المنصور أن يتخلص منه، حتى يتمكن من القبض عليه. كما كان له دور إيجابي في القضاء على عبد الجبار الأزدي وإلى خراسان[5] وفي العفو عن سفيان ابن معاوية[6] قاتل عبد الله بن المقفع. وقد حاول الموريانى ان يثرى هو وعائلته من وراء الثقة التي اولاها له ابو جعفر المنصور فأقدم المنصور على سجنه وتجريد اسرته من

(1) ابن الاثير (عز الدين بن الحسن على بن محمد)، الكامل في التاريخ، اشراف ابو صهيب الكرمي، بيروت: بيت الافكار الدولية، (د.ت)، ص 838، ووردت في القصة في الطبري (ابو جعفر محمد بن جرير)، تاريخ الطبري، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم القاهرة: دار المعارف 1967م، ج8، ص 67

(2) ابو ايوب الموريانى: وصفه ابن وهب بانه كان اماما في صناعة الكتابة وان عباراته فيها كانت مرجعا للشعراء يروونها ويأخذون معناها ويصوغونه شعرا، انظر ابن وهب، ص 273

(3) الجهشيارى، مصدر سابق، ص65

(4) نفس المصدر، نفس المكان

(5) عبد الجبار الأزدي: كان واليا على خراسان من قبل المنصور سنة 141هـ فاستبد بولايته لما كثرت امواله وانصاره فأرسل له المنصور المهدى للقضاء على ثورته فنجح في ذلك وقتل في العام 149هـ

(6) سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن ابى الصفرة: كان واليا على البصرة في عهد المنصور.

ملاكها. وتوفى الموريانى في سجنه سنة 154هـ[1] بعد وزارة الموريانى تراجع المنصور عن اتخاذ الوزير معينا له لأنه لم يتخذ بعد الموريانى وزيرا وانما لجأ الى تولية الاعمال التي كان يتولاها الموريانى الى ثلاثة موظفين هم: الفضل بن سليمان الطوسي[2] الذي ولاه الخاتم وابّان بن صدقة[3] الذي ولاه ديوان الرسائل، وقلد صاعدا مولاه النظر في ضياعه وممتلكاته. وهكذا بدا ان تجربة الموريانى كانت تجربة تراجع عنها المنصور اذ انه لم يعين احدا مكانه واستمر كعادته يمارس السيطرة المباشرة على امور دولته.[4] ويبدو انه استغنى عن منصب الوزير في ايامه الاخيرة اذ يذكر المسعودي انه بعد ان استوزر ابا ايوب الموريانى «استكتب ابان بن صدقة الى ان مات.»[5] وتطورت مكانة الكاتب بعد المنصور رغم انه لم يعط صلاحيات واسعة. وخير مثال لذلك هي حالة قبيصة بن ذؤيب[6] كاتب عبد الملك بن مروان(65-86هـ) الذي خوّله الخليفة ان يقرأ الكتب الواردة عليه قبل ان يطلع عليها شخصيا. وكان يناصحه في اموره الشخصية وهو (اى قبيصة) الذى نصح عبد الملك لما همّ بخلع عبد العزيز بن مروان من ولاية العهد والعهد لولديه الوليد وسليمان بالصبر عسى ان يتوفى عبد العزيز من تلقاء نفسه، فولى عبد الملك اخوه عبد العزيز ولاية مصر، يقول الجهشيارى «فلما جاء كتاب وفاة عبد العزيز قرأه قبيصة على عادته في قراءة الخطابات قبل الخليفة، فعزىّ الخليفة عبد الملك في اخيه عبد العزيز.»[7] تشير المصادر مع ذلك الي ان السلطات الفعلية للكاتب بدأت بالتزايد مع نهاية العهد الأموي فاصبح الكاتب يتحكم في مضمون الرسالة ويكتب المحتوى بكلماته الخاصة بناء على امر عام بمضمون الرسالة. والدلائل على ذلك كثيرة منها ما يورده الجهشيارى ايضا عن ان هشام بن عبد الملك (105-125هـ) طلب من كاتبه سالم الكاتب بان يكتب الى يوسف بن عمر - بشيء امر به - ثم يعرض الرسالة عليه فمضى سالم ليكتب ما امر به، وحضر سالم بالكتاب الذى كتبه فعرضه عليه (أي على الخليفة هشام).[8] كما اورد ايضا ان مروان بن محمد (اخر خلفاء بنى امية، توفى 132هـ) طلب من عبد الحميد الكاتب ان يكتب رسالة الى احد عماله وكان قد ادى اليه غلاما اسود قائلا: (اكتب اليه فأذمم فعله).[9] وفى ذلك اشارة واضحة لمساحة من حرية التصرف في المحتوى تركها الخليفة لكاتبه فامر الكتابة بدون ان يملي الخليفة كلمات املاء. ويشير ذلك الى ان الكاتب كان بنهاية العهد الأموي قد وصل مرحلة

(1) نفس المصدر، ص 85

(2) سليمان الطوسي: لم اعثر له على ترجمة ويبدو انه كان كاتبا في ديوان المنصور

(3) ابان بن صدقة: تولى ديوان الرسائل للمنصور وجعله المهدى على ديوان رسائله ايضا في سنة 167هـ

(4) فايزة اسماعيل أكبر، وزراء العصر العباسي الاول 132-232هـ مجلة المؤرخ العربي (العراق)، العدد الثامن، المجلد الاول، مارس 2000، ص14

(5) المسعودي (ابو الحسن على بن حسين)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت: المكتبة العصرية 2005م، ج3، ص 238

(6) ابو سفيان قبيصة بن ذؤيب الخزاعي المدني: ولد عام فتح مكة، كان من فقهاء المدينة وروى عن جماعة كثيرة من الصحابة. كان كاتب عبد الملك وصاحب سره، توفى سنة 87هـ

(7) الجهشيارى، مصدر سابق، ص20

(8) نفس المصدر ص39

(9) نفسه، ص53

نـال فيهـا ثقـة الخليفـة وأصبـح في مقـدوره ان يتحكـم في مضمـون ومحتـوى وشـكل الرسـائل الصـادرة عـن الخليفـة في حـين يطلـع عليهـا الخليفـة لإمضائهـا فقـط.[1]

مـن المعلـوم ان الدواويـن قـد عُربـت في ايـام خلافـة عبـد الملـك بـن مـروان (65-85هـ) وفي تعريبهـا دلالـة عـلى ان السـلطة الاموية كانـت قـد قـررت وضـع حـد لتحكـم الكُتّـاب الاعاجـم الذيـن كانـوا يتولـون امـور الخـراج في الدولـة الاموية، والذيـن اسـتمدوا بمعرفتهـم بقضايـا الضريبـة نقطـة قـوة أصبحـوا يسـاومون بهـا السـلطة لتقـدر اهميتهـم. يـورد الجهشـياري: «كان يتقلـد ديـوان الشـام بالروميـة لعبـد الملـك ولمـن تقـدم سرجـون بـن منصـور[2] فناظـره عبـد الملـك يومـا بـشيء فتثاقـل عليـه وتـوانى فيـه، فعـاد لطلبـه وحثـه فيـه فـرأى منـه تفريطـا وتقصـيرا، فقـال عبـد الملـك لأبي ثابـت سـليمان بـن سـعد الخشـني[3] وكان يتقلـد لـه ديـوان الرسـائل: امـا تـرى ادلال سرجـون علينـا واحسـبه رأى ضرورتنـا اليـه والى صناعتـه، أفـما عنـدك حيلـة؟ فقـال: لـو شـئت لحولـت الحسـاب الى العربيـة فقـال: فافعـل، فحوّلـه».[4]

كانـت عمليـة التعريـب طويلـة ومفصلـة، فتـم تعريـب دواويـن العـراق والشـام في خلافـة عبـد الملـك بنـما عربـت دواويـن مـصر في خلافـة الوليـد بـن عبـد الملـك، وعربـت دواويـن خراسـان في اواخـر الدولـة الاموية في ولايـة نـصر بـن سـيار في حـوالي العـام 124هـ وكان تعريـب الدواويـن اول عمليـة ترجمـة منظمـة وجبـارة وقـد ادت الى نقـل كثـير مـن المصطلحـات اليونانيـة والفارسـية الى العربيـة. وسـاعدت هـذه العمليـة عـلى شـيوع العربيـة وانتشـارها بـين المـوالي وعـلى ان تصبـح العربيـة لغـة الادارة والثقافـة اضافـة الى كونهـا لغـة السياسـة والديـن.[5] مـن جهـة اخـرى، كان تعريـب الدواويـن ضربـة كبـيرة للكتـاب مـن الاعاجـم الذيـن أدركـوا ان صلاحياتهـم قـد تـضررت بتعريـب الدواويـن الى العربيـة. ويحـكى البـلاذري انهـم بذلـوا جهـودا كبـيرة لجعـل الخليفـة يتراجـع عـن هـذا القـرار فيقـول انهـم بذلـوا لصالـح بـن عبـد الرحمـن[6] مائـة ألـف درهـم عـلى ان يظهـر العجـز عـن نقـل الديـوان الى العربيـة في العـراق ويمسـك عـن ذلـك فـأبى ونقلـه.[7] ويحـكى المـاوردي ان سرجـون بـن منصـور عندمـا أيقـن بـان الخليفـة مـصر عـلى نقـل الدواويـن الى العربيـة خاطـب الكُتّـاب مـن الاعاجـم قائـلا: « اطلبـوا

(1) فيصل حسين طحيمر العلى، مرجع سابق، ص38.

(2) سرجـون بـن منصـور الرومـي: مـن نصـارى الشـام، اتخـذه معاويـة بـن ابى سـفيان كاتبـا لـه وأسـلم عـلى يديـه وكان مستشـارا ليزيـد بـن معاويـة ايضـا واسـتمر في منصبـه الى زمـن عبـد الملـك بـن مـروان.

(3) سـليمان بـن سـعد الخشـني القضاعـي: يكنـى ابـو ثابـت، كاتـب وادارى قديـر واول مسـلم ولى الدواويـن كلهـا في العهـد الأمـوي. وهـو الـذي عهـد اليـه الخليفـة عبـد الملـك بـن مـروان بتعريـب الدواويـن في الشـام الى العربيـة فبـدأ ذلـك منـذ سـنة 80هـ واتـم تعريـب الدواويـن الشـامية بعـد سـنة كاملـة ولمـا اتمـه عـزل الخليفـة سرجـون الرومـي وعهـد الى سـليمان برئاسـة الدواويـن والاشراف عـلى تعريـب دواويـن الامصـار الأخـرى، الجهشـياري، مصـدر سـابق، ص 24

(4) الجهشياري، مصدر سابق، ص24

(5) عبد العزيز الدوري، النظم الاسلامية، ص171-172

(6) صالـح بـن عبـد الرحمـن التميمـي: اول مـن حـول دواويـن الخـراج مـن الفارسـية الى العربيـة في العـراق. وكان يجيـد الإنشـاء في اللغتـين وكان أصلـه مـن سـبى سجسـتان واتصـل بالحجـاج قبـل ان يـلي العـراق فلـما ولى الحجـاج العـراق اسـتعمله عـلى الدواويـن في العـراق حيـث نقلهـا الى العربيـة سـنة 78هـ

(7) البلاذري، مصدر سابق، ص 368-369

المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم».[1] وتبع تعريب الدواوين امر الخليفة هشام بن عبد الملك بان لا يستكتب في الدواوين أحدا من اهل الذمة. ويحكى الجهشيارى ان أكثر اهل خراسان كان مجوسا وكانت الحسابات في الدواوين تتم بالفارسية فكتب يوسف بن عمر والى العراق من قبل هشام بن عبد الملك الى نصر بن سيار[2] كتابا انفذه مع رجل اسمه سليمان الطيار يأمره فيه الا يستعين بأحد من اهل الشرك في اعماله وكتابته.[3]

كان لتعريب الدواوين اثار عظيمة في مجال الثقافة العربية والاسلامية عامة وفى مجال صناعة الكتابة منها تحقيق سيادة اللغة العربية وانتصارها على اللغات الاجنبية في الدولة كالفارسية واليونانية والقبطية. كما ادى الى ظهور فئة هامة من الكُتّاب العرب والموالي الذين حلوا محل الكُتّاب الفرس والروم في ادارة الدواوين. كما نشطت حركة الترجمة فيما تلا عملية التعريب من سنين لان عملية تعريب الدواوين كانت اول حركة ترجمة منظمة ادت لنقل كثير من المصطلحات الاجنبية الى اللغة العربية فظهر الاهتمام بالترجمة، فترجمت كتب الطب والكيمياء من اليونانية الى العربية.[4] وعلى الرغم من ان تعريب الدواوين فتح الوظائف الادارية امام العرب وضيّق الخناق على الموالي الذين شغلوها ردحا من الزمن الا انهم لم يستسلموا لهذه الاجراءات وكثيرا ما التفوا حولها ليتمكنوا من الاحتفاظ بمناصبهم فاتجهوا لتعلم اللغة العربية كونها اصبحت اللغة التي تؤدى الى المناصب والوظائف العالية في الإدارة فضلا عن الدخول في الإسلام كحيلة تمكنهم في مواصلة اعمالهم. يحكى الجهشيارى انه كان على ديوان العراق محمد بن المنتشر[5] وكان معه كاتب يقال له حسان النبطي[6] فكتب هشام يأمر الا يستعان بذمي فقيل لحسان ذلك فاسلم على يدي محمد بن المنتشر.[7]

بزوال الدولة الاموية ومجيء الدولة العباسية حاولت جماعة الكُتّاب ان تجد لها موطئ قدم في الدولة الجديدة وجهازها الإداري، حيث كان الكُتّاب يعلمون ان صناعتهم مرتبطة بالاستقرار السياسي ولذلك توحد موقف الكُتّاب الذين خدموا السلطة الاموية مع اولئك الذين فقدوا مناصبهم فيها منذ تعريب الدواوين فكليهما كانوا على استعداد لتأييد السلطة التي يمكن ان ينعموا فيها بالاستقرار والتي يمكن ان تؤمن لهم مناصبهم ومرتباتهم، وقد انتقل هؤلاء الكُتّاب من خدمة الامويون الى خدمة العباسيين دون اى تعقيدات تذكر. يروى الجهشيارى ان كُتّاب بنى امية جلسوا تحت شجرة تين بعد انقضاء دولة بنى امية ومصير الامر الى بنى العباس فقالوا:

(1) الماوردي، مصدر سابق، ص 265

(2) نصر بن سيار الليثي الكناني: اخر ولاة الامويين على خراسان، ولاه هشام بن عبد الملك، توفى سنة 131هـ

(3) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 43

(4) على محمد الصلابي، مرجع سابق، ص 665

(5) محمد بن المنتشر بن الاجدع: وكنيته ابو القاسم، والاجدع هو عبد الرحمن بن مالك بن امية. كان من اشراف اهل الكوفة.

(6) حسان النبطي الكاتب: ذكره صاحب العقد الفريد في باب (من كان خاملا فنبل بالكتابة)، عمل كاتبا في ديوان العراق اول امره وكتب فيما بعد للحجاج بن يوسف.

(7) المصدر السابق، ص38

(لـو أصبنـا رجـل لـه سـلطان، انقطعنـا اليـه وكنـا في خدمتـه فيرزقنـا رزقـا نعـود بـه عـلى عيالنـا، فقـال بعضهـم عـسى اللـه عـز وجـل ان يسـبب ذلـك لنـا او لبعضنـا فيفضـل علينـا)، فتوافقـوا بينهـم الا يصيـب أحدهـم سـلطانا الا اسى اصحابـه. وحـدث ان طلـب المنصـور كاتبـا فوُصـف لـه أحدهـم وهـو عبـد الملـك بـن حميـد فامـر بإحضـاره، فقلـده كتابتـه ودواوينـه، فتذكـر عبـد الملـك اصحابـه فأحضرهـم وقلدهـم الاعـمال فاثـروا وحسُـنت احوالهـم وكانـوا اذ ذاك يعرفـون (بأصحـاب التينـة).[1]

نشـطت الكتابـة في العـصر العبـاسي الأول نشـاطا واسـعا، وأصبـح هنـاك مئـات مـن الكُتّـاب الطامحـين للعمـل في دواويـن الحكومـة يحدوهـم مـا كانـت تـدره الكتابـة مـن ارزاق واسـعة وحظـوة. وكان مـن يلتحـق بهـذه الدواويـن مـن الكُتّـاب يحـرص عـلى تجويـد عملـه، فـاذا اظهـر مهـارة امكنـه ان يترقـى الى رياسـة الديـوان الـذي يعمـل فيـه. فـان حسُـن حظـه وكـثُر اجتهـاده فقـد يصبـح رئيسـا لمجموعـة مـن الدواويـن، وقـد يصبـح واليـا عـلى أحـد الاقاليـم او يلتحـق بخدمـة أحـد القـادة او الـولاة او يصبـح وزيـرا للخليفـة يدبـر امـوره ويسـوس دولتـه.[2] وهكـذا صـارت الكتابـة في هـذا العـصر الجـسر الـذي يصـل الكاتـب الى ارفـع المناصـب، وهكـذا أصبـح الكاتـب في هـذا العـصر شـخصية مؤثـرة، وارتقـى ليكـون مؤهـلا لأعـمال الادارة والسياسـة في آن واحـد مدعومـا بثقافـة دينيـة وعقليـة وحرفيـه واسـعة.

شـهدت فـترة خلافـة المهـدى ومـا تبعـه مـن خلفـاء العـصر العبـاسي الاول اندمـاج دور الكاتـب في دور الوزيـر حيـث أصبـح المتـولي للدوريـن شـخص واحـد. ويمكـن ان نـرى ذلـك بوضـوح حـين اسـتوزر المهـدى ابـا عبيـد اللـه معاويـة بـن عبيـد اللـه بـن يسـار سـنة 159هـ بصفتـه كاتبـا حائـزا عـلى لقـب الـوزارة ومدبـرا لشـئون الادارة العامـة. وكان ابـن يسـار رجـلا عالمـا، يقـول عنـه ابـن طباطبـا (انـه اول مـن وضـع كتابـا في الخـراج فاتبعـه مـن كتـب في الخـراج مـن بعـده وهـو اول مـن ادخـل نظـام المقاسـمة في الخـراج).[3] وقـد تـولى ابـو عبيـد اللـه بنفسـه تقليـد الكتـاب والعـمال والاعـمال مـما يشـير الى سـعة الصلاحيـات التـي اعطيـت لـه.[4] ولعـب ابـو عبيـد اللـه معاويـة بـن يسـار دورا سياسـيا مهـما في عهـد المهـدى حيـث اختـاره المنصـور لتربيـة ابنـه المهـدي منـذ طفولتـه، وأن يكـون كاتبـا لـه. وقـد لازم عبيـد اللـه مـولاه المهـدي طيلـة فـترة ولايتـه للعهـد، فرافقـه في حملتـه عـلى خراسـان سـنة 150هـ، وأقـام معـه في الـري مـدة طويلـة عمـل أثنائهـا عـلى تدبـير شـئونه الإداريـة والماليـة بـكل حريـة وكفـاءة. كذلـك اسـتعان بـه المنصـور في أخـذ البيعـة للمهـدي مـن عيـسى بـن مـوسى.[5]

امـا البرامكـة فمثلـوا اوضـح مثـال عـلى اندمـاج دور الكاتـب والوزيـر للصلاحيـات المطلقـة التـي اعطيـت لهـم، وتمثـل حالتهـم التتويـج الفعـلي للجهـود التـي ظلـت طبقـة الكُتّـاب تقـوم بهـا في سـعيها الحثيـث للتحكـم في الجهـاز الإداري للدولـة الاسـلامية منـذ ايـام الدولـة الامويـة. كان والدهـم هـو يحيـى البرمـكي الـذي سـاند هـرون الرشـيد للتمسـك بحقـه في ولايـة العهـد ضـد رغبـة الهـادي الـذي

(1) نفسه، ص64

(2) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 465

(3) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 182

(4) الجهشياري، مصدر سابق، ص 102

(5) نفسه، ص 126 ــ 127.

ارادها لابنه جعفر. وظل يسانده حتى وصل إلى سدة الخلافة، مزودا إياه بالخبرات التي كانت تنقصه ذلك أن هارون ولي الخلافة وهو في مقتبل العمر، تعوزه الكفاءة والخبرة في إدارة الشئون العامة. فسلم هرون عنان الأمور في الدولة ليحيى وأسرته حتى قيل إن هارون سلم لهم خاتم الدولة، فتداولوه بينهم بين سنة 173 إلى 187هـ وبذلك أصبحت ليحيى سلطة تكاد تكون مطلقة فكانت له إدارة الدواوين كلها مع الوزارة.[1] وعهد الرشيد فيما بعد لابن يحيى جعفر بتربية ابنه المأمون فتمكن جعفر بذلك من الحصول على الوصاية على المأمون. وأشار على الرشيد بتوليته العهد بعد أخيه الأمين، وكان له دور في تثبيت حق المأمون وكتابة العهد وتعليقه في جوف الكعبة. كما لعب يحي البرمكي واولاده دورا مهما في جمع الخراج بطريقة عوضت عن الخسائر التي مُنيت بها خزانة الدولة إثر سياسة المهدى الاسرافية. وهكذا ظلت أسرة البرامكة تدير أمور الدولة وتحتل المنزلة العظيمة لدى الرشيد لمدة سبعة عشر عامًا، حتى حصل الانقلاب الخطير في سياسة الرشيد تجاههم، فأمر بقتل جعفر في سنة 187هـ وسجن يحيى والفضل، وقبض على أموالهم وعقاراتهم وضياعهم بالعراق.[2] وهكذا تمكن الكاتب الذي غدا وزيرا من ان يجمع في شخصه السلطتين المدنية والحربية او سلطتي (السيف والقلم) كما كان يشار اليها فالسلطة المدنية تخوله الاشراف على الدواوين واعمالها الادارية بينما تخوله سلطته الحربية على مباشرة امور الجهاد والحرب. يقول ابن خلدون: « لما جاءت دولة بنى العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت ، وعظم شأن الوزير وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد تعينت مرتبته في الدولة وعنّت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجُعل لها النظر في ديوان الحسبان لما تحتاج اليه خطته من قسم الاعطيات في الجند، فاحتاج الى النظر في جمعه وتفريقه، واضيف اليه النظر في القلم والترسيل لصون اسرار السلطان ولحفظ البلاغة لمّا كان اللسان قد فسد عند الجمهور، وجُعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذّيّاع والشّياع ودُفع اليه، فصار اسم الوزير جامعا لخطتي السيف والقلم وسائر معانى المؤازرة والمعاونة.»[3] يؤكد ذلك ما اورده القلقشندي صاحب الاعشى المتوفى في 821 هـ (والذي عاصر العصر المملوكي وعمل في ديوان الانشاء فيما بين 791هـ - 801هـ في عهد الظاهر برقوق) في معرض تأريخه للوظائف التي كان يتقلدها على حد تصنيفه اصحاب الاقلام واصحاب السيف في الدولة الاسلامية حيث ذكر ان مرتبة الوزير كانت من أعظم المراتب بعد الخلافة حيث يقول: «اجلّ الوظائف الديوانية الوزارة إذا كان الوزير صاحب قلم.»[4] وعند حديثه عن ديوان الانشاء أي ديوان الرسائل يقول: «كان لقب صاحب هذا الديوان في زمن بنى امية يعبرون عنه بالكاتب ولا يعرفون غير ذلك، فلما جاءت الدولة العباسية واستقر السفاح اول خلفائهم في الخلافة لقب كاتبه ابا سلمة الخلال بالوزارة وترك اسم الكاتب، واستقر لقب الوزارة على من يليها من ارباب السيوف والاقلام الى انقراض الخلافة من بغداد.»[5]

(1) الطبري، مصدر سابق، ج 8، ص 235.

(2) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج1، ص 510، الطبري، مصدر سابق، ج 8، ص 287 وما بعدها، والمسعودي، مروج الذهب، ج 3، 313

(3) ابن خلدون، المقدمة، ج1، ص 421-422

(4) القلقشندي، مصدر سابق، ج 3، ص 278

(5) نفس المصدر، ج 3، ص 103

كانت العلاقة بين الوزراء والكُتّاب علاقة وثيقة الصلة، فجميعهم كانوا في طبقة اجتماعية واحدة تأتي بعد الطبقة الحاكمة مباشرة وكان الكُتّاب كثرة والوزراء قلة وهم من يرتقي في الخدمة من الكُتّاب ويثبت كفاءته وجدارته فيتم ترشيحه للوزارة، فالوزراء كانوا هم نخبة طبقة الكُتّاب. يؤيد ذلك قول المسعودي في حديثه عن الوزارة في العهد العباسي: «وكان الخلفاء لا يستوزرون الا الكامل من كتّابهم، والامين العفيف من خاصتهم، والناصح الصدوق من رجالهم، ومن يأمنونه على اسراراهم واموالهم ، ويثقون بحزمه وفضل رأيه وصحة تدبيره في امورهم.»[1] كل ما سبق مما يشير بوضوح الى ان الوزراء كانوا من خيرة الكُتّاب الذين استطاعوا الترقي الى منصب الوزير منذ بداية العصر العباسي الاول او بعده بقليل فصار الوزير بالضرورة هو كاتب الخليفة، والمتولي للدواوين واعمالها بما فيها ديوان الرسائل والمكاتبات، والمشرف على بقية الكُتّاب واعمالهم، مع قيامه بكل مهام الوزارة. وبينما يوضح السرد السابق ايضا ان الوزراء كانوا هم خِيرة الكُتّاب او نخبتهم فانه مما يجدر بنا التنويه اليه هو انه كان هناك الكثير من الكُتّاب ممن لم يصلوا الى منصب الوزارة ولكن كانت لهم اسهامات في المجال الثقافي والفكري في غاية الأهمية، مثل عمرو بن مسعدة وعبد الله بن المقفع واحمد بن يوسف بن صبيح[2] فتكاثرت اثارهم وظهرت فيها نزعة قوية الى الجمال الفني والتدقيق في المعاني، وهؤلاء أسهموا في مجالات النقل والترجمة والتأليف والنثر الفني والفكر السياسي وان لم يتولوا الوزارة.

(1) المسعودي، التنبيه والاشراف، ص 294

(2) عبد الله بن المقفع واحمد بن يوسف بن صبيح وعمرو بن مسعدة: تقدمت ترجمات موجزة لهم.

الفصل الثاني

صلاحيات ونكبات الوزراء

ابو سلمة الخلال في مستهل العصر العباسي الأول:

كان المجال السياسي هو المجال الذي ظهر فيه أثر الوزراء أكثر من الكُتّاب لان الوزراء شكلوا مصدراً للقرار السياسي وساهموا بشكل مباشر في صياغة سياسة الدولة العباسية في عهدها الأول. هذا بينما نجد ان تأثير عامة الكُتّاب كان أكبر في النواحي الثقافية. كان الوزير في ذلك العصر هو رأس الجهاز الإداري ولذلك كانت بصماته واضحة بينة في كل نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لا في مركز الحكم في بغداد فحسب بل في كل اقليم من اقاليم الدولة. ويلاحظ الباحث في هذا الموضوع امرين: اولهما ان وزراء العصر العباسي الاول كانوا في غالب الامر من العنصر الفارسي. فقد لجأ العباسيون الى الاستعانة بالفرس لما كان لديهم من خبرة وتجربة سياسية وادارية انحدرت إليهم من اجيال سابقة عاشت في ظل الدولة الساسانية، وهي الدولة التي ازدهرت في عهدها مؤسسة الوزارة ازدهاراً كبيراً. فأفاد العرب من تجارب الفرس السياسية والادارية في تنظيم شئون الدولة. ومن جهة اخرى حاول الخلفاء العباسيون جاهدين ان يوجدوا التوازن المثالي بين العناصر الفارسية التي كرست لخدمة الادارة والعناصر العربية التي انخرطت في النواحي الحربية وقيادة وادارة الجيوش.[1]

الامر الاخر ان معظم هؤلاء الوزراء مارسوا ادواراً سياسية غاية في الاهمية اثرت على النواحي السياسية في الدولة بصفة عامة وعلى الكيفية التي كان يتم بها اتخاذ القرارات السياسية. واتاحت الصلاحيات الواسعة الممنوحة لهؤلاء الوزراء في بعض الحالات الى ان يحاول بعضهم الانحراف بالمنصب الى خدمة اغراض سياسية خاصة او معارضة لأغراض الدولة. وعلى الرغم من سعة الصلاحيات التي اعطيت لهؤلاء الوزراء الا ان الخلفاء العباسيين كانوا في النهاية يستطيعون ان يحدوا من نفوذهم في مظاهر كثيرة للنكبة شملت القتل والسجن والتعذيب ومصادرة الاموال.

اما فيما يختص بالدور الذي لعبه ابو سلمة الخلال اول وزراء بنى العباس في اول عهد الثورة العباسية فان هذا الدور يرتبط الى حد كبير بخلفية دور الشيعة في مناوئة الحكم الأموي وكفاحهم طوال تلك الفترة لانتزاع الخلافة من الامويين ونقلها الى احفاد سيدنا على بن ابى طالب. من المعروف انه كان لمصرع الامام الحسين في كربلاء في سنة 61هـ نتائج كثيرة كان من اهمها ظهور فرقة الشيعة كفرقة وجماعة دينية متميزة ذات مبادئ سياسية وصبغة دينية تربطها روابط سياسية واراء دينية وأصبح لها زعماؤها وتحركاتها العسكرية.[2] افتقدت الشيعة بعد مقتل الامام الحسين ايضا الزعيم الروحي الذي يكون محورا لجماعتهم وتنظيمهم والذي يمكن ان يقودهم الى تحقيق تعاليمهم ومبادئهم. فبينما نادت فرقة الشيعة الامامية بأحقية على زين العابدين بن الامام الحسين (38-95هـ) وأحد الخمسة الذين نجوا من القتل في كربلاء آثر هو الابتعاد عن السياسة.[3] وقد كان لمقتل الامام الحسين أكبر الاثر في لفت الانظار الى ما لاقاه اهل بيت رسول الله (ﷺ) من التقتيل والاضطهاد بشكل جعل الشيعة يركزون على احقيتهم في الخلافة، فأصبح

(1) على عبد الرحمن العمرو، أثر الفرس السياسي في العصر العباسي الاول، الرياض: شركة العبيكان للنشر، 1992م، ص 164

(2) سميرة مختار الليثي، جهاد الشيعة في العصر العباسي الاول، بيروت: دار الجيل 1978م، ص 27

(3) نفس المرجع، ص 29

التشيع مقرونا بأحقية ال البيت في الخلافة. كما ظهرت بعد كربلاء عملية تنظيمية لجماعات الشيعة في المدن حيث بدأت بينهم اتصالات وتكون بينهم نوع من الفهم المشترك في استعداء الحكم الأموي وضرورة الانقلاب عليه، وتحويل الخلافة الى ولد على. وقد تبلور هذا الفهم فيما بعد في ظهور حركات شيعية عديدة أبرزها حركة التوابين في سنة 61هـ وحركة المختار الثقفي[1] في سنة 67هـ.[2] ترتب على حركة المختار الثقفي ظهور جماعة من الشيعة سميت الشيعة الكيسانية وكانت تدين بولائها الى محمد بن الحنفية وهو الابن الثالث لعلى بن ابى طالب رضى الله عنه. وفي مرحلة متأخرة من العهد الأموي اتجه الشيعة في العراق الى موالاة محمد بن الحنفية ايضا لرغبتهم في مواصلة الكفاح بينما لم يرغب آنذاك على زين العابدين او ابنه محمد الباقر (57-114هـ) في العمل ضد الدولة الاموية.[3]

خاض الشيعة الكثير من الثورات ضد الحكم الأموي في الفترة ما بين سنة 40-132هـ وتتبعهم الامويون بالقتل والتشريد حتى لجأوا الى الكتمان والتقية ومالوا في نهاية العهد الأموي الى الهدوء والاشتغال بالتجارة، او الانصراف الى الدين بدلا عن الاشتغال بالسياسة والحرب. من الملاحظ هنا انه لم تكن الشيعة طوال لعهد الأموي تنادى بالخلافة لاحد من ولد العباس بل كانوا يدعون بها لاحد احفاد على بن ابى طالب ولم يصبح امامة أحد من ابناء العباس مطروقا الا عندما لمع اسم محمد بن على بن عبد الله بن العباس (51-125هـ) حين عهد اليه ابو هاشم بن محمد بن الحنفية زعيم فرقة الشيعة الكيسانية بإمامة فرقة الشيعة الكيسانية حين حضرته الوفاة في عام 98هـ.[4] وبالرجوع الى الوراء قليلا نجد ان العباسيين كانوا قد ساروا على سياسة الابتعاد عن حلبة الصراع والمطالبة بالخلافة والعمل من اجل ذلك حتى نهاية القرن الاول الهجري. واستقروا في الحميمة[5] قريبا من دمشق مستمتعين بإقطاعهم الذي فازوا به من معاوية بن ابى سفيان.[6] كانت هذه السياسة من العباسيين تشكل النقيض من السياسة التي سار عليها العلويون، الفرع الهاشمي الاخر، الذين ما انفكوا منذ زمن معاوية وبعد مقتل على بن ابى طالب يطالبون بالخلافة، ودفعوا أغلي ثمن من الرجال والمال والراحة في سبيل الحصول عليها، لأنهم كانوا يرون انهم اصحاب الحق الشرعي في الخلافة. وكانوا يعتبرون ان بنى امية مغتصبين للخلافة ظالمين لهم ولذلك أرسلوا الدعاة الى انحاء الدولة الاسلامية يدعون الناس إليهم. وكثيرا ما اجتمع حول بعضهم الاف من الانصار والشيعة. وعملوا على مناهضة الحكم الاموي بجميع الوسائل العلنية

(1) المختار الثقفي: هو المختار بن ابى عبيد الثقفي (1-67هـ). قاد ثورة في الكوفة مطالبا بدم الحسين بن على وسيطر لفترة على الكوفة رافعا شعار (يا لثارات الحسين). وكان يخطط لإقامة دولة علوية في العراق. وجهت اليه السلطة الاموية جيشا بقيادة مصعب بن الزبير استطاعت ان تخمد ثورته وتقتله في 67هـ يعتقد كثير من المؤرخون انه كان لثورته دورا كبيرا في انتشار التشيع وتوسع رقعته، راجع على عبد الرحمن العمرو، ص71-72.

(2) على عبد الرحمن العمرو، مرجع سابق، ص 72

(3) سميرة مختار الليثي، مرجع سابق، ص 36-37

(4) المرجع السابق، ص45

(5) الحميمة: بلد من ارض الشراة من اعمال عمان في أطراف الشام.

(6) سميرة مختار الليثي، مرجع سابق، ص 69

والسرية. فحفل العصر الاموي بالكثير من الثورات العلوية التي كان الامويون يخمدونها بحزم. وهكذا لم يوفق العلويون في مساعيهم لنيل الخلافة طوال العهد الأموي.[1]

كان ابو هاشم بن محمد بن الحنفية قد بدأ نشاطا واسعا اثار قلق وخوف الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (96-99هـ) الذي رأى من فصاحته ورياسته وعلمه ما خوّفه منه.[2] فقيل انه دس له من سمه وهو في طريقه الى الحجاز سنة 98هـ أدرك ابو هاشم قرب منيته فاتجه الى الحميمة حيث كان يقيم محمد بن على بن عبد الله بن العباس وكانت في صحبته جماعة من الشيعة فسلمهم له واوصاه فيهم.[3] ثم افضى اليه بأسرار الدعوة الهاشمية التي حمل لوائها نحو خمس عشرة سنة وأرشده الى وسائل الاستمرار في الدعوة وامده باسم داعي دعاته في الكوفة ومن يليه من الدعاة. كما سلمه رسائل كتبها الى دعاته وشيعته في العراق وخراسان يخبرهم فيها بدنو اجله وبانه اوكل امر الدعوة الى محمد بن على العباسي والى ولده من بعده، ويطلب فيها منهم القصد اليه والتعرف به والامتثال لأوامره.[4] فصارت الوصية في بنى العباس من تلك الجهة.

لا شك ان الظروف العامة والخاصة للإمام ابى هاشم هي التي دفعت به لاتخاذ هذا الخيار. فقد عاش من غير ولد يوصى له بالأمر. كما كان معظم احفاد جده الامام على بن ابى طالب صغارا في السن ولم يجد في كبارها آنذاك من يطمح لها ويرضى حمل مسئولياتها الخطيرة. على حين كانت الكثرة والعدد في شباب بنى العباس الذين عاشوا بالأمس مسالمين للأمويين فأصبحوا شبه عشيرة كاملة، وهم الان على استعداد لمناوأة بنى امية.[5] رأى محمد بن على بن عبد الله ان يتدرج في نقل توجه الشيعة من بيت على الى بيت العباس. ورأى ان يقوم بذلك بنوع من المسايرة المصحوبة بالحزم. فعهد الى شيعته ان يؤلفوا دعاة يدعون للرضا من ال البيت دون ان يسموا احدا. ثم رأى ان أفضل مكان لبث الدعوة هي الكوفة وخراسان. وكان محمد مستقرا في بلدة الحميمة في الشام، وهي بلدة صغيرة بعيدة في الظاهر عن المسرح السياسي لكنها في الواقع كانت تتمتع بموقع جغرافي مميز حيث كانت تشرف على خط القوافل التجارية وتقع على مقربة من ملتقى طرق الحج[6] الشيء الذي اتاح سهولة التواصل بين الامام ودعاته دون ان يلفتوا الانظار.

عمد محمد بن على بن عبد الله لتنظيم الدعوة من مقره في الحميمة متخذا من الكوفة ارض التشيع مهدا ومستقرا لها. كانت الكوفة موطن الشيعة منذ عهد الخلفاء الراشدين وهي المدينة التي اتخذها على بن ابى طالب حاضرة للدولة الاسلامية في عهده، وقد شهدت امجاد سيدنا على ثم البيعة لابنه الحسن. ثم دعت الكوفة الحسين بن على ليقدم عليها من الحجاز للقيام بثورة علوية ضد الحكم الأموي. وسارعت الى تأييد المختار بن ابى عبيد الثقفي الذي أعلن

(1) سامي محمد يوسف الجعفري، التنافس على السلطة في العصر العباسي الاول (132-232هـ)، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة سانت كليمنتس (العراق)، 2010م، ص 39-67

(2) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص143

(3) نفس المصدر، نفس المكان

(4) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج3، ص 40

(5) سميرة مختار الليثي، مرجع سابق، ص 43

(6) على عبد الرحمن العمرو، مرجع سابق، ص 84

انه وزير وداعية محمد بن على بن ابى طالب المعروف بابن الحنفية. ثم انها شهدت خلال العهد الأموي كثيرا من ثورات الشيعة أشهرها ثورة زيد بن على في سنة 122هـ.[1] كانت الكوفة في ذلك الوقت في اواخر العهد الأموي مقر أنصار الدعوة العباسية وجلهم من الموالي وكانت مهنتهم في الغالب التجارة والصناعة.[2] واصبحت الكوفة نقطة الاتصال يلتقي فيها الذين يحملون الاوامر والتوجيهات من الحميمة مع الدعاة الوافدين من خراسان لعرض نتائج مساعيهم وجهودهم في نشر الدعوة في مناطق خراسان وليتلقوا الاوامر والتعليمات الجديدة.[3]

كان الموالي (المسلمين من غير العرب) قد ضاقوا ذرعا بمعاملة الاميون لهم والتي كان طابعها الظلم والتفرقة العنصرية على عكس المبادئ التي نادى بها الاسلام من المساواة والعدل. كان هؤلاء الموالي يعانون من الضرائب الباهظة التي فرضها عليهم الامويون والطرق الظالمة في جمعها بل واخذها احيانا ممن لا تجب عليهم. اضافة الى اعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية حتى بعد دخولهم في الاسلام، ومعاملتهم باضطهاد. وكانوا عندما يشاركون في الجهاد يحاربون مترجلين لا على الخيل. وكانوا غير مقيدين بالديوان فلم تكن لهم تبعا لذلك اعطيات ثابتة وانما كان يفرض لهم فقط نصيب من فيء القتال.[4] كل ذلك كان من العوامل التي جعلتهم يبغضون حكم بنى امية ويتوقون للتخلص منه، وينا صرون الدعوة العباسية التي وعدت بخلع حكم بنى امية واقامة خلافة الاسلام على اسس من العدل والمساواة.

عمد العباسيون الى خلق قاعدتهم العريضة من هؤلاء الموالي في العراق وفى خراسان وأسرع هؤلاء فانضموا للدعوة العباسية رغبة في التخلص من اوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية السيئة بينما انضم بعضهم لتحقيق اراء كانوا يؤمنون بها.[5] كان اختيار خراسان مقرا لنشاط الدعوة دليلا اخرا على عمق فهم وإدراك محمد بن على. فالموالي الفرس الذين كانوا قد ضاقوا ذرعا بحكم الامويين ورأوا في الدعوة العباسية امل الخلاص كانوا متأثرين بما كان سائدا في ثقافتهم الساسانية قبل الاسلام من حق الملوك الإلهي. وكانت معتقداتهم ان المُلك يُتوارث في اهل بيت الملك ولا يجوز نقله الى بيت اخر الشيء الذي بدا لهم قريب الشبه بالدعوة للرضا من ال بيت النبي (ص). بالإضافة الى ذلك فان نار العصبية في خراسان بين القبائل العربية كانت على أشدها وكان الصراع الدائر هناك بين الوالي الأموي نصر بن سيار وهذه القبائل العربية من الاسباب التي ساعدت في ضعا قبضة بنى امية على سلطانهم في خراسان.[6]

اشتمل الجهاز الإداري للدعوة على سلسلة من المراتب تبدأ بمرتبة النقباء وكان عددهم

(1) المرجع السابق، ص 150-151

(2) يوليوس فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الاموية، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر1968م، ص 487

(3) واشار الدكتور على عبد الرحمن ابا حسين الى اهمية مكة كحلقة وصل بين المراكز الثلاث للدعوة (الحميمة، خراسان، والكوفة) وإنها شكلت ملتقى الدعوة والنقباء ومنها كان يوجه الامراء واليها كانت ترسل الاموال من سائر الامصار للإمام. راجع على عبد الرحمن ابا حسين، مكة مركز الدعوة العباسية، مجلة المؤرخ العربي (العراق)، العدد 5، 1977م، ص 177-206

(4) يوليوس فلهاوزن، مرجع سابق، ص 471

(5) عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الاول، ص10

(6) على عبد الرحمن العمرو، مرجع سابق، ص 105

اثنـي عـشر نقيبـا. والنقبـاء هـم وحدهـم الذيـن يعرفـون سر امـام الوقـت ويحتفظـون بهـذا الـسر لأنفسـهم. وتـلي مرتبـة النقبـاء مرتبـة نظـراء النقبـاء. وعددهـم يسـاوى عـدد النقبـاء والنظـير يخلـف النقيـب في حالـة وفاتـه. ثـم يـأتي بعـد ذلـك الدعـاة وعددهـم سـبعون داعيـا، ثـم يليهـم دعـاة الدعـاة. ثـم يمـضي التشـكيل في عمقـه الى ان ينتهـي بالخلايـا السريـة التـي كانـت تـروج الدعايـة للدعـوة السريـة في جميـع الامصـار الإسـلامية.[1] كان لهـذا التنظيـم اهميـة كبـيرة في تطـور الدعـوة وتركيزهـا كـما كان لطريقـة اختيـار النقبـاء مـن بلـدان متعـددة مـن خراسـان حسـب اهميـة البلـد والاوضـاع السـائدة فيـه أثـر كبـير في تقـدم الدعـوة ونجاحهـا. واسـتمرت الدعـوة في مرحلـة السريـة (بـين عـام 100-127هـ) عـن طريـق الدعـاة والنقبـاء الذيـن ظلـوا في عمـل دؤوب مـن اجـل هـذه الدعـوة وكانـت الاوامـر والتعليـمات تـرد إليهـم مـن الامـام محمـد بـن عبـد اللـه في الحميمـة.

كان الدعـاة يجوبـون خراسـان في الظاهـر بغـرض التجـارة ولكنهـم كانـوا يدعـون النـاس الى الرضـا مـن ال البيـت وازالـة الحكـم الأمـوي متـى مـا وجـدوا اناسـا لديهـم الاسـتعداد الملائـم لنـصرة الدعـوة. وكانـوا يراسـلون الامـام سرا بواسـطة القائـم بأمرهـم في الكوفـة. ولم يسـمح لاحـد مـن الدعـاة بالاتصـال بالحميمـة الا عـن طريـق المـشرف عـلى الدعـوة في الكوفـة امعانـا في السريـة وحتـى لا ينكشـف المركـز الرئيـسي لنشـاط العباسـيين التنظيمـي وهـو الحميمـة. وقـد نجحـت هـذه السياسـة اذ لم ينكشـف امـر الحميمـة الا في اواخـر مراحـل الحركـة وقبـل انتقـال اقطابهـا الى الكوفـة في سـنة 132هـ[2] وكان ائمـة الدعـاة يجتمعـون بمحمـد بـن عـلى في موسـم الحـج. وكان ذلـك المجتمـع أعظـم سـاتر لأمـر الدعـوة لأنهم كانـوا إذا قفلـوا مـن خراسـان سـافروا حجاجـا. بينـما كانـت اقامـة محمـد بـن عبـد اللـه في الحميمـة سـببا اخـر في انتظـام التواصـل بينهـم وبينـه وكتـم امـر الدعـوة.[3] لم يظهـر العباسـيون انهـم طالبـين للخلافـة بـل كانـوا يدعـون انهـم وسـيلة للثـورة التـي ارادهـا اللـه ضـد الامويـين وظلمهـم وجورهـم عـلى العبـاد. كذلـك بينـوا ان قضيتهـم هـي قضيـة الجهـاد ضـد الباطـل وليسـت الاسـتيلاء عـلى الخلافـة. وعـلي ذلـك لم تكـن البيعـة تؤخـذ للعباسـيين بـل لشـخص غـير محـدد مـن ال البيـت يتفـق عليـه فيـما بعـد (الرضـا مـن ال محمـد) كـما أعلنـوا انهـم جـاءوا للثـأر للعلويـين الذيـن قتلهـم الامويـون ولم يبينـوا انهـم جـاءوا لأخـذ محلهـم.[4]

كان مـن بـين العوامـل التـي سـاعدت عـلى نجـاح الثـورة العباسـية خصوصـا في السـنوات الاخـيرة التـي سـبقت مرحلتهـا العلنيـة وهـي السـنوات مـا بـين 127-132هـ هـي ضعـف وانقسـام البيـت الأموي مـن الداخـل. حيـث خـرج يزيـد بـن الوليـد عـلى ابـن عمـه الوليـد بـن يزيـد بـن عبـد الملـك في سـنة 126هـ والـذي اوصى مـن بعـده الى اخيـه ابراهيـم (والـذي لم تسـتمر خلافتـه أكـثر مـن سـبعين ليلـة) اذ خـرج عيـه مـروان بـن محمـد. اضعفـت هـذه الانشـقاقات الداخليـة الدولـة فنشـبت فيهـا عوامـل الضعـف والتهالـك مـن الداخـل. وبلـغ التفـكك في البيـت الأمـوي حـداً بحيـث تعاقـب عـلى الخلافـة خلال

(1) نفس المرجع، ص 88

(2) على عبد الرحمن العمرو، مرجع سابق، ص 86

(3) محمد الخضري بك، محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية (الدولة العباسية)، تحقيق محمد العثماني، بيروت: دار القلم 1986م، ص23

(4) عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الاول، ص 24

سنتين فقط (125-127هـ) اربعة خلفاء.[1] كذلك كانت من العوامل التي ساعدت نجاح الدعوة في خراسان على وجه الخصوص انشقاق القبائل العربية واقتتالها فيما بينها.[2] كانت القبائل اليمانية والنزارية في خراسان قد تعادتا ونشبت بينهم الخلافات والمشاكل. وكان هذا العداء والاقتتال اظهر ما يكون في عهد اخر ولاة الامويين على خراسان نصر بن سيار الذي كان زعيم النزارية بينما تزعم اليمانية جديع بن شبيب المعروف بالكرماني. وكانت النزارية ايضا منشقة في داخلها ايضا فربيعة في جانب ومضر في جانب فحدثت بينهم مواقع وحروب أجلي الكرماني على أثرها نصر بن سيار عن مرو حاضرة خراسان.[3] في خلال هذا الوقت الذي شهد الانشقاقات القبلية والصراعات بين القبائل العربية في خراسان توفى محمد بن على في سنة 125هـ فخلفه في القيام بأمر الدعوة ابنه الامام إبراهيم.[4]

لمعت في هذه المرحلة شخصيتان من ائمة دعاة بنى العباس وهما ابو مسلم الخراساني وابو سلمة الخلال وكلاهما من الموالي من اصول فارسية. تولى الاول امر الدعوة في خراسان بينما تولى الاخر امر الدعوة في الكوفة. وساهم الاثنان في نجاح الدعوة والثورة وسلما الخلافة الى ولد العباس بجهودهما وتفانيهما في امر الدعوة. والغريب ان مصيرهما لم يختلف كثيرا فكلاهما كان مصيره الموت على يد العباسيين على الرغم من سابقتهما في الدعوة العباسية. وكان ابو مسلم يلقب بأمين ال محمد بينما لقب ابو سلمة بوزير ال محمد.[5] كان ابو مسلم مولى لعيسى بن معقل العجلى[6] اشتراه منه بكير بن ماهان[7] وعلمه اصول التشيع. ثم اتصل بالإمام محمد بن على سنة 125هـ فعمل في خدمته وكان مقيما عنده.[8] ثم اتصل بخدمة ابنه ابراهيم فيما بعد. لما رأى ابراهيم في ابى مسلم مخايل الذكاء والقوة فقهه في مبادئ الدعوة واصولها واختصه فجعله رسولا بينه وبين اتباعه في خراسان، ثم جعله ممثله هناك واوصى شيوخ الدعوة بخراسان بطاعته.[9]

كانت الشيعة في خراسان في حاجة الى شخصية مثل ابى مسلم ليشرعوا في العمل بعد ان امكنتهم الفرصة بما وقعت فيه الدولة الاموية من الخلاف، وما كان يقع فيه عرب خراسان من

(1) السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر)، تاريخ الخلفاء، الدوحة: وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية، 2013م، ص 405-412

(2) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص 193

(3) محمد الخضري بك، محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية (الدولة العباسية)، تحقيق محمد العثماني، بيروت: دار القلم 1986م ، ص 27

(4) نفس المرجع، ص22

(5) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص 226

(6) عيسى بن معقل العجلى: كان عاملا من عمال خالد بن عبد الله القسري والى العراق وخراسان في العهد الأموي وقد سجن هو واخوه عاصم مع خالدا حينما تولى العراق يوسف بن عمر الثقفي سنة 120هـ فقبض على خالد واتهمه بأموال وسجنه وجملة من عماله. وبعد خروجهما من السجن قابلهما بكر بن ماهان فدعاهما الى الدعوة العباسية فأجاباه.

(7) بكير بن ماهان ابو هاشم الحارثي: أحد دعاة بنى العباس، قدم على محمد بن على بن عبد الله بن عباس الى البلقاء واقام عنده واخذ عنه وكان كاتبا للإمام ابراهيم فيما بعد. كان داعي الدعاة بالكوفة.

(8) يذكر اليعقوبي ذلك ولكنه يذكر ايضا ان جماعة من اهل العلم بالدولة العباسية ذكروا ان ابا مسلم لم يلق محمد بن على انما لقى ابنه ابراهيم.

(9) الطبري، مصدر سابق، ج7، ص 360

الانشقاق. فاختار الامام ابراهيم مولاه ابا مسلم لتلك المهمة. وكتب الى أصحابه: «انى أمرته بأمري فاسمعوا منه واقبلوا قوله فاني امرّته على خراسان وما غلب عليه بعد ذلك.»[1] فأصبح ابو مسلم بذلك الممثل الدائم للبيت العباسي بخراسان. واقام هناك وجُعل رئيسا للدعوة حيث بدا انه قد ان الاوان للتحرك العلني. وذلك لان القبائل العربية الثائرة في خراسان كانت قد اخرجت نصر بن سيار الوالي الأموي عن مرو حاضرة خراسان بينما كانت أيدي الحكومة الاموية مشغولة بثورات اخرى من كل نوع وفى كل مكان.[2] ابلى ابومسلم في امر الدعوة في خراسان بلاء عظيما مما جعله بحق أعظم الدعاة العباسيين بسبب حنكته ودهائه، وبسبب الشراك التي نصبها لخصومهم والتي حال بها دون اتحادهم في خراسان. وأشرف ابو مسلم على الدعوة في خراسان فنظم الدعاة وبايع اهل القرى والبلاد على نصرة الدعوة العباسية وقد نجح في مهمته ايما نجاح حتى انه وافاه في يوم واحد اهل ستين قرية فولى كل بلدة وقرية بايعته من قرى خراسان رجلا من اهلها. [3]

اما ابو سلمة الخلال فاسمه حفص بن سليمان ابو سلمة الخلال. كان مولى لبنى الحارث بن كعب من العراق. وقد قيل في تلقيبه بالخلال ثلاث اوجه: اولها ان منزله بالكوفة كان قريبا من محلة الخلالين، وكان يجالسهم فنُسب إليهم. وثانيها انه كانت له حوانيت يُعمل فيها الخل فنُسب الى ذلك. وثالثها انها نسبة الى خِلل السيوف وهي اغمادها.[4] كان ابوسلمة رجلا موسراً وقد بذل ماله في سبيل الدعوة العباسية ووصف بأنه كان كريماً فصيحاً عالماً بالأخبار والاشعار والسير والجدل والتفسير.[5] اتصل ابو سلمة بالدعوة العباسية عن طريق صهره بكير بن ماهان والذي كان كاتبا للإمام ابراهيم وكان قائدا لدعوته السرية في الكوفة. وقد عهد بكير بن ماهان حين حضرته الوفاة بأمر الدعوة والقيام بها الى صهره ابى سلمة الخلال.[6] فكتب ابراهيم الامام الى ابى سلمة في سنة 127هـ يخبره بما عهد اليه بكير من امر الدعوة ويأمره بما يريد. فقبل ابو سلمة بقيادة الدعوة. واتخذ من الكوفة مقراً لها كما فعل ابن ماهان من قبل وذلك لوقوعها في الطريق ما بين الحميمة مقر الامام ابراهيم وخراسان مقر شيعة الدعوة. ولعل اول الاعمال المهمة التي بدأ ابو سلمة بفعلها حين تولى امر الدعوة هي رحلته الى مرو حيث التقى بالشيعة فعرفهم نفسه فقبلوه وصدقوه ودفعوا اليه ما اجتمع لهم من نفقات الشيعة وخُمس أموالهم.[7] وكانت أعظم جهوده في الدعوة هي تكريسه نفسه وماله لخدمتها خلال خمس السنوات الاخيرة قبل اعلان الدولة واخذ البيعة لأبى العباس السفاح.

(1) نفس المصدر، ج7، ص 344
(2) فلهاوزن، مرجع سابق، ص 491
(3) الطبري، مصدر سابق، ج7، ص 355
(4) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 153-154
(5) نفس المصدر، ص 155
(6) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج3، ص 60
(7) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 55

دخلت الدعوة في مرحلة الثورة العلنية فيما بين الاعوام 128-132هـ وتحولت الى ثورة علنية على الحكم الأموي. فقبض مروان بن محمد (127-132هـ) اخر خلفاء بنى امية على ابراهيم الامام اذ عرف انه مدبر الثورة. وأحس الامام ابراهيم ان مروان سوف يتخلص منه، فكتب وصية الى اخيه ابى العباس السفاح فنعى اليه نفسه، وعهد اليه بأمر الدعوة واوصى اهل بيته ان يسمعوا له ويطيعوا واعلمه بأمر الدعاة والنقباء، وطلب اليه ان يذهب بأهله خِفية الى الكوفة.[1] في تلك الفترة الحرجة من تاريخ الدعوة العباسية لعب أبو سلمة دورا سياسا مهما وبارزا. فما أن انتصرت الجيوش الخراسانية في خرسان واتجهت الى العراق فدخلته حتى أرسل أبو سلمة إلى محمد بن خالد بن عبد الله القسري[2] أن يعلن الدعوة بالكوفة مظهرا السواد شعار العباسيين. ومضى محمد بن خالد إلى قصر الإمارة فدخله. ودعا الناس إلى البيعة للرضا من آل محمد، بعد أن هرب صاحب الشرطة الموالي للأمويين إلى واسط ملتحقاً بيزيد بن عمر ابن هبيرة[3] والى الأمويين على العراق. وبعد ذلك طلب أبو سلمة من الحسن بن قحطبة[4] قائد القوات الخراسانية أن يدخل الكوفة، فدخلها يوم الجمعة 10 محرم 132هـ وأقبل الحسن إلى أبي سلمة وسلم إليه الرئاسة، وخاطبه باسم «وزير آل محمد « وبايعه أهل خراسان وأهل الكوفة، وأضحى بذلك صاحب السلطة الفعلية والممثل الشرعي لآل محمد. ثم خطب أبو سلمة وهنأ القواد والجنود من أهل خراسان بالنصر وأعلن الإمامة الهاشمية دون أن يسمى الخليفة بالاسم.[5]

نزل ابو سلمة في منطقة تسمى (حمام اعين) على نحو ثلاث فراسخ من الكوفة وعسكر بها وفرق عماله على السهل والجبل وصارت الدواوين بحضرته والكتب ترد منه وتنفذ عليه.[6] ومن معسكره بحمام أعين أخذ أبو سلمة يراسل أبا مسلم الخرساني في مستجدات الأمور، ويدير شؤون الثورة باسم الدعوة للإمام القائم من بنى العباس دون أن يسمى الخليفة. في هذه الاثناء تقدم ابو العباس السفاح مع اعمامه داؤود وعبد الله وعيسى بن موسى بن محمد بن على

(1) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص211

(2) محمد بن خالد بن عبد الله القسري البجلي: هو ابن القائد الأموي الشهير خالد بن عبد الله القسري الذي كان متوليا للعراق 105-120هـ في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك. كان خالدا هذا قد قتل في عهد الوليد بن يزيد وبإيعاز منه كما قتل ابنه يزيد على يدي مروان بن محمد اخر خلفاء بنى امية. ناصر محمد بن خالد الدعوة العباسية في الكوفة، وتولى فيما بعد المدينة المنورة في عام 141هـ

(3) يزيد بن عمر بن هبيرة: هو يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري ويكنى ابا خالد. كان مؤيدا لبنى امية وتولى عدة امارات في عهدهم فتولى قنسرين ايام الوليد بن يزيد وتولى ولاية العراقين (البصرة والكوفة) سنة 128هـ في عهد مروان بن محمد. حارب العباسيين وهزمته قوات خراسان فتحصن في واسط وصالحه المنصور والسفاح وعاهداه على الامان الا ان ابا مسلم اوقع به ونقض المنصور والسفاح العهد فقتل في واسط سنة 132هـ

(4) الحسن بن قحطبة الطائي (97-181هـ). كان ابوه قحطبة نقيبا من نقباء الدعوة العباسية في خراسان وأبلى فيها البلاء الحسن جنبا الى جنب مع ابو مسلم الخراساني وهو أحد القادة الشجعان في مرحلة الثورة العباسية. خلف الحسن ابوه على قيادة الجيوش بعد وفاته سنة 132هـ استخلفه المنصور على ارمينية سنة 136هـ واوكل اليه بعض المهام لعسكرية في ملطية وبلاد الروم، توفى في بغداد.

(5) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 56

(6) نفس المصدر، ص 57

واخوه ابو جعفر ويحي بن جعفر بن تمام بن العباس ومعهم جماعة من مواليهم الى الكوفة.[1] على ان يتصل بجنود دعوتهم ودعاتهم وليعلن عن نفسه فيبايعه الشيعة ويصبح بذلك خليفة المؤمنين بشكل شرعي. لما اقتربوا من الكوفة أرسل ابو العباس رسولا الى ابى سلمة يخبره بمقدمهم فاستنكر قدومهم وقال «خاطروا بأنفسهم وعجّلوا، فليقيموا بقصر مقاتل وهو على بعد رحلتين من الكوفة حتى ننظر في امرنا.»[2] وقد رد عليه ابو العباس السفاح انهم لا يأمنون على أنفسهم في الطريق وأصر على دخول الكوفة. فأذن لهم أبو سلمة بدخول الكوفة على كره منه وكتم امرهم نحوا من شهرين عن جميع القواد والشيعة.[3]

كانت ميول ابو سلمة علوية منذ البداية فقد نشأ في الكوفة، وهي مدينة علوية الهوى ولذلك كان يميل لبنى على. ولما كانت غاية الموالي الاولى التخلص من الامويين انضم ابو سلمة للدعوة العباسية المنظمة لهذا الغرض. اتاح انتصار الجيوش العباسية ووفاة الامام ابراهيم الفرصة لأبى سلمة في التفكير لتحويل الخلافة الى العلويين خصوصا ان المدعو له لم يكن معروفاً لدى الناس.[4] ويبدو أن أبا سلمة شعر في ذلك الوقت وبعد معرفته بوفاة الامام ابراهيم انه تقع على عاتقه مسئولية اختيار امام جديد ترضى عنه جميع الأطراف الهاشمية، والخراسانية، وقادة الثورة، فظل لمدة شهرين ونصف يبحث عن شخص ترتضيه جميع هذه الأطراف. لأن أبا العباس في رأي أبي سلمة لم يكن الشخص المناسب لتولي هذا المنصب. ويعتقد فلهاوزن ان ابا سلمة لم يعتقد ان حق العباسيين في الخلافة كان حقاً بديهياً خاصة وان الذى كان يربطه بهم هي البيعة للإمام ابراهيم والذى كان قد توفى في ذلك الوقت، ومن اجل ذلك حاول تحويل الدعوة عنهم.[5] قرر ابو سلمة ان يعهد بالدعوة الى احد احفاد على بن ابى طالب، يقول المسعودي: «كان ابو سلمة حين بلغه مقتل الامام ابراهيم اضمر الرجوع عما كان عليه من الدعوة العباسية الى ال ابى طالب».[6] ويقول الطبري: "لما بلغ ابا سلمة قتل مروان بن محمد لإبراهيم الذى كان يقال له الامام بدا له في الدعاء الى ولد العباس واضمر الدعاء لغيرهم.»[7] ويقول ابن طباطبا « كان ابو سلمة لما سبر احوال بنى العباس عزم على العدول عنهم الى ابناء على عليه السلام.»[8]

كان عامل الوقت حاسما في تلك الاحداث. فبينما نزل ابو العباس السفاح في الكوفة ومعه اعمامه واهله من بنى العباس وهم في انتظار ان يبايعهم الشيعة الخراسانيين اتجه الخلال الى مراسلة اكبر رؤوس العلويين وهم: جعفر بن محمد الصادق، وعبد الله المحض بن الحسن بن

(1) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص12
(2) المصدر السابق، ص56-57
(3) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج3، ص 82-83
(4) عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الاول، ص 44
(5) فلهاوزن، مرجع سابق، ص 514
(6) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص212
(7) الطبري، مصدر سابق، ج7، ص 429
(8) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص154

لحسن بن على بن ابى طالب، وعمر الاشرف بن زين العابدين.[1] توجس هؤلاء خيفة منه ومن رسله لأنه كانوا لا يعرفونه ولم يتصلوا بأمر الدعوة من بدايتها، لذا فقد ترددوا في قبول الدعوة وقيادتها، فاحرق جعفر بن محمد خطاب ابى سلمة ولم يرد عليه، ونصح عبد الله المحض بالا يقحم نفسه في امر دعوة لم يعرفها ولم يقم بها منذ البداية لافتا نظره الى انه تلقى خطابا مماثلا، واما عمر بن زين العابدين فقد رد الكتاب قائلا للرسول انه لا يعرف صاحبه فيجيبه.[2]

كان ابو العباس السفاح في هذه الاثناء في الكوفة في تشوق لاقتناص اللحظة الثمينة التي طال انتظاره لها بمكاشفة الدعاة والجند باسمه وكشف شخصيته لهم لأخذ البيعة منهم. واما ابو سلمة فكما أسلفنا فقد اخفى امر بنى العباس حينما نزلوا بالكوفة عن جند خراسان وعزلهم عزلا تاما. اخذ ابو سلمة في تلك الأثناء يتغيب عن أبي العباس وأهل بيته. وكان كلما أرسل إليه أبو العباس ليسأله عن موعد ظهورهم يطلب منه التريث، ويخبره بأن الوقت لم يحن بعد. كان ابو سلمة قد منع الناس من الاتصال ببنى العباس وكان يأمرهم بالاختفاء. وكان إذا سئل عن الامام يدعى ان وقت ظهوره لم يجئ بعد وان واسطا[3] لم تفتح بعد. وبقي العباسيون على هذه الحالة أربعين يوماً وكذلك كان يفعل مع الخراسانيين عندما يسألونه عن الإمام، بل انه تقاعس عن ارسال مائة دينار سأله ابو العباس اياها ليعطيها كراء للجمال التي حملتهم الى الكوفة.[4]

ارتاب الخراسانيون بدورهم من تصرفات ابى سلمة وطالبوه بان يظهر لهم الامام الذي جاهدوا باسمه. ثم كان ان اكتشف أحدهم مخبأ العباسيين فأخبر بعض القواد الخراسانيين فجاءوا وعلى راسهم ابو الجهم بن عطية[5] ومعه اصحابه في السلاح فسلموا على ابى العباس، وتعرفوا به، وبايعوه. فاتجه أبو العباس بدوره الى مسجد الكوفة وخاطب الناس واخذ البيعة لنفسه. لم يكن أمام أبي سلمة، الذي تمت مبايعة أبي العباس دون علمه، إلا أن يقبل بالأمر الواقع ويبايع الخليفة. فلما اتى ليقابل ابا العباس امر ابو العباس اصحابه بان ينتظروا ابا سلمة فاذا دخل وبايع فقد سلم، وإذا لم يبايع فعليهم ان يقتلوه. ولم يلبث ابو سلمة ان حضر وحده ودخل فسلم على ابى العباس بالخلافة[6] واعتذر عن تأخير اعلان امر الخليفة لشيعته مبرراً موقفه بأنه كان يحاول تمهيد الاحوال لاستقامة الأمر.[7] على الرغم من ان ابا العباس السفاح أحس بما كان أضمره ابو سلمة من تحويل الامر عنه الا انه قبل اعتذاره في ساعة البيعة قائلا له: «عذرناك يا ابا سلمة غير مفند وحقك لدينا مُعظّم وسابقتك في دولتنا مشكورة وزلتك مغفورة، انصرف الى معسكرك لا

(1) نفس المصدر، ص 154

(2) نفسه، ص 155

(3) مدينة واسط: كانت هي الحصن الذي بناه الحجاج في ارض القصب من وادي دجلة. وكان ابن هبيرة ومن معه من اهل الشام قد لاذ بها بعد ان هزمهم قحطبة عند بابل وتبعهم الحسن بن قحطبة وحاصرهم هناك. وقد اصبحت في العصر الراهن محافظة عاصمتها الكوت.

(4) الطبري، مصدر سابق، ج7، ص 430

(5) ابو الجهم بن عطية الباهلي: كان أحد خاصة ابو مسلم الخراساني وكان ابو مسلم قد عينه كاتبا قحطبة على الجند.

(6) نفسه، ج7، ص431

(7) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص 213

يدخله خلل.»[1] وكانت المدة التي انقضت في هذه الاحداث نحوا من شهرين ونصفا.[2]

على الرغم من ان ابا العباس السفاح أدرك ما قام به ابو سلمة من محاولات تحويل الدعوة وابعاده عن منصب الخلافة، إلا أنه استوزره وأقر تلقيبه بوزير آل محمد. قضى ابو العباس السفاح أشهرا في المعسكر ثم ارتحل الى الكوفة. ويبدو انه في خلال هذه الفترة كان قد تغير من ناحية ابى سلمة فيقول الطبري: «واقام ابو العباس في العسكر أشهرا ثم ارتحل فنزل المدينة الهاشمية في قصر الكوفة وقد كان تنكر لأبى سلمة قبل تحوله حتى عُرف ذلك.»[3] ويبدو من واقع الحال ان بالعباس السفاح كان قد فقد ثقته في ابى سلمة وكان فيما يبدو قد أضمر التخلص منه بعدما أحس بمحاولاته لتحويل الخلافة الى العلويين ولكنه خاف ان هو أقدم على قتل ابى سلمة ان تنتفض عليه الشيعة وخصوصا قائدهم ابو مسلم[4] فامسك وكتم نيته تلك.

ظلت العلاقة بين ابى العباس وابى سلمة متباعدة. فكان ابو سلمة يمل الى العلويين ويجاهر بذلك حتى ثبتت الريبة به ولم يجرؤ الخليفة على مؤاخذته وخصوصا ان قيادة حزب الشيعة كانت في يده في ذلك الحين. ولأن الخليفة في ذلك الوقت لم تكن له قوة حقيقية وكان في الواقع من صنع القوم الذين كان في الظاهر يستخدمهم للوصول الى غاياته ونعنى بهم اهل خراسان. وكان هؤلاء الخراسانيون يعلمون حق العلم ضعف السند الشرعي لخلافته فكان الخليفة مفتقرا كل الافتقار الى حسن نوايا قوم اخرين كان لهم من النفوذ والقوة أكثر مما له.[5] فلما استقر الامر لبنى العباس تشاور ابو العباس وابو جعفر المنصور في امر ابى سلمة فاتفقا انه يجب عليهما التأكد من ان ابا مسلم يقف ضد ابى سلمة وليس معه، لأنه ان ثبت ان القائدين كانا على نفس الرأي حينها يكون العباسيون في خطر. ويقول ابن طباطبا: ان ابا العباس كتب الى ابى مسلم الخراساني كتاباً يعلمه فيه بما عزم عليه ابو سلمة من نقل الدولة عنهم ويقول إنني قد وهبت جرمه لك. وباطن الكتاب يقتضي تصويب الرأي في قتل ابى سلمة. وأرسل الكتاب مع اخيه المنصور، فلما قرأ ابو مسلم الكتاب فطن لرأى السفاح وغرضه فأرسل جماعة من جند خراسان قتلوا ابا سلمة واشاعوا ان الخوارج هم من قتلوه.[6] بينما تقول رواية الطبري ان ابا العباس انفذ ابا جعفر الى خراسان للقاء ابى مسلم ومشاورته في امر ابى سلمة، وان ابا مسلم سرعان ما استجاب وأرسل رجل يقال له مرارا بن انس الضبي ليقتل ابا سلمة حيث افهمه ان هذه رغبة الخليفة ابو العباس. فاتجه مرار من فوره الى الكوفة فقابل ابا العباس وافهمه الغرض من قدومه. فامر ابو العباس مناديا ينادى ان امير المؤمنين قد رضى عن ابى سلمة ودعاه وكساه. وبعد ذلك بمدة قصيرة تربص مرار هذا بابي سلمة في منصرفه من عند ابى العباس السفاح فقعد في طريقه فقتله واشيع ان الخوارج قتلته.[7]

(1) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 58
(2) نفس المصدر، ص 58
(3) الطبري، مصدر سابق، ج7، ص 431
(4) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج3، ص 89
(5) فلهاوزن، مرجع سابق، ص 517
(6) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 156
(7) الطبري، مصدر سابق، ج7، ص 449

هناك من المؤرخين مثل ابن خلكان والمسعودي واليعقوبي من يرى رأيا اخر يقول ان ابا مسلم الخراساني هو من كاتب ابا العباس السفاح للتخلص من ابى سلمة. فمثلا يروى اليعقوبي ان ابا مسلم كاتب ابا العباس قائلا: «اقتل ابا سلمة فانه العدو الغاش الخبيث السريرة.»[1] ويقول المسعودي ان ابا مسلم ظل يلح على السفاح في التخلص من ابى سلمة فقال له: « ان الله قد أحل لك دمه لأنه نكث وغيّر وبدّل.» وان ابا العباس اجابه بقوله: «ما كنت لافتتح دولتي بقتل رجل من شيعتي ولا سيما ابو سلمة وهو صاحب هذه الدعوة وقد عرّض نفسه، وبذل مهجته، وأنفق ماله، وناصح امامه، وجاهد عدوه.»[2] ويضيف المسعودي ان ابا مسلم سلّط على السفاح اخاه ابا جعفر المنصور وعمه داؤود بن على فأخذا يشيران عليه بدورهما بالتخلص من ابى سلمة فلم يستطيعا إقناعه. عندها خاف ابو مسلم من ان يعرف ابو سلمة انه اشار على السفاح بقتله فاستبق ذلك بان أرسل من يغتاله في منصرفه عن دار ابى العباس في الانبار. ولم ينكر اصحاب هذا الرأي ارتياح ابى العباس عندما سمع بأمر مقتله وانه انشد قائلا:

الى النار فليذهب ومن كان مثله على أي شيء فاتنا منه نأسف[3]

وقد أجمع المؤرخون على اكتساب الخلال لقب وزير ال محمد قبل فترة الدعوة وان ابا العباس اقره عليه بعد البيعة إلا أنهم اختلفوا حول الصلاحيات التي ترتبت على منحه هذا اللقب. فبعضهم يرى أنه كان لقبا تشريفياً أطلق على الخلال نظير خدماته. وبعضهم يرى انه كان ينطوي على مسئوليات محدودة. [4] من جهة اخرى فإننا إذا دققنا النظر في طبيعة المهام التي مارسها الخلال والمسئوليات التي تقلدها في الفترة ما بين مقتل إبراهيم الإمام وتولي أبي العباس الخلافة أدركنا أنه كان صاحب السلطة الفعلية في الكوفة. وقد اعترف بسلطته هذه جميع أنصار الدعوة. وذكر الجهشيارى «أنه عسكر في حمام أعين قرب الكوفة وأقام بها ووزع عماله على السهل والجبل، وصارت الدواوين بحضرته والكتب تنفذ منه وترد عليه»[5]. ويعنى هذا أنه أسس دواوين جديدة، وقام بتعيين العديد من الولاة والعمال على الأقاليم ليضبطوا امور البلاد التي سلمت لهم، ووجه الجيوش ليلاحقوا فلول الجيوش الاموية، إلا أن سيطرته على الجيش لم تكن كاملة، لأنها بقيت في يد أبي الجهم بن عطية الباهلي. أما عن سلطاته وصلاحياته خلال توليته الوزارة بعد تولي أبي العباس الخلافة فيبدو أن ديوان الخراج، وديوان الجند لم يكونا داخلين في سلطته، لأن ابا العباس كان قد قلدهما لخالد بن برمك[6] الذي كان مقيما في معسكر قحطبة يتقلد خراج كل ما افتتحه قحطبة من البلدان والقرى، فتقلد الغنائم وقسمها بين الجند حتى رضى عنه

(1) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج3، ص 89

(2) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص 225

(3) ابن خلكان، مصدر سابق، ج2، ص 195

(4) فايزة اسماعيل أكبر، مرجع سابق، ص8

(5) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 57

(6) التحق خالد بن برمك بجيوش قحطبة القادمة من خراسان وكان اول اتصاله بابو العباس السفاح كما ذكر الجهشيارى حين حضر بيعة السفاح في الكوفة فقابل السفاح الذي اعتقد في البداية انه من العرب لفصاحته فعرفه خالد نفسه وبانه رجل من الموالي الفرس فأعجب به السفاح وأقره على ما تقلده من الغنائم وجعل اليه بعد ذلك ديواني الخراج والجند، انظر الجهشيارى، ص 59

جنـد الخراسـانيين جميعـا.[1] ولا ريـب في أن هذيـن الديوانـين كانـا مـن أهـم الدواويـن في الدولـة، فـالأول يـشرف عـلى جبابـة الخـراج، وهـو المصـدر الرئيـسي لدخـل الدولـة، بينـما ينظـم الثـاني السـجلات المتعلقـة بمصروفـات الجنـد، وهـي أهـم بـاب في مصروفـات الدولـة آنـذاك. وفـوق ذلـك فإننـا يمكـن ان نـدرك مـن اسـتقراء الاحـداث انـه كثـيرا مـا وقـع الصـدام بـين سـلطة أبي العبـاس وسـلطة وزيـره أبي سـلمة في اول ايـام الدولـة العباسـية، لعـدم تحديـد صلاحيـات الثـاني، الـذي كان يرغـب في السـيطرة عـلى الجهـاز الإداري كلـه. وقـد ذكـر ابـو قتيبـة الدينـوري ان ابـا سـلمة اظهـر اسـتقلالا في آرائـه كـما انـه كان يمـنّ عـلى ابي العبـاس السـفاح بأفضالـه في وصولـه الى الخلافـة، يقـول» كان ابـو سـلمة ينفـذ الأمـور مـن غـير مؤامـرة (يعنـى مـن غـير مشـاورة منفـردا برأيـه) وأنـه كان يظهـر الإدلال والقـدرة عـلى أمـير المؤمنـين.»[2] وعـلى العمـوم فإننـا في تحليـل موقفـه نقـول: وجـد ابـو سـلمة نفسـه في موقـف صعـب بعـد فشـل جهـوده التـي بذلهـا لنقـل الخلافـة إلى العلويـين، إذ أن قـادة الثـورة لم يكونـوا مسـتعدين أن يتنازلـوا عـن سـلطاتهم التـي حازوهـا، وكانـوا عـلى يقـين مـن ان التمسـك بالعباسـيين أصحـاب الدعـوة، ومبايعـة أبي العبـاس إمامـا لدولتهـم الناشـئة هـو الضـمان لتأمـين اسـتمرار نجـاح ثورتهـم. كـما أنـه لم يجـد مـن العلويـين مـن ينـصره ويأخـذ بيـده وهكـذا وقـع ضحيـة لسـوء تقديـره. بمثـل هـذه النهايـة المأسـاوية انتهـى الـدور السـياسي الـذي لعبـه ابـو سـلمة الخـلال في اقامـة الدعـوة العباسـية مدفوعـا بآمـال القضـاء عـلى دولـة بنـى اميـة، وآمـال المـوالي في اقامـة الدولـة التـي تنصفهـم وتجعلهـم يعيشـون عـلى قـدم المسـاواة مـع العـرب. عـلى الرغـم مـن سـابقته وجهـوده في نـصرة الدعـوة العباسـية الا ان المؤامـرة التـي اودت بحياتـه وضعـت خطوطـا واضحـة لمـا يمكـن ان يتعامـل بـه العباسـيون مـع امثالـه مـن الشـخصيات الطموحـة حتـى وان تفانـت في خدمتهـم. كان لمقتـل ابى سـلمة الخـلال مـع أثـره المحمـود في الدولـة العباسـية أثـر في تخـوف رجـال الدولـة مـن التسـمي بالـوزارة. بـل قيـل ان كل مـن اسـتوزر بعـد ابى سـلمة كان يتجنـب ان يسـمى وزيـرا تطـيرا مـما جـرى لأبى سـلمة ولقـول مـن قـال:

ان الوزير وزير ال محمد اودى فمن يشناك ذاك وزير[3]

وقـد عـبر عـن هـذا المعنـى احمـد بـن ابى خالـد وكان كاتبـا مـن المـوالي شـديدا فصيحـا لبيبـا بالأمـور[4] حينـما اراد المأمـون ان يسـتوزره بعـد الحسـن بـن سـهل، فتنصـل احمـد مـن الـوزارة وقـال: «يـا امـير المؤمنـين اعفنـى مـن التسـمي بالـوزارة وطالبنـي بالواجـب فيهـا، واجعـل بينـي وبـين العامـة منزلـة يرجـوني لهـا صديقـي ويخافنـي لهـا عـدوى فـما بعـد الغايـات الا الآفـات.»[5]

(1) الجهشيارى، مصدر سابق، ص59

(2) الدينـوري (ابـو محمـد عبـد اللـه بـن عبـد المجيـد بـن مسـلم بـن قتيبـة)، الامامـة والسياسـة، تحقيـق محمـد محمـود الرافعـي، القاهـرة: مطبعـة النيـل، 1904، ج2، ص 231

(3) ورد البيـت في الطـبري ج7، ص 450 معـزواً لسـليمان بـن المهاجـر البجـلي وورد ايضـا في الفخـري ص 155، واليعقـوبي ج3، ص 90، و(يشـناك) تعنـى يبغضـك ومنهـا قولـه تعـالى في سـورة الكوثـر ان شـانئك هـو الابـتر أي ان مبغضـك هـو الابـتر.

(4) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 224

(5) نفس المصدر، ص 224

يعقوب بن داؤود في عهد المهدى:

يرى بعض الباحثين في التاريخ الإسلامي[1] ان حركات الشيعة خلال العصر العباسي الاول اثرت في كل من البيت العلوي والسلطة العباسية كما اثرت بالتالي على الوزراء العباسيين وفى موقف الخلفاء من وزرائهم. فقد ابدى الكثير من الوزراء العباسيين ميولا صريحة او خفية تجاه الزعماء العلويين مما ادى الى تنكيل الخلفاء بهم. وقد رأينا في الجزء السابق كيف ابدى اول الوزراء العباسيين ابى سلمة الخلال ميولا صريحة نحو العلويين وحاول تحويل الخلافة إليهم مما كلفه حياته فيما بعد. وبعد القضاء على ابى سلمة الخلال عمد الخليفة ابو جعفر المنصور الى الحد من سلطة الوزراء وكان حريصا على القيام بكل امور دولته بنفسه بل انه كان احيانا يميل الى عدم توليه وزير خوفا من ازدياد نفوذه.[2]

يقف الوزير يعقوب بن داؤود في عهد الخليفة المهدى مثالا اخرا لما لعبه الوزراء الكُتّاب من دور في رسم السياسة العامة للدولة العباسية في عهدها الاول. فقد استوزر المهدى يعقوبا هذا لخلفيته العلوية ولأنه اراد ان يقرب رجلا على معرفة وثيقة بالعلويين ينحاز له ويكون له عينا على العلويين حتى يأمن شرهم. ولكن يعقوب قرب العلويين وانحاز لهم بدلا من ان ينحاز الى الخليفة ضدهم. وهو في انحيازه هذا احتمل الكثير من عوامل المخاطرة التي استغلها خصومه اخيرا في الكيد له عند المهدى فانتهى الامر ايضا بنكبته وسجنه. ولنقف على حقيقة هذا الدور لربما كان حريا بنا ان نرجع الى الوراء قليلا لنتعرف على طبيعة العلاقات التي ربطت بين العلويين والعباسيين في الفترة ما بين سنة 100-132هـ وكيف حددت تلك الفترة طبيعة العلاقات فيما بعد ما بين البيت العلوي والبيت العباسي بعد قيام الدولة العباسية.

خلال فترة الحكم الأموي قامت في انحاء الدولة الاموية ثورات شيعية عنيفة هدفت جميعها الى الاطاحة بالخلافة الاموية وتحويلها لآل بيت الرسول (ص) أبرزها ثورة زيد بن على سنة 122هـ وثورة ابنه يحي بخراسان سنة 125هـ وثورة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابى طالب في سنة 128هـ. لكن كل هذه الثورات منيت بالفشل وترتب عليها مزيدا من التضييق على الشيعة من جانب الامويين. وكما اسلفت فان تاريخ الشيعة دخل في مرحلة ومنحنى جديد حين عهد ابو هاشم بن محمد الحنفية بإمامة فرقة الشيعة الكيسانية الى محمد بن عبد الله العباسي والذي تولى امر الدعوة للرضا من ال البيت بهدوء وصبر طوال الفترة ما بين سنة 98-132هـ. خلال هذه الفترة ظهر العباسيون جنبا الى جنب مع الشيعة على مسرح الاحداث وتباينت العلاقات بينهم ما بين التعاون والصدام حيث اشترك الطرفان في كفاح مرير ضد الدولة الاموية الشيء الذي شغلهم عن وضع ابعاد وحدود واضحة لمناهجهم واهدافهم الحقيقية.

(1) منهم سميرة مختار الليثي التي ترى ان معظم وزراء العصر العباسي كانوا من الفرس الذين لم يتمكنوا من تجاوز ميولهم نحو البيت العلوي ومنهم عبد الرحمن العمرو الذي يرى ان وزراء العصر العباسي الاول كانوا من الفرس وانهم كانوا متعصبين لثقافتهم وحضارتهم فحاولوا تقويض الدولة العباسية من الداخل عن طريق محاولات الانقلاب على الخلافة استجابة لميولهم الشعوبية.

(2) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 174

من جانب اخر فان العلاقات التي ربطت الشيعة والعباسيين بعد العام 100هـ كانت مهمة للغاية في تحديد موقف الشيعة بعد ذلك من الخلافة العباسية. استفاد العباسيون في بداية امرهم من كفاح الشيعة وثوراتهم ضد لدولة الاموية في الفترة ما بين 40-132هـ بشكل او باخر. ذلك ان ثورات الشيعة كانت قد شغلت الامويين واستنفذت كثيرا من مواردهم وجهودهم الشيء الذي افسح الطريق للدعوة العباسية لتمضي في هدوء وامان. وكان العباسيون خلال هذه الثورات يراقبون الاحداث من بعيد ويستفيدون من الخلافات والحروب التي تدور بين الامويين والعلويين. فقد شكل ذلك عاملا الهاء للأمويين عن مراقبة ومتابعة الدعوة العباسية السرية والتي ظلت جذورها تنمو وتمتد دون مواجهة ومصادمة مع الامويين.[1] كما ان الدعوة العباسية اعتمدت على الشيعة في مراحلها كافة واستترت وراء الدعوة للرضا من ال البيت فكسبت بذلك ولاء المسلمين الذين كانوا يريدون تحويل الخلافة الى بيت النبي (ص) وخاصة من الموالي الفرس.[2] واخيرا فقد ضمنت عمومية الدعوة للرضا من ال محمد ان تبقى اصابع الاتهام دائما تشير الى العلويين لثوراتهم وحركاتهم المتكررة ضد الدولة الاموية. واستمر الحال هكذا، العلويون يثورون ويقدمون الضحايا، والعباسيون يعملون من خلال تنظيم دعوتهم السرية في صمت مستفيدين مما يحصل بين الامويين والعلويين من حروب لان ذلك يشغل الامويين ويصرف انظارهم بعيدا عن دعوتهم الناشئة.[3]

تطورت الامور ما بين عام 100-132هـ حيث تقدمت الدعوة العباسية مستفيدة من الجو السياسي العام كما أسلفنا، ومستفيدة من مناصرة الشيعة من الموالي والخراسانيين الذين عملوا تحت لوائها مدفوعين بمحبة ال البيت وبآمالهم في الحياة بمساواة وعدالة تحت خلافة جديدة من ولد الرسول كما كانوا يعتقدون. واخيرا أثمر النضال، وسقطت الخلافة الاموية. وتبلورت الاوضاع وقامت الخلافة العباسية. حينها اتضح الموقف للشيعة الذين شعروا ان العباسيين استفادوا من شيعة العلويين واعتمدوا عليهم في دعوتهم كما اتخذوا من وصية ابى هاشم لمحمد بن عبد الله طريقا اوصلهم الى الخلافة. وانتهى الامر بإحساس الشيعة بان العباسيين خدعوهم واستأثروا بالخلافة والحكم دونهم. وانهم (أي العباسيون) انما استخدموا الدعوة للرضا من ال البيت مطية للوصول الى أهدافهم. فثارت اشجان الشيعة وبدأوا يناهضون الخلفاء العباسيين كما ناهضوا الامويين بالأمس. واضطر الخلفاء العباسيون الى الدفاع عن أنفسهم وعن دولتهم وهكذا ابتدأت مرحلة جديدة حفلت بمظاهر مختلفة من العداء ما بين العلويين والعباسيين طوال العهد العباسي الأول.[4] كانت المحاولة التي قام بها ابو سلمة الخلال لتحويل الخلافة الى البيت العلوي اول مظاهر عدم الاعتراف بالخلافة العباسية. وكما رأينا فقد انتهى الامر بابي سلمة بان دفع حياته ثمنا لهذه المحاولة على الرغم من انه عمل جاهدا في سبيل الدعوة العباسية وانه على حد

(1) على عبد الرحمن العمرو، مرجع سابق، ص 80

(2) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 144 وما بعدها

(3) المرجع السابق، ص 80

(4) سميرة مختار الليثي، مرجع سابق، ص 39

قول ابي العباس السفاح «كان قد عرّض نفسه، وبذل مهجته، وأنفق ماله، وناصح امامه، وجاهد عدوه.»[1] ولكن كل ذلك لم يشفع له عند العباسيين.

شهد مطلع العصر العباسي الاول ثورة شيعية قوية طالبت بتحويل الخلافة الى البيت العلوي، وقد تزعمها أحد احفاد الرسول (ﷺ) وهي ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب (بالنفس الزكية) بالحجاز. كان محمد النفس الزكية أبرز ائمة العلويين حينما تولى المنصور الخلافة، بل ان المنصور كان قد بايعه مع الكثير من بنى هاشم على الخلافة اثناء العهد الأموي.[2] وكان النفس الزكية يعتقد انه هو الخليفة الشرعي وان ابا العباس وابا جعفر قد اغتصبا الخلافة منه، وان في اعناقهما بيعة له. لذلك امتنع هو واخوه ابراهيم عن البيعة لهما.[3] لقد كشفت هذه الثورة بوضوح مشاعر العلويين تجاه الخديعة التي مارسها العباسيون بالدعوة للرضا من ال البيت. وفى الرسائل التي تبادلها المنصور ومحمد النفس الزكية أكبر دليل على ذلك حيث تكاشف الطرفان بما يعتقدانه من احقيتهما في الخلافة فقال النفس الزكية: « ان الحق حقنا وانما ادعيتم هذا الامر بنا، وخرجتم له بشيعتنا، وحظيتم به بفضلنا، وان ابانا علياً كان الوصي وكان الامام، فكيف ورثتم ولايته وولده احياء؟» وقد رد عليه ابو جعفر فلم يذكر تنازل ابى هاشم لوالده عبد الله انما احتج بان العباس هو وارث النبي وان قرابة بنى على للنبي انما هي قرابة من جهة ابنته وهي «لا تجوّز الميراث ولا ترث الولاية ولا تجوز لها الامامة على الرغم من انها قرابة قريبة.»[4] وهكذا نظر العباسيون للخلافة على انها ميراث للرسول (ﷺ) وإنها تجوز لأهل الاب ولا تجوز لأهل الام.

على كل حال فان ثورة النفس الزكية اخمدت في الحجاز بعد ان شغلت المنصور واجزعته. واضطر المنصور الى ملاحقة اسرة محمد النفس الزكية فقبض عليهم وحملهم الى سجونه في الكوفة حيث توفى الكثيرون منهم من سوء الاحوال والتعذيب. واتخذ عدة اجراءات منها توليه رباح بن عثمان بن حيان المدينة. ورباح هو ابن عم مسلم بن عقبة قائد الخليفة الأموي يزيد بن معاوية الذي حاصر المدينة وقاتل اهلها في موقعة الحرة فقتل كثيرا من اهلها واباح المدينة لجنده اياما اعملوا فيها القتل والنهب والسلب وانتهاك الاعراض.[5] وكان المنصور نفسه سابقا قد وصف رباح هذا بانه (أحد صعاليك العرب). فتفنن رباح بن عثمان بدوره في اضطهاد العلويين في المدينة وكل من ثبت انه له علاقة بالنفس الزكية. وقد اضطر النفس الزكية بعد ان لاقت اسرته من التعذيب والهوان ما لاقت الى الخروج سنة 145هـ في المدينة فتصدى له عيسى بن موسى[6] والى عهد المنصور في جيش كبير قوامه اربعة الاف جندي انفذه المنصور من العراق، اعقبه

(1) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص 225

(2) الأصفهاني (ابو الفرج على بن الحسين بن محمد المرواني)، مقاتل الطالبيين، تحقيق السيد احمد صقر، قم: منشورات الشريف الرضى 1416هـ ص 224

(3) سميرة مختار الليثي، مرجع سابق، ص 113

(4) الطبري، مصدر سابق، ج7، ص 566-571، اورد الطبري نصوص الرسائل المذكورة كاملة ولم اوردها خوف الاطالة.

(5) الدينوري، الامامة والسياسة، ج2، ص 11

(6) عيسى بن موسى بن محمد بن على: هو امير عباسي من الولاة القادة وهو ابن اخ ابو العباس السفاح وكان يقال له شيخ الدولة. ولد بالحميمة ونشأ بها جعله ابو العباس ولى عهد المنصور وولاه الكوفة سنة 132هـ انتدب لقتال محمد

بجيش اخر قوامه خمسة الاف جندي بقيادة حميد بن قحطبة الطائي. فحاصرت هذه القوات المدينة وخذّلت الناس عن مرافقة النفس الزكية وقاتلته قتالا شيدا حتى قتلته في رمضان من عام 145هـ بعد ان استمرت ثورته شهرين ونحوا من عشرين يوما.[1]

اتخذ ابو جعفر المنصور بعد ذلك جملة من الاجراءات التأديبية القاسية في حق من ناصروا ثورة محمد النفس الزكية في المدينة، فقبض عليهم وقتلهم وصلبهم. كما رأى المنصور ان يزيد من الترابط ما بين عاصمته وبين المدينة فأصبحت مدة حكم الولاة قصيرة. كما طالبهم المنصور بان يكتبوا اليه بكل صغيرة وكبيرة. كما عمل المنصور على عزل كل من يتهم بالتشيع من المناصب الحكومية. ومن جهة اخرى لاحق اخا محمد النفس الزكية ابراهيم الذي كان قد خرج بالبصرة مناصرا لأخيه في نفس الوقت الذي خرج فيه النفس الزكية بالمدينة فتمكن من السيطرة على الاهواز وفارس. لكن المنصور نجح في القضاء على ثورته فهزمه وقتله بعد ان ازعجته ثورة ابراهيم طويلا وهددته وخصوصا ان معظم جيوشه كانت في المدينة تقاتل النفس الزكية.[2]

المهم في هذه الاحداث انها وضعت خطوطا واضحة للعلاقة التي تبلورت فيما بعدها ما بين العباسيين والعلويين. فقد بدا واضحا ان العلويين استبد بهم السخط من بنى العباس وأصبحوا يرونهم مغتصبين للخلافة وهم في نظرهم اسوأ حتى من بنى امية. واما العباسيون فقد شعروا طوال العهد العباسي الاول بالتهديد من جانب العلويين ولم يأمنوا جانبهم واتخذوا في مواجهتهم الكثير من طرق القمع والاضطهاد والتعذيب خصوصا في عهد ابى جعفر المنصور وهو الذي وصفه بعض المؤرخين بانه اول من اوقع الفرقة بين ولد على وولد العباس وكانا قبل ذلك امرهم واحدا.[3] وهو الرجل الذي اشتهر بالحزم واليقظة والشدة في قمع اعدائه ولم يتردد في الاطاحة بأبي مسلم الخراساني قائد قواته وداعى دعاته حينما شعر بانه أصبح موضع تهديد له. كما لم يتردد في القبض على عمه عبد الله بن على[4] قائد جيوش العباسيين التي لاحقت مروان فقتلته وانهت بذلك دولة بنى امية وسجنه بعد ان نازعه الخلافة وادعى انه ولىّ عهد ابى العباس السفاح.

خلع المنصور في سنة 147هـ عمه عيسى بن موسى الذي قاتل النفس الزكية وابراهيم فظفر بهما وعهد بالخلافة بعده لابنه المهدى. وتولى المهدى بعد وفاة المنصور في سنة 158هـ

النفس الزكية واخوه ابراهيم من بعده فأخمد ثورتيهما وقتلهما وبهذا توطدت الدولة العباسية. تحايل عليه المنصور فاخره في ولاية العهد وقدم عليه ابنه المهدى وتحايل عليه المهدى ايضا فبذل له المال على ان يتنازل عن ولاية العهد لابنه الرشيد فقبل بعد رفضه في بادئ الامر وخلع نفسه في المسجد الجامع واحل الناس من بيعته. توفى عن عمر يناهز الخامسة والستين بالكوفة. راجع سيرته في: الذهبي (محمد بن احمد بن عثمان)، سير اعلام النبلاء بيروت: مؤسسة الرسالة 2001م، ج7، ص435

(1) المصدر السابق، ج7، ص 552

(2) سميرة مختار الليثي، مرجع سابق، ص 146

(3) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 437

(4) عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس: عم ابو العباس السفاح وابو جعفر المنصور. كان من دهاة قريش وكان شجاعا مهيبا جبارا سفاكا للدماء. طارد مروان بن محمد في اربعين الفا او يزيدون الى ان ظفر به بالقرب من قرية بوصير في مصر فقتله واقام دولة بنى العباس. لما توفى ابو العباس السفاح ادعى عبد الله انه ولى عهده فبايعه امراء الشام بينما بويع المنصور في بغداد. وندب المنصور لقتاله ابو مسلم الخراساني فاقتتل الفريقان وانهزمت قوات عبد الله فأخذه المنصور وسجنه لسنوات. وقيل امر المنصور فأجرى الماء على اساس سجنه فانهدم عليه ومات سنة 147هـ راجع سيرته في: الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج6، ص161

كان عهد المهدى عهد استقرار في احواله السياسية وانتعاش في احواله الاقتصادية. فالتفت المهدى الى الامور الداخلية للدولة وعمل على احقاق الحقوق لأصحابها كما عمل على توفير اسباب الراحة والامن للمجتمع. كانت شخصية المهدى تختلف عن شخصية والده فلم يكن يميل الى العنف بل كان متأدبا يحب العلم والعلماء واهتم بالرعية فجلس للمظالم بنفسه. وعمد الى اتخاذ شباك من الحديد ليرمي فيه الناس ظلاماتهم فيقرأها بنفسه دون تأخير او محاباة. كما حرص على اخراج الاموال التي كدسها المنصور في خزائنه فردّ المظالم الى اهلها وبرّ اهله ومواليه.[1] كما سارع الى إطلاق سراح كل من كان محبوسا في سجون المنصور الا من كان عليه دم او حق للناس او كان مفسدا في الأرض.[2] كما أجري الرواتب للمجذومين رأفة بحالهم وللحد من انتشار مرضهم بين الناس، وعلى أهالي السجون الذين ليس لهم من يتفقد احوالهم. اتخذ المهدى سياسة مهادنة مع البيت العلوي واختار لوزارته رجلا عرف بميوله العلوية وهو يعقوب بن داؤود. وربما كان في سيرة المهدى الشخصية ما يبرر اتخاذه لسياسة مهادنة مع الشيعة. وربما كانت الشكوك المتوارثة وسوء الطوية التي ميزت علاقة العباسيين بالعلويين هي التي دفعت بالمهدى الى اختيار يعقوب بن داؤود ليكون وزيرا له.

كان يعقوب بن داؤود بن عمرو بن عثمان بن طهمان رجل فارسي الأصل، وكان مولى لبني سليم. نشأ يعقوب في بيئة اشتغل أفرادها بالكتابة فقد خدم والده وأعمامه الأمويين، واشتغلوا كُتّاباً في الديوان الأموي في خراسان حتى ولاية نصر بن سيار اخر ولاة الامويين على خراسان.[3] وقد عرف عن يعقوب شغفه بالأدب وصنوف العلم.[4] بعد قيام الدولة العباسية لم يطمع أفراد هذه الأسرة في خدمة بني العباس، لاتصالهم ببني أمية وعدم ثقة العباسيين بهم. فتقربوا من آل الحسن واعتنقوا المذهب الزيدي وطالبوا بالخلافة لمحمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكية)، املا في أن يكون للعلويين دولة يعيشون في كنفها.[5] وكان (عليا) أخو يعقوب الاكبر سنا كاتبا لإبراهيم بن الحسن. فكان ان خرج يعقوب مع اخوته في حركة ابراهيم بن الحسن فاخذ يعقوب يجول في البلاد منفرداً تارة، وأحياناً أخرى مع إبراهيم بن عبد الله في طلب البيعة لمحمد النفس الزكية.[6] فلما فشلت ثورة النفس الزكية وثورة ابراهيم وقتل محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم على يد المنصور سنة 145هـ توارى يعقوب وأخوته فطلبهم المنصور حتى ظفر بهم، وحبس يعقوب في السجن طوال عهد المنصور لأكثر من عشر سنوات. وعندما تولى المهدي الخلافة أمر بإطلاق سراح أغلب السجناء الذين كانوا في سجون المنصور فأطلق سراح يعقوب بن داؤود من ضمن هؤلاء.[7]

أما عن كيفية اتصال يعقوب بالخليفة المهدي وحصوله على ثقته، ومن ثم اختياره وزيراً له، فقد اجمعت كثير من المصادر ان السبب في تولية يعقوب الوزارة كان سياسيا خالصا. ذلك

(1) نفس المصدر، ص441
(2) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج3، ص 127
(3) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 154
(4) الجهشياري، مصدر سابق، ص 114
(5) المصدر السابق، ج8، ص 155
(6) الجهشياري، مصدر سابق، ص 114
(7) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 117

ان المهدى كان يلمس مدى خطورة العلويين على دولته ومن ثم اراد ان يسند منصب الوزارة الى رجل وثيق الصلة بهم يكون اداة فعالة في مواجهة خطرهم بل والقضاء عليهم.[1] ويثبت الطبري ان يعقوب بن داؤود كان مسجونا مع الحسن بن ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن ابى طالب.[2] فلما فك المهدى سجن داؤود وعفا عنه لم يمنّ على الحسن بن ابراهيم بالعفو بالمثل. فخاف الحسن بن ابراهيم على نفسه واحتال للهرب من سجنه. فمكث المهدى دهراً يطلب الحسن بن ابراهيم هذا ومعه عيسى بن زيد.[3] ثم فكر في ان يتعاون مع رجل له معرفة بالشيعة الزيدية في ذلك فيروى عنه انه قال: « لوجدت رجلا من الزيدية له معرفة بال حسن وبعيسى بن زيد وله فقه فاجتلبه اليّ عن طريق الفقه فيدخل بيني وبين ال حسن وعيسى بن زيد.»[4] وعلى هذا الاساس قرب اليه يعقوب بن داؤود.

صارت منزلة يعقوب تعلو عند الخليفة تدريجيا وكان قد اخذ من المهدى عهدا ان يناصحه فيبلغه ما خفي عليه من امور في دولته. واذن له المهدى في الدخول عليه ليلاً فاخذ ينصحه في امور كثيرة مثل امر الثغور، وبناء الحصون، وتقوية الغزاة، وتزويج العزّاب، وفكاك الاسرى، والقضاء على الغارمين، والصدقة على المتعففين، فحظي بذلك عند المهدى[5]، الذي أعطاه لقبًا فريدًا من نوعه هو (الأخ في الله) وخط ذلك في خطاباته ومراسلاته الرسمية التي كانت تحفظ ضمن أوراق الخلافة، وأخرج توقيعات تثبت في الدواوين وأسبغ عليه مبلغ مائة ألف درهم.[6] ولا شك في أن تلقيب المهدي يعقوب بن داود بلقب (الأخ في الله) له مغزاه السياسي. فقد أراد المهدي أن يستغل ظروف يعقوب واتصالاته بالعلويين، ليكسب جانبهم ويرصد تحركاتهم وأنشطتهم، وليسكن خواطر الشيعة فيأنس العلويون بحكمه. ولتسهيل مهمة يعقوب في سياسة المصالحة مع العلويين من الجهة الاخرى منحه المهدي سنة 161هـ سلطات سياسية كبيرة، مثل حق تعيين أمناء له في جميع الولايات، ومنح هؤلاء الأمناء سلطة على الولاة أنفسهم، فكان لا ينفذ للمهدي كتاب إلى عامل حتى يكتب يعقوب بن داود إلى أمينه وثقته بإنفاذ ذلك. ولم يزل أمر يعقوب يرتفع ويعلو عند المهدي حتى استوزره وفوض إليه أمر الخلافة، أي أنه وزره وزارة تفويض، وأصدر مرسومًا رسميًا بذلك سنة 163هـ فازدادت منزلة يعقوب علوا.[7]

ما كاد المهدى يستوزر يعقوب حتى أخذ الاخير يقرب الزيدية وأتى بهم من كل ناحية، وولاهم مناصب الدولة ليس في العراق وحدها وإنما في جميع الولايات.[8] ويبدو ان تقريب يعقوب

(1) على عبد الرحمن العمرو، مرجع سابق، ص 186

(2) الحسن بن ابراهيم بن عبد الله بن الحسن: أحد ولدىّ ابراهيم بن عبد الله أخو النفس الزكية والخارج على المنصور بالبصرة.

(3) عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب: ويكنى ابا يحي. خاض مع محمد النفس الزكية واخوه إبراهيم حروبهما واخفى نفسه بعد انتصار المنصور عليهما ومقتلهما ظل مختفيا الى ان توفى في عهد المهدى.

(4) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 155

(5) نفس المصدر، ج8، ص 119-117

(6) نفس المصدر، ج8، ص 119

(7) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 115

(8) نفس المصدر، ص 118

للزيدية وايثارهم بالعديد من مناصب الدولة كان أكبر اخطائه وكان السبب الاول في غضب المهدى عليه. لأنه بدلا من ان يكون اداة في يد المهدى لمجابهة خطر الزيدية أصبح اداة في يد الزيدية لتقويض الدولة العباسية. وفى الواقع كان لهذا التصرف من جانب يعقوب عواقب وخيمة على مستقبل الدولة العباسية، ذلك انه فتح الباب للزيدية بل للعلويين جميعا فتغلغلوا في الدولة وكثر نفوذهم مما اشعر المهدى ان يعقوب سلك طريقا مغايرا لما خطط له حين ولاه الوزارة.

اما العلويون من الجانب الاخر، فلم يركنوا ليعقوب ولم يثقوا فيه فالخلافات بين العلويين والعباسيين كانت عميقة جداً، فلم يستطع العلويون الثقة في يعقوب، واعتبروه شخصًا انتهازياً خصوصا عندما تمكن من التوسط بين الحسن بن ابراهيم بن عبد الله والمهدى حتى جمع بينهما في موسم الحج سنة 160هـ بمكة فلما علم ال الحسن بذلك استوحشوا منه.[1] كما ان الصلاحيات الكبيرة التي منحها يعقوب لأمناء وموظفي الزيدية اثارت عداء أصحاب البريد وولاة الولايات، فأخذوا يوغرون صدر المهدي على يعقوب، معللين ذلك بأن ميله للعلويين هو الذي جعله يمنحهم تلك الصلاحيات.[2] وكان يعقوب يشير على المهدى بالاقتصاد في النفقات، وحفظ الأموال، ولا يتورع عن وصف سياسة المهدى المالية صراحة بالسرف، فرد عليه المهدى مرة بقوله: «وهل يحسن السرف الا باهل الشرف؟، ويلك يا يعقوب لولا السرف لم يُعرف المكثرون من المقترين.»[3] وعلاوة على ذلك سعى الوشاة الى المهدى انه انتقد إنفاق المهدى 50 مليون درهم من بيت مال المسلمين على بناء منتزه.[4] وبذلك بدأت علاقة المهدي بيعقوب تتبدل شيئًا فشيئًا.

كانت أخطر العلاقات التي ربطت يعقوب بالعلويين هي علاقته بإسحق بن الفضل بن عبد الرحمن ابن عم الخليفة المهدى والذي حاول يعقوب اقناع المهدى بتوليته ولاية مصر فوقع في قلب المهدى ان يعقوب سيقوض ملكه بميله الى العلويين. وقد روى عنه انه استاء لهذا الاقتراح غاية الاستياء وان يعقوب لما انصرف عن مجلسه ذاك اتبع ببصره وهو يقول: « قتلني الله ان لم اقتلك.»[5] لعبت الوشايات دورها في تضخيم خطورة الوزير بن داؤود في نظر المهدى وفى تجسيم مساوئه وانه على وشك التسبب بتقويض الدولة العباسية، وان له اعواناً في المشرق والمغرب يكفيه ان يكتب إليهم فيثوروا جميعا في يوم واحد فيأخذوا الدنيا لأسحق بن الفضل فكان ذلك مما غير المهدى عليه.[6]

اما قاصمة الظهر بالنسبة ليعقوب فحدثت عندما عهد المهدى الى يعقوب بالتخلص من احد العلويين فلما وجه اليه يعقوب واحضره وجده لبيبا فهيما وقد خوفه العلوى من ان يقتله فيلقى الله بدمه يوم القيامة.[7] فما كان من يعقوب الا ان اعطاه مائة الف درهم وطلب اليه

(1) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 156
(2) فايزة اسماعيل أكبر، مرجع سابق، ص 20
(3) المصدر السابق، ج8، ص 157
(4) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 118-119
(5) على عبد الرحمن العمرو، مرجع سابق، ص 191
(6) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص156
(7) نفس المصدر، ج8، ص 153

الهرب من أي الطرق شاء، فاخذ العلوى المال وهرب لكن الخبر نما الى المهدى فقبض على العلوى وحبسه ثم واجه يعقوب وسأله عن مصير العلوى فاقسم يعقوب بانه قتله وحينها اخرج اليه المهدى العلوى الهارب والمال الذى اعطاه له، فلم يجد يعقوب جوابا فأمر المهدي بسجنه[1] وطرد جميع أمنائه. وظل يعقوب في السجن حتى وفاة المهدي والهادي، وأطلق سراحه الرشيد بعد أن شفع له يحي بن خالد البرمكي، فأخرج من السجن بعد أن ذهب بصره وعمى فطلب أن يجاور في مكة، وأقام بها حتى توفي هناك سنة 187هـ[2] وكانت وزارته للمهدي حوالي خمس سنوات.

البرامكة في عهد الرشيد:

تنحدر اسرة البرامكة من احدى البيوت الفارسية، اتصلت هذه الاسرة بأبي العباس السفاح اول الخلفاء العباسيين في بداية امر الدولة العباسية. وقد قرب الخلفاء العباسيون فيما بعد افرادها واستعانوا بخدماتهم في شئونهم السياسية والادارية والادبية لما خبروه من حنكتهم وحذقهم في امور الكتابة والبيان. أدرك افراد هذه الاسرة الفارسية ان طريقهم الى المراكز العليا في ظل خلافة اسلامية عربية قوية كالخلافة العباسية لن يكون الا عن طريق اتخاذ الكتابة صنعة لهم. وساعدتهم في ذلك مواهبهم الادبية واحتياج الدولة الى الكتّاب واعتماد العباسيين على العنصر الفارسي. فأعرقت هذه الاسرة سياسيا في الوزارة وادبيا في الكتابة والثانية هي المدرج الذي اوصلهم للأولى.[3] اخذت هذه الاسرة تنمو مع الدولة ويترامى صيتها بين العامة والخاصة وكبرت في عهد الرشيد وترعرعت في زمنه فتولى يحي بن خالد (120-190هـ) وولداه الفضل (-147 193هـ) وجعفر 142) 187-هـ) مقاليد الحكم الفعلية في الدولة فأحسنوا السيرة وعرفهم الناس. ولكن الرشيد نكبهم اخر الامر فسجن يحي والفضل بينما قتل جعفر وصلبه على جسر ببغداد، يقول المسعودي: «كانت مدة دولة البرامكة وسلطانهم وايامهم النضرة الحسنة من استخلاف هرون الرشيد الى ان قتل جعفر سبعة عشر عاما وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما».[4]

تؤكد المصادر على ان جذور البرامكة تعود الى مدينة بلخ وهي واحدة من المراكز المهمة في خراسان. وجد هذه الاسرة هو خالد بن برمك (90-165هـ).[5] يقول الحموي في معجم البلدان ان البرامكة كانوا اهل شرف ببلخ وكان دينهم عبادة الاوثان وانهم اتخذوا بيتا لعبادة النار على غرار الكعبة في مكة سموه (النوبهار) أي (الريحان الجديد)[6] لأنهم زينوه باول طلع الريحان على عادتهم عند بناء أي مبنى او مسكن جديد فكانت الفرس تعظمه وتحج اليه وتهدى له. وكان

(1) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 120-121

(2) نفسه، ص 121

(3) احمد سعيد احمد الزهراني، اثار البرامكة وبنى سهل والصوليين على النثر الفني، دراسة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الادب، جامعة ام القرى (مكة المكرمة)، 1990م، ص 151

(4) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص 315

(5) ابن خلكان، مصدر سابق، ص332

(6) ويعتقد احمد فريد الرفاعي ان اسمه يفسر بالسنسكريتية (الدير الجديد) ويعتقد ايضا انه كان مخصصا لعبادة الاوثان وليس النار وان عبادتهم كانت أقرب ما تكون للبوذية، راجع عصر المأمون، ج2، ص136

يقوم على سدانته ثلاثمائة وستون رجلا يسكنون حوله في مقاصير يسمى كبيرهم (برمك). وكان هذا البرمك لديهم معظما تهدى له الأراضي العظيمة حول النوبهار ويعتبر كل من يسكنها عبيدا له. فكانت البرامكة تملك الأراضي التابعة للمعبد والتي كانت مساحتها تبلغ سبعمائة واربعون ميل مربع.[1] ويُفهم من هذا ان لفظة (برمك) ليست اسمًا ولكنها رتبة وراثية خاصة برئيس الكهان بمعبد النوبهار هذا.[2] كان والد خالد عميد اسرة البرامكة هو برمك النوبهار حين فتح المسلمون خراسان على ايام عثمان بن عفان فدخل ابو خالدا هذا في الإسلام. وقد كتب اليه أحد ملوك الفرس ويسمى (نيزك طرخان) فعاوده للرجوع الى دين ابائه فأبى فقتله هو وعشرة من أبنائه. وهربت امرأته بخالد وهو صغير الى بلاد الهند فنشأ هناك وتعلم علم الطب والنجوم وانواعا من الحكمة.[3]

ظهر خالدا هذا مرة اخرى على خلفية الاحداث في ايام الدعوة والثورة العباسية ويبدو انه كان ذا شخصية قيادية فرض نفسه على الساحة التي كانت تمور بالأحداث في ذلك الوقت. وتحكى المصادر ان خالدا لعب دورا بارزا في التطورات التي مرت بالدعوة العباسية حتى قيام الدولة العباسية في سنة 132هـ اضافة الى ذلك فقد أسهم في تدبير الامور اثناء المعارك التي دارت بين الجيش العباسي والجيش الأموي اثناء الثورة العباسية، فقد ذكر المسعودي[4] ان خالد بن برمك كان أحد دعاة الدعوة العباسية في خراسان مع قحطبة بن شبيب[5]. ويبدو ان قحطبة كان في البداية قائد الجيوش الثاني بعد ابى مسلم او معه في نفس المرتبة وهو عربي من طيء. وكان قحطبة قد خرج اثناء الثورة غائبا في مكة للقاء الامام ابراهيم بن محمد ايام الحج ولم يعد الى خراسان الا بعد ان استولى ابو مسلم على مدينة مرو، فعقد له الامام ابراهيم لواء في ذلك اللقاء وجعله على مقدمة ابا مسلم وجعل له القيادة والعزل والاستعمال وكتب الى الجنود بالسمع والطاعة له فاقر ابو مسلم بذلك واسند له القيادة. يقول الطبري ان قحطبة خرج في الجيش ومعه او تحت إمرته مجموعة من القواد فيهم خالد بن برمك البلخي، ويضيف ان خالدا كان يقاتل في ميمنة جيش قحطبة في خراسان.[6]

في خلال تقدم جيش قحطبة واثناء تحقيقه للانتصارات في سنة 132هـ ولى خالد بن برمك خراج المناطق التي افتتحها هذا الجيش. ويبدو انه سار بسيرة محمودة من العدل في تقسيم الغنائم بين الجند الخراسانيين فيقول الجهشياري: «كان خالد بن برمك في عسكر قحطبة يتولى خراج كل ما افتتحه فحطبة من الكور وتقلد الغنائم وقسمها بين الجند فكان يقال انه ما من

(1) الحموي (شهاب الدين ابى عبد الله ياقوت بن عبد الله)، معجم البلدان، بيروت: دار صادر 1977م، ج5، ص 308

(2) احمد فريد الرفاعي، مرجع سابق، ج2، ص 136

(3) المصدر السابق، نفس المكان

(4) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص 200

(5) قحطبة بن شبيب الطائي: صاحب ابا مسلم الخراساني وشريكه في اقامة دعوة بن العباس في خراسان وقائد جيوش العباسيين وكان قائدا مظفرا ولكنه غرق في الفرات سنة 132هـ عند بداية الدولة العباسية.

(6) الطبري، مصدر سابق، ج7، ص406

أحد من اهل خراسان الا ولخالد عليه يد ومنّة لأنه قسّط الخراج فأحسن فيه الى اهله.»[1] ويبدو انه قلد هذه الاعمال لتفوقه في الشئون الادارية والمالية.[2]

بعد انتصار جيوش العباسيين وتكاملها في الكوفة، عقدت البيعة لأبي العباس السفاح في مسجد الكوفة، وفي ذلك الحدث قابل خالد بن برمك ابا العباس السفاح لأول مرة ويبدو ان ابا العباس أعجب بفصاحته وظنه من العرب فسأله: «ممن الرجل؟» فأجابه:» مولاك خالد بن برمك»، وقص عليه قصته وقال له: وانا كما قال الكميت بن زيد[3]:

فمالي الا ال احمد شيعة ومالي الا مشعب الحق مشعب

فأعجب به ابو العباس وأقره على ما يتقلد من الغنائم وجعل اليه بعد ذلك ديوان الخراج وديوان الجند فيقول الجهشياري:» فكثر فيه حامده وحسن أثره».[4] وعند استقرار الامور في دولة بنى العباس في العراق، كان خالد البرمكي بمثابة الوزير لأبي العباس السفاح خاصة بعد مقتل ابى سلمة الخلال[5] الا انه كان يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيرا تشاؤما مما حدث لأبي سلمة الخلال[6] وفي ذلك يقول الشاعر ابن حبيبات الكوفي[7]:

قد وجدنا الملوك تحسد من اعطته طوعا ازمة التدبير
فاذا ما راوا له النهى والامر اتوه من باسهم بنكير
شرب الكاس بعد حفص سليمان ودارت عليه كف المدير
ونجا خالد بن برمك منها اذ دعوه بعدها بالأمير
اسوأ العالمين حالا لديهم من تسمى بكاتب او وزير[8]

تولى خالد الدواوين لأبي العباس. ومما يحمد له بعض الاصلاحات الادارية في هذه الفترة فيقول الجهشياري: «كانت شئون الدواوين تكتب على صحائف منفردة وكان خالد اول من جعلها في دفاتر».[9] ولم يزل خالد على منزلته تلك الى ان توفى ابو العباس.[10] وجاء عهد المنصور فعمل خالدا مستشاراً للمنصور مما يعنى انه شارك في صنع القرارات كما اسهم في رسم السياسة العامة التي كان يسير عليها المنصور اذ يذكر ابن طباطبا ان المنصور لما تولى الخلافة اقر خالدا على

(1) الجهشياري، مصدر سابق، ص 58

(2) على عبد الرحمن العمرو، مرجع سابق، ص 207

(3) الكميت بن زيد الأسدي (60-126هـ): شاعر عربي من قبيلة بنى اسد ومن أشهر شعراء العصر الأموي، سكن الكوفة واشتهر بالتشيع وقصائده في ذلك تسمى بالهاشميات.

(4) المصدر السابق، ص 59

(5) نفس المصدر، نفس المكان

(6) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص156

(7) ابن حبيبات الكوفي: اسمه يزيد بن خالد الكوفي وهو شاعر من شعراء العصر العباسي الأول. ذكره ياقوت في معجم الادباء وذكر قطعة من شعره وذكره صاحب الفخري واورد الابيات السالفة لكنه لم يترجم له، راجع الفخري، ص156.

(8) نفس المصدر، ص 176

(9) الجهشياري، مصدر سابق، ص 58

(10) نفس المصدر، ص 59

اعماله واكرمه واستشاره.[1] تولى خالد بن برمك بعد ذلك بعض المناصب المهمة في الدولة في عهد المنصور، فقد اسندت اليه ولاية فارس ثم ولاية الري وطبرستان.[2] وفي خلال هذه الفترة بدأ نجم ابنه يحي في الظهور فقد ذكر المؤرخون انه اقام بالري نائبا عن ابيه.[3] ولما وجه المنصور ابنه المهدى الى الري خدمه يحي فأحبه المهدى من اجل ذلك وقربه.[4] واسهم المهدى في فتح الباب امام البرامكة بالبلاط العباسي وامر باستدعاء خالد بن برمك ليحدثه ويجالسه لعلمه ببعض الاخبار.[5] وما زالت مكانة خالدا تعلو في عهد الخليفة المهدى فعهد اليه المهدى بتولي الكتابة لابنه هرون الرشيد. وحينما أرسل الرشيد في غزوة الصائفة في سنة 163هـ انفذه معه وقلد كتابته ونفقاته وتدبير امر عسكره لابنه يحي بن خالد ففتح الله عليهم وحسن أثر يحيى فيما قام به وحمد له المهدى فعله وتدبيره في تلك الحملة.[6] ثم عهد المهدى لابنه هرون الرشيد بحكم المغرب كله من الانبار الى افريقية فامر خالدا بتولي كل ذلك وتدبيره.[7] فنال بذلك مرتبة جليلة لا يصل اليها في دولة بنى العباس الا من كان من المقربين من الخليفة ومن اهل ثقته اذ كانت هذه الاقاليم تشكل أحد القسمين الرئيسيين للإمبراطورية العباسية.

من الناحية الشخصية فقد وصف خالد البرمكي بانه كان سخيا جليلا سريا نبيلا كثير الاحسان. وبلغ من كرمه انه كما عبر الجهشيارى لم يُر لجليس خالد دار الا وخالد قد بناها له، ولا ضيعة الا وخالد ابتاعها له، ولا ولد الا وخالد ابتاع امه ان كانت امة او ادى مهرها ان كانت حرة، ولا دابة الا وخالد قد حمله عليها. وكان خالد اول من سمى الذين يقصدون العمال لطلب البر (الزوار) وكانوا قبل ذلك يسمون (السُؤَّال) فقال خالد «انا استقبح لهم هذا الاسم وفيهم الاحرار والاشراف.»[8] وفي حميد صفاته يقول المسعودي انه «لم يبلغ مبلغ يحي بن خالد أحد من ولده في جودة رأيه وبأسه وجميع خلاله، لا(يحيى) في رأيه ووفور عقله ولا (الفضل) في جوده وبراعته ولا (جعفر) في فصاحته وبراعته ولا (محمد) في سروره وبعد همته ولا (موسى)[9] في شجاعته وبأسه».[10]

نعِم خالد البرمكي واسرته بعلاقات حميمة مع اسرة وبيت الخلافة. ويكفي ان نعلم ان الخيزران زوج المهدى ولدت هرون الرشيد في سنة تسع واربعون ومائة وكان الفضل بن يحي بن خالد قد ولد قبل ذلك بسنة فأرضعت الخيزران الفضل وارضعت زبيدة بنت منير ام الفضل

(1) المصدر السابق، ص 158

(2) ابن خلكان، مصدر سابق، ج1ن ص332

(3) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 98

(4) نفس المصدر، ص98

(5) جمال محمد سرحان، المسامرة والمنادمة عند العرب حتى القرن الرابع الهجري، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية، الجامعة الامريكية في بيروت 1978م، ص67

(6) الجهشيارى، مصدر سابق، ص111

(7) نفس المصدر، ص 110

(8) نفس المصدر، نفس المكان

(9) جميع هؤلاء كانوا من اولاد يحي بن خالد البرمكي.

(10) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص 304

هـرون فتأكـدت حرمـة يحـي واتصـل سـببه.[1] كـما دفـع ابـو العبـاس ابنتـه ريطـة الى خالـد بـن برمـك حتـى ارضعتهـا زوجتـه ام خالـد بنـت يزيـد بلبـان بنـت لخالـد تدعـى ام يحـي وارضعـت ام سـلمة زوجـة ابى العبـاس ام يحـي بنـت خالـد بلبـان ابنتهـا ريطـة. وتبـدو لنـا هـذه الصـلات الاجتماعيـة أكـثر وضوحـا مـن القصـة التاليـة والتـي اوردتهـا العديـد مـن المصـادر والتـي تحـكى ان ابـا العبـاس قـال يومـا لخالـد بـن برمـك:» لم تـرض يـا بـن برمـك حتـى اسـتعبدتني»، فوجـم خالـد مـن ذلـك وقـال:» انـا عبـد امـير المؤمنـين»، فقـال لـه:» كانـت ريطـة وام يحـي في فـراش واحـد فتكشـفتا فـرددت عليهـما اللحـاف» فقـال خالـد:» مـولى يكتسـب الاجـر في عبـده وامتـه».[2] وقبـل يـده وشـكر لـه.[3]

ويوحـى هـذا الموقـف بـان الثقـة التـي نالهـا خالـد مـن ابى العبـاس لم تـأت مصادفـة وانمـا تحققـت بإظهـار الاخـلاص فيـما يـوكل اليـه وبحسـن التـأتى في الخطـاب وبقـدر كبـير مـن الدهـاء الـذي يتقنـه اصحـاب العقـول الراجحـة.[4] ولا يعنـى هـذا ان خالـد البرمـكي لم يمـر ببعـض المنحنيـات الصعبـة مـع خلفـاء بنـى العبـاس بـل عـلى العكـس فقـد حـدث في عهـد المنصـور ان اتهمـه المنصـور في مـال عـلى إثـر سـعاية مـن وزيـره ابى ايـوب الموريـانى الا انـه سرعـان مـا صفـح عـن خالـد لمـا ظهـرت براءتـه ورده الى سـابق مكانتـه ولم يعـد يسـمع مـن الموريـانى سـعاية في خالـد. وفى عهـد الخليفـة المهـدى ايضـا غضـب المهـدى عـلى خالـد لأنـه قتـل واحـدا مـن القـادة الاتـراك كانـت تربطـه صلـة قرابـة بخـادم المهـدى الخـاص وكان يسـمى فـرج وبتأثـير مـن فـرج هـذا غضـب المهـدى عـلى خالـد والزمـه مبلغـا كبـيرا مـن المـال ولكـن بفضـل شـفاعة الخيـزران زوج الخليفـة المهـدى رضى المهـدى وسـامح خالـدا.[5] وتـوفى خالـد في سـنة 163هــ فوجـه اليـه المهـدى بكفـن وحنـوط وصـلى عليـه هـرون الرشـيد. [6]

يحي بن خالد البرمكي ودوره في اخذ البيعة لهرون الرشيد:

اتاحـت الفـترة القصـيرة التـي تـولى فيهـا الهـادي الخلافـة (169-170هــ) فرصـة مناسـبة لظهـور نجـم يحـي بـن خالـد البرمـكي، اذ تـوفى والـده خالـد البرمـكي كـما أسـلفنا في سـنة 163هــ وحـل يحـي مكانـه في زعامـة البيـت البرمـكي. وصـف يحـي بانـه كاتبـاً بليغـاً، لبيبـاً، اديبـاً، سـديداً، صائـب الـرأي، حسـن التدبـير، ضابطـاً لمـا تحـت يـده، قويـاً عـلى الامـور، جـواداً يبـارى الريـح كرمـاً وجـوداً، ممدوحـا بـكل لسـان، حليـماً عفيفـاً وقـوراً مهيبـاً.[7] ارتبـط تاريـخ يحـي البرمـكي في هـذه الفـترة بـولي العهـد هـرون الرشـيد شـقيق الخليفـة الهـادي وولى عهـده والـذي كان قـد ولاه المغـرب مـن الانبـار الى افريقيـة وامـر يحيـى بـان يتـولى لـه دواوينـه واعمالـه[8] كـما وقـد اقـره الهـادي بعـد وفـاة المهـدى عـلى القيـام

(1) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 98
(2) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 156-157
(3) المصدر السابق، ص 59
(4) احمد سعيد احمد الزهراني، مرجع سابق، ص 27
(5) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 111
(6) نفس المصدر، نفس المكان
(7) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص198
(8) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 187

بأمر هرون الرشيد وعلى كتابته وعلى تدبير الاعمال التي كانت اليه.[1] وهكذا كان يحي كاتب الرشيد وكان من الطبيعي ان يكون رجاؤه هو تولية هرون للخلافة فيصير هو وزير دولة.[2]

لعب يحي بن خالد دوراً مهما في الابقاء على ولاية العهد لهرون الرشيد وذلك في مواجهة ضغوط مارسها الخليفة الهادي لإجبار هرون على التنازل من ولاية العهد لصالح ابنه جعفر والذي كان طفلا في ذلك الوقت.[3] وتكشف الاحداث التي دارت في تلك الفترة القصيرة شخصية اخرى لربما اثرت ايضا في سير الاحداث قبيل وفاة الخليفة الهادي في سنة 170هـ وهي شخصية ام الهادي وهرون الرشيد وهي الخيزران زوجة المهدى. كانت الخيزران ام ولد اعتقها المهدى وتزوجها وهي من أصل يماني[4] وروى عنها انها كانت متفقهة اخذت الفقه عن الامام الأوزاعي.[5] وكانت الخيزران ذات شخصية قوية وصفت بانها «كانت حاكمة مستبدة بالأمور الكبار»[6] واعتادت ان تتدخل في امور الخلافة منذ عهد زوجها المهدى[7] فكانت تأمر وتنهى وتشفع وتبرم وتنقض وكان اصحاب الحاجات يقصدونها. وعندما ولى الهادي الخلافة كانت تطلب منه ان يجيبهم الى مطالبهم. اما الهادي فكان بدوره ذا شخصية قوية وصف بانه كان جبارا[8] قاسى القلب، شرس الاخلاق، صعب المرام، شجاعا، شديدا[9] كما وصف بانه كان متيقظا، غيورا[10] فلم يرضه ما كانت تظهره امه من التدخل في شئون الخلافة وحاول الحد من تدخلها في الأمور، فكان يقول لها: « ما للنساء والكلام في امر الرجال.»[11] كلمته ذات مرة في حاجة فأبى ان يجيبها اليها واقسم لها ليضربن عنق من يراه من اصحاب الحاجات على بابها فقامت مغضبة فناداها قائلا: «مكانك فاستوعبى كلامي والله، والا فانا نفى من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن بلغني انه وقف ببابك أحد من قوادى او أحد من خاصتي او خدمي لا ضربن عنقه ولأقبضن ماله فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك كل يوم؟ اما لك مغزل يشغلك او مصحف يذكرك او بيت يصونك؟ اياك ثم اياك ما فتحت بابك لملى او ذمى».[12] وتروى المصادر انها قامت ما تعقل ما تطأ من الغضب.[13] ثم انه منع القواد والخاصة والخدم من الاتصال بها فلما كثر عليه مصير من يصير اليها من قواده قال يوما وقد جمعهم: «ايكم يحب

(1) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 110

(2) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص198

(3) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج3، 138

(4) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص451

(5) شوقي ابو خليل، هرون الرشيد امير الخلفاء واجل ملوك الدنيا، دمشق: دار الفكر المعاصر 1996م، ص 24

(6) المصدر السابق، ص 452

(7) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص207

(8) السيوطي، مصدر سابق، ص 451

(9) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص 270

(10) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص189

(11) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 207

(12) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص272، الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 206

(13) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 452، المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص 272

ان يتحدث الرجال بخبر امه فيقولوا فعلت ام فلان وصنعت ام فلان فقالوا: ما أحد منا يحب ذلك، فقال: فما بال الرجال يأتون امى فيتحدثون بحديثها؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها البتة فشق عليها ذلك فاعتزلته وحلفت الا تكلمه.»[1] ويبدو ان العلاقة بين الهادي وأمه كانت تمر بأطوار معقدة أكثر فأكثر فروى عن الهادي انه كان يقول (لا يفلح خليفة له ام). ويروي الطبري ان الهادي أرسل الى امه الخيزران بأكلة مسمومة فأطعمتها كلبا فانتثر لحمة ونفق وأرسل اليها يسألها عن الاكلة فقالت: وجدتها طيبة فقال: لم تأكلي ولو فعلت لكنت استرحت منك، متى أفلح خليفة له ام؟[2] وكان معروفا ان الخيزران كانت من أنصار البرامكة،[3] كما يبدو ان الخيزران احبت ان يولى الخلافة بعد الهادي ابنها الاخر هرون الرشيد، ولكن الهادي كان راغبا ان يوليها لابنه جعفر وقد شاور القواد وذوي الرأي فمنهم من قوى عزمه فيما يأمل وقال له ان هرون لا يصلح للخلافة.[4]

من الناحية الاخرى فقد كان هرون صغيرا لا يتجاوز عمره الثامنة عشر عاما، وكان يحي مربيه وكاتبه وهو في ولاية العهد وقد مارس عليه الهادي ضغوطا كثيرة للتنازل عن وولاية العهد منها مثلا انه امر الا يسار امامه بحربة (وكانت تلك هي العادة المتبعة بالنسبة لولى العهد) فاجتنبه الناس وتركوه ولم يكن أحد ليجترئ على ان يسلم عليه ولا يقربه، فكان يحي يقوم بإنزال الرشيد ولا يفارقه هو وولده.[5] وكان الرشيد يجله لذلك وينايه: «يا ابتى.»[6] وسعى الوشاة للهادي قائلين انه ليس لهرون خلاف على اخيه وانما يفسده يحي بن خالد فبعث الى يحي وهدده بالقتل ورماه بالكفر. وغضب الهادي على يحي بن خالد يوما وبعث اليه ليلا فأوجس يحي خيفة، فلما أُدخل عليه قال الهادي:» يا يحي مالي ولك؟» فقال يحي: «انا عبدك يا امير المؤمنين فما يكون للعبد الى مولاه الا طاعته» فقال الهادي: «فلم تدخل بيني وبين اخى فتفسده علىّ؟» فقال يحي: «من انا حتى ادخل بينكما، انما صيرني المهدى معه وامرني بالقيام بأمره فقمت بما أمرني به، ثم أمرتني بذلك فانتهيت الى امرك»، فقال الهادي: «فما الذي صنع هرون؟» قال يحي: «ما صنع شيئا ولا ذلك فيه ولا عنده»، فعندها سكن غضب الهادي.[7] ولما شاور الهادي يحي في امر ولاية العهد لابنه جعفر قال له يحي: «يا امير المؤمنين انك ان حملت الناس على نكث ايمانهم هانت عليهم ايمانهم وجرأتهم على حل العقود التي تعقد عليهم، اما لو تركت الامر في بيعة اخيك بحاله وبويع لجعفر من بعده كان ذلك اوكد لبيعته»، فقال له الهادي: « صدقت ونصحت وانا انظر في هذا.»[8] ونصحه في مرة اخرى بعدم خلع بيعة هرون قائلا له:»

(1) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 207
(2) نفس المصدر، ج8، 206
(3) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 134
(4) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج3، 138
(5) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص207
(6) الجهشيارى، مصدر سابق، 134
(7) المصدر السابق، ج8، ص208
(8) نفس المصدر، ج8، ص 209

انك لو فعلت هذا وحدث ما نعوذ بالله منه وثب على هذا الامر اكابر اهلك وخرج الامر عن ولد ابيك، والله لو لم يعقد المهدى لهرون لوجب ان تعقد له ليكون في بنى ابيك» فقيل ان غضب الهادي سكن وشكر ليحي قوله.[1]

واما هرون الرشيد فيبدو ان الموقف ثقُل عليه وكاد ان يجيب الهادي الى طلبه ببيعة ولده جعفر فعندما حاول الهادي ان يستميله الى ما يريد من خلعه اقطعه ضيعة في ارض من اعمال الرقة يقال لها (الهنىّ والمرىّ) فكاد الرشيد ان يجيبه الى ما يطلب وقال ليحي: « إذا نزلت على الهنىّ والمرىّ وخلوت بابنة عمى (يعنى زوجته زبيدة) - وكان الرشيد يحبها حبا شديدا – فما اريد شيئا». فقال له يحي: «انها الخلافة ولعل ما تقدران يبقى لك لا يبقى» ولم يزل به حتى ثبته.[2] ومما يدركه الباحث ببساطة ان تشبث يحي البرمكي بحق هرون الرشيد كان أكثر من حرص هرون نفسه والذي رضى بضيعة يعيش فيها مع زوجته زبيدة لكن البرمكي اخذ ينصحه قائلا انها الخلافة ولعل ما رضيت به من سكن وسلامة مع زوجتك لا يبقى لك وظل ينصحه حتى ثبته وقواه في مواجهة الهادي. وحتى الخيزران خافت ان يفتك الهادي بأخيه وكان هرون احب اليها من الهادي[3] فأرسلت جارية ليحي تقول له:» الله الله في ابنى لا تقتله ودعه يجيب اخاه الى ما يسأله ويريده منه فبقاؤه احب الى من الدنيا بجُمع ما فيها» ولكن يحي طمأنها قائلا انه اذا حدث ما تخشى لقتل يحي واولاده قبل الرشيد فان اتُهمت عليه (يعنى على الرشيد) فلست متهم على نفسى وأولادي.»[4] ولاشك انه كانت ليحي البرمكي تطلعات سياسية كان مقدرا لها ان تذروها الرياح اذا ما ابعد هرون عن ولاية العهد واما اذا نجح في ايصال الرشيد لكرسي الخلافة فلاشك انه ادرك انه سيقفز هو وابناؤه خطوات الى الامام ويكون لهم في دولة الرشيد مكانة لم يصلها احد من قبلهم.

ضيق الهادي على الرشيد حتى كان الرشيد يبتعد عن بغداد من شدة ضيقه بادعائه الخروج للصيد.[5] ولما لم ير الهادي تراجعا من جانب يحي بذل له اقطاعا وصلة، فلما لم يجد ذلك، بعث اليه يتهدده بالقتل ان لم يكف عن تشجيع الرشيد.[6] ويروى الجهشيارى ان الخليفة مر بوعكة صحية فاستدعى يحي وقال له: افسدت على اخى والله لأقتلنك، فتوسط ابراهيم بن زكوان الحراني[7] وطلب من الهادي ان يؤجل قتل يحي الى غد فأما اجاب الهادي الى ما يطلب واما وجد الفرصة ليوصي ويعهد الى اولاده فيقتل، فأجابه الهادي وامر بسجن يحي. يقول يحي: «فحبست وقد ايقنت بالموت ويئست من نفسى وما يجيئني الغمض حتى سمعت صوت القفل فقدرت ان الحراني لما انصرف دعاني موسى (يعنى الهادي) ليقتلني، فاذا بخادم يقول لي: السيدة

(1) الجهشيارى، مصدر سابق، ص129
(2) نفس المصدر، ص 128
(3) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 191
(4) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص210
(5) نفس المصدر، نفس المكان
(6) نفسه، ج8، ص 210
(7) ابراهيم بن زكوان الحراني: كان كاتبا عند الهادي وكان الهادي قد عهد اليه بديوان الازمة.

تريدك، فأتيت الخيزران فقالت لي: ان هذا الرجل قد مات ونحن نساء فادخل فاصلح من امره فدخلت فاذا بأمة العزيز[1] تبكي عند راسه وهو ميت فغمضته وانطلقت الى الخُلد[2] اريد الرشيد فلما وصلت الى داره وجدته نائما وتلقاني خادم فقال لي ولدت مراجل غلاما[3] فأتيت الرشيد فأنبهته، فسُر بي لما رآني وقل لي ما الخبر؟ فقلت له لتهنك الخلافة وغلام من مراجل.»[4]

كانت ظروف موت الهادي غامضة فذكر بعض المؤرخين ان الخيزران لما شعرت بان الهادي عازم على قتل اخيه الرشيد وانه ابتدأ بيحيي امرت جواريها فغمين وجهه وهو مريض فمات.[5] وقيل بل مات من قرحة كانت بجوفه وقيل غير ذلك.[6] وليس من المستبعد ان يكون للمصير الذى كان ينتظره يحي دور في القضاء على الخليفة الهادي و التعجيل بموته وخصوصا اذا عرفنا ان الخيزران لما ولى هرون الرشيد كانت هي المتحكمة في الأمور، فيروى الطبري بان هرون الرشيد اقسم للفضل بن الربيع[7] بعد وفاة الخيزران مباشرة انه كلما كان يهم بتوليته عملا من الاعمال كانت امه تمنعه. [8] ويعطى هذا الاعتراف لمحة عن مدى تأثير الخيزران في القرار السياسي لابنها هرون الرشيد، بينما يؤكد الطبري ان يحي بن خالد نفسه كان يعرض عليها كل امر ولا يقطع امرا الا بمشورتها، يقول: «كانت الخيزران هي الناظرة في الامور وكان يحي يعرض عليها ويصدر عن رايها.[9] فلربما يؤيد هذا الاقرار بان الخيزران قد مارست في دولة الرشيد ما لم تتمكن من ممارسته في اثناء خلافة الهادي القصيرة ما ذهب اليه بعض المؤرخين من انه كانت لها يد في وفاة الهادي حتى تحفظ الخلافة لهرون ابنها فعندها تتخلص من الابن الذى لم تقدر ان تمارس في خلافته ما تتمنى من السلطة والامر والنهى وتجئ بابنها الذى اتاح لها الفرصة لتشبع حبها للسلطة.

هذا على الرغم من اننا نجد المسعودي يذكر ان الهادي كان مع شدته مطيعا لوالدته الخيزران وانه لما حضرته الوفاة طلب والدته وقال لها: « قد كنت امرتك بأشياء ونهيتك عن

(1) امة العزيز: زوجة الهادي وام اولاده جعفر واسماعيل وعبد الله وموسى الاعمى، تزوجها الرشيد بعد الهادي.

(2) قصر الخلد: هو أحد قصور بغداد الشهيرة إبان الخلافة العباسية، والذي أمر بتشييده وتأنق في بنائه وتجميله الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور وشيد على شاطئ نهر دجلة، فوق مصب الصراة بقليل، ووراء باب خراسان سنة 157هـ ونزل فيه المنصور سنة 158هـ وعندما اقترن هارون الرشيد بابنة عمه زبيدة بنت جعفر المنصور أيام خلافة والده المهدي، أقيم حفل الزواج في هذا القصر. وكان من أحب المنازل إلى هارون الرشيد.

(3) كان هذا عبد الله المأمون.

(4) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 133

(5) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 452، الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 205

(6) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 205

(7) الفضل بن الربيع: هو الفضل بن الربيع بن يونس بن محمد بن عبد الله بن ابى فروة، مولى عثمان بن عفان. كان ابوه الربيع (توفى 170هـ) رجل لم يعرف نسبه ومع ذلك عمل حاجبا للمنصور ووزر له بعد ابى ايوب الموريانى. وعمل الفضل نفسه حاجبا للمهدى وكانت عنده طموحات نحو الوزارة في عهد الرشيد لذلك فقد عادى البرامكة فيما بعد، انظر ابن خلكان، الوفيات، ج4، ص 37-40

(8) نفس المصدر، ج8، ص238

(9) نفسه، ج8، ص234

اخرى مما اوجبته سياسة الملك لا موجبات الشرع من برك، ولم أكن بك عاقا بل كنت لك صائنا وبراً واصلاً» ثم انه قضى قابضا على يدها واضعا لها على صدره.[1] ومهما يكن السبب في وفاة الهادي فان الاحداث التي جرت في المدة القصيرة التي تولى فيها الخلافة كشفت لنا عن الدور الذي لعبه يحي بن خالد في تثبيت الرشيد على ولاية العهد وحثه على عدم التنازل عنها مهما لاقى من صنوف التضييق والجفاء من اخيه الهادي. وقد كللت جهوده تلك التي كادت ان تؤدى بحياته بالنجاح التام فصار الرشيد خليفة وصار هو وزيره الاول.

الدور السياسي للبرامكة في دولة الرشيد:

ما ان بويع الرشيد بالخلافة حتى اتى بيحيي بن خالد فقال له: «يا ابت انت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك امر الرعية واخرجته من عنقي اليك، فاحكم بما ترى، واعزل من رأيت واستعمل من رأيت، وافرض من رأيت وأسقط من رأيت، فاني غير ناظر معك في شيء.»[2] ودفع اليه خاتمه[3]. وهكذا بدأ العصر الذهبي لأسرة البرامكة في خلافة الرشيد. اذ تعتبر الصيغة التي استخدمها الرشيد من اقوى صيغ التفويض واشملها وتعنى ان الرشيد جرّد نفسه من كافة الصلاحيات ونقلها بالكامل الى يدي يحي بن خالد البرمكي. فكانت الدواوين كلها تحت ادارة يحي بن خالد مع الوزارة سوى ديوان الخاتم الذي نقل الى عهدته ايضا في سنة 171هـ عندها يقول الطبري «فاجتمعت له الوزارتان.»[4] ومنح يحي صلاحيات واسعة بناء على هذا التفويض اذ كان من حقه مكاتبة العمال[5] وهو امر لم يكن الوزراء تستقل به اذ كانت المكاتبات لا تصدر الاعن الخليفة فقط. وإذا ما أمعنا النظر في هذه الصلاحيات التي منحت ليحي البرمكي أدركنا انه جمع في قبضته القوة السياسية والادارية والاقتصادية. هذا الى جانب انه ولى ابناءه واقاربه جميع المراكز الادارية والسياسية المهمة والحساسة في الدولة فصاروا يتقلبون فيها طوال المدة التي قضاها يحي في الوزارة وهي أكثر من سبعة عشرة سنة انتهت بنكبتهم الشهيرة في العام 187هـ.

كان ليحي بن خالد اربعة ابناء من الذكور وهم: الفضل وجعفر ومحمد وموسى. وهنا تحضرني ملاحظة هامة لابد من الاشارة اليها وهي ان يحي بن خالد وابناؤه كانوا كلهم بمثابة وزراء للرشيد. يقول السيوطي: « كانت البرامكة كلهم في معنى الوزراء للرشيد»[6] فقد احتلوا جميعا مراكز هامة في دولة الرشيد وكانوا يتداولون خاتمه لمدة زادت عن سبعة عشر عاما من 170هـ الي 187هـ ما بين يحي وابنيه الفضل وجعفر. ويذكر الجهشياري ان الرشيد عندما اراد ان

(1) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص276-277

(2) الجهشياري، مصدر سابق، 134، الطبري، مصدر سابق، ج8، ص233

(3) ابن الاثير، مصدر سابق، ص860

(4) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص235

(5) الجهشياري، مصدر سابق، ص 135

(6) السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر)، حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، القاهرة: دار احياء الكتب العربية، 1968م، ج2، ص 195

ينقل الخاتم من الفضل الى جعفر كتب الى يحي بن خالد « ان امير المؤمنين رأى ان ينقل خاتم الخلافة من يمينك الى شمالك»[1]. وقد ساعد ابناء يحيى والدهم في إدارة شئون الدولة، وباشروا في هذه المدة جميع النواحي الإدارية، والعسكرية، والمالية، والعلمية، والأدبية حتى أن الفضل كان يلقب بالوزير الصغير في حين لقب جعفر بالسلطان. وبذلك هيمن يحيى وأبناؤه على دولة الرشيد وحياته في بداية عهده لهذا فإن جميع الأمور التي كانت تجرى باسم الرشيد في بداية عهده طبعت بطابع البرامكة، فهم الذين يديرون أمور الدولة، وهم الذين يحلون المشاكل وهم الذين يتصدون للأعمال، في حين أن الرشيد حرر نفسه من جميع هذه المسئوليات الإدارية، وتسلم قيادة الجيوش لمحاربة البيزنطيين[2].

كان الفضل بن يحي اخا لهرون الرشيد بالرضاعة فقد رضع من ام هرون الرشيد بينما رضع الرشيد من ام الفضل.[3] وكان الفضل ذا مروءة واحسان وكان لا يشرب النبيذ ويقول «لو عرفت ان الماء ينقص مروءتي ما شربته ابدا.»[4] وصف الفضل بشدة الكرم فقيل كان أكرم البرامكة بينما كان جعفر ابلغ في الرسائل والكتابة منه.[5] تولى الفضل الكثير من الادوار المهمة في دولة الرشيد فقاد الجيوش واخضع الخارجين وتولى امارة الأقاليم. وعلى سبيل المثال قاد الفضل الجيش الذي وجهه الرشيد للقضاء على حركة الزعيم العلوي يحي بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب[6] سنة 172هـ في جيش قوامه خمسين الفا وانهض معه وجوه القواد. [7] وفي سنة 167هـ ولاه الرشيد كور الجبل[8]. ثم ولاه في سنة 178هـ امارة اقليم المشرق كله من النهروان الى بلاد الترك وودعه الرشيد في جمع مهيب من الاشراف والوجوه فيقول الجهشياري «فوصل واعطى وأفضل.»[9] ولما صار الفضل الى خراسان قام بالكثير من الاعمال التي حمدت له فبنى الحياض والمساجد والرباطات[10] وزاد الجند والقواد، ووصل الزوار والكتاب، وامر بهدم النوبهار فلم يقدر

(1) الجهشياري، مصدر سابق، ص161

(2) فايزة اسماعيل أكبر، مرجع سابق، ص 23

(3) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 230

(4) الجهشياري، مصدر سابق، ص 150

(5) ابن خلكان، مصدر سابق، ج4، ص27

(6) يحي بن عبد الله العلوي: هو يحي بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب، دعا الى نفسه ايام الرشيد فبايعه اهل الحرمين واليمن ومصر وارتحل الى بلاد الديلم فكثر جمعه واشتد الرشيد في طلبه وندب الى قتاله الفضل بن يحي وحينما ضعف امر يحي طلب الامان من الرشيد فارسل له امانا بخطه واستقدمه الى بغداد واغدق عليه الصلات والعطايا ومكث الى ان بلغ الرشيد انه يدعو لنفسه سرا فقبض عليه واوكل به جعفر بن يحي فرق له هذا بعد مدة فاطلقه فلما علم الرشيد ارسل من قبض عليه مرة اخرى واعاده الى محبسه وكان كثيرا ما يستدعيه فيناظره وظل محبوسا الى ان توفي في حبسه.

(7) الجهشياري، مصدر سابق، ص 145

(8) نفس المصدر، ص 145

(9) نفسه، ص 146

(10) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص257

عليه لوثاقة بناؤه وعظم المؤنة فيه فهدم جزءا منه وبنى في مكانه مسجدا.[1] قضى الفضل في خراسان مدة سنة استخلف بعدها عمر بن شرحبيل[2] وانصرف في اخرها الى العراق فتلقاه الرشيد وجمع له الناس وأكرمه غاية الاكرام وامر الشعراء بمدحه.[3] وفي مرحلة اخرى عهد اليه الرشيد بتربية ابنه الامين[4] ليلعب في حياته دورا شبيها بما لعبه والده يحي مع الرشيد. واسكنه الرشيد معه في قصره المعروف بالخُلد وضمّ اليه اعماله ودواوينه، وفي اثناء اقامته في خراسان اخذ الفضل البيعة من اهل خراسان لمحمد بن الرشيد وسماه الامين فبايع له الناس.[5] ومما يدل على عظم مكانة الفضل في خراسان انه استطاع أن يعلن ولاية العهد لمحمد ابن الرشيد ، ويلقبه بالأمين ، ويأخذ البيعة له من الخراسانيين ، قبل أن يتمكن الرشيد من فعل ذلك في بغداد وهذا يعني أن إعلان ولاية العهد للأمين تمت في المناطق الشرقية أولاً بفضل تدبير الفضل ، ومن ثم أعلنت البيعة في بغداد والمناطق الأخرى رسمياً رغم معارضة الكثير من الهاشميين.[6]

اما جعفر بن يحي وكان أصغر من الفضل فقد كان جليس الرشيد ونديمه. وكان يقضى معه أكثر ساعات الليل والنهار وقد انزله الرشيد بالقرب من قصره ايضا. وصف جعفر بانه كان من علو القدر ونفاذ الامر وبعد الهمة وعظم المحل وجلالة المنزلة عند هارون الرشيد بحالة انفرد بها ولم يشاركه فيها أحد. وكان طلق الوجه ظاهر البشر. اما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فكان أشهر من ان يذكر. وكان من ذوي الفصاحة المشهورين باللسن والبلاغة.[7] وقيل عنه انه كان انطق الناس وقد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وافهاما يغنيه عن الاعادة.[8] كان الرشيد يسميه اخي،[9] وقلده بريد الافاق ودور الضرب والطرز[10] في جميع الكور[11]. وكان يجلس مع الرشيد للمظالم، وفي سنة 180هـ ولاه الرشيد الحرس.[12]

كان جعفر كاتبا بليغا فكانت توقيعاته على رقاع المظالم مادة لدراسة الادباء. كما

(1) ابن خلكان، مصدر سابق، ج4، 29

(2) المصدر السابق، ج8، ص261

(3) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 147

(4) ابن خلكان، مصدر سابق، ج4، ص 28

(5) المصدر السابق، ص148-149

(6) فايزة اسماعيل أكبر، مرجع سابق، ص 24

(7) ابن خلكان، مصدر سابق، ج1، ص 328

(8) الجهشيارى، مصدر سابق، ص159

(9) نفس المصدر، ص158

(10) الطراز: ما ينسج من الثياب للسلطان وهي ثياب موشاه ويطلق على المكان الذي تنسج فيه الثياب الجياد وكان للطراز دور كدور ضرب النقود، راجع الصابي، انظر الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص 26

(11) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 158

(12) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 266

كان متفقها في العلوم الشرعية فقد ضمه ابوه الى القاضي ابى يوسف الحنفي[1] فعلمه وفقهه.[2] فروى عنه انه وقّع يوما الف رقعة او تزيد من المظالم ثم اخرجت العمال والقضاة والكتاب وكتاب الدواوين فما وجد فيها شيئا مكررا او مخالفا للشرع.[3] ولاه الرشيد في سنة 176هـ المغرب كله من الانبار الى افريقية[4]، وجعله مربيا لابنه المأمون فأشار للرشيد بأخذ البيعة له بعد محمد الامين وقام بالأمر حتى عقد له البيعة واخذ الايمان على بنى هاشم، كما كاتب العمال في جميع النواحي بذلك وكان له دور في تثبيت حق المأمون وكتابة العهد وتعليقه في جوف الكعبة [5] وكان الرشيد يأنس بجعفر كل الانس ويناديمه.[6]

اتاحت هذه المكانة لجعفر ان يشارك في صياغة رأى الرشيد في كثير من المواقف وان يكون له دوره المهم في صناعة القرار السياسي في دولة الرشيد. يسوق المؤرخون القصة التالية في تبيان مكانة جعفر عند الرشيد وهي قصة جعفر البرمكي مع عبد الملك بن صالح العباسي[7] ولا بأس من ايرادها في معرض بيان ذات الشيء وهو مكانة جعفر عند الرشيد ومدى تأثيره عليه. تذكر المصادر[8] ان جعفر بن يحي خلا في منزله يوما وحضر ندماؤه فلبسوا المصبغات[9] وتضمخوا بالخلوق[10] ولبسوا الحرير وتقدم جعفر الى الحاجب بحفظ الباب الا من عبد الملك بن نجران كاتبه، فوع في اذن الحاجب (عبد الملك). ومضى صدر من النهار، فحضر عم للرشيد يسمى عبد الملك بن صالح العباسي وكان رجلا في منتهى الوقار والحشمة وكان لا يشرب النبيذ وكان ذلك سبب موجدة الرشيد عليه فقد طلب منه ان ينادمه مرارا لكنه ابى، فدخل الحاجب وقال لجعفر: حضر عبد الملك، فقال: اذن له، فدخل عبد الملك بن صالح في سوداه ورأى جعفراً على تلك الحال ومعه

(1) ابو يوسف القاضي: هو يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن حبيش بن سعد بن بجير بن معاوية الأنصاري الكوفي، ويكنى ابو يوسف، صاحب الامام ابو حنيفة وتلميذه واول من نشر مذهبه، كان فقيها علامة ومن حفاظ الحديث، ولى القضاء ببغداد ايام المهدى والهادي والرشيد وتوفى في خلافة الرشيد ببغداد وهو على القضاء، وهو اول من دعي بلقب قاضى القضاة واول من وضع الكتب في اصول الفقه على مذهب ابى حنيفة، وكان واسع العلم بالتفسير والمغازي وايام العرب.

(2) ابن خلكان، مصدر سابق، ج1، ص329

(3) نفس المصدر، ج1، ص 328، وذكر الجهشيارى نفس القصة، انظر ص 158

(4) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 146

(5) نفس المصدر، ص 165

(6) نفسه، ص199

(7) عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس: امير عباسي ولى المدينة وغزو الصوائف في عهد الرشيد، وولى الشام والجزيرة للأمين، اشتهر بالفصاحة والخطابة والسياسة والدهاء، وقد كاد له اعداؤه عند الرشيد فادعوا انه يريد الخروج عليه فحبسه الرشيد مدة بعد نكبته للبرامكة، توفى في الرقة سنة 196هـ

(8) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص165، ذكر ابن خلكان نفس القصة انظر الوفيات، ج1، 330-331، وذكرها الجهشيارى، ص 168-167

(9) المصبغات: هي اثواب المنادمة وهي اثواب مصبغة بالألوان الزاهية يصقلونها حتى تلمع وتشرق ويعطرونها بالطيب ويزينونها بنسيج الذهب وهي مخصوصة بمجالس الشراب. راجع جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج5، ص94، راجع ابو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج7، ص 83

(10) الخلوق: طيب معروف مركب يتخذ من الزعفران وغيره من انواع الطيب وتغلب عليه الحمرة والصفرة وقد ورد تارة بإباحته وتارة بالنهى عنه والنهى أكثر واثبت وانما نهى عنه لأنه من طيب النساء وهن أكثر استعمالا له.

الندماء فاسّود وجه جعفر ولكن عبد الملك فطن للخطأ الذي وقع وأدرك مدى خجل جعفر من الموقف، فنادى الخادم فسلّمه سوداه وقلنسوته ثم تقدم الى جعفر فقال: «لا بأس عليكم اصنعوا بنا مثلما صنعتم بأنفسكم». فدنا منه الخادم فالبسه حريرة وجلس فدعا بطعام فأكل ودعا بنبيذ فاتوه به فشرب وقال لجعفر: «والله ما شربته قبل اليوم فليخفف عنى». وجلس يباسط جعفر ويمازحه وكان كلما فعل شيئا من ذلك سُرى عن جعفر ومازال كذلك حتى انبسط جعفر وزال انقباضه. فلما اراد الانصراف قال له جعفر: «سل حاجتك فوالله ما تحيط مقدرتي على مكافأة ما كان منك»، فقال عبد الملك: «ان في قلب امير المؤمنين هنة فتسأله الرضا عنى»، قال جعفر: «قد رضى عنك امير المؤمنين»، قال: «وعلىّ اربعة الاف درهم تقضى عنى»، قال جعفر: «انها لعندي حاضرة ولكن اجعلها من مال امير المؤمنين فإنها أنبل لك وأحب اليك»، قال: «وابراهيم ولدى أحب ان اشدّ ظهره بصهر من اولاد الخليفة»، فقال جعفر: «قد زوجه امير المؤمنين العالية»، قال: «وأحب ان يخفق لواء على رأسه»، فقال جعفر: «قد ولاه مصر». وقد تعجب الحضور من قضاء جعفر للحاجات على لسان الرشيد من دون استئذان. وزادهم عجبا انه وصل حد تزويج احدى بنات الخليفة. فلما أصبح صباح اليوم التالي راحوا على قصر الرشيد ودخل جعفر فكلم الرشيد بالخبر فأمضى الرشيد كل ما قال جعفر. وما لبث ان نودى ابو يوسف القاضي وابراهيم بن عبد الملك وما لبث الاخير ان خرج وقد خُلع عليه وزُوّج، كما حُملت الاموال الى منزل عبد الملك. ولعل هذه القصة ابلغ دليل على النفوذ الذي كان جعفر يمارسه في دولة الرشيد وسلطته الشاملة وتدبيره السياسي الذي لا يرد للحد الذي يجعله يضمن قضاء هذه الحاجات عن الرشيد. ومن الشواهد ايضا على التأثير الذي كان يمارسه جعفر على الرشيد اشارته للرشيد بتوليه العهد للمأمون بعد الامين وقد اجابه الرشيد بالفعل الى رايه فعهد بالخلافة الى الامين ومن ثم الى اخيه المأمون. وسنرى ان هذا العهد خلق صراعا بين الامين والمأمون ازكى من نيرانه وزير المأمون الفضل بن سهل[1] ووزير الامين الفضل بن الربيع.[2] وقد اشار الامين لبعض خاصته في اثناء ذلك الصراع بقوله: « ان رأى الرشيد (يقصد في مبايعة المأمون بالعهد بعد اخيه) فلتة شبهها عليه جعفر بن يحي بسحره واستماله برقاه وعقده فغرس لنا غرساً مكروها لا ينفعنا ما نحن فيه الا بقطعه ولا تستقيم الامور الا باجتثاثه والراحة منه.»[3] فالمفهوم من هذا القول ان الامين كان مدركا لتأثير جعفر على صنع القرار السياسي الشيء الذى وصفه بالسحر والرقى يقصد بذلك عظم تأثيره على الرشيد وكل هذه دلائل تفيدنا في ادراك الدور الذى لعبه جعفر بن يحي في اتخاذ القرار السياسي في دولة الرشيد.

(1) الفضل بن سهل بن نفروخ: هو زير المأمون، لقب بذي الرياستين وسوف ناتئ على سيرته كاملة في بقية هذا الفصل.

(2) لفضل بن الربيع: سبقت ترجمة موجزة له. والمهم هنا ان نذكر ان الفضل كان شديد الغيرة من البرامكة وكان جعفر البرمكي يناظره ويعيره بانه لقيط اشارة الى ابيه الذي لم يعرف له أصل فحقد عليه الفضل. وزر الربيع للرشيد بعد نكبة البرامكة ولعب دورا في فتنة الامين والمأمون اذ زين للأمين خلع اخوه المأمون. وبعد مقتل الامين توارى الى ان توفى. انظر ابن خلكان، الوفيات، ج4، ص 37-40

(3) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص385

الى جانب يحي وابنيه الفضل وجعفر احتل اخرون من اسرة البرامكة ايضا مراكز مهمة في دولة الرشيد فقد كان محمد بن يحي بن خالد يكتب في ديوان الزمام.[1] كما تولى منصب حاجب الرشيد منذ سنة 172هـ[2] فظل فيه الى ان صرفه الرشيد عنه سنة 179هـ وقلد حجابته الفضل بن الربيع[3]. كما استعمل الرشيد موسى بن يحي بن خالد على الشام سنة 176هـ[4] وكانت الفتنة هائجة فيها وضم اليه عددا من القواد والاجناد ومشايخ الكتاب فلما ورد الشام اقام بها حتى أصلح بين اهلها وسكنت الفتنة واستقام الامر[5]. وكان كل الرجال البارزين في دولة الرشيد من صنائع البرامكة أي ممن يدينون لهم بالولاء، لدرجة ان الرشيد بعد ان اوقع بهم طلب رجالاً لم يعملوا معهم او يتعاونوا معهم ليستعملهم فلم يجد احداً من غير صنائعهم وقيل له: «لا تجد احداً لم يكن يخدمهم.»[6]

كان من أهم ما يميز يحيى وأبناءه هي سياستهم الادارية والمالية. فمن الناحية الادارية تناولوا ضبط الاموال وترتيب الاعمال والجبايات وعملوا على الاقتصاد في النفقة واقاموا على السجلات قوما مهرة في الحساب ليجد الرشيد الموازنة بين ما يدخل وما يخرج من بيت المال. وجعل جعفر ميزانية الدولة في دفاتر للحفظ ليتمكن من الرجوع اليها فيما يتصرف فيه بموازنته للدخل الذي دون في سجلات الديوان.[7] اما من الناحية المالية، فقد اتسمت هذه السياسة بدقة شديدة لا تنظر إلا في مصالح الخزينة المركزية التي امتلأت بثروات ضخمة لا تقدر. ذلك أن البرامكة اتبعوا أساليب صارمة في جمع الضرائب لتعويض ما لحق بالخزينة من خسائر أيام خلافة المهدي (158-169).[8] كانت الضرائب في أحيان كثيرة تجمع بطريقة تعسفية غير شرعية ففي بداية وزارة يحيى فرضت ضريبة العشور الإسلامية على معتنقي الإسلام في السواد إضافة إلى ما كانوا يدفعونه بناء على نظام المقاسمة الذي عمل به في أيام المهدي[9]. ومن أساليبهم المتشددة في جمع الضرائب أنهم كانوا يطالبون الناس بدفع الضريبة كاملة مع جميع المتأخرات. وكانت اساليب جمع الخراج تتعدد ولم يكن عمالهم يتورعون عن استخدام القوة التي تصل أحياناً إلى التعذيب، وذلك لإجبار الناس على دفع الضرائب أو متأخراتها. كما عينوا من اجل ذلك في جميع الولايات موظفين للقيام

(1) الجهشيارى، مصدر سابق، ص148

(2) نفس المصدر، ص 143

(3) نفسه، ص 184

(4) على عبد الرحمن العمرو، مرجع سابق، ص 223

(5) محمد الخضري بك، مرجع سابق، ص115

(6) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 204

(7) ضيف الله يحي الزهراني، مرجع سابق، ص 62

(8) وكان الخليفة المهدى قد أعقب المنصور في الخلافة فوجد بيوت الاموال عامرة بفضل سياسة المنصور الحكيمة في صرف الاموال فبسط يده في العطاء وتوسيع الصلات للشعراء والعلماء والادباء كما اهتم بالدعوة الاسلامية وتسيير حملات الجهاد الإسلامي وقمع الحركات الخارجية المنحرفة. ولكن هذه السياسة ادت الى اكتساح التوفيرات التي كان والده المنصور قد حققها له. ولعل هذا كان هو السبب الذي جعل وزيره ابو عبيد الله معاوية بن يسار يضع زيادة على استحقاقات بيت المال من الخراج فأصبح الخراج يجبى بنظام المقاسمة.

(9) مصطفى الحيارى، مرجع سابق، ص 20

بهذه المهمة.[1] وهكذا أدت سياسة البرامكة المالية الصارمة إلى امتلاء خزينة الدولة بالأموال، فزاد ذلك من مكانتهم عند الرشيد.

عمل البرامكة على ملء خزينة الرشيد الخاصة ايضا بالأموال وذلك عن طريق مصادرة الأراضي المهجورة التي تركها أصحابها بسبب عبء الضرائب. وصادروا أراضي بني أمية، كما صادروا ممتلكات بعض أفراد العائلة العباسية التي مات عنها أصحابها وأضافوها إلى خزائن الرشيد وعائلته. وسيطر البرامكة على الدخل والمنصرف حتى انهم اتفقوا مع الرشيد على شيء يطلقونه له من المال للحوادث سوى نفقاته وما يحتاج اليه هو وعياله.[2] وذلك يعنى انهم خصصوا اموالاً معينة للرشيد لينفق منها فلم يكن حر التصرف في كل اموال الدولة. الى جانب ذلك خص البرامكة أنفسهم بثروات هائلة، ولم يحرموا أنفسهم ولا أصحابهم من هذا النشاط لابتزاز الأموال، فكانوا يمتلكون أحسن الضياع، وأفضل الأراضي، وقد عمّرجعفر قصراً في بغداد أنفق عليه اموالاً طائلة تقدر بعشرين مليون درهم.[3] وكان للبرامكة ممتلكات وأراض كثيرة في البصرة، وبلغت وارادت البرامكة السنوية من الأموال ثلاثين مليوناً وستمائة وستين ألف دينار غير ضياعهم ودورهم[4]. وعن طريق هذه الثروات الضخمة التي حصلوا عليها استطاعوا أن يكونوا علاقات ممتازة مع الخاصة والعامة، وذوي الحاجات عن طريق الهبات والأعطيات التي كانوا يعطونها بسخاء، حتى كثر على أبوابهم أصحاب الحاجات وتغنى بهم الشعراء.

نكبة البرامكة في سنة 187هـ واسبابها:

في سنة 187هـ تغير الرشيد على وزراءه البرامكة فباغتهم بقتل جعفر وكان صديقه ونديمه ووزيره بينما ساق يحي وبقية ابناءه الى السجن وقبض اموالهم وعقاراتهم وضياعهم بالعراق.[5] وقد اختلف المؤرخون في رواياتهم لأسباب النكبة وهل كان لها علاقة بإساءة استخدام السلطة التي اوكلها لهم الرشيد ام كانت لأسباب اخرى. فذكر المؤرخون قصة العباسة اخت الرشيد مع جعفر البرمكي اذ روى ان الرشيد زوجها بجعفر زواجا صوريا حتى يستطيع ان يجالسهما معا واشترط على جعفر الا يجامعها مجامعة الازواج ولكنهما لم يلتزما بهذا الشرط. فولدت العباسة غلاما وجهت به الى مكة. فلما عرف الرشيد بذلك نكب البرامكة. ذكر هذه القصة المسعودي والطبري وابن طباطبا وابن خلكان[6] لكن الكثير من المؤرخين أنكروها او على الاقل تجاهلوها فتجاهلها اليعقوبي والدينوري وابن خياط وابن خلدون. ايضا من الاسباب التي رويت لنكبتهم رواية زندقتهم وميولهم لدين المجوسية، دين اباءهم، وانهم اتخذوا مجمرة في جوف الكعبة لا

(1) فايزة اسماعيل أكبر، مرجع سابق، ص 26

(2) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 200

(3) ابن خلكان، مصدر سابق، ج1، ص 344، الطبري، مصدر سابق، ج8، ص291

(4) ضيف الله يحي الزهراني، مرجع سابق، ص 63

(5) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 187

(6) راجع المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص 309-313، الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 294، ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 209، ابن الاثير، مصدر سابق، ج7، ص 877، ابن خلكان، مصدر سابق، ج1، ص333-334

تنطفئ لرغبتهم في جعل الكعبة كبيت النوبهار فهذه ايضا رواية ضعيفة اذ أسلم البرامكة وحسن اسلامهم واستخدمهم الخلفاء قبل الرشيد فاستعملهم ابو العباس والمنصور فلم تثر قضية عن زندقتهم او ميولهم للمجوسية. وحتى في وقت نكبتهم أنكر المعاصرون ان تكون قصة العباسة او قصة زندقتهم سببا في نكبتهم. اذ يروى الجهشيارى ان الرجل الذى اوكله الرشيد بقتل جعفر ويسمى (مسرور) قال لعبد الله بن خاقان[1] الذى سأله عن حقيقة السبب الذى ادى الى قتل جعفر ونكبة اسرته فقال له: « كأنك تريد ما تقوله العامة فيما ادعوه من امر المرأة وامر المجامر التي اتخذها للبخور في الكعبة؟، لا والله ما لشيء من ذلك اصل.[2] ان قراءة متأنية للوقائع التي حدثت منذ بداية خلافة الرشيد يمكن ان تقودنا الى دلائل أكثر منطقية لما ادى الى نكبة البيت البرمكي، ولا شك ان اساءة استخدام السلطة كانت من اهم الاسباب التي ادت الى تلك النكبة وفى تحليلي التالي جملة من الاسباب لهذه النكبة تتعلق كلها بإساءة استخدام السلطة.

اولا: تمدد سلطاتهم واساءة استخدامهم لها:

ذكرت كل المصادر التي ارخت لتلك الفترة مدى ما كان للبرامكة من سلطان حتى ان معظم المؤرخين وصل فترة خلافة الرشيد بدولة البرامكة فيقول ابن طباطبا: "لما بويع بالخلافة (يعنى الرشيد) استوزر كاتبه قبل الخلافة يحي بن خالد بن برمك وظهرت دولة بنى برمك مذ حينئذ.»[3] بينما يؤرخ المسعودي لمدة وزارتهم في دولة الرشيد فيقول: « كانت مدة دولة البرامكة وسلطانهم وايامهم النضرة الحسنة من استخلاف هرون الرشيد الى ان قتل جعفر سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما».[4] فكل هذا يبين لنا مدى تمكنهم في دولة الرشيد. ولا شك ان اهم اسباب هذا التمكين ترتبط بظروف تولى الرشيد نفسه للخلافة اذ استخلف الرشيد وهو شاب حدث وقد احاطت به منة يحي بن خالد عليه الذي سانده هو وابناؤه في ايامه الصعبة فاستوزرهم كما رأينا وفوض الى يحي صلاحيات واسعة للغاية. ولكن الرشيد كان يتقدم في العمر ويبدو انه بدأ يشعر كلما تقدم به العمر بتمدد سلطات وزراءه الشيء الذي بدأ يزعجه اذ شعر ان كل ماله من الخلافة كان مجرد اسمها، وان البرامكة هم الحكام الحقيقيون وفى اعتقادي ان توليهم المطلق لمقاليد الامور في الدولة وتماديهم في السيطرة عليها وعلى شئونها هو ما سبب الاطاحة بهم.

يقول ابن طباطبا: «حدّث ابن بختيشوع الطبيب[5] قال: دخلت يوما على الرشيد وهو جالس في قصر الخُلد من مدينة السلام وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الاخر وبينه

(1) عبد الله بن خاقان: لم اعثر له على ترجمة وان كان يبدو انه ينتمي الى اسرة بنى خاقان وهي اسرة فارسية اشتهر افرادها بالكتابة والوزارة ومنهم ابو القاسم عبد الله بن محمد بن خاقان الذي وزر للمتوكل سنة 312هـ

(2) الجهشيارى، مصدر سابق ، ص 204

(3) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 198

(4) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص 313

(5) جبريل بن بختيشوع: طبيب سرياني عاش في بغداد وكان طبيبا الرشيد والامين وينتمي لأسرة عملت بالطب واشتهروا بالعمل به حتى القرن الخامس الهجري تقريبا. وله مؤلفات في الطب منها المدخل الى صناعة المنطق، ورسالة مختصرة في الطب وغيرها.

وبينهم عرض دجلة قال فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول على باب يحي بن خالد فقال: «بارك الله عليه وأحسن جزاءه خفف عنى الحمل وحمل الثقل دوني وناب منابي». ثم دخلت عليه بعد اوقات وقد شرع يتغير عليهم والفضل بن الربيع بين يديه فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة فقال: «استبد يحي بالأمور دوني وامضاها على غير رأى وعمل بما احبه دون محبتي فالخلافة على الحقيقة له وليس لي منها الا اسمها» ثم اقبل علىّ الرشيد فقال يا جبريل انه لم يسمع كلامي غيرك وغير الفضل بن الربيع وليس الفضل ممن يحكى شيئا عنه وعلىّ وعلىّ لئن تجاوزك لأتلفن نفسك.[1] والقصة واضحة الدلالة فقد ازعجت سلطاتهم المطلقة واقبال الناس عليهم الرشيد فتغير من ناحيتهم. لقد امتلك البرامكة مفاتيح السلطة من اموال وجاه وولاء الناس وخصوصا من الفرس عصبيتهم وصنائعهم حتى انهم اتخذوا قواتاً خاصة بهم. فهذا الفضل بن يحي حينما ولاه الرشيد خراسان اتخذ جندا من الفرس سماهم (العباسية) بلغت عدتهم خمسمائة ألف رجل جعل ولائهم له. وقد عاد منهم معه الى بغداد عشرون الفا وظلت بقيتهم في خراسان وقد أجري عليهم ارزاقهم.[2] ولا شك ان البرامكة شعروا انهم بالفعل دولة داخل دولة الرشيد فقد سار بسيرتهم الناس ومدحهم الشعراء وأصبحوا قبلة طالبي الجوائز وقضاء الحاجات فيبدو انه قد ظهر عليهم من الشعور بالسلطة والخيلاء ما لا يليق بتابع. فيذكر ابن طباطبا ان جعفرا والفضل ابني يحي بن خالد ظهر منهما من الادلال ما لا تحتمله نفوس الملوك فنكبهم الرشيد لذلك.[3]

ويذكر الاتليدى (توفى 1688م) في كتابه (اعلام الناس بما وقع للبرامكة من بنى العباس) جملة من القصص تفيد كلها هذا المعنى منها رؤية الرشيد للناس يتكاثرون على باب جعفر البرمكي ما بين قائد وامير وعامل وقوله لمرافقه «انظر كم على باب جعفر من الجيوش والغلمان والمواكب وانا ما على باب دارى احد.»[4] ومنها استياءه لرؤية اعجاز دوابهم باتجاه قصره وتروث بإزائه و قوله: «هذا هو الاستخفاف بعينه، والله لا اصبر على ذلك.»[5] وقوله نهاية: «ما عدّ البرامكة بنى هاشم الا عبيدهم، وانهم هم الدولة، وان لا نعمة لبنى العباس الا والبرامكة انعموا عليهم بها.»[6] وهى افادة من الرشيد تكفى في حد ذاتها، حسب تصوري، للإيقاع بهم. على الرغم من اننا نتحفظ على بعض الروايات التي نقلها الاتليدى من مصادر اخرى منها قصة اخت الرشيد العباسة (سمّاها ميمونة) الا اننا لا نجد ما ورد في شأن استئثار البرامكة بالسلطة مخالفا لما اوردته المصادر الاخرى بل انها تعطى المشهد مزيدا من التفاصيل والرؤى التي تساعدنا في تخيل ما كان يعتمل في نفس الرشيد تجاه البرامكة قبيل ايقاعه بهم. ولا شك ان احسانهم الى عصبيتهم من الفرس، والتفاف اهل خراسان حولهم، وموالاة صنائعهم الذين ضمنوا

(1) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 178-179، وذكر ابن طباطبا القصة ذاتها بنفس المعنى وان اختلفت العبارات انظر ابن طباطبا، مصدر سابق، ص208.

(2) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص257

(3) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 209

(4) محمد دياب الاتليدى، اعلام الناس بما وقع للبرامكة من بنى العباس، بيروت: دار صادر 1990م، ص 247

(5) نفس المرجع، نفس المكان

(6) نفس المرجع، ص 246

ولائهم بالأموال والهبات، بالإضافة الى انفرادهم بقوات خاصة بهم تدين بالولاء لهم وحدهم، كل ذلك كان مما أزعج الرشيد ومثل اوجها من اوجه اساءة استخدام القوة والسلطة فكان سببا مباشرا في دفع الرشيد للتفكير بضرورة تحجيمهم والخلاص منهم.

ثانيا: تعاطف البرامكة مع العلويين:

كان الرشيد كأسلافه السفاح والمنصور ووالده المهدى واخوه الهادي يرقب بعين الحذر تحركات البيت العلوي باعتبارهم من اقوى منافسيهم على السلطة. كانت العلاقات بين البيت العلوي والعباسي خلال فترة الدولة العباسية تمر بمنعطفات كثيرة، تارة تكون مصحوبة بنوع من المصالحة والمهادنة وأحيانا ينتهج الخليفة العباسي سياسة الشدة مع البيت العلوي خصوصا في حالات خروج أحد العلويين على سلطة الخليفة. ومن المعروف ان الرشيد كان قد انتهج في بداية عهده سياسة مصالحة مع العلويين فافرج عن الطالبيين المحبوسين في بغداد وأحسن إليهم وسمح لهم بالعودة الى المدينة.[1] ولكن هذ السياسة ما لبثت ان تغيرت اذ خرج عليه يحي بن عبد الله العلوي الذي ثار على الرشيد ببلاد الديلم[2] في سنة 172هـ حيث دعا لنفسه وبايعه اهل الحرمين واليمن ومصر. وارتحل يحي إثر ذلك الى بلاد الديلم فكثر جمعه واشتد الرشيد في طلبه وندب الى قتاله الفضل بن يحي. لكن الغريب في الامر ان يحي بن خالد بعث الى هذا الثائر العلوي مائتي ألف دينار فلما علم الرشيد بذلك سأله عن السبب الذي دفعه لبعث المال لعدو الرشيد فقال يحي: « اردت ان تقوى شوكة يحي بن عبد الله فيظفر به الفضل بعد قوته فيكون أحظى له عندك.» وهو تبرير يبدو منافيا للمنطق اذ ردّ عليه الرشيد بقوله: فما يؤمنك ان تقوى شوكته فيقتل الفضل ويقتلني؟»[3] كما ذكرت المصادر ايضا ان الرشيد فيما بعد صالح يحي بن عبد الله وكتب له امانا واشهد عليه القضاة فحضر اليه يحي في بغداد فلقيه بكل ما أحب، واسنى جائزته وأكثر بره وعطائه وانزله منزلا سريا[4] واقامه معه في بغداد في أحسن حال وسمح للناس بزيارته. ولكن نما الى علمه تردد الشيعة عليه فاستشار الفقهاء في نقض الامان الذي اعطاه له واوكل امره الى جعفر البرمكي فأطلق جعفر سراح يحي بن عبد الله بن الحسن[5] بعد ان استعطفه هذا الاخير.

نقل الفضل بن الربيع الوشاية الى الرشيد الذي سأل جعفرا عن سجينه فقال له انه مازال في سجنه فسأله ان يحلف بحياته على ذلك، وهنا تراجع جعفر فاعترف للرشيد بانه أطلق سراح يحي لأنه أحس انه ليس هناك ما يخشى منه.[6] فروى من حضر المجلس ان الرشيد قال

(1) سميرة مختار الليثي، مرجع سابق، ص 280

(2) بلاد الديلم: هي منطقة جبلية قرب جيلان (غرب إيران) ونسب الديلم اليها، انظر ياقوت بن عبد الله (الحموي)، معجم البلدان، بيروت: دار صادر1995م، ج2، ص 545

(3) الجهشياري، مصدر سابق، ص 194

(4) نفس المصدر، ص 149

(5) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص 304

(6) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 289

لما خرج جعفر من المجلس: "قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة ان لم اقتلك».[1] وذكر المسعودي نفس الشيء في بيانه لأسباب النكبة[2]. وفي هذا الخصوص يذكر الطبري ان رجلا عارفاً بأخبار البرامكة ذكر ان إطلاق سراح يحي بن عبد الله كان السبب الرئيسي الذي ادى الى نكبة البرامكة. واورد تعليقا لهذا العارف بأخبار البرامكة يقول فيه :»من ذكر ان الرشيد قتل جعفر بن يحي بغير سبب يحي بن عبدالله بن الحسن فلا تصدقه».[3] وهنا نكتفي بتعليق الدكتور على عبد الرحمن العمرو، احد الباحثين في تاريخ هذه الازمة اذ يقول: «ومواقف البرامكة سواء في ذلك موقف الاب او موقف كل من ابنيه الفضل وجعفر من العلويين تؤكد تعاطفهم الشديد مع زعماء البيت العلوى ان لم نقل تحيزهم الى جانبهم، وهذه المواقف تدين البرامكة وتصمهم بعدم الاخلاص او خيانة الدولة العباسية وهى ادانة لا يستهان بها وذلك في ضوء العلاقات بن العباسيين والعلويين وهى علاقات لم يحسمها في بعض الوقت الا القتال».[4]

ثالثا: استئثارهم بالأموال والسلطة دون الخليفة:

يقول المسعودي ايضا ان من اسباب النكبة ان البرامكة احتازوا الاموال دونه (أي دون الرشيد) حتى كان يحتاج الى اليسير من المال فلا يقدر عليه.[5] بينما يذكر الجهشيارى انهم كانوا متحكمين في اموال الدولة لدرجة انهم كانوا قد اتفقوا على مبلغ ثابت يعطونه للرشيد لنفقاته هو وعياله[6] بينما يذكر لنا باحث اخر في نفقات الدولة العباسية وكيفية ادارتها ان البرامكة كانوا قد ضيقوا على زبيدة زوجة الرشيد لأنها لم تكن تحسن التصرف في الاموال فكانت تشكوهم للرشيد.[7] ويبدو ان الخلاف على الامور المالية شكلت في اوقات مختلفة من عهد الرشيد مواضيعا لازمات كانت تحدث بين الرشيد والبرامكة، وان الرشيد كان قد اثار موضوع احتياز البرامكة للأموال في عدة مواضع، منها ما ذكره الجهشيارى حيث ذكر ان الرشيد ولىّ الفضل خراسان ولكنه استقل ما يحمله الفضل اليه منها فعزله وولى بدلا عنه على بن عيسى بن ماهان[8] فقتل على بن عيسى وجوه اهل خراسان وملوكها وجمع اموالا جليلة وحمل الى الرشيد عشرة الاف درهم، فسر بها الرشيد واحضر يحي بن خالد يسأله: «اين كان الفضل من هذا؟» فقال له يحي: «يا امير المؤمنين ان خراسان سبيلها ان تحمل اليها الاموال ولا تحمل منها، والفضل أصلح نيات رؤساؤها واستجلب

(1) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 209، ابن خلكان، مصدر سابق، ج1، ص 335

(2) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص 304

(3) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 289

(4) على عبد الرحمن العمرو، مرجع سابق، ص 238

(5) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص 304

(6) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 200

(7) ضيف الله يحي الزهراني، مرجع سابق، ص 63

(8) على بن عيسى بن ماهان (توفى 195هـ). أحد كبار الولاة والقادة في العصر العباسي ايام هرون الرشيد وابنه المهدى عينه الرشيد واليا على خراسان سنة 180هـ ولكنه عاد فولى ابنه المأمون خراسان في سنة 182هـ وجعل على بن عيسى بن ماهان نائبا له متفرغا لقيادة الجيوش ومحاربة الخوارج والمناوئين للحكم العباسي في تلك الأقاليم. تقرب فيما بعد للأمين وهو ممن زينوا له خلع المأمون وخرج على راس جيش الامين لمحاربة المأمون ولكنه انهزم وقتل في المعركة سنة 195هـ

طاعتهم، وعلى بن عيسى قتل صناديد اهل خراسان وحمل أموالهم.»[1] ثم حذر الرشيد من انه سيضطر في المستقبل ان ينفق مقابل كل درهم اخذه عشرة عندما تثور عليه خراسان (الشيء الذي حدث بالفعل فيما بعد) فلم يعجب حديثه الرشيد. وهذه الحكاية لها دلالتها وهي ان الرشيد كان يشعر ان البرامكة يستأثرون دونه بالأموال وقد ساعد في تغذية هذا الشعور سعايات بعض الطامحين الى ازاحة البرامكة وحل محلهم في السلطة ويقول ابن خلكان: « كان الحسن بن على بن عيسى يقول: انما قتل جعفر بن يحي الشره فقيل له: ان بعض الناس قالوا ان ذنبه بعض اخوات الرشيد قال هذا من رواية الجهال، من كان يجسر على الرشيد؟ انما كان جعفر من حاز ضياع الدنيا لنفسه وكان الرشيد إذا سافر لا يمر بضيعة ولا بستان الا قيل هذا لجعفر.»[2] وقد اورد الاتليدى ذات السبب اذ عزى نكبة البرامكة الى ما كان يراه الرشيد في اثناء سفره من الضياع التي نسبت لجعفر فاستعظم ماله وضياعه.[3] ومما يؤيد هذه النظرة انه بعد مقتل جعفر وسجن يحي والفضل كان الرشيد كثيرا ما يستدعيهما من سجنهما فيناظرهما في الاموال واوجه صرفها. يقول ابن خلكان ان الرشيد بعد ان استصفى اموال البرامكة وجه الى الفضل بن يحي في سجنه يسأله عن اموالهم ويعلمه انه يشك انه اخفى عنه حقيقة ما يملكون من المال وقد رد عليه الفضل بقوله : «انا كنا نصون اعراضنا بأموالنا فكيف صرنا نصون اموالنا بأنفسنا».[4] كما يقول الجهشيارى: «فوجه الرشيد في طلب الاموال وضيق على البرامكة جميعا واساء اليهم وضرب الفضل بن يحي مائتي سوط.»[5] وكان الرشيد قد بلغه ما كان من بناء جعفر دارا كلفته عشرين مليون درهم وقيل له هذه غرامة داره فما ظنك بنفقاته وصلاته وغير ذلك، فاستعظمه الرشيد.[6] فاذا ما علمنا ان الطبري ذكر ان الفضل بن يحي عندما استخلفه الرشيد على خراسان فمكث فيها مدة سنة ثم عاد منها فخرج الرشيد لاستقباله ومعه وجوه بنى هاشم والناس من القواد والكتاب والاشراف، يقول: فجعل الفضل يصل الرجل بالألف الف وبالخمسمائة الف[7] واضفنا الى ذلك ما كان ينفقه الفضل ويحي على اجازة الشعراء الذين مدحوهم حتى ان الفضل اجاز يوما شاعرا امتدحه بمائة الف درهم[8] علمنا ان البرامكة استأثروا بأموال الدولة دون الخليفة وانهم كانوا مطلقي اليد في صرفها كيف شاءوا كل هذا مما يدعم فرضية ان احتيازهم الاموال كان احد اسباب النكبة.

(1) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 180
(2) ابن خلكان، مصدر سابق، ج1، ص 473
(3) محمد دياب الاتليدى، مرجع سابق، ص 246
(4) المصدر السابق، ج4، ص33
(5) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 195
(6) ابن خلكان، ج1، ص 344، الطبري، مصدر سابق، ج8، ص291
(7) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 259
(8) على عبد الرحمن العمرو، مرجع سابق، ص 240

رابعا: السعايات التي سعى بها اعداء البرامكة وعلى رأسهم الفضل بن الربيع:

يذكر بعض المؤرخين ايضا من الاسباب المحتملة لنكبة البرامكة سعايات الاعداء فيقول: ان اعداءهم ما زالوا يسعون بهم عند الرشيد ويذكرون له استبدادهم بالملك واحتجانهم للأموال فستروا المحاسن واظهروا القبائح[1] حتى اوغروا صدره فأوقع بهم.[2] كان أبرز اعداء البرامكة هو الفضل بن الربيع (توفى سنة 208) ولم يكن الفضل على شيء من نباهة الذكر وقد ساهم الفضل في ايغار صدر الرشيد على البرامكة ساعده في ذلك كونه حاجب الرشيد وعلى اتصال دائم به.[3] كان الفضل بن الربيع يروم التشبه بالبرامكة لكنه لم يكن يملك مثل مواهبهم في الكتابة والسياسة فكانت نفسه مشحونة بالبغضاء لهم، وقد اجتهد في السعاية بهم لدى الرشيد يساعده في ذلك كاتبه اسماعيل بن صبيح.[4] يتضح لنا من القصة التي رواها الطبيب ابن بختيشوع ان الفضل بن الربيع كان مطلعا على ما يعتمل في نفس الرشيد تجاه البرامكة وكان عارفا بتطور ازمة السلطة بينه وبينهم والدليل على ذلك قول الرشيد لابن بختيشوع:» وليس الفضل ممن يحكى عنه شيئا»، وقد تلقى هذه الحقيقة الضوء على السعايات التي سعى بها اعداء البرامكة في الكيد لهم عند الرشيد ومنهم الفضل بن الربيع الذى كان طامعا في ان يتولى وزارة الرشيد. وقد ذكر الجهشيارى ان الفضل بن الربيع مازال يحمل الرشيد على البرامكة حتى نكبهم.[5] كما حكى الجهشيارى حكاية لها دلالتها في تنازع السلطة الخفي الذي كان دائرا بين البرامكة وبين الفضل بن الربيع اذ احتجم[6] الرشيد يوما فأهدى اليه رجالات دولته الهدايا فأهدى يحي والفضل وجعفر هدايا عادية من فواكه وما اشبه ذلك. فلما جاء دور الفضل بن الربيع قال جعفر للرشيد «تجده قد ابتاع هدية بخمسين درهما»، يستهزئ بالفضل، ولكن الفضل كان قد باع حديقة كانت له وأهدى الرشيد صندوقا من الابنوس المطعم بالفضة يحمله صبيان روميان وقد حسُن لباسهما من الديباج، وفى الصندوق مائة ألف درهم جعلها في عشرين بدرة من الديباج، ففرح الرشيد بذلك فرحا شديدا وسأل الفضل عن مصدر المال فقال له:» بعت حديقتي لما رأيت إنك مغموم فأحببت ان اسرك.» وروي الجهشيارى ان جعفرا انصرف يجر رجليه جراً الى والده فاعلمه الخبر.[7] وقد سعى اعداء اخرون في فترات مختلفة بالبرامكة كلهم او بواحدهم لدى الرشيد. فعلى سبيل المثال سعى عيسى بن ماهان بموسى بن يحي عند الرشيد واعلمه طاعة اهل خراسان له ومحبتهم اياه وانه يكاتبهم ويعمل على الانسلال والوثوب معهم فحبس الرشيد موسى بن يحي مدة بالكوفة ولم يطلقه الا عد ان توطت فيه ام الفضل وكان الرشيد لا يرد لها طلبا وبعد ان ضمنه ابوه يحي بن خالد.[8]

(1) ابن خلكان، مصدر سابق، ج1، ص335

(2) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 209

(3) عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الاول، ص135

(4) ابن خلكان، مصدر سابق، ج4، ص 37

(5) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 201

(6) كان من العادة إذا احتجم الرجل ان يهدى له اصحابه الهدايا ويعمل له اجود الطعام، راجع ادم متز، مرجع سابق، ص 301

(7) ابن خلكان، مصدر سابق، ج4، ص 37

(8) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص293

ومـما يسـتفاد مـن روايـات المؤرخـين في هـذا الصـدد ان اعـداء البرامكـة كادوا لهـم عنـد الرشـيد فلفتـوا انظـاره الى اموالهـم ودورهـم وصلاتهـم ومـا زالـوا بالرشـيد حتـى نكبهـم. ولعـل اشـمل مـا قيـل عـن هـذه النكبـة هـو رأى ابـن خلـدون عنهـا اذ اورد: «انمـا نكـب البرامكـة مـا كان مـن اسـتبدادهم بالدولـة واحتجانهـم امـوال الجبايـة حتـى كان الرشـيد يطلـب القليـل مـن المـال فـلا يصـل اليـه فغلبـوه عـلى امـره وشركـوه في سـلطانه ولم يكـن لـه معهـم تـصرف في امـور ملكـه، فعظمـت اثارهـم بعـد صيتهـم وعمـروا مراتـب الدولـة وخططهـا بالرؤسـاء مـن ولدهـم وصنائعهـم، واحتازوهـا عمـن سـواهم مـن وزارة وكتابـة وقيـادة وحجابـه وسـيف وقلـم. يقـال انـه كان بـدار الرشـيد مـن ولـد يحـي بـن خالـد خمسـة وعـشرون رئيسـا مـا بـين صاحـب سـيف وصاحـب قلـم زاحمـوا فيهـا اهـل الدولـة بالمناكـب ودفعوهـم عنهـا بالـراح لمكانـة ابيهـم يحـي مـن كفالـة هـرون حتـى شـب في حجـره، ودرج مـن عشـه، وغلبـه عـلى امـره، وكان يدعـوه (يـا ابـت) فتوجـه الايثـار مـن السـلطان اليهـم، وعظمـت الدالـة منهـم، وانبسـط الجـاه عندهـم، وانصرفـت نحوهـم الوجـوه، وخضعـت لهـم الرقـاب، وقـصرت عليهـم الآمـال، وتخطـت اليهـم مـن اقـصى التخـوم هدايـا الملـوك وتحـف الامـراء، وتسربـت مـن خزائنهـم في سـبيل التزلـف والاسـتمالة امـوال الجبايـة، وافاضـوا في رجـال الشـيعة وعظـماء القاربـة العطـاء وطوقوهـم المنـن، وكسـبوا مـن بيوتـات الاشراف المعـدم ، وفكـوا العـاني ومُدحـوا بمـا لم يُمـدح بـه خليفتهـم واسـنوا لعفاتهـم الجوائـز والصـلات، واسـتولوا عـلى القـرى والضيـاع مـن الضواحـي والامصـار في سـائر المملكـة حتـى اسـفوا البطانـة، واحقـدوا الخاصـة، واغضـوا اهـل الولايـة فكشـفت لهـم وجـوه المنافسـة والحسـد ودبـت الى مهادهـم الوثـيرة مـن الدولـة عقـارب السـعاية، حتـى كان بنـو قحطبـة اخـوال جعفـر مـن اعظـم السـاعين عليهـم لم تعطفهـم لمـا وقـر في نفوسـهم مـن الحسـد عواطـف الرحـم، ولا وزعتهـم اواصر القرابـة، وقـارن ذلـك عنـد مخدومهـم نواشـئ الغـيرة والاسـتنكاف مـن الحجـر والانفـة وكامـن الحقـود التـي بعثتهـا منهـم صغائـر الدالـة، وانتهـى بهـم الاصرار عـلى شـأنهم الى كبائـر المخالفـة كقصتهـم في يحـي بـن عبـد اللـه بـن الحسـن اخـي محمـد المهـدى الملقـب بالنفـس الزكيـة ويحـي هـذا هـو الـذى اسـتنزله الفضـل بـن يحـي مـن بـلاد الديلـم عـلى امـان الرشـيد بخطـه ودفعـه الرشـيد الى جعفـر وجعـل اعتقالـه بـداره والى نظـره فحبسـه مـدة ثـم حملتـه الدالـة عـلى تخليـة سـبيله».[1] وهكـذا نسـتطيع ان نلخـص اسـباب هـذه النكبـة وبعيـداً عـن القصـص غـير الواقعيـة بـان سـقوط البرامكـة كان نتيجـة لحـوادث متتابعـة دفعـت الرشـيد لا الى الحـد مـن نفـوذ هـذه الاسرة فحسـب، بـل الى القضـاء عليهـا تمامـا واعفـاء اثارهـا. نسـتطيع ان نقـول ان البرامكـة نكبـوا لسـوء اسـتخدامهم للسـلطة الموكلـة لهـم ولسياسـتهم التـي انحرفـت في اوقـات كثـيرة عـن سياسـة الدولـة والخليفـة نفسـه. كان هـرون الرشـيد شـابا حدثـا عندمـا اسـتورزرهم (كان في الثانيـة والعشريـن مـن عمـره حـين تـولى الخلافـة ونكبهـم وهـو في التاسـعة والثلاثـين). ويبـدو انـه شـعر مـع مـرور الايـام بتنامـى سـلطاتهم واتسـاع نفوذهـم واسـتئثارهم بالسـلطة دونـه، فقـد قيـدوه في التـصرف المـالي كـما كبلـوه في التـصرف السـياسي. فالخلافـة كانـت في الحقيقـة ليحـي وابنـاؤه وليـس لـه منهـا الا اسـمها، فقـد أصبحـوا ملـوكا داخـل دولتـه حتـى ظهـر عليهـم الادلال الـذي لم تحتملـه نفسـه. وزاد الامـر

(1) ابن خلدون، المقدمة، ج1، ص 100-102

سعايات اعداؤهم بهم فادى به ذلك الى التخلص منهم. يفسر بعض الدارسين الصراع بين الرشيد والبرامكة على انه صراع حضاري بين الحضارتين الفارسية والعربية.[1] بينما يرى بعض المؤرخين ان تنامى نفوذ البرامكة في دولة الرشيد صور استئثار الفرس بالسلطة والذي يتنافى مع سياسة الخلفاء العباسيين. وكان هذا هو مبرر تلك النكبة للحد من النفوذ الفارسي في الدولة.[2] ويؤكد اصحاب هذه النظرية ان الرشيد عندما شعر بتنامى سلطاتهم التي اصبحت مهددا حقيقيا لملكه عمل بهدوء وروية على انتزاع شأفتهم.[3] ويسوقون ادلة على ذلك ان الرشيد نكبهم عن سابق تخطيط[4] وانه لم يندم قط على نكبتهم فلم يستجب لتوسلات زوجة يحي بن خالد والتي هي امه من الرضاع ولا لتوسلات يحي في سجنه ولو ندم لتراجع عنهم ولأطلق سراح يحي من سجن الرافقة في الرقة الذى بقى فيه الى ان توفى فيه في سنة 190هـ وهو ابن سبعين سنة.[5] وتقف نكبة البرامكة شاهدا على تضارب سلطة الخلفاء مع سلطة وزراءهم كما انها دليل على التباين بين مصالح الوزراء ومصلحة الخلفاء العباسيين، ذلك التباين الذى ظهر جليا في موقف ابى سلمة الخلال ويعقوب بن داؤود وسيظهر ايضا في وزارة بنى سهل في عهد المأمون كما سيرد في الجزء القادم من هذه الدراسة.

الفضل بن سهل في عهد المأمون:

كان بنو سهل يدينون بالمجوسية قبل دخولهم في الإسلام. يقول عنهم ابن طباطبا انهم كانوا من اولاد ملوك الفرس قبل الاسلام[6] وقد ربطتهم علاقات تاريخية قديمة مع اسرة البرامكة اذ كان سهل بن عبد الله السرخسي (نسبة الى بلدة سرخس في خراسان) والد الفضل والحسن قهرمانا [7] ليحي بن خالد البرمكي. جمعت بين الاسرتين اذن علائق قديمة فهما من أصل فارسي اضافة الى اشتغالهما بصناعة الكتابة وتطلع افراد الاسرتين للعمل في خدمة الخلفاء عن طريق هذه الصناعة. غير ان اسرة البرامكة كان حظها عند الخلفاء العباسيين كما ذكرنا اوفر من بنى سهل حتى عهد الرشيد، فكان السهليون ينظرون إليهم شأن جميع معاصريهم نظرة اجلال وتقدير فهم عند

(1) احمد عبد القادر محمود عقل، صراع الحضارات وأثره في الشعر العربي في العصر العباسي الاول (القرن الثاني الهجري)، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية، جامعة النجاح (فلسطين)، 2003م، ص 25-26

(2) سميرة مختار الليثي، مرجع سابق، ص311

(3) على عبد الرحمن العمرو، مرجع سابق، ص 352-358

(4) يحتج اصحاب هذا الرأي ان الرشيد خطط لنكبتهم على الاقل قبل سنة منها حيث وكّل رجلا يسمى السندي بن شاهك بان يتولى قبض دورهم واموالهم بعد سنة من صدور هذا الامر اليه. وقد تردد الرجل خوفا من ان يتراجع الرشيد عن قراره ويعرف البرامكة بتوكيله اياه قبض اموالهم فيكون هذا سببا في انتقامهم منه ولكن بعد تمام السنة. قتل الرشيد جعفرا وحبس يحي والفضل فتوجه هو الى اكمال ما طُلب منه، راجع الجهشياري، مصدر سابق، ص 188

(5) شوقي خليل، مرجع سابق، ص 249

(6) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 221

(7) قهرمان: كلمة فارسية الاصل وكانت تشير الى وظيفة ولقب ايام الدولة العباسية وهي تعنى الوكيل او امين الدخل والخراج. ويقال للمرأة ايضا قهرمانة وهي متولية شئون المنزل ومدبرته ومنه جاء القول المأثور: (المرأة ريحانة وليست قهرمانة).

معاصريهم مثل اعلى وقدوة حسنة فيما وصلوا اليه.

اظهر الحسن والفضل السهليان مواهبا في صناعة الكتابة لفتت انظار يحي بن خالد البرمكي وهو يومئذ على سدة الوزارة. وقد عرف عنه تعاطفه مع بنى جلدته من الفرس فضمهما اليه وجعلهما من جملة كتّابه. يقول ابن خلكان «فعرفهما يحي ورعاهما، فنقل الفضل بن سهل كتابا ليحي من الفارسية الى العربية فأعجبه فهمه وجودة عباراته.»[1] ولكن الفضل حتى ذلك الوقت لم يكن قد دخل الاسلام وكان الاسلام شرطاً مهما لتقدم الكاتب خاصة فيما يتعلق بعمل الدواوين وخدمة الدولة. ويروى لنا الجهشيارى قصة اسلام الفضل بن سهل فيقول: قال يحي بن خالد للفضل بن سهل :»انى اراك ذكيا وستبلغ مبلغا رفيعا فاسلم حتى اجد السبيل الى ادخالك في امورنا والاحسان اليك»، قال الفضل: «نعم، اصلح الله الوزير، فأُسلم على يديك»، فقال له : «لا، ولكن اضعك موضعا تنال به حظا من دنيانا»، ودعا بسلام مولاه وقال له: «خذ بيد هذا الفتى وامض به الى جعفر وقل له يدخله الى المأمون وكان في حجر جعفر حتى يسلم على يديه فادخله جعفر الى المأمون فاسلم على يديه، فوصله واحسن اليه، واجرى له رزقا مع حشمه، ولم يزل ملازما للفضل بن جعفر حتى اصيب البرامكة فلزم المأمون.[2] من هنا نرى ان اول اتصال للسهليين بالخلفاء اتاحته لهم الاسرة البرمكي حيث وصل يحي بن خالد الفضل بن سهل بالمأمون، كما قدّم يحي بن خالد الفضل بن سهل للرشيد وامتدحه وزاد في ذلك فأعجب الرشيد بفصاحته وبيانه[3] وعلى هذا توالت أيدي البرامكة في رفع ال سهل وتمكينهم من خدمة الدولة.[4]

دور الفضل بن سهل في بيعة المأمون:

كان الفضل بن سهل أبرز رجال هذه الاسرة واليه يرجع الفضل في شهرة اسرته وما وصلت اليه من رقى ومجد. وصف الفضل بانه كان سخياً سرياً، كريم النفس، كثير الافضال، يذهب مذهب البرامكة في ذلك وكان كاتبا قديرا حسن البلاغة.[5] عمل الفضل بن سهل كاتبا للمأمون حينما كان ولياً للعهد.[6] ولعب مع المأمون دورا سياسياً شبيهاً بالدور الذي لعبه يحي بن خالد البرمكي مع هرون الرشيد وكان تأثيره كبيراً على المأمون وعلى العلاقات داخل البيت العباسي وعلى مجرى تاريخ الدولة العباسية السياسي.[7] ساند الفضل بن سهل المأمون في خلافه مع اخيه الامين واستطاع ان يوصله الى سدة الخلافة بتدبيره ووزر له بعد ذلك وقد لقب بذي الرئاستين لأنه جمع بين الوزارة والسيف[8] أي جمع بين رياسة الحرب ورياسة التدبير.[9]

(1) ابن خلكان، مصدر سابق، ج4، ص 41-42

(2) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 183

(3) المصدر السابق، ج4، ص41

(4) احمد سعيد احمد الزهراني، مرجع سابق، ص159

(5) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 251

(6) ابن خلكان، مصدر سابق، ج4، ص42

(7) على عبد الرحمن العمرو، مرجع سابق، ص 265

(8) المصدر السابق، ج4، ص41

(9) الجهشيارى، مصدر سابق، ص250

كانت مشكلة ولاية العهد بعد الرشيد من المشاكل المهمة التي كان على الدولة العباسية مواجهتها بشكل عاجل بعد وفاة الرشيد في سنة 193هـ. وهي مشكلة كانت لها اثارها البعيدة وهي تصّور تطور الصراع بين التيارين الرئيسيين في الدولة العباسية وهما التيار العربي والتيار الفارسي. وكما هو معروف أنّ الفرس ساندوا الدولة العباسية في الخلاص من اعدائها الامويين وغير الامويين وتغلغلوا في مرافقها ووقفوا من العرب موقف العداء الظاهر وقد خلّفت هذه الحقيقة جبهتين متعارضتين في الدولة: جبهة عربية وجبهة فارسية انطبق ذلك على الحياة العامة كما انطبق بذات القدر على الصراع على السلطة في البيت الحاكم.

كانت زبيدة زوجة الرشيد وام الامين تدفع وتحرك التيار العربي يساندها اخوتها وابناء عمومتها من العباسيين ومعهم الفضل بن الربيع وقد نجح هذا التيار في الضغط على الرشيد لتولية محمد الامين ولاية العهد بعد ابيه فأخذت له البيعة في سنة 173هـ كما تقدم. اما التيار الفارسي فكان يدفعه البرامكة وصنائعهم السهليون في حياة الرشيد وكانوا يتعاطفون مع المأمون لأن امه فارسية. كان الرشيد قد اخذ البيعة لابنه محمد الامين سنة 173هـ وضم اليه الشام والعراق في سنة 175هـ ثم بايع لعبد الله المأمون في سنة 183هـ وولاه من حد همذان الى اخر المشرق ثم بايع بعدهما لابنه القاسم وسماه المؤتمن وولاه الجزيرة والثغور والعواصم.[1] في سنة 186هـ حج الرشيد وأخذ البيعة لابنه محمد الامين واشهد عليها الله وجميع من كان حاضراً من ولده واهل بيته ومواليه وقواده ووزراءه وكتّابه وغيرهم. احضر الرشيد وجوه بنى هاشم والقواد والفقهاء وأدخلهم البيت الحرام ثم قرأ عليهم نص كتابين أحدهما كان على محمد الامين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم عبد الله ما ولىّ من الاعمال وما صُير اليه من الضياع والغلات والاموال بعد وفاة الرشيد. والثاني كان نسخة من كتاب البيعة التي اخذها على الناس لمحمد الامين وعلقت هذه الكتب في الكعبة وتقدم الى الحجبة في حفظ الكتابين ومنع من اراد اخراجهما.[2]

اخذت ملامح الدور السياسي الذي لعبه الفضل بن سهل في حياة المأمون تأخذ في التشكل في ايام الرشيد الاخيرة حيث اخذ يسعى ويدبر ليضمن للمأمون حقه في الخلافة. وكانت خراسان قد انتفضت بقيادة رافع بن ليث بن نصر بن سيار[3] وعجزت جيوش الخلافة عن ردها الى حظيرة الدولة العباسية فقام اليها الرشيد بنفسه في سنة 192هـ واستخلف على بغداد ابنه محمد الامين وامر اخوه المأمون بالبقاء معه في بغداد. اوعز الفضل الى المأمون بان يطلب من الرشيد مرافقته قائلا « سل الرشيد ان يشخصك معه لأنه مريض وغير مأمون، وخراسان ولايتك وان حدث على الرشيد حادث وثب عليك اخوك الامين، وان أحسن عمل ينتظر ان يعمله معك هو خلعك،

(1) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 276

(2) نفس المصدر، ج8، ص 276

(3) رافع بن الليث بن نصر بن سيار: كان جده اخر ولاة الامويين على خراسان وكان رافعا واليا على سمرقند في عهد الرشيد وقد عزل وحبس بسبب امرأة فهرب وقتل العامل على سمرقند واستولى عليها سنة 190هـ وخلع عه الرشيد ودعا الى نفسه فتوجه اليه الرشيد بنفسه.

وأمه وزبيدة واخواله بنو هاشم وزبيدة واموالها ردء له.»[1] فوافق المأمون الى رأيه وطلب من والده ان يرافقه فوافق الرشيد بعد طول امتناع. جدد الرشيد البيعة لابنه المأمون على القواد الذين معه، واشهد واشهدهم ان جميع من معه من الجند مضمومون الى المأمون.[2] اشتدت العلة على الرشيد الى ان نزل بطوس وامر ابنه بمواصلة المسير الى خراسان، ثم توفى الرشيد بعد فترة فكانت وفاته في سنة 193هـ. كان الرشيد قد عين الفضل بن الربيع على نفقات الجيش وتدبيره في خراسان ولكن الفضل كان في حزب محمد الامين فقرر عند وفاة الرشيد ان يرجع الى الامين في بغداد دون موافقة المأمون فعاد وقد اخذ معه جميع ما في معسكر الرشيد بطوس وعاد ومعه بعض القواد من الجيش مخالفين بذلك وصية الرشيد وعهده وقد قال: « لا ادع ملكا حاضرا لآخر لا أدري ما يكون من امره.»[3] فحفظها المأمون للفضل بن الربيع.

في بغداد اخذت البيعة لمحمد الامين وقد خاف الفضل ان الت الخلافة الى المأمون ان ينتقم منه فزين لمحمد الامين خلع المأمون واخذ البيعة بعده لابنه موسى وكان طفلا. فأول ما فعله محمد الامين استجابة لهذا الرأي عزل القاسم عن الاعمال التي كان قد ولاها له الرشيد واستقدامه الى بغداد ثم كتب الى جميع العمال بالدعاء لابنه موسى بالأمرة بعد الدعاء له وللمأمون وللقاسم بن الرشيد.[4] وحينها علم المأمون ان الامين يدبر في خلعه فقطع البريد عنه، وأسقط اسمه من الطرز والضرب.[5] ومما يفهم من رواية الطبري ان الامين لم يكن ينوى بداية خلع اخويه المأمون والقاسم ونكث العهود والمواثيق التي استكتبه اياها الرشيد الا ان الحاح الفضل بن الربيع ومؤيدوه عليه بخلعهما وتأثيرهم عليه هو الذي دعاه الى خلع المأمون والقاسم وتمزيق العهدين المعلقين في الكعبة.[6]

طلب الامين من المأمون ان يتجافى له عن كور من كور خراسان سماها له فيعود خراجها الى محمد الامين في بغداد بدلا من ان يعود الى المأمون في خراسان. وان يقبل ارسال رجل من قبله يولي البريد ليكتب اليه بخبره. فلما ورد ذلك على المأمون عرف ان اخاه يريد ان يجرده من موارد الخراج، وان يرسل عليه جاسوساً ينقل اليه اخباره اولاً باول فاستشار الفضل والحسن ابني سهل فأشار عليه الفضل بأن يرفض ذلك الطلب ويذّكر الامين بالعهود التي تراضيا عليها والتي عُلقت في الكعبة.[7]

أرسل الامين رسلا كان فيهم العباس بن موسى بن عيسى بن محمد بن على للمأمون في خراسان يطلب منه صراحة تقديم ابنه موسى عليه والشخوص الى بغداد. استشار المأمون الفضل بن سهل فأوصاه بعدم الاستجابة لمطالب الأمين، وقد ابلغه ان اهل خراسان بايعوا محمداً على ان لا يخرج المأمون من خراسان فاذا امره بالمسير الى بغداد فلا بيعة له. وفى خراسان

(1) ابن الاثير، مصدر سابق، ج6، ص208

(2) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 366

(3) نفسه، ج8، ص370

(4) ابن الاثير، مصدر سابق، ج6، ص 238

(5) المصدر السابق، ج8، ص375

(6) نفس المصدر، ج8، ص375

(7) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 236، والطبري، مصدر سابق، ج8، ص 377

ناظر العباس بن موسى المأمون في خلع نفسه لصالح موسى ابن الامين قائلا: «ما عليك ايها الامير من ذلك فهذا جدي عيسى بن موسى قد خلع فما ضره» فصاح به الفضل بن سهل: « اسكت، ان جدك كان اسيراً في ايديهم وهذا بين اخواله وشيعته.»[1] يشير الى أصل ام المأمون الفارسي وتأييد اهل خراسان له. وزيادة على ذلك فقد استمال الفضل بن سهل العباس الى جانبهم فوعده امرة الموسم ومواضعاً من مصر ان انتهى الامر الى المأمون فبايع العباس للمأمون ولما عاد العباس الى بغداد أصبح يكتب لهم بالأخبار من هناك ويشير عليهم بالرأي.[2]

طلب الامين من المأمون ان يوافيه في بغداد وأخبره انه يحتاجه ليساعده في امور السياسة والحكم لكنه كان ينوى بذلك ان يفرق بينه وبين جنده الخراسانيين ويكسر قوته ويظفر به فيصير رهن يديه.[3] ولكن المأمون لم ينخدع وكتب يعتذر. يقول ابن طباطبا ان الكتابات ترددت بين الاخوين حتى رق المأمون وكاد ان يستجيب فيخلع نفسه الا ان الفضل بن سهل منعه وشجعه وضمن له الخلافة فقال: «هي عهدتي»، فامتنع المأمون، يواصل ابن طباطبا فيقول: فنهض الفضل بن سهل بأمر المأمون واستمال له الناس وضبط له الثغور والأمور.[4] واتخذ الفضل بن سهل جواسيساً في العراق يوافونه بالمستجدات اولاً بأول.[5] اخذ الفضل بن سهل يعد المأمون للخلافة ويمهد له الطريق وكان محمد الامين معروفا بسوء التدبير وكثرة التبذير وضعف الرأي كما عُرف عنه انه كان ارعنا لا يجيد معالجة السياسة.[6] فنحا الفضل بن سهل سياسة ان يبرز المأمون في صورة على خلاف صورة اخيه الامين وان يحببه الى العامة فقال له: «قد قراءت القران وفهمت امر الدين، والرأي ان تجمع الفقهاء وتدعوهم الى الحق والعمل به، واحياء السنة، وان تقعد على اللبود، وتواصل النظر في المظالم، وتكرم القواد والرؤساء وابناء الملوك، يقول: ففعل المأمون ذلك وحطّ عن خراسان ربع الخراج»[7] فاحبه الناس واقبلوا عليه وكانوا يقولون ابن اختنا وابن عمّ رسول الله ﷺ.

أرسل الامين أحد الحجبة في طلب الكتابين الذين علقا في الكعبة فامر بتمزيقهما. وقد كان لهذه البادرة أثرها في اظهار الامين بمظهر الغادر الناكث للعهود فيقول الجهشيارى: وسارت الركبان في الافاق بغدر محمد وبحسن سيرة المأمون فاستوحش الناس منه وانحرفوا عنه وسكنوا الى المأمون ومالوا اليه.»[8] ونتيجة لهذه السياسة، وما بذله الفضل لأهل خراسان وتخفيفه الخراج عنهم وبما كان لآل سهل من صلات مميزة مع أمراء المنطقة، استطاع الفضل أن يجند عدداً كبيراً من الجند الخراسانيين وأن يُبرز على الساحة قادة جدد من أبناء المنطقة، أمثال طاهر بن

(1) الطبري، مصدر سابق، ج6، ص 230
(2) نفسه، ج8، ص 376
(3) على عبد الرحمن العمرو، مرجع سابق، ص 270
(4) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص213
(5) ابن الاثير، مصدر سابق، ج6، ص 234
(6) السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص 473
(7) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 237
(8) نفس المصدر، ص 239

الحسين[1] الذي قاد قوات المأمون لمحاربة بغداد فيما بعد.[2]

اخذ الخلاف بين الامين والمأمون في التطور التدريجي واخذ يزداد حدة وكان يغذيه من الجهتين الفضل بن سهل والفضل بن الربيع فكان موقفهما أكبر تعبير عن صراع التيارين التقليديين في الدولة: التيار العربي والتيار الفارسي حيث كان العرب يظاهرون الامين بينما يشد الفرس على يد المأمون يؤازرونه لما يعتقدونه من انه أقرب إليهم بسبب امه الفارسية. واخذ الخلاف بين الاخوين يشتد والقطيعة تزداد الى ان انتهى الامر الى خلاف مسلح انتهى بحصار جيش المأمون بغداد بقيادة طاهر بن الحسين الذي تمكن من هزيمة جيش الامين ودخول بغداد وقتل الامين وحمل راسه الى المأمون في خراسان وذلك سنة 198هـ.

مما تقدم فإننا يمكن ان نستنتج ان المأمون لم يخلع طاعة اخيه ويحاربه بملء ارادته بل انه كان يميل الى المسالمة، وكاد ان يخلع نفسه مستجيبا لطلب اخيه وضغوطه عليه، وهنا يتجلى الدور الذى لعبه الفضل بن سهل في تثبيت المأمون ومساعدته حتى وصل به الى سدة الخلافة اذ كان قراره بالضغط على المأمون للخروج مع الرشيد الى خراسان وبقائه فيها اثر كبير في مجرى الاحداث بعد وفاة الرشيد ثم تعهد للمأمون بإقامة جيش قوى من الخراسانيين ثم اخذ يسهم في ازدياد حدة الخلاف والتنافس كما اشار على المأمون دائما برفض اوامر الامين وحال دون الوصول الى حلول لخلافاتهما.

لعب الفضل في حياة المأمون دورا شبيها بالدور الذي لعبه يحيى بن خالد البرمكي في حياة الرشيد. فكلاهما وقفا من خلف ولى عهد حدث يساعدانه ويمهدان له الطريق بآرائهما السديدة وسياستهما في امور الحكم والسياسة الى ان اوصلاه الى الخلافة ووصلا معه الى سدة الوزارة. من الطبيعي اذن ان كاتب ولى العهد في مسعاه لإيصال ولى العهد الى الخلافة انما يقوم على مصلحته الخاصة فهو يعرف انه بمجرد ان يتولى ولى العهد لخلافة فانه يصبح وزيرا له وتصبح مقدرات الدولة السياسية والمالية والادارية تحت تصرفه. وفى حالة الفضل بن سهل وبغض النظر عن اهدافه ونواياه الخاصة فانه لعب دوراً كبيراً في ايصال المأمون الى الخلافة بعد ان كاد يستجيب لأخيه ويفرط بها وقد ساعدت مواهب الفضل الشخصية وخبرته الادارية والسياسية في ان يلعب هذا الدور المهم في حياة الخليفة المأمون. واما الفضل بن الربيع فلما رأى قوة امر المأمون وضعف موقف محمد الامين وأدرك ان المأمون سينتصر سارع الى الاستتار فأخفى نفسه في سنة 196هـ[3]

دور الفضل بن سهل في دولة المأمون:

لما تولى المأمون الخلافة استوزر الفضل بن سهل كما هو متوقع ولقبه ذي الرياستين لأنه جعله على رياسة الحرب ورياسة التدبير. يقول ابن الاثير: «وعقد له (أي المأمون) على المشرق من جبل همذان الى التبت طولا، ومن بحر فارس الى بحر الديلم وجرجان عرضا، وجعل له عمالة ثلاثة الاف ألف درهم، وعقد له لواء على سنان ذي شعبتين، ولقبه ذي الرياستين: رياسة الحرب

(1) طاهر بن الحسين (159-207هـ) أشهر قواد المأمون وهو الذي انتصر على قوات الامين وقتله سنة 198هـ.

(2) فايزة اسماعيل أكبر، مرجع سابق، ص32

(3) ابن خلكان، مصدر سابق، ج4، ص 37-40

ورياسة القلم.»[1] وكان الفضل يُخاطب ايضا بالأمارة وهو اول وزير لُقب بها واول وزير اجتمع له اللقب والتأمير.[2] وقد كتب له المأمون توقيعا عقب توليه الخلافة جاء فيه: «اغنيت يا فضل بن سهل بمعاونتك إياي على طاعة الله واقامة سلطاني فرأيت ان اغنيك، وسبقت الناس من الحاضر كان لي والغائب كان عنى فأحببت ان اسبق الى الكتاب لك بخطى بما رأيته على نفسى، وانا اسأل الله تمامه فان حولي وقوتي ومقدرتي وقبضي وبسطي به، لا شريك له، وقد اقطعتك السبب بارض العراق على حيازة تميم مولى امير المؤمنين عطاء لك ولعقبك لما انت عليه من النزاهة عن اموال رعيتي، ولما قمت به من حق الله وحقي فلم تأخذك في لومة لائم، ولم تراقب ذا سلطان ولا غيره. وقد جعلت لك بعد ذلك مرتبة من يقول في كل شيء فيُسمع منه ولا تتقدمك مرتبة أحد ما لزمت ما امرتك به من العمل لله ولنبيه والقيام بصلاح دولة انت ولى بقيامها. وجعلت ذلك كله بشهادة الله وجعلته لك كفيلاً على عهدي وكتبت بخطى سنة ستة وتسعين ومائة.»[3] اتبع المأمون ذلك بتولية اخيه الحسن بن سهل ديوان الخراج.[4] وتدلنا هذه المعلومات على المكانة الكبيرة التي تمتع بها الفضل بن سهل في دولة المأمون فقد أصبح قائماً بأمور الحرب وامور التدبير والسياسة وهو اول وزير لُقب بالإمارة ولهذا اللقب دلالته المهمة في هذه السلطات التي اتيحت للفضل بن سهل في دولة المأمون. اما التوقيع الذي كتبه له المأمون فهو كالتفويض الذي كتبه الرشيد ليحي بن خالد. ويلفت هذا النظر الى وجه الشبه ما بين وزارة البرامكة ووزارة السهليين اذ حظي البرامكة في دولة الرشيد بالسلطة المطلقة وكذلك الحال مع السهليين الذين حظوا بدورهم بسلطة مطلقة ونفوذ واسع في دولة المأمون.

مثلت سياسة السهليين انقلابًا على التقاليد العباسية وإدخال كل ما هو فارسي الى البلاط العباسي. من ذلك أن الفضل بن سهل تشبه بوزراء الأكاسرة، فكان يجلس على كرسي مجنح، ويحمل فيه حتى تقع عين المأمون عليه، فإذا وقعت يوضع الكرسي، وينزل عنه فيمشي ويحمل الكرسي حتى يوضع بين يدي المأمون، ثم يسلم الفضل ويعود فيقعد عليه. يقول الجهشيارى ان هذا كان تقليدا كسرويا حيث كان كل وزير من وزراء الاكاسرة يحمل في مثل ذلك الكرسي ويقعد بين يدي الاكاسرة عليه ويتولى حمله اثنا عشر رجلا من اولاد الملوك.[5] وفى سنة 202هـ ساهم الفضل في اخذ بيعة المأمون من بعده لاحد ابناء البيت العلوى وهو على بن موسى الرضا كما سنرى في ما يلى في هذا الفصل لكن ما يهمنا هنا ان الفضل اتبع تعيين علي الرضا ولياً للعهد طرح لبس السواد رمز العباسيين ، ولبس الخضرة لون لباس كسرى والمجوس.[6] ويرى على عبد الرحمن العمرو ان المأمون ادرك من سلوك الفضل انه يتشبه بوزراء الاكاسرة او انه يحاول ان

(1) ابن الاثير، مصدر سابق، ج6، ص257

(2) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 250

(3) نفس المصدر، ص 250-251

(4) ابن الاثير، مصدر سابق، ج6، ص257

(5) المصدر السابق، ص 259

(6) وكثيرا ما يشار الى الخضرة على انها رمز العلويون ولكن الصحيح ان الخضرة لم تكن شعار العلويون وانما كانت شعار الفرس. بينما اللون الابيض كان هو شعار العلويين. انظر الجهشيارى، ص 260

يجعل من دولة المأمون دولة فارسية في تقاليدها وتوجهاتها ويعتقد العمرو ان مغزى هذا التشبه لم يكن يتفق مع مصالح دولة المأمون وان هذا كان احد الاسباب التي من اجلها تخلص المأمون من الفضل بن سهل فيما بعد.[1]

دور الفضل بن سهل في البيعة لعلى بن موسى الرضا:

كان من اهم القرارات السياسية التي اتخذها المأمون بتأثير الفضل بن سهل عليه هي اسناد ولاية العهد من بعده الى على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب في سنة 202هـ ذكرت المصادر ان عليا بن موسى حضر الى المأمون في مرو فأحسن وفادته وأكرمه وجمع رجال دولته وأخبرهم انه قلب نظره في اولاد العباس واولاد على بن ابى طالب فلم يجد أحد أفضل ولا اورع ولا اعلم من على بن موسى وانه ولاه عهده وسماه الرضا. وامر الجند بطرح السواد شعار العباسيين ولبس الخضرة شعار الفرس وكتب الى الافاق بذلك وامر الجند والقواد وبنى هاشم بالبيعة.[2] وضرب المأمون اسم الرضا على الدنانير والدراهم وزوج محمد ابن على الرضا بابنته ام الفضل[3] وزوج ابنته ام حبيبة لعلى بن موسى الرضا.[4] قال المأمون انه بذلك يعيد الحق الى نصابه ويصل الارحام التي قطعت منذ سنوات عديدة.[5]

اشار بعض المؤرخين الى ان الحسن بن سهل كان هو صاحب الفكرة وهو المحسن لها، يقول صاحب الفخري: «كان الحسن بن سهل وزير المأمون هو القائم بهذا الامر وهو المحسن له فبايع الناس لعلى بن موسى من بعد المأمون وسمى الرضا من ال محمد صلى الله عليه وسلم.»[6] ويبدو ان هذه الفكرة وجدت الاستهجان والرفض من بنى هاشم كافة وقد عدوها دسيسة من دسائس الفضل بن سهل لتحويل الخلافة الى بنى على انتصاراً لميوله الشيعية.[7]

ان واضحا ان الفضل يأمل في ان يستأثر بالنفوذ في دولة المأمون ولذلك عمل بعد انتصاره على الامين ومبايعة المأمون بالخلافة على اقصاء قائدي المأمون القويين طاهر بن الحسين وهرثمة بن اعين[8] عن بغداد وولاها اخاه الحسن بن سهل. واقترح على المأمون البقاء في مرو

(1) على عبد الرحمن العمرو، مرجع سابق، ص 292

(2) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 554، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج3، ص176، الجهشيارى، مصدر سابق، ص 255-256

(3) المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص24

(4) نفس المصدر، ج4، ص 25

(5) سميرة مختار الليثي، مرجع سابق، ص 344

(6) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص217

(7) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص555

(8) تقدمت ترجمة موجزة لطاهر بن الحسين. والمهم هنا ان الفضل امره بان يسلم جميع ما في يده من الاعمال والبلاد الى اخيه الحسن بن سهل وان يشخص الى الشام لإخماد ثورة نصر بن ثابت فنفذ الامر وهو له كاره وقال ما انصفني امير المؤمنين انظر اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مرجع سابق،ج3، ص 175، واما هرثمة بن اعين فقد كان احد قادة الرشيد وكان قد تولى ولاية مصر سنة 178هـ ثم القيروان 179هـ وخراسان 181هـ ، عندما نشب الصراع بين الامين و المأمون انحاز الى المأمون وحارب باسمه اخوه محمد الامين وانتصر له كما هو معروف وبعد ان استتب الامر للمأمون استدعاه المأمون الى خراسان فتسبب الفضل في فتنة بينه وبين المأمون ادت الى حبسه ومن ثم وفاته في سجنه في سنة 200هـ وقيل سمه الفضل بن سهل ، انظر اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج3، ص 178.

حيث ابقاه معزولا عما يدور في العراق ثم اقترح عليه تولية العهد لاحد ابناء البيت العلوي وهو على بن موسى.[1] ويبدو ان المأمون استجاب لهذا الاقتراح لأنه وجد نفسه في محيط فارسي عقب توليه الخلافة، فقد كان محاطا باهل خراسان ووزيره ابن سهل من الفرس وكان متشيعا كما تقدم، وقد اشتهر الفرس بتقديرهم لآل على بن ابى طالب ويبدو ان استجابته لبادرة تولية العهد لعلى بن موسى الرضا كانت محاولة من جانبه لتدعيم خلافته كما اراد ارضاء اهل خراسان وتحقيق ميولهم العلوية، وتخليص الدولة العباسية من مشاكلها الداخلية خصوصا وهو في اول سني خلافته ولم يتسن له الوقت ليحكم قبضته على الامور.

بلغ اهل بغداد ما امر به المأمون من طرح السواد واخذ البيعة لعلى بن موسى فانكروا ذك ورفضوا البيعة وقالوا» هذه دسيسة من الفضل بن سهل» فمكثوا على رفضهم اياما ثم اجتمع عدد من قادة بنى العباس فاتفقوا على ان يخلعوا المأمون وان يبايعوا ابراهيم بن المهدى.[2] وقد وعد إبراهيم بن المهدي الجند بعد بيعته بأرزاق ستة اشهر فلما تأخر عليهم شغبوا عليه فأعطى كل واحد منهم مائتي درهم ثم كتب الى بعضهم بقيمة مالهم حنطة وشعيرا فخرجوا في قبضها فلم يمروا بشيء الا انتهبوه وانتشر بسبب ذلك الشغب وذلك في نفس العام الذى بويع فيه للرضا وهو عام 202هـ.[3] كان المأمون في ذلك الوقت مقيما في مرو بخراسان فكان الفضل يكتم عنه هذه الاخبار فلم يعرف المأمون منذ البداية بخلع اهل بغداد له وان الهاشميين غير راضين عن البيعة لعلى بن موسى. قطع الفضل في اثناء هذه الاحداث الاخبار عن المأمون في مرو واخفاها عنه ومتى ما علم ان احدا دخل على المأمون وأخبره خبراً سعى في مكروهه وعاقبه فامتنع الناس عن نقل الاخبار للمأمون فانطوت الاخبار عنه.[4] تحدث الناس بالعراق عن ان الفضل بن سهل قد غلب على المأمون وانه انزله قصراً حجبه فيه عن اهل بيته ووجوه قواده من الخاصة والعامة فغضب لذلك من كان بالعراق من بنى هاشم ووجوه الناس.[5] في هذه الاثناء جاء الحسن بن سهل الى بغداد ليتولى شئونها وليرسل عماله منها وحدثت في بغداد في ذلك الوقت حركات ناقمة على بنى سهل وسياستهم في الدولة. وانتشرت الفتن والاضطرابات في انحاء بغداد بينما كان المأمون لا يزال مقيما في مرو ولا يعلم شيئا من اخبار العراق لان الفضل بن سهل حجب عنه الاخبار.[6]

(1) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج2، ص151

(2) ابراهيم بن المهدى: هو أخو الرشيد ويكنى ابا اسحق وهو أشهر ابناء الخلفاء ذكرا في الغناء واتقنهم فيه صنعة ومن المعدودين في جمال الصوت والمعرفة بالإيقاع والنغم. وكان اسود اللون لان امه كانت سوداء واسمها شكله. كان وافر الفضل غزير الادب واسع النفس سخي الكف. بويع له بالخلافة ببغداد حين ثار العباسيون على بيعة على الرضا وعلى تحكم الفضل بأمور الدولة وأقام ببغداد سنتين فلما توجه المأمون الى بغداد خاف ابراهيم على نفسه فاستتر. وقد سألته بوران بنت الحسن حين بنى بها ان يعفو عنه ففعل. انظر المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص 24، الطبري، ج8، 555

(3) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 557

(4) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 218

(5) المصدر السابق، ج8، ص557

(6) نفس المصدر، ج8، ص 564

تقدم على الرضا بنفسه الى المأمون يخبره بان الناس في بغداد رفضوا بيعته وان الناس في حالة من الفتنة والقتال، وبان الفضل بن سهل يحجب عنه الاخبار وبان الناس يتناقلون انه أي المأمون مسحور مجنون[1] وقد غلب عليه ابن سهل. وانهم لما رأوا حاله بايعوا لعمه ابراهيم بن المهدى بالخلافة، واحضر اليه جماعة من القواد ليخبروه بذلك فامسكوا وقالوا له: نخاف من الفضل فأمنهم فأخبروه بالحال على الحقيقة وعرفوه بتعمية الامور التي مارسها عليه الفضل بن سهل وستره الاخبار عنه، ونصحوه بالمسير الى بغداد ليتدارك الخلل الذي يكاد ان يذهب بخلافته.[2] وعلم الفضل بما قاله هؤلاء النصحاء للمأمون فقبض عليهم فامر بضرب بعضهم وامر بسجن البعض الاخر وحاول على الرضا ان يحث الفضل على إطلاق سراحهم فلم يستجب له.[3]

تنبه المأمون لسياسة الفضل بن سهل كما تنبه من قبل والده الرشيد لسياسة البرامكة، وأدرك أن ثورة أهالي بغداد ونقمة أهل بيته عليه ومبايعتهم لعمه ابراهيم بن المهدي ما هي إلا بسبب قبوله رأى الفضل بالبقاء في مرو، والابتعاد عن مقر حكم العباسيين ببغداد، وتعيين على الرضا والياً لعهده. اتخذ المأمون إثر ذلك خطوة جريئة إذ قرر الرحيل والانتقال إلى بغداد وأخذ على الرضا معه.[4] عند وصول المأمون الى مدينة سرخس قتل جماعة ممن كانوا في جنده وزيره الفضل بن سهل وقد قُبض عليهم بعد ذلك فقالوا ان المأمون هو من دسهم على قتل الفضل، بينما روى بعض المؤرخين ان هؤلاء القتلة اعترفوا ان ابن اخت الفضل واسمه على بن ابى سعيد دسهم لقتل الفضل[5] فأمر بهم المأمون فضربت اعناقهم.[6] وقتل المأمون ايضا على بن ابى سعيد ووجه برؤوسهم الى الحسن بن سهل.[7] وثار الجند وشغبوا على المأمون لما رأوا ما حل بالفضل وتجمعوا بباب المأمون وهموا بإحراقه فطلب المأمون من على الرضا ان يقوم بتهدئتهم وكان الرضا هو الوسيلة الوحيدة في ذلك الظرف التي اثبتت فعاليتها في تهدئة خواطر الجند الثائرة لمحبة اهل خراسان له وصدقهم في الاخلاص لطاعته.[8]

ونستطيع من خلال هذا السرد ان نرى ان الفضل كان يمارس وصاية على المأمون اتاحتها له الصلاحيات الواسعة للوزير من تعمية الاخبار وتلفيقها والانفراد بتدبير امور الحكم. ولكن بقاء المأمون في مرو واتخاذها عاصمة له ووقوعه تحت تأثير الفضل بن سهل اثار غضب الهاشمين في العراق من عباسيين وعلويين، فعمت الفتن والاضطرابات في أغلب مناطق الدولة العباسية. كما تسببت الاشاعات التي تداولها الناس في العراق عن ان الفضل بن سهل قد غلب على المأمون وانه انزله قصراً وحبسه فيه عن كافة قواده ووجوه الناس في احداث مزيد من

(1) نفسه، ج8، ص 564
(2) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 219
(3) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 565
(4) نفس المصدر، ج8، ص 564
(5) نفسه، ج8، 565
(6) المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص24
(7) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج3، ص179
(8) سميرة مختار الليثي، مرجع سابق، ص 358

الاضطرابات. وأدى غياب المأمون عن بغداد عاصمة آبائه واجداده، وعدم وجود سلطة قوية بها إلى قيام ثورات علوية بجوار الكوفة وفي مكة واليمن.[1] ويبدو ان الفضل بن سهل اشتط في الوصاية على المأمون فنجد ان بعض المؤرخين ذكروا انه «غلب على المأمون حتى انه ضايقه في جارية اراد شراءها وان المأمون تخلص منه لمّا ثقل عليه.[2]

خلاصة الامر ان المأمون تمكن من التخلص من وزيره الفضل بن سهل بطريقة تشبه الطريقة التي تخلص بها ابوه هرون الرشيد من وزيره جعفر بن يحي. وان كان المأمون بحكم الظرف الذي كان يحيط به قد اضطر الى عدم المجاهرة بقتل الفضل بن سهل فهو كان ما يزال في خراسان أي في اشد المناطق تعصبا للعنصرية الفارسية. ولم يكن يأمن ان يثور عليه الجند الخراسانيون إذا هو جاهر بقتل الفضل بن سهل. وزيادة على ذلك لجأ المأمون الى سياسة المداهنة مع الحسن بن سهل باعتبار انه يمكن ان يكون المطالب الاول بدم اخيه فبعث اليه برؤوس قتلة الفضل. واعلمه ما دخل عليه من المصيبة بقتل الفضل وانه قد صيّره مكانه.[3] اما الامام على بن موسى فقد توفى فجأة في طوس بينما كان المأمون في طريقه الى مرو وقد اختلف المؤرخون في اسباب وفاته ايضا فالطبري يذكر ان وفاته كانت طبيعية فقال ان المأمون شخص من سرخس الى طوس وهناك اقام عند قبر ابيه اياما ثم ان على بن موسى اكل عنبا وأكثر منه فمات فجأة.[4] واما المسعودي فيقول ان على الرضا اكل عنبا مسموما وأكثر منه فمات فجأة.[5] بينما يذكر ابن طباطبا ان المأمون دس للرضا من سم له العنب وكان يحبه فاكل منه فاستكثر فمات من ساعته.[6] وذلك في سنة 203هـ وقد اشار بعض المؤرخين الى ان بنى هاشم هم من سموا الامام الرضا ليمنعوا تحويل الخلافة عنهم الى البيت العلوي.[7] وعلى كل حال ومهما كانت الجهة المسئولة عن اغتيال الرضا فان وفاته كانت نهاية للاضطرابات التي كانت قائمة في بغداد فهدأ العباسيون وأسرع ابراهيم بن المهدى الى الهرب والاختباء حينما نزل المأمون بغداد.[8] وكتب المأمون الى أهالي بغداد انهم ما شغبوا عليه الا ببيعة على الرضا وقد مات الرضا. وسألهم الدخول في طاعته[9] فكان لهذا أثر كبير في تهدئة الاضطرابات القائمة. وظل المأمون على لبس الخضرة بضعة ايام ثم عاد الى لبس السواد

(1) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 228-229
(2) المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص6، ابن خلكان، مصدر سابق، ج4، ص44
(3) المصدر السابق، ج8، ص565
(4) نفسه، ج8، ص 568
(5) المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص 24
(6) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 218
(7) سميرة مختار الليثي، مرجع سابق، ص 360
(8) المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص25
(9) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 568

بعد ان حدثه العباسيون في ذلك.[1] وتزوج المأمون في نفس السنة ببوران ابنة الحسن بن سهل[2]، يقول ابن خلكان انه تزوجها لمكانة ابيها منه فاحتفل ابوها بهذا الزواج وعمل من الولائم والافراح ما لم يعهد مثله.[3] وهكذا نرى ان المأمون تخلص من وضع صعب فرضته عليه الظروف التي وجد نفسه فيها فمن بعد مناوئة اخيه له وانتصاره عليه وقتله. استوزر الفضل بن سهل ففرض هذا عليه العزلة التامة في مرو وانفرد بتدبير الامور في بغداد واقترح عليه البيعة لعلى الرضا فلم يجد المأمون بدا من الاستجابة اليه خصوصا وهو مقيم في خراسان ومن حوله الفرس شيعة العلويين. ولكن حتى هذه الخطوة ما لبثت ان فتقت عليه مشاكل أكبر اذ ثار العباسيون بالعراق وعمت الفوضى وبايع الناس عمه ابراهيم بن المهدى. اضطر المأمون للمسير الى بغداد وقد أدرك الخطر المتعاظم الذي يسببه الفضل بن سهل بشخصيته القوية وتطلعاته في اقامة دولة علوية على حساب الدولة العباسية فقرر التخلص منه. وفى الطريق الى بغداد تمكن المأمون من التخلص من الفضل بن سهل وتمكن من تهدئة ثائرة الجند الخراسانيين. ثم اعتمد سياسة مداهنة حكيمة مع الحسن بن سهل فولاه الوزارة مكان اخيه واصهر اليه فهدأ خاطره واستكان له. واما على الرضا فما لبث ان توفى وقد اتهم الناس المأمون بانه وراء وفاة الرضا المفاجئة واتهم اخرون العباسيين انهم وراء وفاته. ومهما يكن من امر فان المأمون استطاع بعد هذه الاحداث ان يعود الى بغداد فأحكم سيطرته على الامور وحاول اعادة الموازنة لدولة ابائه واجداده بادئا عهدا جديدا استمر فيه على سدة الخلافة أكثر من عقدين من الزمان.

هكذا نري ان الدولة العباسية قامت على اكتاف الفرس واستعانت بخبراتهم الادارية والسياسية فاتخذت منهم الكتّاب والوزراء. كانت الوزارة هي اجل المناصب بعد الخلافة وكان الوزير يتمتع بصلاحيات ادارية ومالية وسياسية واسعة. كان معظم وزراء العصر العباسي الاول من العنصر الفارسي وقد حفل العصر العباسي الاول بثلة من الوزراء الذين تمتعوا بخبرات متقدمة في الكتابة والسياسة وكانت لهم شخصيات مؤثرة وساهموا في صنع الاحداث السياسية في العصر العباسي الاول. كانت أبرز المشاكل التي تواجه الخلفاء مع هؤلاء الوزراء هي مشكلة ميول الفرس الى البيت العلوي ومحاولاتهم للانتصار لهذه الميول اضافة الى اساءة استخدام السلطة في بعض المسائل المالية والادارية. على الرغم من ان العباسيين اعترفوا بمساعدة الفرس لهم في تأسيس دولتهم فاسندوا إليهم هذا المنصب الحساس والذي حصلوا بموجبه على مزايا وصلاحيات واسعة، الا ان الخلفاء العباسيين لم ينسوا اصولهم العربية وحبهم للملك فلم يسمحوا لمواليهم وانصارهم

(1) ابن طيفور (ابو الفضل احمد بن طاهر الكاتب)، كتاب بغداد، تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري، القاهرة: (د.ن) 1949م، ص 10

(2) ابن خلكان، مصدر سابق، ج2، ص120

(3) نفس المصدر، ج1، ص 287

من الفرس ان يزاحموهم في سلطانهم او يعملوا على تحويل الامر الى اعدائهم العلويين. ومن ثم رأينا الخلفاء العباسيين يتولون نصاب الامور في اللحظة المناسبة ثم يعمدون الى التنكيل بوزرائهم الذين اساءوا استخدام السلطات الموكلة إليهم او مالوا الى العلويين فنكل السفاح بأبي سلمة والمهدى بيعقوب بن داؤود والرشيد بالبرامكة والمأمون بالفضل بن سهل.

الفصل الثالث

التثاقف والترجمة والتأليف

الطابع الفارسي في الثقافة والادارة:

كان معظم الكُتّاب والوزراء في العصر العباسي الاول من اصول فارسية وقد أصبحوا في ذلك العصر طبقة مقدرة فاعلة قريبة من مواقع القرار على المستويين السياسي والإداري. فبينما امتلك الوزراء القرار السياسي تمدد الكُتّاب في المجال الإداري والثقافي. ولذلك نستطيع ان نقول ان هؤلاء الكُتّاب والوزراء اثروا بشكل متكامل في طبع الحياة السياسة والادارية وتفاصيل الحياة اليومية بالطابع الفارسي الذي ميّز كثير من مناحي الحياة في العصر العباسي الاول عموما وفى دار الخلافة على وجه الخصوص وكان بعضهم شديد التعصب للحضارة الفارسية ومظاهرها.

انتقل العباسيون الى بغداد ليكونوا قريبين من حلفائهم الفرس في خراسان وبعيدين عن اعدائهم من اهل الشام أنصار بنى امية فأسهمت هذه الخطوة في انخراط المزيد من الفرس في خدمة الدولة العباسية. وكان تحول العاصمة من دمشق الى بغداد على سواعد الجيوش الخراسانية ايذانا بغلبة الطوابع الفارسية على نظم الحكم السياسية والادارية للدولة العباسية فقد قامت بغداد في المجال الفارسي وتنفست فيه[1] فساهم نقل العاصمة من الشام الى بغداد في ان تسود الثقافة والعادات الفارسية والسريانية في الدولة العباسية.[2] لعب كُتّاب ووزراء العصر العباسي الاول الذين كان جلّهم من الفرس دوراً متكاملاً في صبغ الحياة والادارة في العصر العباسي الاول بالطابع الفارسي، فقد اثروا في المجتمع وشكلوا الحضارة بما ورثوه عن حضارتهم. وصبغوا الدولة بصبغتهم وادخلوا فيها نظمهم في الحكم والإدارة، وتقاليدهم في البلاط وجميع مظاهر حضارتهم من مأكل ومشرب وملبس. فانتشرت الثقافة الفارسية في ذلك العصر انتشارا كبيراً على أيدي الكُتّاب والوزراء من الفرس.[3] وتصاعد هذا الانتشار للثقافة الفارسية باطراد منذ بداية العصر العباسي الاول فنقلت نظم الحكم والادارة الفارسية بحذافيرها الى الدولة العباسية كما نقلت ايضا رسوم[4] وتقاليد البلاط الفارسي الى قصور الخلفاء العباسيين.[5] وابتداء من عهد الرشيد زاد تأثير الحضارة الفارسية في الدولة حتى شمل كل مظاهر الحياة وخاصة في مركز الدولة في بغداد فاخذ الميل للأزياء والاطعمة ونظم الحكم والاعياد الفارسية ينمو ويطرد. واتخذ رجال البلاط العباسي العادات الفارسية القديمة.[6] وكان من أثر ذلك صبغ المجتمع العباسي بصبغة فارسية في نظمه

(1) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص19

(2) عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الاول، ص41

(3) محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الادبية في العصر العباسي، الاسكندرية: دار الوفاء 2004م، ص 26

(4) رسوم: جمع رسم المقصود بها معنيان الاول: مجموع العادات المتبعة في مقابلة الناس او معاملتهم في شئون الالفة، والثاني مجموع الاحتفاء بالناس في امور السياسة والقيام بها وفى مقابلة الملوك وعظام الدول. اشتقت كلمة مراسم من كلمة رسم للدلالة على معنى قريب من كلمة بروتوكول الفرنسية ومنها اشتقت كلمة رسمي وكلمة مرسوم، انظر الصابئ، رسوم دار الخلافة، مرجع سابق، ص 46، وهي تقابل كلمة (آئين) الفارسية والتي كان يراد بها ايضا التقاليد والدساتير وقد فسر اسم كتاب (آئين نامة) كتاب (التقاليد والدساتير) وقد توسع الناس في استخدامها حتى أطلقوها على معنى (العادة)، انظر المسعودي، التنبيه والاشراف، ص 104

(5) محمد عبد المنعم خفاجي، مرجع سابق، ص 26

(6) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج2، ص354

وعاداته وتقاليده وجده ولهوه وطعامه وشرابه، حتى الازياء اصبحت تحاكى الازياء الفارسية تشهد بذلك النقود المأثورة التي تحتفظ بصور لبعض الخلفاء وهم في ازياءهم الفارسية.[1]

تقدم الفرس الصفوف في العصر العباسي الاول واحتلوا الصدارة مدلين على الخلفاء بدورهم في قيام دولتهم. وهم في موقفهم هذا تسندهم حضارة عريقة وتدعمهم نجاحات ثقافية حققوها تدريجيا فاذا منهم العلماء المبرزون والشعراء المشهرون والكُتّاب المبدعون والمؤلفون والمصنفون ممن اتقنوا العربية وعلومها وآدابها، واتخذوا لهم مكانا في صدارة المشهد الثقافي في العصر العباسي الأول، وكانوا عماد النظام السياسي والإداري للدولة. تأثرت الدولة العباسية بهؤلاء الفرس في حياتهم العقلية الخصبة وعاداتهم وتقاليدهم العامة وحضارتهم. وكان طابعهم العام حب السيادة والبذخ والقدرة على تنظيم ادارة الدولة وتشجيع العلوم والظهور بمظهر التشيع.[2] وعرف العباسيون فضل الفرس في قيام دولتهم وقدروا اهميتهم في تثبيت دعائم حكمهم فافسحوا لهم في مجالسهم، واثروهم بكبرى المناصب. وكان طبيعيا ان تسود معهم مظاهر حضارتهم وتقاليدهم السياسية منها والاجتماعية، وقد ساعدهم في ذلك جو واسع من الحرية عُرف في ذلك العصر وهي حرية اجتماعية نتج عنها تطور هائل في العادات والاخلاق والقيم، وحرية دينية وفكرية اتاحت الطريق لظهور وتعدد الفرق والمذاهب والاهواء.

انحاز الكثير من كُتّاب ووزراء العصر العباسي الاول لنزعة الشعوبية والتي تعنى في مفهومها العام تعصب العناصر غير العربية ضد العرب. هدفت هذه النزعة في هذا السياق الى استعادة المجد الفارسي القديم بالعودة الى التقاليد الفارسية، بالإضافة الى التماس نمط الحياة الفارسي المتعلق بتفاصيل الحياة من المأكل والمشرب والملبس والاحتفال، وفى رسوم الحكم وتقاليد البلاط. ساهم المناخ الثقافي والسياسي في ظهور هذه النزعة، وفى انحياز طبقة الكُتّاب اليها. لقد كان للتحول في مقاليد الحكم وما أصبح للفرس من مكانة رفيعة في المجتمع العباسي الجديد سببا في بروز هذه النزعة. وهي نزعة تقوم على مفاخرة الفرس للعرب مفاخرة تستمد من حضارتهم وما كان العرب فيه من بداوة وحياة خشنة غليظة.[3] سعى الفرس سعيا حثيثا في سبيل ذلك الى اظهار تفوق الحضارة الفارسية وجعلها مصدراً لا غنى عنه للخلافة الإسلامية، فسخروا من الات العرب واساليبهم في الحرب والقتال، وسخّفوا عيشهم ومطاعمهم، ووصفوهم بالتأخر في العلم والصناعة والادارة والسياسة الشيء الذي انعكس بقوة في الادب والشعر.

كان من اسباب رواج هذا النوع من التفكير ان الفرس في عصر الفتوحات الاسلامية كانوا أكثر تحضراً من العرب وأكثر مدنية فنما عندهم شعور بالاستعلاء يعمّق نزعة التعصب لديهم بعد ان قام المسلمون ممثلو العرب بالسيطرة على بلادهم. كان اول ظهور هذه النزعة بين الموالي في العهد الأموي حيث لاقى الموالي في العهد الأموي الكثير من الاهانة وعانوا من فقدان العدالة الاجتماعية. وكان الامويون يتوجسون من كثرتهم ويخشون خطرهم، فحرصوا على

(1) محمد نبيه حجاب، مرجع سابق، ص 76

(2) محمد عبد المنعم خفاجي، مرجع سابق، ص 22

(3) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 75

اهانتهم ووضعهم في مرتبة اقل من مرتبة العرب. وكان من أثر كراهية الموالي للحكم الأموي ان انضموا للثائرين ضدهم من بنى العباس حتى إذا ظفر هؤلاء بالحكم اتخذوهم سدنة ووزراء ومستشارين. واصبحت لهم الحظوة والمكانة فظهر ما كان مضمراً في نفوس الموالي وخاصة الفرس من عصبية ضد العرب واستعلاء عليهم وتحقيرا لهم. وكانت هذه النزعة اظهر ما تكون في العصر العباسي الأول.[1] ويبدو لنا من المصادر المتصلة بتلك الفترة ان نزعة الشعوبية انتشرت في طبقة الكُتّاب والذين اعتبروا أنفسهم حملة التراث الساساني الفارسي والثقافة الفارسية. فمن المعروف ان العباسيين كانوا قد اقاموا دولتهم على اساس التعاون والتكامل بين العنصرين العربي والفارسي وخلقوا بيروقراطية من الموظفين جعلوا قاعدتها من الكُتّاب والذين ظهروا في بداية العصر العباسي الاول كطبقة اجتماعية كان الوزراء نخبتها.[2] وقد جهد بعض الوزراء كالبرامكة ليوسعوا طبقة الكُتّاب ويؤكدوا على أهميتها.[3] وهذا بدوره احلّ مفاهيم جديدة في الادارة وطُرقها ووسع جماعة الكُتّاب واعطاهم اهمية في الحياة العامة لم تكن لهم من قبل. ولا يخفى ان جلّ هؤلاء كانوا من الموالي وانهم كفئة كانوا ينظرون لتراثهم الثقافي نظرة تمجيد.[4] في اثناء هذا الصراع بذل الوزراء جهدهم في تمكين طبقة الكُتّاب فحصلوا على مساندة كاملة من الكُتّاب. وكان الكُتّاب في العصر العباسي الاول يتألفون من عناصر عديدة من الموالي ولكن اكثرهم كان من الفرس. وكان الجهاز الإداري يعتمد عليهم بالكامل. كان معظم هؤلاء الكُتّاب ممن جمعوا بين اجادة لغتهم وبلاغتها، ثم قرءوا البيان، واللغة العربية وآدابها، واخذوا يحدثون مذاهبا جديدة في اللغة العربية والادب. فكان ان وضع كبار الكُتّاب من الفرس اساس صناعة الانشاء (الكتابة الفنية) في الدواوين منهم يحي بن خالد وابنيه الفضل وجعفر والحسن والفضل ابني سهل واحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وغيرهم. وقد ساهم بعض هؤلاء في نقل الكثير من اثار الفرس وحكمتهم وامثالهم وقصصهم واسمارهم الى اللغة العربية.[5] ويبدو لنا ان نزعة الشعوبية كانت منتشرة بين الكُتّاب ففي معرض حديثه عن الشعوبية يوضح شوقي ضيف ان هذه النزعة سادت في طوائف مختلفة كان اهمها رجال السياسة الذين يريدون ان يستأثروا دون العرب بالحكم والسلطان.[6] ومما لا شك فيه ان طبقة والكُتّاب والوزراء كانوا ممن تأثروا بهذه النزعة فهم المعنيون بالأعمال الادارية التي اوصلتهم الى ممارسة السياسة الفعلية بتسنم مقعد الوزارة. ثم يعلق شوقي ضيف:» ولا شك ان رجال الفرس البارزين من امثال البرامكة وال سهل وال طاهر بن الحسين كانوا يزكون نار هذه الشعوبية فيمن حولهم من الفرس.»[7]

(1) عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الاول، ص 10-12

(2) محمد كرد على، رسائل البلغاء، القاهرة: دار الكتب العربية الكبرى 1913م، ص 178

(3) عبد العزيز الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، بيروت: دار الطليعة 1981م، ص 31

(4) نفس المرجع، نفس المكان

(5) محمد عبد المنعم خفاجي، مرجع سابق، ص36

(6) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص75

(7) نفس المرجع، ص76

كان هـؤلاء الكُتّـاب مـن الفـرس ينظـرون الى الـتراث الساسـاني في الحكـم والادارة والى الحضـارة الفارسـية عمومـا نظـرة اجـلال وتقديـس كـما أسـلفنا. وكانـوا يرجعـون اليهـما في الكثـير مـن قيمهـم ومفاهيمهـم. وفي المقابـل كانـوا يتباعـدون عـن الثقافـة الاسـلامية ويعتـبرون العـرب امـة بـلا حضـارة. ويبـدو ان هـذا كان هـو السـبب الـذي جعلهـم عـلى تضلعهـم في العربيـة وآدابهـا لا يعنـون بأصـول الثقافـة العربيـة الإسـلامية. يشـير الجاحـظ الى هـذه الحقيقـة، ويوضـح ان فئـة الكُتّـاب مـن الفـرس كانـوا ينفـرون مـن الثقافـة الدينيـة الاسـلامية فهـم يتعاملـون معهـا باعتبارهـا مـادة يصلـون عبرهـا الى العمـل في الإدارة، ولكنهـم كانـوا يعولـون عـلى الـتراث الساسـاني فيـما يتعلـق بالحكـم والإدارة. يقـول الجاحـظ: «ثـم الناشـئ منهـم (أي مـن الكُتّـاب) إذا وطـئ مقعـد الرياسـة وتـورك مشـورة الخلافـة وروى لبزرجمهـر امثالـه ولاردشـير عهـده ولعبـد الحميـد رسـائله ولابـن المقفـع ادبـه (....) ظـن انـه الفـاروق الاكـبر في التدبـير، وابـن عبـاس في العلـم بالتأويـل، ومعـاذ بـن جبـل في العلـم بالحـلال والحـرام (....) فيكـون اول بـدوه الطعـن عـلى القـران في تأليفـه، والقضـاء عليـه بتناقضـه، فـان اسـترجع أحـد عنـده اصحـاب الرسـول (ﷺ) فتـل عنـد ذكرهـم شـدقه ولـوى عنـد محاسـنهم كشـحه (....) ثـم يقطـع ذلـك مـن مجلسـه سياسـة اردشـير بابـكان وتدبـير انـو شروان واسـتقامة البـلاد لآل ساسـان.»[1] بـل يذهـب الجاحـظ الى ابعـد مـن ذلـك في رسـالته في ذم الكُتّـاب حيـث يتهمهـم في تكويـن ثقافتهـم ويرميهـم بالفسـق قائـلا ان دليلـه عـلى ذلـك انـه :»لم يـر قـط كاتـب جعـل القـران سـميره ولا علمـه تفسـيره ولا التفقـه في الديـن شـعاره، ولا الحفـظ للسـنن والاثـار عـماده، فـان وجـد الواحـد منهـم ذاكـرا شـيئا مـن ذلـك لم يكـن لـدوران فكيـه بـه طلاقـة، ولا لمجيئـه منـه حـلاوة، وان اثـر الفـرد منهـم السـعي في طلـب الحديـث والتشـاغل بذكـر كتـب المتفقهـين، اسـتثقله اقرانـه واسـتوخمه ألّافُـه وقضـوا عليـه بالإدبـار في معيشـته، والحرفـة في صناعتـه حـين حـاول مـا ليـس مـن طبعـه ورام مـا ليـس مـن شـكله.»[2] فالجاحـظ هنـا يشـير الى انحيـاز هـؤلاء الكُتّـاب لثقافتهـم الفارسـية وتقاعسـهم عـن الالمـام بعلـوم الديـن وتفسـير القـران. ومـما يشـير الى تفـشي الشـعوبية بـين الكُتّـاب خاصـة مـا ورد عـلى لسـان ابـن قتيبـة في كتـاب العـرب او الـرد عـلى الشـعوبية اذ يقـول «وانـما لهجـت السـفلة منهـم (يعنـى مـن الشـعوبيين) بـذم العـرب لأن منهـم قومـا تحلّـوا بحِليـة الادب فجالسـوا الاشراف، وقومـا اتسـموا بميسـم الكتابـة فقربـوا مـن السـلطان فأخذتهـم الانفـة لآدابهـم والغضاضـة لأقدارهـم مـن لـؤم مغارسـهم وخبـث عناصرهـم، فمنهـم مـن الحـق نفسـه بـأشراف العجـم ، واعتـزى الى ملوكهـم ودخـل في بـاب فسـيح لا حجـاب عليـه، ونسـب واسـع لا مدافـع عنـه، ومنهـم مـن اقـام عـلى خساسـة ينافـح عـن لؤمـه ويدعـى الـشرف للعجـم كلهـا ليكـون مـن ذوى الـشرف ويظهـر بغـض العـرب وينتقصهـا.»[3] فابـن قتيبـة هنـا يشـير الى شـعوبية الكُتّـاب واهـل الادب وهـى اشـارة واضحـة لتفـشى هـذه النزعـة بـين اهـل الادب أي بـين الكُتّـاب.

(1) الجاحـظ (ابـو عثـمان عمـر بـن بحـر)، رسـالة في ذم الكتـاب في: رسـائل الجاحـظ، تقديـم وشرح عـلى ابـو ملحـم، بـيروت: دار ومكتبـة الهـلال، 2002، ص 680

(2) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ص 609

(3) الدينـوري (ابى محمـد عبـد اللـه بـن مسـلم بـن قتيبـة)، كتـاب العـرب او الـرد عـلى الشـعوبية في: رسـائل البلغـاء، جمـع محمـد كـرد عـلى، القاهـرة: دار الكتـب العربيـة الكـبرى 1913م، ص 270

تمدنا المصادر ايضا بمعلومات عن أشهر من انخرط في هذه النزعة من الكُتّاب فعلى سبيل المثال كان سهل بن هرون بن راهبوني وكنيته ابو عمرو من هؤلاء الكُتّاب الذين انحازوا للشعوبية. وقد جمعت صداقة عميقة بين سهل بن هرون والفضل بن سهل. وكان الفضل يعمل كاتباً عند المأمون فقدم سهل بن هرون الى المأمون الذي أعجب بعلمه وثقافته وذكائه وظل ملازما له في جلساته وظل قيماً على دار الحكمة حتى وفاته في 215هـ.[1] وكان سهل بن هرون شعوبي المذهب شديد العصبية على العرب وله في ذلك كتب كثيرة، وقد ألف للحسن بن سهل رسالة يمدح فيها البخل ويذم فيها الكرم لأنه من صفات العرب التي يفاخرون بها.[2] ايضا ممن اشتهر بالشعوبية من الكُتّاب سعيد بن حميد بن بختكان الكاتب الذي ألف كتاب (فضل العجم على العرب وافتخارها)[3]، وسعيد بن حميد الكاتب الذي كان يدعى انه من ابناء ملوك الفرس وهو صاحب كتاب (انتصاف العجم من العرب)[4] واسحق بن سلمة الكاتب وله ايضا كتاب يسمى (فضل العجم على العرب).[5] وعلى كل حال فقد ازكت هذه النزعة انحياز الكُتّاب والوزراء الى تراثهم الفارسي مما أسهم في ان تسود مظاهر الحضارة الفارسية في الدولة العباسية في عصرها الاول.

كانت الحضارة الفارسية ذات تراث ثقافي عريق سواء في الادارة أو الطب والرياضيات إلى جانب المؤثرات الادارية التي استخدمها العرب عند فتح بلاد فارس. وكما هو معلوم فإن بعض الترجمات من الفارسية الى العربية كانت تتعلق بتسيير الحياة الإدارية، فنُقلت هذه النظم الفارسية في الحكم والادارة بحذافيرها الى الدولة العباسية. كانت من اهم المفاهيم التي صبغت طبيعة الحكم العباسي هو مفهوم (حق الملوك الإلهي) وهو مفهوم فارسي كان يحكم علاقة الاكاسرة الفرس بشعوبهم. فالملك الفارسي يحكم على ضوء هذا المفهوم حكما مطلقا ينتقل بالوراثة ويطبعه الدين. وقد اتخذ العباسيون من قرابتهم للرسول (ﷺ) ذريعة في الانفراد بالحكم على اساس انهم ورثة الرسول وأحق الناس بالحكم وأحق الناس بخلافة المؤمنين. فكأنما أصبح الخليفة العباسي ملكا كسرويا وقد القوا في روع الناس على شاكلة الساسانيين ان لهم حق إلهي في الحكم، وانهم ظل الله في ارضه واحاطوا أنفسهم بهالة من الدين بدعم من الفقهاء ورجال الدين والقضاة.[6]

تجلى تأثير الكُتّاب في نقل وترويج الثقافة الفارسية في نقل الآداب السلطانية الفارسية الى الثقافة العربية.[7] فترُجمت الكتب التي تتحدث عن تلك التقاليد في الحكم والادارة ومجالسة

(1) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص527

(2) ابن النديم، مصدر سابق، ص 174

(3) يشير عنوان الكتاب الى قول الرسول (ص) في يوم موقعة ذي قار: (اليوم اول يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبي نصروا).

(4) نفس المصدر، ص 179

(5) نفسه، ص 175

(6) راجع مكاتبات المنصور مع محمد النفس الزكية، الطبري، مصدر سابق، ج7، ص 566-571

(7) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 25

لسلطان. كما ساهم الكُتّاب في نقل الحكم الفارسية وتاريخ ملوك ال ساسان[1] واقوالهم وافعالهم واسلوبهم في السياسة والادارة الى ادبيات تلك الفترة. ومن هنا دخلت المظاهر السلطانية الى الحياة الإسلامية. بل ان المؤلفات اللاحقة في تاريخ الوزراء مثل كتاب (الوزراء والكُتّاب) للجهشيارى يبدو فيه واضحا استقرار الامر على اعتبار تاريخ الوزراء في الاسلام امتدادا لتاريخ وزراء الفرس. ويعلق شوقي ضيف على هذا الاثر الفارسي في الحكم والادارة في الدولة العباسية بقوله: «لعلنا لا نغلو إذا قلنا ان النظم السياسية والادارية في الدولة العباسية طبعت بطوابع فارسية قوية تحولت في اثناءها الخلافة الى ملك كسروي.»[2] لقد اجتهد الكُتّاب الفرس في بعث الثقافة الفارسية فأكثروا من الترجمة عن الفارسية في مواضيع تتعلق بالذات الفارسية كالأدب والتاريخ والتقاليد والامثال. بل انهم لم يكتفوا بترجمة اثار الفرس بل عمدوا الى تأليف الشيء الكثير ونسبوه الى الفرس القدماء ليضفوا عليهم من الامجاد ما يساعد على احياء الوعي الفارسي وعلى التقليل من شأن الحضارة العربية والإسلامية.[3]

دلت الكثير من الشواهد التاريخية على انحياز كُتّاب ووزراء العصر الاول للتراث والثقافة الفارسية. ويشهد تاريخ الوزراء في العصر الاول على سلسلة من الاحتكاكات والتصادم وقعت مع الخلفاء. فبينما مثل الخلفاء الثقافة العربية الشاملة، والسلطان العربي الإسلامي، ورمزا للكيان القائم بنظر غير العرب، نجد ان وزراء العصر الاول حاولوا بعث التقاليد الفارسية في البلاط العباسي، كما حاولوا الاستعانة بالعناصر الفارسية في كل مناحي الحكم والإدارة. وقد تعددت مظاهر هذا الصراع الخفي على السلطة بين الخلفاء ووزرائهم في العصر العباسي الاول كما بيّنا في الفصل السابق. ومن الامثلة على ذلك ما عُرف عن البرامكة مثلا فقد عمدوا الى تنشيط حركة الترجمة من الفهلوية الى العربية في الادب والتاريخ بالبذل والعطاء وتبنوا عناصر متطرفة في فارسيتها كسهل بن هرون الذي كان من اعلام الشعوبية ومن المتطرفين في كره العرب.[4] وقد اتهم يعقوب بن داؤود وزير المهدى بمحاولته نقل السلطة الى الفرس عن طريق انحيازه للعلويين الشيء الذي عجل بنهايته ونكبته في حوالي سنة 168هـ وكذلك الحال مع بنى سهل وزراء المأمون الذين علقوا امالهم بالمأمون وانحازوا له لان امه كانت فارسية. فلما تولى المأمون الخلافة اظهر السهليون ميولهم الشعوبية فكان الفضل بن سهل يقلد تقاليد الدخول على الملوك الساسانيين.[5] وفى تحليله لشخصية الفضل بن سهل وما حاوله من عزل المأمون في مرو يعلّق المؤرخ عبد العزيز الدوري بقوله:» ان الفضل بن سهل كان قد قدّر ان وجهته لا تلتقى مع الوجهة العباسية، وانها وجهة فارسية قوية، ولذلك احاط المأمون بنطاق حديدي فحجب عنه الاخبار، وفسر الاضطرابات الناجمة عن خطته كثورة

(1) ملوك ال ساسان: سلالة فارسية اسست الامبراطورية الفارسية (266-651م) التي سادت في إيران والعراق واجزاء من ارمينيا وافغانستان لمدة اربعة قرون. وقد بادت إثر فتح المسلمون لبلاد فارس فيما بين 11-23هـ

(2) نفس المرجع، ص 26

(3) عبد العزيز الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص 52

(4) نفس المرجع، ص 37

(5) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 259

بغـداد تفسـيرات تخالـف حقيقتهـا، وحـاول ان يحكـم الدولـة مـن مـرو بمعاونـة اخيـه الحسـن بـن سـهل وان يجعـل المأمـون رمـزاً لا اكـثر.»[1] ومـما لا شـك فيـه ان انحيـاز الكتّـاب والـوزراء مـن الفـرس الى ثقافتهـم وحضارتهـم الفارسـية سـاهم في ان تسـود مظاهـر هـذه الحضـارة في الحكـم والإدارة. كـما كان تعاظـم تأثـير الحضـارة الفارسـية في اوجـه الحيـاة العامـة واليوميـة نتيجـة لاحقـة لانحيازهـم الى نزعـة (الشـعوبية). ومـن هنـا نـرى ان الكُتّـاب والـوزراء بذلـوا جهـدا كبـيرا لطبـع الادارة العباسـية وثقافـة اصحابهـا بطابـع أعجمـي كل ذلـك في ظـل دولـة عربيـة إسـلامية.[2] وقدهدفـت جهودهـم في هـذا السـياق الى تأسـيس معرفـة وتبنـى اسـلوب فـارسي في الحيـاة، والملبـس والمـشرب، وبنـاء القصـور، وتنظيـم ادارة الدولـة، وترتيـب الخـدم والحشـم، وآداب السـلوك بـين أيـدي الملـوك والرؤسـاء او مـا يعـرف بـآداب منادمـة ومجالسـة الملـوك، يقـوم عليهـا الحكـم وتتغلغـل في تفاصيـل الحيـاة اليوميـة، وتكـون العربيـة لغتهـا والاسـلام دينهـا بينـما يلعـب الكُتّـاب والـوزراء دور الفئـة المشرعـة لهـا. وكان معظـم وزراء العـصر العبـاسي الاول مـن الفـرس الذيـن احكمـوا قبضتهـم عـلى هـذا المنصـب وفصلـوا قوانينـه ورسـومه للعباسـيين. وتوسـع العباسـيون مـن جهـة اخـرى في الدواويـن. وقلـدت هـذه الدواويـن في العـصر الاول دواويـن الفـرس في تنظيماتهـا واغراضهـا، فأنشـئت دواويـن جديـدة مثـل ديـوان التوقيـع وهـو خـاص بتوقيـع وتنفيـذ قصـص المظـالم التـي يرفعهـا النـاس للخليفـة مـن المركـز او الولايـات التابعـة للدولـة. وكان مـن عـادة ملـوك الفـرس ان يوقعـوا عـلى المظـالم بعبـارات موجـزة دقيقـة تقـرر احـكام الملـك في الامـر المعـروض عليـه وقـد جاراهـم العباسـيون في ذلـك فأنشـأوا هـذا الديـوان.[3]

امـا بغـداد العاصمـة فقـد كانـت في ذلـك الوقـت اهـم مدينـة في العـالم الاسـلامي. وكانـت تعـبر بحـق عـن مـدى التأثـير الفـارسي في الحضـارة والحيـاة. صُمـم بناءهـا بشـكل مُـدّور عـلى الطـراز الفـارسي القديـم. تحيـط بهـا اسـوار مزدوجـة تؤلـف حلقتـين متتابعتـين وكان هـذا اتجاهـاً جديـداً في فـن بنـاء المـدن الإسـلامية، وكان متأثـرا بطـرق بنـاء المـدن الفارسـية القديمـة مثـل همـذان.[4] ويظهـر الاثـر الفـارسي ايضـا في تخطيـط المدينـة، اذ فُصـل الخليفـة عـن الرعيـة، وجُعـل لـه مقـام سـامي يصعـب الوصـول اليـه. اظهـرت ضخامـة القـصر والايـوان مـن جهـة اخـرى فخامـة الملـك بينـما عـبرت فكـرة الاسـتدارة، وحـصر بيـوت السـكان في احيـاء منفصلـة يمكـن اغلاقهـا ليـلا وحراسـتها بصـورة دقيقـة عـن السـلطة المطلقـة المتأثـرة بالفـرس[5] الـشيء الـذي يتعـارض مـع بسـاطة وسـماحة الاسـلام الـذي لم يجعـل امـام المسـلمين بمعـزل عـن بقيـة رعيتـه. كانـت قصـور بغـداد مشـيدة مـن عـدة عمائـر مزخرفـة بالمرمـر وكان تأثـير الـذوق الفـارسي واضحـاً جليـاً في زخرفتهـا.[6] وقـد ابتنـى فيهـا المنصـور قـصره المعـروف بقـصر الذهـب عـلى طـراز قصـور الفـرس ذات الاواويـن الفخمـة.[7] تكاثـر ببغـداد التجـار والصنـاع وكان لـكل

(1) المرجع السابق، ص 39
(2) نفسه، ص 55
(3) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 22
(4) محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص71
(5) نفس المرجع، ص 72
(6) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، القاهرة: دار المعارف 1961م، ص 191
(7) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص44

طائفة منهم شارع خاص او سوق خاصة. وامها المغنون والمغنيات ونزلها الادباء والعلماء من كل صنف ولون.[1] فارق العرب في حاضرة الدولة العباسية جميع ما عهدوه في حياتهم القديمة، فلا نكاد نمضي في العصر الاول حتى نرى الحياة قد تغيرت تغيرا كبيراً، بل لقد تهدم اطارها القديم وحل محله إطار جديد من الزخرف والتصنيع. فقد اخذ الناس يعيشون معيشة حضارية مترفة لا تتصل بالبادية والحياة البدوية العربية القديمة، وانما تتصل بالأناقة والترف والزينة التي اضفتها الطوابع الفارسية على حياة الخلفاء وحياة العامة.

بانت في قصور الخلفاء مظاهر الترف في البناء فبنيت القصور الفخمة، حتى روى ان دار الخلافة وما يتصل بها كانت كأنها لكبرها مدينة قائمة بذاتها. وكانت قصور الخلافة وبساتينها تفترش مساحة كبيرة وتمتد الجدران المحيطة بها فراسخ كثيرة.[2] واقام الخلفاء والوزراء العباسيون قصورا فخمة عرفت بأسماء اصحابها كقصور البرامكة في الشماسية، وقصر الرشيد، وقصر الامين، وقصر دار القرار وهو قصر زبيدة زوجة هرون الرشيد، وقصر التاج بناه المعتضد بالله، وقصر الثريا بناه ابنه المكتفي. وقد اخذت رغبتهم في بناء القصور تتزايد كلما تقدموا في المدنية وأغرقوا في الترف والرخاء.[3] كانت هذه القصور تتألق بالجواهر البراقة. وكانت الستور المزركشة والحرائر المشجرة تعلق على النوافذ والابواب. اما الغرف فكانت مزدانة بالدواوين النفيسة، والمناضد الثمينة، والزهريات الخزفية، والمرصعات والمذهبات. بينما كانت حمامات الخلفاء تُزين بالصور، وكانت الابواب تُصنع من الخشب المحلى بالنقوش.[4] كانت هذه القصور تحتشد بالجواري والخدم والغلمان والحراس ومعظمهم من الموالي الفرس.[5] وهكذا احيط الخلفاء بالعادات والتقاليد الفارسية التي نظمت لهم شئون الحكم ورسوم البلاط وحتى عادات حياتهم اليومية. كما احيطوا بحاشية كبيرة من الموالي الفرس والذين ساهموا بدورهم في طبع مظاهر الحياة اليومية في قصور الخلفاء بالطابع الفارسي. كان كُتّاب العصر العباسي الاول هم الوسيط في نقل تقاليد البلاط الفارسي ورسومه وانظمته الى البلاط العباسي. وقد حولت هذه التقاليد الخلفاء العباسيين الى اكاسرة اقتبسوا كل ما نُقل إليهم عن اكاسرة الفرس كقوانين الحجابة ورسومها وآداب الخدمة والمجالسة وغير ذلك مما كان معروفا في البلاط الساساني.[6] فراجت هذه التقاليد وصار للخليفة القابا ومراسم وتقاليد متبعة في البلاط. وراجت تقاليد احتجاب الخلفاء عن العامة واتخاذ الحُجّاب[7] والستارة[8] وظهور

(1) نفسه، ص17

(2) ادم متز، مرجع سابق، ص214

(3) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي: مؤسسة هنداوي للثقافة والتعليم 2012م، ج5، ص112-113

(4) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص 191

(5) الصابي، رسوم دار الخلافة، ص 7-9

(6) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص21

(7) الحجاب والحجبة جمع حاجب وهو من يبلغ الاخبار من الرعية الى الامام ويأخذ لهم الاذن منه وسمى كذلك لأنه يحجب الخليفة عمن يدخل عليه دون اذن، انظر الصابي، رسوم دار الخلافة، ص 11

(8) الستارة: كان ملوك الفرس يتخذون ستارة تحجبهم عن جلساءهم وكانت هذه الستارة دليل هيبة الملوك وعظمتهم لأنهم على ما يبدو كانوا يترفعون عن مواجهة المجالسين امعانا في العظمة وحرصا على ان يغرسوا في نفوسهم احساسا

الخلفاء في اوقات معينة في موكب ملكي، وترتيب الزوار على طبقات، وترتيب جلوس الناس في مجلس الخليفة حسب منازلهم. فكل هذه الامور خضعت لتراتبية معينة كان مصدرها الثقافة الفارسية.[1] وقد بلغ النفوذ الفارسي ذروته في عهد الهادي وهرون الرشيد والمأمون. يقول الجاحظ في كتابه (التاج) ان خلفاء الاسلام اخذوا عن ملوك الفرس قوانين الملك والمملكة، وترتيب العامة والخاصة، وسياسة الرعية والزام كل طبقة حظها والاقتصار على جديلتها، فكان اردشير بن بابك اول من رتب الندماء واخذ بسياستهم وجعلهم في ثلاث طبقات: فجعل ابناء الملوك في الطبقة الأولى، وكانوا يجلسون على بعد عشرة اذرع من الستارة، وجعل الطبقة الثانية من بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من اهل العلم والشرف، ويجلسون على بعد عشرة اذرع اخرى من الطبقة الاولى، ثم جعل الطبقة الثالثة وهى طبقة المضحكون واهل الهزل (مع مراعاة الا يكون بينهم خسيس الاصل ولا وضيعه ولا ناقص الجوارح ولا فاحش الطول والقصر ولا صاحب افة ولا مرمى بابن ولا مجهول النسب ولا ابن صناعة دنيئة كالحائك او الحجام)، وهؤلاء يجلسون على بعد عشرة اذرع من الطبقة الثانية.[2] وقد قلدهم خلفاء بنى العباس في هذه التقاليد فكان ان احتجب السفاح بعد سنة من ظهوره لجلسائه واتخذ الستارة. واما المنصور فلم يظهر لنديم قط وجعل بينه وبين الستارة عشرين ذراعا وبين الستارة والندماء عشرين مثلها.[3] وجعل الرشيد جلوس المغنين بين يديه على مراتب وطبقات على نحو ما كان يرتبهم اردشير بن بابك وانوشروان، وكان يحدثهم من وراء الستارة وبينهم وسيط وهو صاحب الستارة ينقل إليهم ما يقوله الخليفة ويؤدى ما يقولونه الى الخليفة.[4] ومن مظاهر تقليد الخلفاء لملوك الفرس ان عامل الخلفاء ابناءهم معاملة الفرس لأبنائهم فملوك الفرس كانوا لا يسمحون لأبنائهم بالدخول عليهم الا بعد الاذن لهم وامر الحُجّاب ان يكونوا اغلظ عليهم على من دونهم من ابناء الحاشية والخدم.[5]

من جهة اخرى قلد وزراء العصر الاول أنفسهم الوزراء الساسانيين في الدخول على الاكاسرة وجلوسهم بين يديهم. وما قصة الحسن بن سهل في دخوله على المأمون محمولا على كرسي الا دليلا على ذلك. وقد علق الجهشيارى على ذلك بقوله: « وانما ذهب ذو الرئاستين في ذلك مذهب الاكاسرة فان وزيرا من وزرائها كان يحمل في مثل ذلك الكرسي ويقعد بين ايديها عليه كانت تحمل عليه الوزراء ويتولى حمله اثنا عشر رجلا من ولاد الملوك.»[6] واما الناس دون الوزراء فقد كانوا يقبلون الارض إذا كان الملك راكبا، ويقبلون العتبة إذا كان جالسا، ومنهم من

بالألوهية لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم ظل الله على الارض، وكان الملك يجلس على بعد عشرة أذرع من الستارة وتكون اول الطبقات جلوسا على بعد عشرة أذرع اخرى فتكون اول الطبقات جلوسا على بعد عشرون ذراعا من الملك.

(1) جمال محمد سرحان، مرجع سابق، ص 70

(2) الجاحظ (ابو عثمان عمرو بن بحر)، التاج في اخلاق الملوك، تحقيق احمد زكى باشا، القاهرة: (د.ن)، 1914م، ص 22

(3) نفس المصدر، ص 32

(4) نفسه، ص 35-36

(5) نفسه، ص 127

(6) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 259

يقبل البساط ومنهم من ينحني اثناء الخدمة كالركوع.[1] واما اولياء العهود والاهل من بنى هاشم والقضاة والفقهاء والزهاد والقراء فما كانوا يقبلون يدا ولا ارضا لكنهم يقتصرون على السلام وربما خطب قوم منهم بسلام او دعاء. واما اواسط الجند وعوام الناس ومن لا رتبة لهم فمنكر منهم تقبيل الارض لان منزلتهم تقصر عن ذلك.[2]

كذلك كان لغلبة النفوذ الفارسي في الدولة العباسية أثر كبير في الزي في البلاط العباسي حيث اخذ الميل الى الازياء الفارسية في بغداد ينمو ويطرد منذ مطلع العصر الاول.[3] كان اللباس الفارسي هو لباس البلاط الرسمي، فقد قرر المنصور لبس القلانس وهي القبعات السود الطويلة مخروطية الشكل. كما ادخل الملابس المحلاة بالذهب، وغدا خلعها على الناس من حق الخليفة. كما يتضح من العملة التي ضربت في عهد المتوكل التي تظهر عليها صورته مدى رواج الزي الفارسي في البلاط العباسي اذ تظهره هذه الصورة وهو مرتديا زيا فارسيا حقيقيا.[4] كان لباس الخليفة العباسي في المواكب القباء الاسود او البنفسجي وكان مفتوحا عند الرقبة فيظهر من تحته قفطانا زاهيا. وكانت اكمامه ضيقة حتى عهد المعتصم الذي جعلها فضفاضة وكان الخليفة يتمنطق بمنطقة مرصعة بالجوهر. بينما كان القضاة والامراء يلبسون العمامة والطيلسان مقتدين بذلك بالنبي كما كانوا يلبسون قلنسوة طويلة وكان الامراء والنبلاء يقلدون الخلفاء في ملابسهم.[5] طبقت تقاليد الساسانيين ايضا في ازياء رجال الحاشية والموظفين وطبقاتهم في البلاط العباسي. وكان رسم ملوك الفرس ان يلبس اهل كل طبقة ممن في خدمتهم لبسة لا يلبسها أحد ممن في غير تلك الطبقة فاذا وصل الرجل الى الملك عرف صنعته من لباسه والطبقة التي هو فيها.[6] فطبق العباسيون هذا النظام ايضا اذ كان لكل قوم زي، فللقضاة زي ولأصحاب القضاة زي ولرجال لشرطة زي. واما اصحاب السلطان ومن دخل دار الخلافة فهم على مراتب فمنهم من يلبس المبطنة ومنهم من يلبس الدراعة ومنهم من يلبس القباء ومنهم من يلبس البازيكند[7] ويعلق الخنجر ويأخذ الجرز[8] ويتخذ الجمة.[9] وكان القضاة يلبسون المبطنة والطيلسان والقلانس. وكان الشعراء يلبسون الوشي والمقطعات[10] والاردية السود. اما في بلاط الخلفاء فقد ظهرت ازياء الخلفاء على الطراز الفارسي من الحرير والديباج.[11] بينما كان القواد يلبسون الاقبية الفارسية القصيرة وقد صار القباء

(1) العباسي (الحسن بن عبد الله)، اثار الاول في ترتيب الدول، تحقيق عبد الرحمن عميرة، بيروت: دار الجيل 1989م، ص 32

(2) الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص 31-32

(3) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج2، ص348

(4) نفس المرجع، ج2، ص349

(5) نفس المرجع، نفس المكان

(6) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 2

(7) البازيكند: كساء يلقى على الكتف.

(8) الجُرز: بالضمة، ضرب من السلاح وهو عمود من

(9) الجمة: شعر الرأس الذي يسقط على الكتفين.

(10) المقطعات: شبه الجباب ونحوها من الخز وقيل كل ما يفصل ويخاط من قميص وجباب وسراويلات.

(11) الديباج: ثوب رقيق حسن الصنعة، راجع ابو الحسين هلال بن محسن الصابي، رسوم دار الخلافة، ص 90

فيما بعد لباسا رسميا لرجال الدولة في حوالي سنة 300هـ[1] كما راجت في المحيط الشعبي ايضا الثياب والمنسوجات الفارسية وانتشرت. وكانت المراكز الكبرى لصناعة القطن تقع في شرق بلاد فارس مثل (مرو) و(نيسابور) و(بِم) بشرقي كرمان.[2] وكانت أكبر مراكز صناعة الحرير في خوزخستان حيث نقل الساسانيون هذه الصناعة من بلاد الروم. وكانت انواع الحرير من ديباج وستور تصنع هناك.[3] وراجت ايضا ثياب من الخز والقصب.[4] كما راجت في بغداد البسط الفارسية والتي كانت تصنع في (اصفهان).[5] وكان حسنها مشهورا، وراج الخزف الفارسي المصنوع في (قاشان)[6] واشتهرت العطور الفارسية التي كانت تصنع في اقليم سابور في بلاد فارس وكانت الزيوت العطرية تستخرج من ألوان الورد مثل البنفسج والنيلوفر والنرجس والكارده والسوسن والزنبق.[7]

تجلى التأثير الفارسي ايضا في الحياة العامة في الاحتفال بالأعياد الفارسية القديمة وخاصة عيدي النيروز والمهرجان حتى اصبحت من اهم الاحتفالات في العصر العباسي الأول.[8] وكان الاحتفال بهذه الاعياد عادة عامة في بغداد. والنيروز من الاعياد الفارسية القديمة وهو عيد الاحتفال ببداية العام ويقع عند بداية فصل الربيع وكانت تقام فيه احتفالات صاخبة.[9] وكان الفرس يتهادون في النيروز بالهدايا ومنها السكر والملابس وكان الخليفة يفرق على الناس اشياء منها صور مصنوعة من العنبر ومنها ورد احمر.[10] وكان الناس يغتسلون ويرشون بعضهم البعض بالماء تبركا ودفعا للأمراض.[11] واما عيد المهرجان فهو عيد فارسي قديم ايضا وهو احتفال نهاية العام، وكان يوافق اول الشتاء. وكان ملوك الفرس يلبسون تاجا مرصعا بالجواهر عليه صورة الشمس ويقيمون سوقا عظيمة في عيد المهرجان.[12] وكان الفرس يتهادون فيه بالهدايا مثل النيروز بينما كان الاكاسرة يقدمون كسوة الخريف والشتاء للفرسان. وكان ملوك الفرس يجلسون للعامة يوما في النيروز ويوما في المهرجان فلا يحجب عنهم صغير ولا كبير ولا جاهل ولا شريف.[13] وقد استمر الخلفاء العباسيون في تقليد الفرس فكانوا يخلعون على قوادهم كسوة الشتاء في عيد المهرجان. وكان العامة يغيرون ه الفرش والآلات وكثيرا من الملابس. ويمتاز هذا العيد بان الرعية كانوا يهدون فيه الى الخليفة.[14]

(1) ادم متز، مرجع سابق، ص 229

(2) نفس المرجع، ص 357

(3) نفسه، ص 358

(4) الخز والقصب: الخز ثياب تصنع من الصوف وتجمع على خزوز، واما القصب فهي ثياب رقيقة تصنع من الكتان. راجع ابو الحسين هلال بن محسن الصابي، رسوم دار الخلافة، ص 90-91

(5) نفسه، ص359-360

(6) قاشان: مدينة بين قم واصفهان في بلاد فارس.

(7) نفسه، ص362

(8) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج2، ص354-357

(9) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 70

(10) ادم متز، مرجع سابق، ص 293

(11) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج2، ص 356

(12) نفسه، ج2، ص357

(13) الجاحظ، التاج في اخلاق الملوك، ص157

(14) ادم متز، مرجع سابق، ص 296

وكان من العادة ايضا ان يتكاتب الناس بالتهنئة في النيروز والمهرجان. وقد اورد ابوهلال العسكري نصا لرسالة بعث بها الكاتب احمد بن يوسف[1] الى المأمون يوم النيروز مع سفط من الذهب فيه قطعة عود هندي يقول فيها: «هذا يوم جرت فيه العادة بالطاف العبيد السادة.»[2] وطالت العادات الفارسية في العصر العباسي الأول حتى مطاعم الناس واشربتها. فقد كانت مطاعم العرب في صدر الاسلام غاية في البساطة وكانوا يكتفون بالقليل من الطعام الذي لا يجاوز لونا او لونين. وكان خير ادامهم اللحم. وكان اهل المدن أقرب الى العناية بالطعام والتفنن به من اهل البادية.[3] فلما جاء عهد بنى امية اختلطوا بالأمم الاخرى فتنوعت اطعمتهم وتعددت الوانها، واستحدثوا في اعدادها طرقا جديدة واستعملوا الملاعق الخشبية في الاكل وجلسوا للأكل على مائدة مكسوة بمفرش من القماش. وظلت مطاعهم على الرغم من هذا بسيطة ويغلب عليها اللحم لان الخضر لم تكن مستخدمة عندهم بكثرة لعدم توفرها في بلادهم.[4] فلما جاء العهد العباسي عنى الناس بتنوع الطعام وأسرفوا في اجتلاب اصناف في غير مواعيدها من صيد وفاكهة وخضروات، كما جلبوا السمك والحبوب والجبن وما الى ذلك من البلاد الاخرى كبلاد فارس والهند وعمان.[5] ويبدو ان معظم الاطعمة كانت فارسية. حيث يورد الصولي حكاية يقول فيها: «ناظر فارسي عربيا بين يدي يحي بن خالد البرمكي فقال الفارسي: ما احتجنا اليكم قط في عمل ولا تسمية، ولقد ملكتم فما استغنيتم عنا في اعمالكم ولا لغتكم حتى ان طبيخكم واشربتكم ودواوينكم وما فيها على ما سمينا ما غيرتموه (....) فسكت عنه العربي فقال له يحي بن خالد: « قل له اصبر لنا نملك كما ملكتم ألف سنة بعد ألف سنة كانت قبلها لا نحتاج اليكم ولا الى شيء كان لكم.»[6] فالقصة تحمل دلالة واضحة على تغلغل الثقافة الفارسية بجميع اشكالها في الادارة وفى تفاصيل الحياة اليومية كأنواع الطعام والشراب. وقد عزى ذلك الى الحضارة الفارسية التي ازدهرت قبل ظهور الاسلام في بلاد فارس بأكثر من ألفي سنة والى التراث الفارسي الذي حاول الفرس ان يتشبثوا به عندما اندمجوا في الدولة الاسلامية. وقد استمر هذا الاثر الفارسي الذي ساهم كُتّاب ووزراء العصر الاول في صبغ نظم الحكم والادارة والحياة العامة به سائدا طوال العصر العباسي الاول وظلت الثقافة الفارسية عاملا مهما في الدولة العباسية حتى بعد زوال نفوذ الفرس السياسي.[7]

(1) احمد بن يوسف الكاتب: هو احمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب وكنيته ابو جعفر كاتب وشاعر علا نجمه في عهد المأمون وهو من قرية من قرى الكوفة كان جده صبيح عبدا لبعض بنى عجل ثم أعتق، ترعرع في عائلة امتهنت الكتابة اذ كان جده وابوه كاتبين في الدواوين، ولى ديوان الرسائل للمأمون، وكان اخوه القاسم ايضا شاعرا وكاتبا واولادهما جميعا اهل ادب وطلب للشعر والبلاغة توفى ببغداد سنة 213هـ راجع سيرته في ابن الابار (ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ابى بكر القضاعي)، اعتاب الكتاب، تحقيق صالح الاشتر، دمشق: مجمع اللغة العربية 1961، ص30

(2) العسكري (ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل)، ديوان المعاني، شرح احمد حسن بسحج، ج1، بيروت: دار الكتب العلمية 1994م، ص 94

(3) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج1، ص441

(4) نفس المرجع، ج1، ص 442

(5) نفسه، ج2، ص 346

(6) الصولي، مصدر سابق، ص 193

(7) عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الاول، ص41

حركة الترجمة والتأليف:

شهد العصر العباسي الاول نهضة علمية وثقافية كبيرة ساهمت فيها عوامل عديدة من اهمها الاستقرار الداخلي للدولة. وقد كان لهذا الاستقرار أثره في ازدهار الحياة الثقافية حيث توفرت للدولة الموارد التي بذلتها لتشجيع العلماء الذين عملوا في التأليف والترجمة. وعنى الخلفاء العباسيون بحركة الترجمة في العصر العباسي الاول وساهم الوزراء في هذه الحركة بتشجيع الادباء والكُتّاب الذين اثروا حركة الترجمة والتأليف.[1] وامتدت الدولة الاسلامية خلال العهد العباسي الاول لتشمل بلاد السند وخراسان وما وراء النهر وإيران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب، وهي اوطان كثيرة وكان يعيش فيها منذ القدم شعوب متباينة في الجنس واللغة والثقافة. لكنها لم تكد تنضوي تحت لواء الدولة الاسلامية حتى امتزجت وتألفت عناصرها كأنها عنصر واحد. ساهمت حركة الترجمة التي ترافقت مع اتساع حدود الدولة ودخول قوميات عديدة الى نطاق الحياة اليومية في حراك ثقافي كبير. فقد نقلت هذه الامم اثار ثقافاتها وحضارتها الى تيار الثقافة العربية فساهم ذلك بدوره في انتعاش الحركة الثقافية. وقد اتصلت حركة الامتزاج الثقافي هذه بحركة الترجمة والنقل عن هذه الامم وحضاراتها ومن اهمها النقل عن الفارسية الى اللغة العربية. كما ساهمت جهود الفضل بن يحي في ادخال صناعة الورق الى بغداد في احداث علامة فارقة في النهضة العلمية والثقافية التي اعقبت انتشار واستخدام الورق. فظهرت الكتب والمؤلفات والمكتبات على نطاق واسع فزاد ذلك من رقى النهضة العلمية والثقافية في العصر العباسي الاول.

كان من الأسباب المهمة في انطلاق حركة الترجمة انتقال العاصمة الى مدينة بغداد. اذ قام في بغداد مجتمع متعدد الثقافات أساسه المزيج السكاني المختلف ديموغرافيا في العراق الذي تألف من مسيحيين ويهود ناطقين بالآرامية، وكانوا يشكلون أكثر السكان المستقرين، ومن الناطقين بالفارسية الذين كانوا يتمركزون في المدن، وكذلك العرب المسيحيين الذي كانوا مستقرين في بعض المدن مثل سكان الحيرة على الفرات، وغيرها من الأثنيات. وقد مزج هذا الخليط الثقافي والاثني في بوتقة واحدة رعتها النخبة السياسية العباسية وقدمت لها الحماية، مما أدى الى خلق ثقافة جديدة نظرت الى التراث الضخم للحضارات السابقة نظرة ايجابية فأخذت تنهل من هذا الارث الضخم في أكبر وأطول حركة ترجمة عرفها التاريخ.[2]

بدأت حركة الترجمة منذ عهد الخليفة العباسي المنصور الذى عنى بترجمة بعض كتب العلوم الى العربية فترجم له حنين بن اسحق بعض كتب ابقراط وجالينوس في الطب.[3] والمنصور هو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية الى العربية منها: كتاب كليلة ودمنه وكتاب السندهند وترجمت له كتب ارسطاليس من المنطقيات وغيرها وترجم له كتاب المجسطي

(1) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج2، ص284

(2) ديمتري غوتاس، الفكر اليوناني والثقافة العربية، ترجمة ونقل نقولا زيادة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2003م، ص 44.

(3) ابن النديم، مصدر سابق، ص 303-304

لبطليموس[1] وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية وأخرجت الى الناس فنظروا فيها وتعلقوا بعلمها.[2] لقد دل تنوع الكتب المترجمة بين الأدب (كليلة ودمنة) والفلك (السندهند)[3] والفلسفة المتمثلة في الكتب اليونانية الى جانب تنوع مصادر هذه الكتب (يونانية ورومية وفارسية وسريانية .. الخ) على أن المنصور كان مدركا لأهمية ترجمة تراث الأمم السابقة. وكانت عنايته بالترجمة تعود الى ميله للعلم فقد كانت له براعة وعناية في الفقه ورواية الحديث والفلسفة والادب والنجوم.[4] كما أن استمرار خلفاء المنصور في عملية الترجمة تدل على ان حركة الترجمة اصبحت سياسة دولة وليس سياسة شخص تنتهي بوفاته. ثم أصبحت حركة الترجمة ثقافة عامة للمجتمع تبنتها إلى جانب النخبة السياسية ممثلة بالأسرة العباسية ووزرائهم النخب الأخرى من اجتماعية وثقافية واقتصادية. زادت العناية بالترجمة في عهد الخليفة العباسي هرون الرشيد فبعد ان سقطت بعض المدن الرومية في يد المسلمين امر الرشيد بترجمة بعض كتبهم التي وجدها المسلمون من اليونانية الى العربية. ثم زادت العناية بالترجمة في عهد المأمون الذي أرسل الى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة في الفلسفة والهندسة والطب والموسيقى.[5]

أسس العباسيون بيت الحكمة أو دار الحكمة في الرصافة على نهر دجلة. وهو اول مكتبة اسلامية كان يعمل فيها الكثير من المترجمين والوراقين والعلماء والنساخين من مختلف الاديان والاجناس والمذاهب والثقافات. وكان لها مدير يدير شئونها ويسمى (صاحب بيت الحكمة).[6] شجع الرشيد حركة الترجمة وأغدق العطايا على المترجمين، ونالوا لديه كل حظوة وتقدير. ثم آلت الأمور إلى ابنه الخليفة العالم المأمون الذي أعطى حركة الترجمة دفعاً قوياً، ومضى قُدُماً في تقريب التراجمة وإعظام شأنهم، حتى نقلوا روائع المصنفات العلمية في الطب والفلك والفلاحة والرياضيات والفلسفة والمنطق وغيرها من اللغة اليونانية والهندية والكلدانية والفارسية والسريانية إلى لغة العرب.[7] وازكى بيت الحكمة حركة الترجمة فترجمت الكتب الطبية على يد يوحنا بن ماسويه (توفى 243هـ) وكان طبيبا نسطوريا وقد قلده الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة مما

(1) كتاب المجسطى: هو مرجع في علمي الفلك والرياضيات كان مكتوبا في أصله باليونانية ومعنى اسمه (الاطروحة الرياضية) الفه العالم الإغريقي بطليموس في الاسكندرية سنة 148م ويعتقد انه أقدم كتاب معروف في الفلك. ترجمه حنين بن اسحق الى العربية وقد ترجم من العربية الى اللاتينية ثم الى بقية اللغات الاوربية ولذلك غلبت على الكتاب تسميته العربية (المجسطى) والتي ترجمت الى (Almagest) وقد تم تأليف العديد من الكتب في دعم او نقد او تصحيح المجسطى.

(2) المسعودي، مروج الذهب، ج4، ص 250

(3) السند هند: مرجع هام في علم الفلك ويعنى اسمه (الدهر الداهر) وهو من اوائل ما كتب علماء الفلك في الهند وقد أصبح بعد ترجمته من اهم مراجع الفلك لدى العرب والذي اعتمدت عليه دراساتهم لأكثر من نصف قرن من الزمان. ترجمه للمنصور محمد بن ابراهيم الفزاري، راجع ابو القاسم صاعد بن احمد بن صاعد الأندلسي، طبقات الامم، بيروت: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، 1912م، ص 49

(4) يحي وهيب الجبوري، الكتاب في الحضارة الاسلامية، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998م، ص 144

(5) ابن النديم، مصدر سابق، ص 303-304

(6) رفيدة اسماعيل عطا المنا، بيت الحكمة البغدادي وأثره في الحركة العلمية في الدولة العباسية، 132-656هـ بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ، جامعة الخرطوم، كلية الآداب 2009م، ص62

(7) نفس المرجع، ص69-70

وجد بأنقرة وعمورية وبلاد الروم حين سباها المسلمون. ووضعه المأمون امينا على الترجمة ووضع بين يديه عدد من الكتاب المهرة يكتبون له. وكذلك ساهم في نقل الكتب الطبية جبريل بن بختيشوع[1] طبيب الرشيد فنقلوا مؤلفات كثيرة في الطب وتركيب الادوية.[2] ولم يكتف المأمون بتحويل كتب العلوم النافعة إلى العربية، بل أمر بوضعها موضع التطبيق العملي، فبنيت المراصد والمدارس التي أمر فيها بتعلم الكتب المترجمة، وتعليمها للنابهين من أبناء الأمة. ونبغ في عصر المأمون وما تلاه كبار التراجمة، فنقل حنين بن اسحق[3] بعض كتب جالينوس وابقراط في الطب، ونقل ابن المقفع تراجم كثيرة من الفارسية مثل كليلة ودمنة والسند هند وكتاب اقليدس في الهندسة الى العربية.[4] ساهم تطور الكتابة نفسها في ازكاء زخم التأليف والتدوين فقد وصلت العلوم الى مرحلة النضج الفكري وبدأت تتميز عن بعضها وتنفصل فازدهرت بذلك الحياة العلمية والثقافية وخصوصا في بغداد. وأصبح الشغف باقتناء الكتب وقراءتها من الظواهر المنتشرة على نطاق واسع في الدولة العباسية ومراكزها الثقافية وبفضل ذلك أصبحت بغداد زمن العباسيين أعظم مركز للترجمة والنقل في العالم.

لعب وزراء العصر العباسي الاول دورا كبيرا في تشجيع حركة الترجمة والتأليف. فالبرامكة وزراء الرشيد على سبيل المثال لعبوا دورا في تشجيع حركة الترجمة في العصر العباسي الاول وأسهموا في نقل الذخائر النفيسة من الرومية والهندية والفارسية واليونانية الى العربية. وكان يحي بن خالد البرمكي معروفا بحبه للحكمة والكلام والنظر. وفى ايامه كثر المتكلمون واجادوا وناظروا ووضعوا الكتب. وقد شجع يحي المترجمين والادباء لينقلوا الذخائر النفيسة من الكتب اليونانية والرومية والفارسية والهندية الى اللغة العربية. واعادوا ترجمة بعض الكتب التي ترجمت قبل عصرهم بحيث تكون أكثر دقة واتقانا مثل كتاب المجسطى لبطليموس الذي كان قد ترجم في عهد المنصور فأعيدت ترجمته ليكون أكثر دقة.[5] ومن ذلك طلب يحي بن خالد من بطريك الاسكندرية ان يترجم في الزراعة كتابا عن الرومية وقد ترجمه برسمه. كما أرسل يحي بن خالد ايضا الى ملك الروم للحصول على الكتب اليونانية وقد وفق في الحصول عليها وترجمتها. عنى البرامكة كلهم عناية واسعة بترجمة الكتب والتراث الفارسي واستمر جيل كامل من الكُتّاب والمترجمين نهض خلال عصرهم والعقد الذي تلاه في النهوض بهذه الترجمة منهم ال نوبخت[6] الذين اشتهروا

(1) جبريل بن بختيشوع: تقدمت ترجمة موجزة له في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

(2) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص112

(3) حنين بن اسحق العبادي: طبيب مسيحي ومترجم (194-265هـ) أصله من الحيرة، ترجم اعمال جالينوس وابقراط وارسطو والعهد القديم من اليونانية كما قام بتصحيح كثير من الترجمات السابقة له، عينه المأمون وكيلا لبيت الحكمة وديوان الترجمة وعمل طبيبا للمتوكل. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج2، ص284

(4) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج2، ص284

(5) يحي وهيب الجبوري، مرجع سابق، ص 148

(6) ال نوبخت: احدى الاسر الفارسية التي اسلمت وانتظمت في خدمة الخلفاء العباسيين فاضطلعت بالأعمال الديوانية والترجمة وعلم الفلك. كان والدهم نوبخت الأهواز (237-311هـ) كاتب وفلكي فارسي الاصل من مدينة الاهواز بإيران، شارك في اقتراح موقع مدينة بغداد على الخليفة المنصور كما ساهم في تصميمها لاحقا، عمل في الترجمة في المحاكم العباسية وعمل

بترجمة كتب الفلك وال سهل وعلى راسهم الفضل الذي كان يترجم للمأمون الكتب الفارسية، فترجمت من عيون الادب الفارسي مثل عهد اردشير[1] وكتاب جاويدان خرد[2] في صنوف الآداب ومكارم الاخلاق. وقد نقل ابان بن الحميد[3] كتاب كليلة ودمنة حتى يروى شعرا[4] واهداه الى يحي بن خالد البرمكي.[5] كما اورد ابن النديم اسماء مؤلفات قال ان ابان بن عبد الحميد نقلها الى الشعر ايضا وهي كتاب سيرة اردشير وكتاب سيرة انو شروان وكتاب بلوهر وبردانية وكتاب رسائل وكتاب حلم الهند.[6] وبعض هذه الكتب معروف لدينا وبعضها يبدو انه ضاع واندثر. من الوزراء الذين اهتموا بتشجيع حركة الترجمة ايضا محمد بن عبد الملك الشهير بابن الزيات وزير المعتصم وهو رجل عالم باللغة والادب ومن كبار الكُتّاب والشعراء واهل السياسة. وقد شجع ابن الزيات المترجمين وكان يغدق عليهم في كل شهر ألفي دينار وترجم له العلماء والاطباء كتبا من اليونانية.[7] على كل حال فان المنقولات التي شملتها حركة الترجمة اشتملت على الكثير من ثقافات الهند واليونان والفرس حتى ليظن الانسان انه لم يبق منها شيء لم ينقل الى العربية سواء منه ما اتصل بالعلوم او الصناعات او العجائب والاسمار والخرافات او الملل والنحل. وقد تجمع كل هذا التراث الثقافي في بغداد وأضحى متوفرا لكل طالب علم. فانتقلت الحضارة العربية في العصر العباسي الثاني الى مرحلة التصحيح والابتكار والانتاج والتأليف بعد ان قرئت وهضمت في العصر العباسي الاول.

عدد من افراد هذه الاسرة كتابا عن الخلفاء العباسيين وامراءهم خلال القرون من الثالث الى الخامس الميلادي نذكر منهم: ابو يعقوب اسحق بن ابى سهل اسماعيل النوبختي (المتوفى 322هـ)، وابو الحسين على بن عباس بن اسماعيل بن ابى سهل بن نوبخت (المتوفى في 324هـ)، وولده ابو عبد الله حسين (المتوفى 326هـ). راجع عباس اقبال الاشتيانى، ال نوبخت، نقله الى العربية الى هاشم الأسدي، مشهد: مجمع البحوث الاسلامية 1983م.

(1) عهد اردشير: اردشير بن بابك ابن ساسان (226-241م): هو اول الملوك الساسانيين ومؤسس السلالة الساسانية التي استمرت اربعة قرون وقد روى ان اردشير بن بابك كتب هذا عهده للملوك من بعده وكان من واجب الملوك الساسانيين إذا خلف لهم أحد ملوكهم السابقين عهدا أكثروا من قراءته وتدبره، والعهد عبارة عن وصية جامعة لمؤسس الدولة جمع فيها اردشير تجاربه التي عانى طويلا في اكتسابها.

(2) كتاب جاويدان خرد: اسمه يعنى (الحكمة الخالدة)، هو من كتب الوصايا، الفه اوشيهنج أحد ملوك فارس القديمة وهو عبارة عن وصية لابنه وللملوك من بعده، نقله للعربية الفضل بن سهل ثم زاد عليه على بن احمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (توفى فى421هـ) اجزاء اخرى حوت حكم ووصايا جزءيه نقلها عن حكماء فارس والهند والعرب واليونان. انظر عبد الرحمن بدوي، الحكمة الخالدة، بيروت: دار الاندلس 1983م.

(3) ابان بن عبد الحميد: ابان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفير الرقاشي، شاعر من اهل البصرة انتقل الى بغداد واتصل البرامكة ومدحهم واختص بالفضل بن يحي البرمكي، وكانت تقدم اليه المدائح في البرامكة ليقدر اعطيات الشعراء، اختص بنقل الكتب المنثورة الى الشعر المزدوج، توفى سنة 200هـ راجع الجهشيارى، ص 165 وراجع الفهرست، ص172

(4) ابن النديم، مصدر سابق، ص172

(5) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص113

(6) المصدر السابق، نفس المكان

(7) يحي وهيب الجبوري، مرجع سابق، ص 215

ادخال صناعة الورق الى بغداد:

أسهم الفضل بن يحي البرمكي في احداث نقلة كبيرة في النهضة العلمية وذلك بإنشائه اول مصنع للورق في بغداد سنة 187هـ. وكان الناس قبل ذلك يكتبون في الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردي. فلما أنشأ الفضل البرمكي مصنعا الورق ببغداد غلبت الكتابة فيه لخفته وتخلى الناس تدريجيا عن الكتابة في الجلود والقراطيس. واشتهرت بغداد بعد ذلك بصنع الورق واكتسب الورق المصنع فيها شهرة في كل انحاء المشرق.[1] أسهم ظهور الورق منذ ذلك الحين مساهمة فعالة في ازدهار حركة التأليف والكتابة لسهولة تداول المخطوط الورقي بين الناس. بل ساهم في حركة الترجمة الضخمة التي قام بها العرب والمسلمون لنقل مختلف العلوم والفنون والآداب من الحضارات والثقافات القديمة إلى اللغة العربية. ادى استخدام الورق فيما بعد الى تقدم الكتابة وقيام نهضة ادارية واقتصادية وعلمية وظهور المكتبات والتأليف على نطاق واسع في ارجاء الدولة الإسلامية. ونتج عن هذا العمل تحولات اقتصادية وثقافية وسياسية وفكرية عظيمة ارتقت بالعصر العباسي الاول.

امر الفضل بن يحي اخاه جعفر بإدخال الورق المصنع ببغداد الى دواوين الدولة محل الرقاع الجلدية فاتسعت بذلك اعمال الدواوين وأصبح من الميسور تنظيمها وضبطها. [2] وساهم استخدام الورق في تطور العمل في الدواوين الادارية واتساعها فزادت سلطة المركز على الأطراف. كما زادت فرص العمل بالنسبة للكُتّاب نتيجة لذلك، وتطورت ادوات الكتابة التي تناسب الورق مثل الحبر. وكان من الاثار التالية لظهور الورق ظهور مهنة اشتقت اسمها من الورق الذي أصبح يصنع في بغداد عرفت باسم (الوراقة) وعرف المشتغلون بها بالوراقين وهم من (يعتاشون) من نسخ الكتب وتجليدها وتصحيحها.[3] والوراقة كما يعرفها ابن خلدون هي «عملية الانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الامور الكتابية».[4] ويذكر ابن خلدون انه بسبب توفر الورق كثرت المؤلفات العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلها في الافاق والامصار فانتسخت وجلدت. [5] فالوراقة اذن هي مهمة انتساخ الكتب وتصحيحها ونشرها بين الناس. والوراق هو من يقوم بذلك. وقد يكون هو الناسخ او يكون غيره ممن ينسخون له. بالإضافة لما يستتبع عملية النسخ من التجليد والتذهيب وبيع الورق والاقلام والمحابر والدوى. أي ان الوراقين كانوا يقومون بما تقوم به دور النشر الحديثة في عصرنا الحالي من الطبع والتوزيع وبيع الورق وادوات الكتابة.[6] كان من النتائج المباشرة لازدهار صناعة الورق في العصر العباسي الاول ظهور أسواق لهؤلاء الوراقين في

(1) مروان عاطف الضلاعين، السلع التجارية في اسواق بغداد في العصر العباسي الاول، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، (العراق)، مجلد 36، العدد3، 2009م، ص 652

(2) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 103

(3) ما زالت مهنة الوراقة قائمة في بغداد حتى يومنا هذا.

(4) ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص128

(5) نفس المصدر، نفس المكان

(6) يحي وهيب الجبوري، مرجع سابق، ص 65

بغداد. فكان من بينهم الكتاب المتخصصون في النسخ مقابل اجور يتقاضونها. وكثرت دكاكينهم ومحالهم إلى درجة أنه كان في بغداد وحدها أكثر من مئة حانوت للوراقة. ويمكن تلخيص مهمة هذه الحوانيت في انتساخ وتصحيح وتجليد الكتب والدواوين وسائر الامور المكتبية.[1] وبذلك غدت اشبه ما تكون بالمطابع في عصرنا الحالي بل أكثر من ذلك لان المطابع تقتصر على طبع الكتب ونشرها. وحقا اصبحت الكتب الورقية في العصر العباسي مادة اساسية للمعرفة في جميع فروع العلم والمعرفة. وبسبب تعدد الكتب وتنوع موضوعاتها تم تصنيفها فوضعت فهارس جامعة من أشهرها (فهرست النديم) والذي حصر ثمانية الاف وخمسمائة كتاب مؤلف ومترجم خلال القرون الاربعة الاولى للهجرة وفهرست (كتب الشيعة) لأبي جعفر الطوسي وغيرها.[2] ومع نمو حرفة الوراقة، وإقبال الناس على العلوم، جلس العلماء والمؤلفون يملون على الوراقين مصنفاتهم، أو يكتبونها بأنفسهم فعم النقل والنسخ والتأليف. وكان بعض الوارقين يسعون الى المؤلفين ليحصلوا منهم على مؤلفاتهم ثم يعرضوا ما كتبوه لبيعه للطلاب بمعنى ان الوراقين ساهموا في توفير الكتاب لطلاب العلم وكانوا صلة وصل بين العلماء والطلاب. ولعل هذا يؤكد اهمية حوانيت الوراقين في خدمة المؤسسات التعليمية.[3] ولم تكن هذه الحوانيت مجرد أمكنة للنسخ والتجليد بل كانت ملاذاً لطلاب العلم يطالعون فيها الكتب حتى انه كان يسمح لروادها بالمبيت فيها للقراءة لمن يصعب عليه شراء أحد الكتب لغلاء ثمنها. كما كانت مجالسا للشعراء والعلماء، وملتقى للطبقات المثقفة. [4] ونستطيع أن نقول إنها كانت مركزاً للنشاط العقلي، ومستودعاً لما أنتجته الثقافة الإسلامية في مختلف صنوف المعرفة، ومصدراً من مصادر انتشارها.[5] وبفضل هؤلاء الوراقون اصبحت الاسواق ملتقى لأهل الفكر والكتبة تدور في حوانيتها المناقشات والمساجلات وتبادل المعلومات والقاء الشعر تماما مثل مراكز المعرفة في عصرنا الراهن. وخلفت صناعة الوراقة ثروة معرفية هائلة تبقى منها ملايين المخطوطات فالمقل يقدر عددها بثلاثة ملايين مخطوطة والمكثر يقدرها بخمسة ملايين.[6] ورغم الدور المهم الذي لعبته الوراقة في الثقافة الإسلامية، فإننا لا نجد بين أيدينا اليوم تلك الكتب والرسائل التي اختصت بالكلام عليها، لتصف لنا بالتفصيل ما كان يدور في حوانيتها من المناظرات والمحاضرات، وتنقل إلينا ما كان يتبادله روادها من أطايب الأحاديث وطرائف الأقوال والأفكار. ويعد كتاب تنويق النطاقة في علم الوراقة الذي وضعه الشيخ عبد الرحمن بن أحمد بن مسك السخاوي من هذه الكتب، ولكن من المؤسف أنه لم يبق لنا منه سوى عنوانه. وقد أشار ابن النديم الى رسالة في مدح الوراقة لأبي زيد البلخي.[7] وبضياع

(1) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 104

(2) عصام سليمان الموسى، الورق وتطور صناعته في العصر العباسي، مجلة جامعة دمشق، (سوريا)، مجلد 27، العدد ،2011م ص 232

(3) مفتاح يونس الرباصى، المؤسسات التعليمية في العصر العباسي الاول (132-232هـ)، مصراتة: منشورات جامعة 7 اكتوبر 2010م، ص 91

(4) نفس المرجع، ص 89

(5) لقد ظلت هذه التقاليد الثقافية قائمة بشكل او باخر في مقاهي شارع الرشيد في بغداد التي بقيت ملتقى للمثقفين الى يومنا هذا.

(6) نفس المرجع، ص233

(7) ابن النديم، مصدر سابق، ص 198

هـذه الكتـب والرسـائل تجدنـا نلتقـط أخبـار الوراقـة والوراقـين مـن النـثرات التـي توزعـت في كتـب الـتراث، علّنـا نحصـل منهـا عـلى بعـض الفوائـد. والمهـم ان مهنـة الوراقـة وحوانيـت الوراقـين انتقلـت مـن بغـداد الى مـدن اخـرى في الدولـة الاسـلامية فانتـشرت في الأمصـار الإسـلامية شرقـاً وغربـاً. كـما أصبـح هنـاك مختصـون وعاملـون في هـذا الحقـل الـذي شـهد توسـعا في طـول البـلاد وعرضهـا مثـل النسـاخين والمجلديـن.[1] ويذكـر أن القـاضي أبـا مطـرف الأندلـسي جمـع مـن الكتـب مـا لم يجمعـه أحـد مـن أهـل عـصره في الأندلـس. وكان لـه سـتة وراقـين ينسـخون لـه دائمـاً.[2]

وأدى اسـتخدام الـورق في (بيـت الحكمـة) الى توسـعه حيـث بلـغ عـدد الكتـب فيـه مليـوني كتـاب مـما قـاد الى ظهـور نـواة الجامعـة الاولى في تاريـخ العـرب العلمـي.[3] فأصبـح مركـزا للترجمـة والنسـخ والتأليـف والـدرس بعـد ان ترجمـت فيـه معـارف العـالم القديـم الى العربيـة. وقـد ادى ذلـك الى انفتـاح المعرفـة عـلى ثقافـات العـالم القديـم وكنـوزه الفكريـة والمعرفيـة فاسـهم بشـكل مبـاشر في تطويـر العلـوم. وكان بيـت الحكمـة بمنزلـة جامعـة كـبرى لطـلاب العلـم والمعرفـة وفـر مجانيـة التعليـم اذ صـار العلـم متاحـا للجميـع. وكان مـن نتيجـة ذلـك ان بـرزت صفـوة مـن العلـماء والادبـاء كان جمهورهـا مـن ابنـاء العامـة قـادت الحركتـين العلميـة والادبيـة قيـادة خصبـة باهـرة.[4] واقـترن بيـت الحكمـة بعـدد مـن الكُتّـاب والذيـن كانـوا يعملـون في ترجمـة الكتـب مـن لغـات اخـرى الى اللغـة العربيـة. وكان بعضهم يعمـل كأمنـاء عـلى الترجمـة بينـما تـولى البعـض الاخـر المهـام الكتابيـة كالنسـخ والكتابـة والتجليـد. وكان الكاتـب الـذي يديـر كل هـذه الاعـمال يسـمى صاحـب بيـت الحكمـة[5] وقـد شـغل الكاتـب سـهل بـن هـرون هـذا المنصـب فـكان خازنـا لبيـت الحكمـة في عهـد الرشـيد. كـما تـولى فيـما بعـد تنظيـم خزانـة الكتـب الخاصـة بالمأمـون.[6] وكان معـه مـن الكُتّـاب ايضـا سـعيد بـن هـرون الكاتـب وكان بليغـا فصيحـا مترسـلا حـكى عنـه الجاحـظ ولـه مـن الكتـب كتـاب (الحكمـة ومنافعهـا)، ولـه رسـائل مجموعـة. وكذلـك كان مـن كُتّـاب بيـت الحكمـة المشـاهير سـلم الكاتـب وكان شريـكا لسـهل بـن هـرون في بيـت الحكمـة ولـه نقـول مـن الفارسـية الى العربيـة.[7] ومـع بدايـة القـرن الرابـع الهجـري أصبحـت المكتبـات العربيـة والخزانـات تعـج بالمخطوطـات والكتـب التـي تبحـث في كافـة العلـوم والآداب. وانتـشرت المكتبـات بـين العامـة والخاصـة بصـورة لم تحـدث مـن قبـل في تاريـخ الإنسـانية. وكان لـكل عـالم كتبـه الخاصـة ومـا كان ينسـخه لنفسـه او يشـتريه او يهـدى اليـه مـن كتـب. وكان لبعـض العلـماء مكتبـات ثريـة عامـرة. وكان ليحـي بـن خالـد البرمـكي مكتبـة ضخمـة لم يكـن بهـا كتـاب الا ولـه ثـلاث نسـخ بينـما كانـت مكتبـة الواقـدي (المتـوفى 207هـ) ضخمـة اشـتملت عـلى سـتمائة صنـدوق مملـوءة كتبـا وكان لـه مملـوكان

(1) عصام سليمان الموسى، مرجع سابق، ص 235
(2) احمد امين، ظهر الاسلام، ص 221-222
(3) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 103
(4) المرجع السابق، ص 241
(5) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، مرجع سابق، ج3، ص 163، 164
(6) احمد فريد، عصر المأمون، القاهرة: دار الكتب المصرية 1927م، ج1، ص 375
(7) ابن النديم، مصدر سابق، ص 174

يكتبان له ليلا ونهارا.[1] واما مكتبة ابن الزيات وزير المعتصم والواثق فقد كانت حافلة بمختلف كتب العلوم والفنون وكان له نقلة ونساخ ينسخون له.[2] ولم يكن غريبا ان يفتح العلماء مكتباتهم لعامة الناس يتعلمون منها ويطالعون الكتب بكل حرية ومن هؤلاء ابو الحسن على بن يحي بن ابى منصور المنجم (201-275هـ) وهو ممن اتصلوا بالخليفة المتوكل، وكان من خواصه وكان شاعرا وعلامة واخباريا. وقد أنشأ ابن المنجم هذا خزانة للكتب فتحها للناس يرشفون منها العلم سماها خزانة الحكمة وكانت الكتب مبذولة لهم والصيانة مشتملة عليهم.[3]

ترجمة كتب الوصايا والعهود ووضع مؤلفات الفكر السياسي:

كان لكتاب العصر العباسي الاول اضافات بالغة الاهمية في الثقافة العربية وخاصة في ميدان الفكر السياسي. فقد افادوا من معارف الامم الاخرى في هذا المجال ولا سيما الفرس واليونان والهنود. وكانت هذه المعارف قد انصبت في يم الثقافة العربية على نحو واسع. فساهم الكُتّاب في ترجمة كتب الوصايا الفارسية والتي احتفت كثيرا بفكرة السلطان والملك. ولاغرو في ذلك فقد كان الملك شغلهم الشاغل، وهو عندهم ظل الله في ارضه وكانوا يعتقدون انه مسنود بحق إلهي لا راد له ولا غاصب. ولذلك فلا غرابة ان يحتل مركز الصدارة من حكم الحكماء ونتاجات عقول الفلاسفة والحكماء. وكانت هذه المؤلفات تدور حول المحافظة على الملك والاحتفاظ به بعيدا عن أيدي العابثين، واصلاح النفس والحض على السيرة الفاضلة في الحياة، وتحقيق المال المرغوب في الاخرة عن طريق اتباع ضروب من السلوك يوصل الى هذه الغايات. كما تناولت موضوعات اجتماعية اخرى كالتآخي والمشورة والشكر والحديث عن طبائع النفس البشرية وخلالها المنجية والمردية كما تناولت الدين واهدافه البعيدة.[4]

ساهمت جماعة الكُتّاب في العصر الاول والذين كان معظمهم من اصول فارسية في ترجمة هذه المواد مساهمة فعالة ومن اولئك الكُتّاب ابن المقفع وسهل بن هرون والحسن والفضل ابني سهل فترجمت نتيجة لجهودهم كتب الوصايا الفارسية وراجت نصائح حكماء الفرس القدماء خاصة نصائح انوشروان العادل[5] واردشير بن بابك.[6] وقد روى ان اردشير بن بابك كتب عهده هذا للملوك من بعده ومما يشهد لقيمة عهد اردشير في سياسة الفرس ان ظلوا يحتفظون به على مدى الزمن. وكانت هذه القيمة نفسها سببا في المبادرة الى ترجمته الى العربية وجعله مادة في

(1) نفس المصدر، ص 143

(2) يحي وهيب الجبوري، مرجع سابق، ص 215

(3) نفس المرجع، ص 182

(4) يعقوب بورنجف وسيد مجتبى حسينى، موضوعات الحكم والوصايا الفارسية وتوجهاتها، مجلة التراث الأدبي، (إيران)، السنة الثانية، العدد السابع، 1389هـ ص 41

(5) انوشروان العادل: هو كسرى الاول (501-579م) يسمى كسرى بن انوشروان بن قباذبن يزدجرد بن بهرام جور، هو أحد اكاسرة الفرس ويسمى ايضا انوشروان العادل. اعتلى العرش بعد ابيه قباذ الاول وازدهرت في عهده نهضة عمرانية وعلمية كبيرة في بلاد فارس وكانت الامبراطورية الساسانية في قمة مجدها في عهده وهو أكثر الاكاسرة شعبية في الثقافة الايرانية والادب.

(6) اردشير بن بابك ابن ساسان (226-241م): هو اول الملوك الساسانيين ومؤسس السلالة الساسانية التي استمرت اربعة قرون.

ثقافة رجال الحكم والسياسة وبخاصة طبقة الكتاب في الدولة العباسية.[1]وقد انكب كُتّاب العصر العباسي الاول وأدباءه على هذه المواد يتدارسونها ويؤلفوا على شاكلتها. وكان من نتيجة هذه الجهود المؤلفات التي عرفت فيما بعد بـ (مرايا الامراء) او (وصايا الملوك) والتي كانت في طليعة الفكر السياسي الذي أبدعه كتاب ذلك العصر.

مرايا الامراء هي كتابات في الحكمة السياسية والاخلاق والتعاملية وهو نوع من الفلسفة راج استخدامه في المشرق العربي خلال العصور الوسطى وعرف بأسماء عديدة منها الفلسفة السياسية العملية او الحكمة العملية السياسية او علم تدبير المنازل. تتلخص فكرة مؤلفات مرايا الامراء في انها نوع من النصائح السياسية التي يسديها الحاكم الى خلفه او ولى عهده لكي يكون سياسيا ناجحا. وتقوم على قاعدة اخلاقية مرتبطة بالدين على الرغم من ان اصولها بعيدة كل البعد عن الاسلام. تستند هذه المؤلفات الى موروث قديم اصوله فارسية ويونانية وهندية قديمة، وتدور اشكاليته حول استقرار الملك واستمراره. وهو يظهر في ثلاثة اشكال: شكل الرسالة او العهد الذي يتركه الملك لولى عهده وفيه نصائح سياسية في طرائق التعامل مع الطبقات الاجتماعية المختلفة لكي يستمر الملك ويخلد. وشكل الحكاية على ألسنة الحيوانات مثل قصص كليلة ودمنة. وشكل الكتاب المقسم الى ابواب تتراوح من عشرين الى مائتي باب. بدأ هذا التيار بترجمات كليلة ودمنة التي نقلها عن الفارسية الكاتب ابن المقفع (106-142هـ)، ثم (الادب الصغير) و(الادب الكبير). ففي الادب الكبير وهو كتاب نصائح للسلطان يقول ابن المقفع انه اخذ كتابه من «اقوال المتقدمين» وقدم له بمقدمة حوت فضل الاقدمين على العلم وشروط درسه. ثم قسم كتابه الى مبحثين الاول في السلطان ومصاحبه وما يجمل بكل منهما من الخلال والصفات. بينما خص المبحث الثاني بالأصدقاء وحسن اختيار الصديق وحسن معاملته.[2] واما الادب الصغير وهو كتاب نصائح للعامة فقد قال ابن المقفع في مقدمته ايضا انه «نقله عن كلام الناس المحفوظ حرفا». بما يعنى انه نقل ما كان متداولا شفاهة في عصره بتصرف من جانبه. والكتاب عبارة عن دروس اجتماعية واخلاقية ترغب في العلم وتوصى بالأصدقاء وتتحدث عن سياسة الملوك والولاة.[3] ومما ترجمه ابن المقفع ايضا كتاب (خداينامة) والذي سمى بعد تعريبه (سير ملوك الفرس) وكتاب (التاج في سيرة انوشروان) وجميعها من كتب الوصايا في السياسة والتي ظهرت فيها براعة ابن المقفع في الدمج ما بين الفكر الفارسي والبلاغة العربية. [4] ثم وضع كتاب (التاج في اخلاق الملوك) المنسوب للجاحظ (159-255هـ)[5] وكتب الثعالبي[6] (توفى 429هـ) كتابه (تحفة الوزارة) وغير ذلك كثير من

(1) عهد اردشير، تحقيق وتقديم احسان عباس، بيروت: دار صادر 1967م، ص 21

(2) اثار بن المقفع، بيروت: دار الكتب العلمية، 1989م، ص245

(3) ابن المقفع (ابو محمد عبد الله روزبة بن داذويه)، الادب الصغير، تحقيق وائل بن حافظ بن خلف، القاهرة: دار البشير للثقافة والعلوم، 2011م، المقدمة

(4) بدرية لافى رميثان اللهيبى، أثر علوم الفرس على علوم العرب من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر العباسي الثاني، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ والحضارة الاسلامية، جامعة ام القرى (مكة المكرمة)، 2015م، ص 276

(5) الجاحظ: تقدمت ترجمة موجزة له في مقدمة هذه الدراسة.

(6) الثعالبي: تقدمت ترجمة موجزة له في مقدمة هذه الدراسة.

المؤلفات التي ذكرها صاحب الفهرست وغيره في تراجمهم لأصحابها. ظهر هذا النوع من المؤلفات بفعل رواج حركة الترجمة والنقل في العصر العباسي الأول. وكنتيجة لاحقة لاتساع حدود الدولة الاسلامية حيث اختلطت المفاهيم والعقليات وامتزجت الحضارات واثرت في العقلية العربية حتى اضحت من اهم ينابيع هذا النوع من الفكر السياسي ومن اسباب تكونه. استمر المؤلفون في اعقاب العصر العباسي الاول في ابتكار مؤلفات جديدة تتصل بنفس الافكار مما كان له أكبر الاثر في تطور مفهوم الفكر السياسي في المشرق الإسلامي.[1] اضافة الى تأثر الكُتّاب بهذه الموجات الوافدة من الثقافات التي انصبت في تيار الثقافة العربية كان الميدان الثقافي والبيئة الاسلامية وتجارب الكتاب والفلاسفة منابع غزيرة ومصادر حية لفلسفتهم. انعكس هذا المزيج الثقافي بصورة واضحة في هذا النوع من المؤلفات فعكست واقع الحياة وظروف العصر الذي عاشوا فيه وصورت انظمة الحكم والسياسات واخلاق الملوك والعامة وآداب التعامل، وعبرت بأسلوب الوعظ والنصح والارشاد عن الاخلاق الاجتماعية والاقتصادية والقيم المجتمعية السائدة في ذلك العصر.[2] كان المثقفون من الكُتّاب هم اول قطاعات المجتمع العباسي تأثرا بحركة الترجمة لأنهم ظلوا وثيقي الصلة مع الحركة الثقافية التي كانت في حالة حراك وتجدد مستمر في ذلك العصر. ولذلك تأثروا واثروا في هذا الحراك الثقافي. فكتب في مرايا الامراء جمع غفير من المتأدبين والكُتّاب.

استمر هذا التيار بعد ان وضع الفلاسفة والكُتّاب في العصر العباسي الاول قواعده في الاستمرار والتجدد. وتتابعت بعد ذلك مؤلفات الفلاسفة والكُتّاب في هذا المجال خلال العصر العباسي الثاني فكتب كل من الفارابي[3] (توفى 339هـ) وابن سيناء[4] (توفى 427هـ) رسالة في السياسة تقع ضمن هذا النوع من الادب كما كتب مسكويه[5] (توفى 421هـ) كتابه (تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق) والذي وصف بانه كان قمة الابداع الأخلاقي في اجواء الفكر العربي والإسلامي في عصره. وهو يعد دليلا للسلوك العملي والذي تترسخ جذوره بقوة في الفلسفة اليونانية بدلا من النصوص والتقاليد الإسلامية. وقد ظهر فيها احتجاج ابن مسكويه بالحجج المنطقية بدلا عن

(1) محمد احمد دمج، مرايا الامراء: الحكمة السياسية والاخلاق والتعاملية في الفكر الإسلامي الوسيط، بيروت: مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع1994م، ص9

(2) نفس المرجع، ص 10

(3) الفارابي: ابو نصر محمد بن محمد بن اوزلغ بن طرخان الفارابي، (260-339هـ)، عالم وطبيب وفيلسوف وحكيم، له مؤلفات كثيرة في الفلسفة والمنطق والعلوم والموسيقى اهما: العقل والمعقول العلم والمعقول العلم العلوم والتعريف بأغراضها، وصناعة علم الموسيقى، اتصل بالدولة الحمدانية وعاش مدة في عاصمتها حلب برعاية سيف الدولة الحمداني منقطعا للبحث والتأليف، توفى في دمشق.

(4) ابن سيناء: ابو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على بن سيناء، (370-327هـ)، عالم وطبيب وفيلسوف ولد في بخاري، يعد اول من كتب في الطب من علماء المسلمين وقد ظل كتابه القانون في الطب من اهم المراجع في الطب المرجع الرئيس في الطب لسبعة قرون متتالية، يعتبر فكره الفلسفي امتدادا لفكر الفارابي، تجاوزت مؤلفاته المائتين مؤلف معظمها في الطب والفلسفة.

(5) مسكويه: ابو على بن احمد بن محمد بن يعقوب (330-421هـ)، فيلسوف ومؤرخ وشاعر فارسي، عاصر الدولة البويهية وعمل في خدمتها، ويعتبر من اهم من كتب في علم الاخلاق بمفهومه العلمي الفلسفي، من اهم مؤلفاته تجارب الامم، كتاب الجامع، وكتاب السير.

الحجج الدينية.[1] وكتب الماوردي[2] (توفى 450هـ) مؤلفه (نصيحة الملوك وسياسة الملوك). واستمر هذا التيار في التطور والتجدد حتى عصر الدويلات فنجد كتاب عنصر المعالى قابوس[3] الموسوم (قابوس نامه) او كتاب (النصيحة) وهو أحد الكتب التي ذاع صيتها فيما بعد في الادب الفارسي وبين المستشرقين وهو عباره عن نصائح يقدمها قابوس لابنه كيلانشاه وهو يضم نصائح وحكم وحكايات تمثل دروسا في الحياة والسياسة والحكم، ويحدد للحكام والقادة بشكل عام المناهج والمسالك التي تمكنهم من سياسة الرعية والامساك بمقاليد الحكم لأطول فترة ممكنة، ويعلم الانسان القيم والاخلاق الرشيدة معتمدا اسلوب الوعظ والنصح والتوجيه.[4] والف الوزير نظام الملك الطوسي[5] كتابا اسماه (سياست نامه) او (سير الملوك) تحدث فيه عن نظم وتنظيم امور الدولة والاستقطاع وتنظيم الادارة والجيش والحكم وضرورة قيام العدل. كما ألف الامام الغزالي[6] (التبر المسبوك في نصيحة الملوك) وقد وضعه الامام الغزالي باللغة الفارسية للسلطان محمد بن ملكشاه السلطان السلجوقى. ويعالج الكتاب موضوعات سياسية واجتماعية عديدة جاءت في صورة نصائح ومواعظ ووصايا اخلاقية وغايتها منفعة الحاكم والسياسي وارشاده في حكم الرعية وتأديب الحاشية وعمال البلاط.[7] هذا عوضا عن جزء كبير من المؤلفات ذات الطابع الحكمي والأخلاقي

(1) مسكويه (ابو على احمد بن محمد بن يعقوب)، تهذيب الاخلاق تحقيق ودراسة عماد الهلالي، بيروت: منشورات الجمل 2011م، ص ص11-18

(2) الماوردي: صاحب كتاب الاحكام السلطانية والولايات الدينية، تقدمت ترجمة وافية له في مقدمة هذه الدراسة.

(3) عنصر المعالى قابوس: هو حفيد شمس المعالى قابوس بن وشمكير وهو ينتمي الى اسرة فارسية علوية تسمى الاسرة الزيارة وقد حكمت هذه الاسرة الري واصفهان وجرجان وطبرستان وفارس وكرمان وقاشان وقم وقزوين ما بين 316-470هـ خلال فترة حكم الخليفة العباسي المقتدر بالله وارتبط ظهورها بدخول القرامطة العراق وقد دانت للخلافة العباسية اسميا فقط. لم تذكر كتب التاريخ عنصر المعالى ولم تشير الى نشأته وحياته السياسية وكل ما توفر هي اشارات هامشية عن كتاب قابوس نامة المؤلف الوحيد لقابوس في مرايا الامراء، توفى قابوس سنة 462هـ راجع محمد احمد دمج، ص 26 وما بعدها.

(4) محمد احمد دمج، مرجع سابق، ص 19 وما بعدها

(5) نظام الملك الطوسي (408-485هـ): هو قوام الدين ابو على الحسين بن على بن اسحق بن العباس الطوسي، أحد أشهر وزراء الدولة السلجوقية التي انشأتها سلالة تركية حكمت إيران وافغانستان ومناطق من اسيا وعاصرت الخلافة العباسية في بغداد في عهد الخليفة العباسي القائم بأمر الله ولعبت دورا هاما في الحروب الصليبية والصراع الإسلامي البيزنطي. استنجد بها القائم بأمر الله للقضاء على الدولة البويهية التي سيطرت على مقاليد الامور في بغداد فدخل السلطان السلجوقى طغرلبك الى بغداد وانتزعها وقضى على الدولة البويهية في سنة 447هـ تولى نظام الملك الوزارة للملك السلجوقى الب رسلان ومن بعده ابنه ملكشاه، كان وزيرا لامعا وداعيا للعلم والادب، أنشأ المدارس النظامية في بغداد وجذب اليها الفقهاء والمحدثين وفى مقدمتهم حجة الاسلام الامام الغزالي. راجع تاريخ الدولة السلجوقية في: احمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص 179 وما بعدها.

(6) الامام الغزالي: هو ابو حامد محمد الغزالي الطوسي النيسابوري (450-505هـ)، فقيه وفيلسوف من اشهر علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري، كان له اثر كبير في علوم الفقه والكلام والفلسفة والتصوف والمنطق، عمل بالتدريس في المدرسة النظامية في بغداد بطلب من الوزير السلجوقى نظام الملك واشتهر في تلك الفترة واصبح حجة في العلوم الشرعية، اعتزل التدريس ليتفرغ للعبادة الروحية فتنقل في الكثير من البلدان مثل دمشق والقدس والخليل ومكة والمدينة وكتب كتابه الشير احياء علوم الدين كخلاصة لهذه التجربة الروحية وعاد الى بلده طوس فانشأ مدرسة لتدريس الفقه. من أشهر مؤلفاته تهافت الفلاسفة، الاقتصاد في الاعتقاد، وحقيقة القران.

(7) الغزالي (ابو حامد محمد بن محمد بن محمد)، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ضبط وتصحيح احمد شمس الدين،

السياسي التي وضعها مفكرون في العصر العباسي الثاني كابن الحداد (توفى بعد 673هـ) الذي يعتبر كتابه (الجوهر النفيس في سياسة الرئيس) من أنفس ما ألف في مرايا الامراء. وقد الفه ابن الحداد كما يقول تمجيدا لسياسة الملك الرحيم وهو ابو الفضائل بدر الدين لؤلؤ الأرمني الاتابكى النورى مولى نورالدين ارسلان شاه (توفى 657هـ) والقائم بتدبير دولته ودولة ابنه الملك القاهر عز الدين مسعود والذي ملك امارة الموصل بعد وفاة مسعود في عهد الدويلات في العصر العباسي الثاني وحكم ما يزيد على اربعة عقود. وقد قصد بلاطه الكثير من العلماء والادباء. يدور كتاب (الجوهر النفيس) حول نصيحة الحاكم ودعوته الى العدل ورفع المظالم عن كاهل الرعية لان الظلم هو اول اسباب زوال الملك. وقد بناه على عشرة أبواب هي: فضل العدل، وفضل السياسة، وفضل الحلم، وفضل العفو، واصطناع المعروف، ومكارم الأخلاق، والسؤدد والمروة، وحسن الخلق من الخلق، وفضل المشورة، وفضل السخاء. وطريقته في كل باب البدء بذكر آيات قرآنية أو أحاديث نبوية في الموضوع، يتلو ذلك أقاويل وقصص عن الحكماء على قلة، وعن الخلفاء والأمراء والفقهاء على كثرة.[1] ايضا يعتبر كتاب (تدبير الدول) لابن نباتة[2] الذي اهتم باستخلاص العبر مما مضى من الحكام السابقين حتى يستفيد اصحاب الامر من حوادث التاريخ في سياسة الراهن امتداد لهذا النوع من الفكر وغيرهم كثير. فجميع هؤلاء كانوا اصحاب فضل في بلورة هذا التيار الفكري وفى دفعه بالاتجاه المستقل وبفضل جهودهم تكشفت ملامح الحكمة العملية وتحددت اطرها وينابيعها وابعادها وخصائصها، وانحصرت مفاهيمها بالعدالة والحرية والسلطة والفضيلة والضمير وغير ذلك.[3]

كان اهتمام كُتّاب العصر العباسي الاول منصبا على الناحية العملية لنظام الحكم والادارة أكثر من الاهتمام بالجانب الديني الذي يقيد السياسة بالشريعة. ولكنهم حاولوا مع ذلك ان يمزجوا بين اسس الدين ومبادئه في الحكم وبين المعارف المستمدة من الامم الاخرى وبين متطلبات السياسة العملية اذ كانت لها تقاليدها المتوارثة واصولها الخاصة التي يجدر بالحاكم ان يعلمها. ولذلك تزخر هذه المؤلفات بفيض من الحكم والنصائح والوصايا والتي تدور في فلك

بيروت: دار الكتب العلمية 1988م، ص3 وما بعدها.

(1) ابن الحداد (محمد بن منصور بن حبيش)، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، تحقيق رضوان السيد، بيروت: دار الطليعة 1983م، المقدمة.

(2) ابن نباتة: ابو بكر جمال الدين التميمي المصري (686- 768هـ)، شاعر وكاتب واديب عاش في العصر المملوكي، عاصر الملك المنصور قلاوون وكان عهده يتميز بالاضطرابات وبالفتن وبحركات التمرد التي كان يقوم بها عامة الناس وبالأحداث الخطيرة التي حدثت في هذا العصر مما ترك أثراً كبيراً وبالغاً وعميقاً في نفس ابن نباتة التي تميزت بالعصبية والحساسية المفرطة وعكسها في الكثير من أشعاره حتى جاءت أشعاره في الشكوى من الدهر ومن الناس. بالنسبة الى الحالة الأدبية في عصره على العكس من ذلك فقد كانت الحالة السياسية متدهورة ولكن الحالة الأدبية كانت زاهية في عصر ابن نباتة وشهد عهده ظهور الكثير من عمالقة الأدب والشعر في هذا العصر ومنهم بن هشام النحوي المعروف صاحب شرح بن هشام وكذلك شهد ظهور صاحب قاموس لسان العرب وهو ابن منظور. ولد ابن نباتة وتوفى بالقاهرة الا انه عاش فترة من حياته بالشام، له ديوان شعر ومؤلفات عديدة. انظر سلوى قنديل، المختار من كتاب تدبير الدول لابن نباتة المصري، تقديم رضوان السيد، بيروت: مركز ابن الازرق لدراسات التراث السياسي، 1433هـ ص 63

(3) محمد احمد دمج، مرجع سابق، ص 11

السلطان ومن يتصل به من بقاء الملك والحفاظ عليه وعدل الحاكم واحسانه الى رعيته والتزامه بالأخلاق الواجبة لاستمرار حكمه مثل تأخير العقوبة والاناة والصبر ومنح العطايا وسياسة الجند وغير ذلك. كما يتوجه احيانا الى الكُتّاب أنفسهم فيوصيهم بما يكفل لهم علو المنزلة ودوامها وكذلك الحال بالنسبة للوزراء والحجاب والقواد ورجال الدولة.

بالإضافة الى الكتابة في السياسة الملوكية شارك الكُتّاب مشاركة فعلية في السياسة من خلال صياغة الاوامر والتوجيهات التي يأمر بها الخليفة او الوالي ويصوغها الكاتب او الوزير صياغة فنية أي انه هو الذي يدبجها بأمر الخليفة. ومن نافلة القول ان هذه الرسائل التي كان يحررها الكُتّاب والوزراء كانت هي لسان حال الدولة وهي المعبر عن موقف السلطة من قضايا العصر. وقد اصبحت هذه الرسائل اثارا مهمة لمن اراد دراسة الحياة السياسية والاجتماعية في ذلك العصر اضافة الى قيمتها الفنية والادبية في تاريخ النثر العربي.

وضع مؤلفات أصول صناعة الكتابة وثقافة الكاتب :

أسهم كتاب العصر العباسي الاول في انتاج مؤلفات متخصصة عالجت موضوع الكتابة بصورة منظمة واكدت على جوانب المعرفة التي ينبغي على الكاتب الالمام بها.[1] واتصل تأليف هذا النوع من الكتب بتطورات اوضاع صناعة الكتابة في تلك الفترة وبتطورات مؤسسة الخلافة الادارية. وبدأت هذه المؤلفات تظهر منذ النصف الاول من القرن الثالث الهجري واستمرت حتى وقت متأخر من العصر العباسي الثاني وعرفت هذه المؤلفات فيما بعد (بأدب الكاتب) او (ادب الكُتّاب). بحثت هذه المؤلفات في معايير البلاغة والاسلوب، وادوات الكاتب، واصول التحرير. في معظم الاحيان لم تبلغ هذه المؤلفات نتيجة واحدة بشأن موضوع واحد وقد يقع تناقض بين كتابين يعالجان الموضوع ذاته ولكن مضامينها تلتقي دائما على صعيد من الاصعدة وتمضى في ذلك سبيل ما اتبعه السلف.

لقد أدرك الكُتّاب حاجة الكاتب الى التسلح بمختلف انواع الثقافة وحدثونا عن صعوبة مهمته اذ هو مطالب بالاسترسال حتى تصبح القطعة النثرية وحدة متماسكة تقبلها الافهام جميعا على اختلافها وتباينها. وهو مطالب بمراعاة حال من يكتب عنه وله. وهو مطالب ايضا بمراعاة الايجاز والاطناب ومواضعهما ومراعاة احكام الشريعة وان يكون قادرا على الكتابة في شتى الموضوعات كالعهود والاصلاح والتحريض على الجهاد والنهى والمجادلة. وهو مطالب بمعرفة ادوات الكتابة وحسن التعامل معها ورسوم وتقاليد كتابة الرسائل حسب اغراضها. فمن الافتتاحية الى صدرها الى خاتمتها، وأحسن ما يقال على حسب كل مناسبة، ومراعاة القاب التخاطب التي يخاطب بها متلقى الرسالة ومراتبها. فكل ذلك كان مما ينبغي على الكاتب الالمام به، والكاتب فوق ذلك هو جليس الملوك وهو لذلك مطالب بالاهتمام بمظهره من حسن الهيئة وطيب الرائحة ولباقة القول. وقد تعددت وجوه اهتمام هؤلاء الكتاب بأدب الكاتب وراح بعضهم يفاضل بين ادب الكاتب وادب الشاعر يوازن بين ما يطلب من الكاتب من سعة الثقافة وما لا يكلف به الشاعر.

(1) مصطفى الحيارى، مرجع سابق، ص 6

او الحديث عن مراتب البلاغة واظهار موقع الكاتب من ذروتها وتفوقه على الشاعر والخطيب، او التحدث عن خطورة عمل كاتب الديوان وعلو مكانته الى غير ذلك. فيما يلي اعرض لأوائل المؤلفات التي ساهمت في خلق هذا التيار الأدبي وهي:

رسالة عبد الحميد الكاتب (توفى 132هـ):

كانت من أوائل ارهاصات هذا النوع من الكتابة وقد ظهرت في بداية العصر الأموي وهي رسالة شهيرة كتبها عبد الحميد الكاتب[1] في النصائح والوصايا للكتاب. وقد اعتبرت هذه الرسالة اول دليل لأخلاق الكاتب وعمله وما يجب عليه معرفته والالمام به من صنوف الثقافة وفنون التعامل. لقد حدد عبد الحميد الكاتب في رسالته المشهورة مكانة الكُتّاب كأصحاب صناعة متميزة في المجتمع. فالكُتّاب في نظره اعلى فئات السوقة او العامة مركزا من حيث صناعتهم التي يعتاشون منها ومكانهم في المجتمع يأتي بعد الملوك مباشرة لأنهم اصحاب أشرف صناعة وبهم ينتظم الملك وتستقيم للملوك امورهم. كما قال عبد الحميد موجها رسالته الى الكُتّاب: « وبتدبيركم وسياستكم يصلح سلطانهم وتعمر بلادهم.»[2] كما بين حاجة الخليفة او الولي عموما الى الكُتّاب لمعاونته في السياسة والحكم. ثم بين عبد الحميد الخلال المحمودة التي ينبغي ان يتحلى بها الكاتب من الحلم والفقه والعفاف والعدل والوفاء وكتم الاسرار والاقدام في موضع الاقدام والاحجام في موضعه مع اللين في مكانه والشدة في وقتها، وفى المقابل عليه اجتناب المساؤى من الطمع والسعاية والنميمة والكبر والعظمة وغيرها. ويلاحظ ان هذه الصفات هي نفسها التي توسع في معالجتها من كتب بعد عبد الحميد في ادب الكاتب او ادب الكُتّاب.

يذكر عبد الحميد بعد ذلك المعرفة الضرورية للكاتب فيقول موجها نصيحته للكُتّاب: « فنافسوا يا معشر الكُتّاب في صنوف العلم والادب، وتفقهوا في الدين، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربية واجيدوا الخط ، وارووا الاشعار وايام العرب والعجم واحاديثها وسيرها، ولا يضعفن نظركم في الحساب فانه قوام كتاب الخراج منكم.»[3] وهنا يلاحظ ان عبد الحميد الكاتب كان مهتما بإرشاد زملائه من الكُتّاب الى نوع الثقافة التي ينبغي ان يأخذوا انفسهم بها فالثقافة الدينية صنو الالمام بعلوم اللغة العربية وهما عماد ثقافة الكاتب. ثم نجده يلتفت الى كاتب الخراج ويخصه بضرورة معرفة الحساب. وهو يفرق في هذه اللمحة اليسيرة عن حاجة كاتب الخراج الى علم الحساب بين نوعين من العلوم علوم يجمع عليها جميع الكُتّاب ولا يستغنى عن تحصيلها أحد منهم وعلوم تستدعيها طبيعة المهام التي يقوم بها الكاتب.[4] وبحديثه هذا يفتح عبد الحميد الباب على مصراعيه امام الكُتّاب للتنبه على موضوع الكتابة ونوع الثقافة التي يحتاج اليها الكاتب حتى نجد منهم من يتحدث عن ثقافة كل كاتب على حده. او من يخصص

(1) عبد الحميد الكاتب: تقدمت ترجمته في الفصل الاول.

(2) محمد كرد على، رسائل البلغاء، ص 172-175

(3) نفسه، ص 174

(4) نبيل خالد رباح أبو على، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656هـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م، ص 259

كتابا للحديث عن لون من ألوان الكتابة وما يحتاجه المشتغل بها من الثقافة. واخيرا لا يغفل عبد الحميد ان يذكر الكتاب بتقوى الله في حال توليهم امور العباد والحكم بالحق بين الناس وعد تعديهم قدر صناعتهم في تعاملهم مع الناس وفى اسلوب حياتهم الخاصة من مأكل وملبس وغير ذلك. ثم وصاهم بالتحاب والتواصل في الصناعة وخاصة في تعاملهم مع شيوخ الكُتّاب ومن نبا به الزمان منهم.[1] هناك ايضا العديد من المؤلفات التي لحقت برسالة عبد الحميد والتي اولت صناعة الكاتبة عنايتها واسهمت في التيار الأدبي الذي اهتم بصناعة الكتابة والذي تبلور فيما بعد فيما عرف بمؤلفات ادب الكاتب او ثقافة الكاتب ومن اهمها:

كتاب (ادب الكاتب) لابن قتيبة الدينوري[2] (213-276هـ):

يعد ابن قتيبة من الكتاب المكثرين في التأليف. ومن كتبه التي ذاع صيتها: (غريب القران)، (غريب الحديث)، (مشكل القران)، (مشكل الحديث)، (عيون الاخبار)، وكتاب (المعارف) ومنها ايضا (الرد على الشعوبية) و(فضل العرب على العجم) و(المشتبه من الحديث والقران) وغيرها. ألف ابن قتيبة كتابا سماه (ادب الكاتب) وهو من اوائل المؤلفات التي اثرت هذا التيار الأدبي. ويهتم هذا الكتاب بوضع بعض القواعد في صناعة الكتابة لناشئة الكتاب. كانت بواعث تأليف كتاب (ادب الكاتب) وليدة عصرها حيث كانت الحاجة ماسة الى حركة تنوير لغوى، فالقرن الثالث هو القرن الذي ترامت فيه ارجاء الدولة وتنافس في خدمتها جمع غفير من الشعوب الاسلامية التي لم تكن العربية لغتها الاصلية. وفى نفس الوقت ظهر طموحهم الى ولوج ميدان الكتابة. وظهر جدهم في تحصيل الثقافة الاسلامية وتحصيل العربية. وانتشر هؤلاء في دواوين الدولة ومنهم من استطاع الوصول الى ديوان الانشاء وكان هذا الديوان من الصق الدواوين بالخليفة واكثرها تعاملا مباشرا معه. والخليفة الى ذلك العهد عربي قح لا تزال وشائجه بلغته متينة فكان من أقبح ما يعاب به كاتب ان يجهل شيئا في اللغة بحضرة الخليفة. وان يذيع عنه هذا العيب في بيئة لا يزال سلطان العربية فيها قويا. ولا شك ان الغيرة على العربية نفسها كانت دافعا لابن قتيبة وضرورة صيانتها والتذكير بها والحفاظ عليها من فساد العجمة لأنها لغة القران والحديث. فبواعث ابن قتيبة اذن تستهدف غايات تنويرية تعليمية في المجال الذي اختاره في كتابه وهي غاية تلتقي مع غايات اخرى ظهرت في العصر نفسه.

قسم ابن قتيبة كتابه الى اربعة اقسام وهي: كتاب المعرفة، وكتاب تقويم اللسان، وكتاب تقويم اليد، وكتاب الابنية. وكتاب المعرفة هو اشمل هذه الابواب جميعا ذكر فيه ابن قتيبة كثرة الاخطاء التي يقع فيها الكُتّاب وعدد فيه بعض سقطات الكُتّاب الناتجة عن عدم المامهم

(1) المرجع السابق، نفس المكان

(2) ابو قتيبة الدينوري: هو ابو محمد عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم بن قتيبة الدينوري. وهو اديب وفقيه ومحدث، ينسب الى مدينة مرو عاصمة خراسان. عاش في بغداد في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. كان قاضيا لمدينة الدينور من بلاد فارس، اتصل بالوزير ابو الحسن عبيد الله بن يحي بن خاقان وزير الخليفة المتوكل وأهدى اليه كتابه ادب الكاتب. ومن مؤلفاته كتاب (الشعر والشعراء) الذي نادى فيه بالتجديد في الشعر ومن مؤلفاته الاخرى: (الامامة والسياسة) و(ادب الكاتب) و(تأويل غريب القران) و(غريب الحديث) و(عيون الاخبار).

بدقائق اللغة ليبين اهمية كتابه في الاخذ بيدهم الى جادة الطريق وتسهيل ما صعب او خفي عليهم من معميات الكتابة. اهتم ابن قتيبة في كتابه بكُتّاب الدواوين على وجه الخصوص وبالأصول الاسلامية والعربية في ثقافة الكاتب. فبينما يطلب عبد الحميد الكاتب من الكُتّاب الاطلاع على مختلف ألوان الثقافة الاصيل منها والدخيل، والمستحدث منها والمترجم، وما عند الفرس من كتابات ورسائل، وما نقل عن اليونان من حدود المنطق، نجد ابن قتيبة يخشى من التعلق بتلك العلوم الدخيلة. ولعل من اهم الاسباب التي دفعته الى تأليف كتابه ادب الكاتب هو ما شاهده من ولوع كتاب عصره بالفلسفة والمنطق وعلوم الاوائل مع ما فيها من مجافاة للعقيدة الإسلامية. لذلك نجده يهاجم في مقدمة كتابه من يريد فصل ناشئة الكُتّاب عن لغة القران. وهو يرى ان الاغراق في استخدام الالفاظ الدخيلة في الكتابة تجذب الشباب المسلم الى عالم ملئ بالأساطير والخرافات- عالم الفلاسفة القدماء- ويحول بينهم وبين عالمهم الإسلامي المشرق بنور الإسلام. وبالتالي فان ابن قتيبة يحث الكُتّاب على التزود بالعلوم الاسلامية والعربية وذلك بحفظ القران والتبحر في علوم الدين من حديث واصول فقه وغيرها ودراسة اللغة العربية والوقوف على قواعدها الصرفية واللغوية. كما يحث على النظر في الحساب والهندسة ومعرفة اخبار الناس ودراسة السير والتاريخ والانساب.

يقول ابن قتيبة ان من شئون العربية الغريب الذي يلزم الكُتّاب معرفته. وفائدة ذلك تجنب مواقع الحرج في مجالس الامراء والخلفاء. فالكاتب يفترض فيه معرفته بدقائق اللغة واسرارها فلا يجهل معنى كلمة وردت في كتاب، يقول: «واي موقف أخزى لصاحبه من موقف رجل من الكُتّاب اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه وارتضاه لسره فقرأ عليه يوما كتابا وفى الكتاب: مطرنا مطرا كثر عنه الكلأ، فقال له الخليفة: وما الكلأ؟ فتردد في الجواب وتعثر لسانه وقال: لا أدري، فقال الخليفة: سل عنه.[1] وينتقد ابن قتيبة موقف هذا الكاتب ويقول ان جهله بالغريب أنقص من منزلته وعابه، ولو أجهد نفسه في تتبعه لما وقع في الحرج ولكن هذا النوع من الكُتّاب في رأى ابن قتيبة «استطابوا الدعة واستوطئوا مركب العجز واعفوا أنفسهم من كد النظر وقلوبهم من تعب التفكير حين نالوا الدرك بغير سبب وبلغوا البغية بغير الة.»[2] كذلك زود ابن قتيبة الكُتّاب ببعض النصائح والارشادات التي يجب مراعاتها عند ممارستهم الكتابة كأن يتجنبوا في كتابتهم الوحشي والغريب وتعقيد الكلام، وان يراعوا المقام فينزلوا الفاظهم في كتبهم على قدر الكاتب والمكتوب اليه. والا يعطوا خسيس الناس رفيع الكلام، ولا رفيع الناس وضيع الكلام. كما يوصيهم بالحرص على تناسق كتبهم والمجانسة بين الالفاظ والغرض، وذلك بالنظر الى موضوع الكتاب والمخاطبين. ثم ينصح بعد كل هذه التوجيهات بالصبر والمثابرة في تحصيل العلوم والمعارف اللازمة واكتساب الخبرة والمران حتى يصل الكاتب الى ما يصبو اليه.[3] واما الباب الثاني الذي سماه (تقويم اليد) فهو يتحدث عن اصول الكتابة الصحيحة وهي في رأى ابن قتيبة من

(1) الدينوري، (ابو محمد عبد الله بن مسلم)، ادب الكاتب، تحقيق محمد الدالي، بيروت: مؤسسة الرسالة (د.ت)، ص10

(2) نفس المصدر، ص 9-10

(3) نفسه، ص 5-20.

الاهمية بحيث لا يحتمل خطأ الكُتّاب في شيء منها. ولذلك فقد عرض فيه ابن قتيبة لتقنين قواعد الكتابة الاملائية. اما القسم الثالث المسمى (تقويم اللسان) فيبحث في تعديل ما تخطئ به العامة وتصحيحه ويعرض فيه ابن قتيبة ابوابا كثيرة يقوم فيها اخطاء العامة ويسترسل في تقويم اخطاء اللسان التي تنتج عن الخلط بين كلمات متشابهة في الحروف ومختلفة في المعنى وربما تشابهت في اللفظ وفى المعنى. بينما افرد الباب الاخير لمناقشة ابنية الافعال وابنية الاسماء. اتكأ ابن قتيبة كثيرا على الاستشهاد بايات القران الكريم والأحاديث النبوية واقوال اهل اللغة وشعر الاوائل من الشعراء لبيان منهجه. وقد لا تخلو صفحة من صفحات كتابه من الاستشهاد بالقران والأحاديث والشعر وكان هذا من أبرز اساسيات منهجه في الاقناع ودقة ما يأتي به من علوم.

الرسالة العذراء لابن المدبر[1] (توفى 279هـ):

ومن الرسائل المهمة ايضا في هذا المجال الرسالة العذراء.[2] وهي رسالة مهمة تناولت العديد من الموضوعات التي تتصل بصناعة الكتابة واسهمت في تواصل زخم تيار ادب الكاتب. ظهر ابن المدبر في نهاية القرن الثالث الهجري وكانت تلك فترة نضج واضح فيما يختص بتطور النثر الفني الذي كان قد استلهم مؤثراته وخطا نحو النضج.[3] وابن المدبر من اصحاب الاعمال الفريدة المتميزة اذ يمكن من خلال عمله الفريد وهو الرسالة العذراء ان نقف على طبيعة تطور النثر في ذلك العصر اضافة الى اسهامها فيما أطلق عليه ادب الكاتب. يقول ابن المدبر انه أسمي رسالته العذراء لأنها « بكر معان لم تفترعها بلاغة الناطقين، ولا لمستها اكف المفوهين، ولا غاصت عليها فطن المكلمين، ولا سبق الى الفاظها اذهان الناطقين.»[4] تعتبر الرسالة العذراء من أنضج الرسائل في موضوعها حيث استقصى فيها ابن المدبر كل ما يتعلق بالكتابة وادواتها ومؤهلات الكاتب وما ينبغي ان يتزود به من معارف وعلوم. وهو في رسالته لا يكتفى بتبيان الثقافة التي يحتاج اليها الكاتب بل يوضح له سبل تحصيلها وما يعينه على اتقان صنعته من معارف وعلوم مساعدة. كما يحثه على التمرس والاطلاع على انتاج سابقيه من الكُتّاب والخطباء بغية التعرف على مذاهبهم والسير على سنتهم[5]، فيقول: «واعلم ان الاكتساب بالتعلم والتكلف، وطول الاختلاف الى العلماء، ومدارسة كتب الحكماء، فان اردت خوض بحار البلاغة وطلبت ادوات الصحافة فتصفح من رسائل المتقدمين ومن رسائل المتأخرين ما تعتمد عليه في تلقيح ذهنك واستنتاج بلاغتك، ومن نوادر كلام الناس ما تستعين به، ومن الاشعار والاخبار والسير والاسمار ما يتسع به منطقك ويعذب به لسانك ويطول به قلمك. وانظر في كتب المقامات والخطب، ومحاورات العرب، ومعاني العجم، وحدود المنطق، وامثال الفرس ورسائلهم وعهودهم، وسيرهم ووقائعهم،

(1) ابن المدبر: هو ابو اليسر ابراهيم بن محمد بن المدبر (توفى 270هـ)، شاعر وكاتب من وجوه اهل العراق. كان المتوكل يقدمه ويؤثره واستوزره المعتمد في خلافته وتوفى سنة 279هـ

(2) النص الكامل للرسالة العذراء في: محمد كرد على، رسائل البلغاء، مرجع سابق، ص 176-193

(3) نبيل خالد رباح ابوعلى، مرجع سابق، ص 260

(4) محمد كرد على، رسائل البلغاء، ص 193

(5) نفس المرجع، ص 260

ومكايدهم في حروبهم بعد ان تتوسط في علم النحو والتصريف واللغة والوثائق والسور والشروط ككتب السجلات والامانات فانه اول ما يحتاج الكاتب. وتمهر في نزع آى القران في مواضعها واجتلاب الامثال في اماكنها، واختراع الالفاظ الجزلة، وقرض الشعر الجيد وعلم العروض فان تضمين المثل السائر والبيت الغابر البارع مما يزين كتابك.»[1]

ان المتأمل في هذه الرسالة يجد انها خطة محكمة لتثقيف الكاتب بما يلزمه من ألوان الثقافة سواء كانت عربية اصلية ام مستحدثة او اجنبية مترجمة او علوم مساعدة. وابن المدبر لا ينسى اهمية التمرس والاطلاع على شرائع الكُتّاب السابقين ومذاهبهم في كتاباتهم وخطبهم فهم القدوة التي يجب على ناشئة الكُتّاب الاقتداء بها. وإذا كان ابن المدبر مهتما بتزيين العقول فانه لا يهمل مظهر الكاتب ايضا فالكُتّاب في نظره جلساء الملوك والخلفاء ولذلك فان من كمال الة الكتابة ان يكون الكاتب:» بهي الملبس، نظيف المجلس، ظاهر المروءة، عطر الرائحة.»[2] انشغل ابن المدبر في رسالته العذراء بمعالجة قضية اللفظ والمعنى فتحدث عن الالفاظ والتراكيب وعما يُستقبح ويُستحسن منها، وضرورة الموافقة بين اللفظ والمخاطب به، وضرورة موافقة الكلام للمخاطب ومكانته وما يليق بتلك المكانة من تراكيب وعبارات. ونجده في موضع اخر يضع بعض الوصايا التي تعين الكاتب على تجويد اسلوبه من ضرورة انتقاء الالفاظ وتخيرها فيقول: « فزن اللفظ قبل ان تخرجها بميزان التصريف اذا عرضت، وعاير الكلمة بمعياره اذا سنحت، فربما مر بك موضع يكون مخرج الكلام اذا كتبت (انا فاعل) احسن من ان تكتب (انا افعل)، وموضع اخر يكون فيه (استفعلت) احلى من (فعلت)».[3] وفي موضع اخر نجده يقدم اللفظ على المعنى ويقول ان المعاني قائمة في نفوس الناس وانما يتمايز الناس في قابليتهم عند التعبير عن هذه المعاني القائمة في النفوس وجودة ما يعبرون به ويمايزه عن غيره. وفي موضع اخر نجده يشدد على موافقة الكلام لمقتضى الحال، وهكذا نجد ابن المدبر ينوع في الوصايا والاقوال في قضية اللفظ والمعنى وشروط جودتهما.

كما تحدث ابن المدبر عن جودة الرسالة فقد تحدث ايضا عن عيوب الرسالة وضرورة تلافيها حسب مواقعها من اجزاء الرسالة. فعلى سبيل المثال فان في بدايات الرسائل وصدورها على الكُتّاب ان يتجنبوا بعض العبارات مثل ابقاك الله طويلا، وعمرك مليا، ثم يقترح على الكُتّاب بعض التراكيب المناسبة. وكذا الحال في خواتيم الرسائل فيقول على الكاتب ان يراعى في خاتمة الرسالة المعنى الذي يكتب فيه ففي معرض الشكوى يقول في ختام الرسالة عبارات مثل: والله المستعان، وحسبنا الله ونعم الوكيل. كما ذكر بعض الامور المتممة لجودة الرسالة مثل ضرورة الصلاة على النبي (ص) وضرورة ذكر تاريخ الرسالة وكيفيته واهمية ذلك في تحقيق الاخبار وقربها وبعدها. حفلت الرسالة العذراء ايضا بتعاريف مختلفة للبلاغة والكاتب البليغ فيقول على سبيل المثال: «فالكاتب هو من إذا صاغ كتاب سالت على قلمه عيون الكلام من ينابيعها وظهرت من

(1) نفس المرجع، ص 177

(2) نفسه، ص 177

(3) نفسه، ص 184

معادنها وندرت من مواطنها من غير استكراه ولا اغتصاب.» واما الكاتب البليغ فهو الذي يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ويكون اللفظ اسبق الى الاستماع من معناه الى القلوب[1].» وقد كان لأدوات الكتابة وكيفية اعدادها نصيب معلوم من الرسالة حيث حدث ابن المدبر ناشئة الكتاب عن الحبر وكيفية اعداده، ومتى يحتاجون الحبر السري، وكيفية صناعته واستخدامه، ثم يحدثهم عن القلم وكيفية بريه وانسب الادوات لذلك، وعن انواع الاقلام وخطوطها، وعن القلم واهميته وجودة الخط وأثرهما في فهم الرسالة الى غير ذلك من مباحث اهتم بها لاحقوه فوجدناهم يفردون لها الفصول الطوال دون ان يخرجوا فيها عن جوهر حديثه.

كتاب (البرهان في وجوه البيان) لابن وهب الكاتب (توفى 335هـ):

مؤلف هذا الكتاب هو ابو الحسين اسحق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب. وهو كاتب ونحوى وناقد ومؤلف عاصر النصف الاخير من القرن الثالث الهجري والنصف الاول من القرن الرابع الهجري وينتمي الى اسرة ال وهب الشهيرة في صناعة الكتابة.[2] يعتبر كتابه (البرهان في وجوه البيان) من اهم المؤلفات التي اثرت تيار ادب الكتاب. اهتم ابن وهب في كتابه بما يحتاج اليه الكاتب من ألوان الثقافة بذكر الحد الادنى من اشكال الثقافة للكُتّاب ولم يخرج في حديثه عما ذكره ابن قتيبة وان كان أكثر توسعا وحصرا لكل ما تلزم الكاتب معرفته من علوم النحو والبلاغة كالخبر والطلب والمعارضة والمقابلة والاشتقاق وانواعه والمعتل وانواعه وما الى ذلك من المواضيع النحوية التي يحتاجها الكاتب في صناعته. ثم تحدث عن علوم البلاغة كالشعر والنثر وبلاغة كل منهما. ثم تحدث عما يحتاج اليه الشاعر من ادوات لتجويد عمله كالمقابلة والنظم وجزالة اللفظ (اوسخافته) واعتدال الوزن والاصابة في التشبيه وسهولة القول وجودة التفصيل. وتحدث عن كل ما ينبغي للشاعر ان يعمله لتجويد الشعر خاصة من تكسب منهم بنظم الشعر. ثم تحدث عن الخطابة وانواعها والكُتّاب وانواعهم.[3] ثم انتقل ابن وهب كابن قتيبة الى اسداء النصائح التي قد تفيد الكُتّاب عند ممارستهم الكتابة كأن ينبه الى ضرورة معرفة مراتب المكاتبين وما يليق بكل مرتبة منهم سواء في المكاتبات الرسمية او الاخوانية. فيقسم المكاتبين الى ثلاث مراتب: مرتبة من فوق الكاتب، ومرتبة نظيره، ومرتبة من دونه. ثم يقسم كل واحدة من هذه المراتب الى ثلاث اقسام وينبه الكاتب الى ما يليق في مكاتبة كل قسم **من** هذه الاقسام التسعة، وفى جميع الاحوال مع مراعاة المكتوب عنه والمكتوب اليه والغرض الذي يُكتب فيه. اهتم ابن وهب ايضا بأنواع الكُتّاب والثقافة التي تلزم كل كاتب منهم. فالمترسل ملزم اضافة الى كل ما سبق ذكره من علوم ومعارف الى بدراسة الخطب والرسائل والوقوف على مذاهب الادباء ووسائلهم الفنية، كما انه مطالب بحفظ الاشعار والتمثل بالقران الكريم، فان الكاتب في نظر ابن وهب إذا تمثل بعلوم الاوائل واستشهد بالقران كان ذلك «أحلى لمنطقه وأحسن عند

(1) نفسه، ص 178

(2) ابن وهب الكاتب: تقدمت ترجمته في الفصل الاول، وانظر ترجمته كاملة في مقدمة البرهان في وجوه البيان ص 24 وما بعدها.

(3) ابن وهب، مصدر سابق، ص 92-253

سامعه.»[1] ويقسم ابن وهب كتاب العقد (الحساب) الى ثلاثة انواع: كاتب مجلس وكاتب عامل وكاتب جيش. وهذا النوع من الكُتّاب كما يرى ابن وهب لا يحتاجون الى التبحر في علوم اللغة كالكاتب المترسل بل هم في حاجة الى اتقان الحساب والذي يصنفه ابن وهب الى خمسة ابواب هي الجمع والتفريق والتضعيف والتصريف والنسبة.[2] وفوق ذلك يحتاج كل كاتب من هؤلاء الى معارف خاصة تمكنه من التفوق في تخصصه الدقيق، فكاتب المجلس يحتاج الى ان يكون حاذقا باقتصاص الكتب وترتيب ابوابها في المعاملة، بينما يحتاج كاتب العامل ان يكون متمرسا بعلم الزرع والمساحة لكثرة ما يجرى في عمله وحسباناته من ذلك وغير ذلك من معرفة الاشكال والمقاييس الهندسية التي تقع عليها المساحات. ويستمر ابن وهب هكذا الى ان يستوفى كل معرفة يحتاج اليها كل كاتب حسب طبيعة ما يعالجه من انواع الكتابة.[3]

كتاب (الصناعتين: الكتابة والشعر) لابن هلال العسكري[4] المتوفى 395هـ:

مؤلف هذا الكتاب هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحي بن مهران العسكري. ولد سنة 310هـ بمدينة عسكر بالقرب من البصرة فلقب بالعسكري. وهو لغوى واديب وشاعر بل انه يقف في مصاف كبار العلماء والادباء ومن مصنفاته الادبية (المحاسن في تفسير القران) و(جمهرة الامثال). يعتبر كتابه (الصناعتين) من الكتب التي اثرت بدورها في تيار ادب الكاتب. اراد ابو هلال العسكري من تأليف كتاب الصناعتين وضع كل ما يُحتاج اليه في صناعة النظم والنثر بين يدي العاملين في مجال الادب وخاصة انه لحظ تخبطهم وحاجتهم الى الارشاد وهو يقول في ذلك: «فلما رأيت تخليط هؤلاء الاعلام فيما راموه من اختيار الكلام ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل ومكانه من الشرف والنبل ووجدت الحاجة اليه ماسة والكتب المصنفة فيه قليلة، .... فرأيت ان اعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يُحتاج اليه في صنعة الكلام نثره ونظمه ويستعمل في محلوله ومعقوده من غير تقصير واخلال واسهاب واهذار.»[5] لا شك ان ابا هلال العسكري افاد من الموضوعات التي طرحتها المؤلفات التي سبقت كتابه في صناعة الكتابة وربما كان هذا هو السبب الذي جعله يحجم عن التعرض لما يحتاج اليه الكاتب من انواع الثقافة واقتصاره على صنعة الكتابة التي يجب على الكاتب ان يعرف اسرارها.

قسم العسكري كتابه الى مقدمة وعشرة ابواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا. تحدث في المقدمة عن فضل علم البلاغة. وفى الباب الاول تحدث عن الفصاحة والبلاغة واقوال العلماء في حدها. وتحدث في الباب الثاني عن الجيد والرديء من الكلام ومميزات كل منهما. وتحدث في الباب الثالث عن صناعة الكلام. وفى الرابع تحدث العسكري عن النظم وعوامل جودته

(1) نفس المصدر، ص 284

(2) نفسه، ص 287

(3) نبيل خالد رباح ابو على، مرجع سابق، ص 263

(4) ابو هلال العسكري: راجع ترجمته في مقدمة كتابه الصناعتين.

(5) العسكري (ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل)، الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق مفيد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية 1981م، ص 13

واسباب الاساءة فيه. وفى الخامس تحدث عن الايجاز والاطناب والمساواة. وتناول في السادس السرقات الأدبية. وتناول في السابع التشبيه وحدوده وفوائده وما يستقبح منه. وفى الثامن تحدث عن السجع والازدواج. وخصص التاسع للبديع وصوره. والعاشر عن مبادئ الكلام ومقاطعه وحسن الخروج من غرض الى اخر في الشعر. والكتاب في ابوابه العشرة يحرص على تقديم الافكار بصورة تعلم ناشئة الكُتّاب الذين يحرصون على جمال الفكرة وحسن الصورة قواعد الصناعة ويرسم لهم اساليب الاجادة والاتقان. وهكذا أسهم كُتّاب العصر العباسي الاول عبر هذه المؤلفات في وضع اسس ثابتة لصناعة الكتابة وقد استمر هذا التيار الذي اهتم بأسس صناعة الكتابة وادواتها واخلاقياتها وثقافة الكاتب وما يحتاج الى التزود به من معارف ومصادر هذه المعارف. وقد بدأ هذا التيار برسائل قصيرة للكُتّاب في شأن تجويد صناعة الكتابة والاهتمام بادبياتها وثقافة الكاتب واخلاقياته مثل رسالة عبد الحميد الكاتب والرسالة العذراء وانتهى بالتيار الأدبي المسمى (بأدب الكُتّاب) او (ادب الكاتب) والذي سعى الى سن احكام خاصة للكتابة يجب ان يلتزم بها الكاتب وجعل الكتابة تخضع لمعيارية خاصة كما راعى الاهتمام بثقافة الكاتب وهيئته واخلاقياته وسلوكه ومظهره العام.

تطور صناعة ومؤسسة الكتابة:

تطورت صناعة الكتابة خلال العصر العباسي الأول تطورا مضطردا. وقد كان من اهم العوامل التي ساهمت في ذلك هو التطور التدريجي في طبقة الكُتّاب التي كانت تتمدد باستمرار طوال العصر العباسي الاول وضمنت تزويد الدولة بالكُتّاب والوزراء الاكفاء. زاد الاهتمام بمؤسسة الكتابة ايضا لأنها اصبحت طريقا للوصول الى أرقي المناصب الادارية وهي الوزارة. تطور ديوان الانشاء في العصر العباسي الاول نتيجة للاهتمام بالكتابة وتطور اساليبها. وإذا كانت اللغة وآدابها قد تطورت في العصر العباسي فان الكتابة الفنية قد تطورت بشكل خاص في هذا العصر. ففي دواوين الخلافة وبين مظاهر الحضارة ازدهر هذا الفن وقد كانت منزلته من قبل دون منزلة الشعر والخطابة ولهذا سُمى هذا العصر بعصر الكتابة.[1] وتبعا للتنافس القائم في سوق العمل اسهمت التخصصية في الاعمال الكتابية في طلب التجويد والكمال مما ادى بشكل مباشر الى تطور مؤسسة الكتابة نفسها. ومما لا شك فيه ان المنافسة القائمة على العمل في دواوين الدولة او الوصول الى منصب الوزارة اضافة للمنزلة التي حظي بها الكُتّاب والتشجيع الذي ظفروا كان له الفضل في طلب الاجادة والافتنان من جانب الكُتّاب. كما كان له الفضل ايضا في الدفع بمؤسسة الكتابة قدما حتى أصبح ديوان الانشاء في العصر العباسي الاول قبلة الانظار كما أصبح مدرسة فنية جامعة تلتقي فيها الاساليب عربية واعجمية.[2]

وكان العرب قد استقبلوا في هذا العصر حضارة جديدة هي مزيج من حضارة العرب وحضارتي الفرس والروم فصقلت الاذواق وهذبت المشاعر ورققت الحاشية فتطورت الكتابة

(1) محمد نبيه حجاب، مرجع سابق، ص 79

(2) نفسه، ص 88

واساليبها تطورا سريعا. وقد اظهرت اساليبها مرونة كبيرة لأنها استطاعت ان تستوعب كل الثقافات التي غزت المجتمع خلال العصر العباسي الاول نتيجة لاتساع رقعة الدولة الاسلامية ودخول الكثير من الشعوب التي كانت لها حضارات ضاربة في القدم منذ فترة ما قبل الاسلام. استطاعت الكتابة ان تستوعب هذه الثقافات الوافدة وافادت منها فغدت كنهر كبير روافده جداول من ثقافات متنوعة لا تعد ولا تحصى.[1] وتكاد المصادر تجمع على ان نمو الحضارة والسلطان في العصر العباسي أثر في الانشاء تأثيرا زاده تأنقا. وباتساع حركة الترجمة اتسعت لغة الكتابة كما تعددت اغراضها وموضوعاتها بتعدد عمل الدواوين. فأصبح الكاتب يهتم بدقة المعنى واستقصاء جميع جزئياته وترتيب الافكار ترتيبا منطقيا، والغلو في الاطناب والايجاز، وسهولة العبارة وانتقاء الفاظها، وشيوع السجع القصير الفقرات غالبا، والولوع بالمحسنات البديعية كالجناس والطباق والتوجيه، وضرب المثل، وتضمين الأحاديث النبوية، والاقتباس من كلام البلغاء، وزيادة انواع البدء والختام في الرسائل، وزيادة الرسوم في الالقاب والدعاء، وتخصيص كل ذي مرتبة بلقب او دعاء بما يشعر بتعظيم الملوك والامراء.

زاد من الاهتمام بصنعة الكتابة لأنها اصبحت طريقا ممهدا للوصول الى منصب الوزير كما رأينا من خلال الفصل الثاني وقد ادى ذلك ايضا الى دفع الكُتّاب الى مزيد من التجويد وطلب الكمال في تحصيل العلم والوان الثقافة. فقد كان يشترط فيمن يتولى الوزارة من الكُتّاب القدرة الكتابية والفصاحة والبيان واجادة علوم اللغة وغريبها، والنحو والعروض، والاشتقاقات والاستعارات، والمعرفة بإشعار الجاهلية والاسلام ومعرفة غريب القران وحفظ مشكله ومتشابهة، مع الالمام باختلاف فقهاء الامصار في مسائل الفقه، ثم الالمام بعلوم الهندسة والمنطق وعلوم النفس والالهيات.[2] وقد جعل هذا الشرط منصب الوزير مطمحا يرنو اليه الكثيرون من الكُتّاب فاجتهدوا في تعلم افانين الكتابة والفصاحة ليدركوا هذا المنصب. وقد دلت الشواهد التاريخية على ان من وصلوا الي هذا المنصب كانوا في منتهى الكفاية العلمية والبلاغية فأبو سلمة الخلال كان عالما بالأخبار والاشعار والسير والجدل. واما البرامكة فكانوا ذوي قدم راسخة في الكتابة وصنعتها، بينما لقب الفضل بن سهل بذي الرياستين لجمعه بين التدبير والكتابة.

ومن الملاحظ انه على كثرة الكُتّاب لم يصل للوزارة الا القليلون منهم وقد انخرط معظم الكُتّاب في خدمة الامراء او الاعيان او الوزراء. وكان لكل وزير كاتب بل كُتّاب يعينونه وكان لرجال الدولة وولاة الاقاليم كُتّاب فعلى سبيل المثال كان ابن المقفع يكتب ليزيد بن عمر بن هبيرة والى مروان بن محمد اخر خلفاء بنى امية على كرمان سنة 128هـ. وكان عمرو بن مسعدة يكتب

(1) المصدر السابق، ص 81

(2) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص466

أمون. وكان عبد الله بن سوار بن ميمون[1] يكتب ليحي بن خالد البرمكي وهكذا[2]. وهكذا نجد ان منصب الكاتب في حد نفسه كان هو الطريق الموصل الى الوزارة الشيء الذي دفع الكثيرين من الكُتّاب الى الاجادة في فنونهم والافصاح بأقوى واوضح الاساليب عن المعاني المطلوبة منهم حتى اوصلت الاجادة الكتابية كثيرين من صغار الكُتّاب الى بلاطات الخلفاء. وهنا ايضا ينبغي الاشارة الى حقيقة مهمة وهي ان عدم وصول هذا الكاتب او ذاك الى الوزارة لا يعني بالضرورة انه لم يصل الى اجادة الصناعة في الكتابة، بل على العكس فان هناك الكثيرين من الكُتّاب الذين كانت لهم اسهامات كبيرة في مجال النثر الفني والفكر السياسي لم يصلوا الى منصب الوزارة. وقد يكون ذلك متعلقا بالظروف الموضوعية للفترة الزمنية التي عاش فيها هذا الكاتب او ذاك، وقد يكون للمنافسة الكبيرة التي كانت مشتعلة على تولى الوزارة دورها في الا يتمكن هذا الكاتب او ذاك من الوصول الى هذا المنصب. ولكن تظل اثار هؤلاء الكُتّاب شاهدة على مدى تمكنهم واسهاماتهم في تطور ورقى النثر الفني في تلك الفترة المهمة من فترات التاريخ والحضارة الاسلامية.

تطور رسوم تحرير الرسائل الديوانية:

اتضح من خلال عرضنا عن تاريخ الرسائل في الفصول السابقة ان الميلاد الحقيقي للرسائل السياسية يعود الى عصر البعثة المحمدية. حيث كانت الحاجة ملحة الى قيام هذا النوع من الرسائل بواجبه في نشر الاسلام ودعوة الملوك والامراء ورؤساء القبائل للدخول في الدين الجديد، او اتفاقات المهادنة او ابرام المعاهدات بين النبي (ص) ورؤساء القبائل والملوك والامراء في شبه الجزيرة العربية وخارجها. أو غير ذلك من الامور التي تتصل بشئون الدين والدولة الجديدة. وإذا كان هذا النوع من الرسائل هو اول انواع الرسائل وجودا في الدولة الاسلامية فقد كانت ايضا اكثرها سرعة في الانتشار والتطور ايضا. ظهر في صدر الاسلام استيعاب هذه الرسائل لمعاني الدين الحنيف، واتساع اغراضها وكثرة كُتّابها. فكان الخلفاء الراشدون يكتبون للجند في ساحات القتال، والى القضاة، والى عمال الأقاليم، والى ملوك او امراء الدول المجاورة، او المفتوحة حديثا يدعونهم للإسلام او يقررون مالهم وما عليهم في امور الخراج.

زاد الاهتمام بالمراسلات وتنظيم شئون الدولة وتنظيم ادارة مرافقها المختلفة في العهد الأموي. فتطورت فكرة الديوان الذي نظم شئون الكتابة في مختلف شئون الدولة الرسمية. فكان معاوية هو اول من أنشأ ديوان الرسائل وجعل عليه مروان بن الحكم أحد كتبة عثمان بن عفان رضى الله عنه. ثم انتشر هذا الديوان في سائر الولايات الإسلامية، وصار لكل والى كتابه. وكذلك تنوعت مهام هذه الدواوين واغراضها لتواكب ذلك الارتقاء والتطور في نظم الحياة الاقتصادية والسياسية والعسكرية.[3] ثم نافس الاعاجم العرب في هذا الميدان فتعلموا العربية واتقنوها

(1) عبد الله بن سوار بن مأمون: لم اعثر له على ترجمة وان كان القضاعي صاحب اعتاب الكتاب قد ذكر قصة له مع يحي البرمكي، راجع ابن الابار (ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ابى بكر القضاعي)، اعتاب الكتاب، تحقيق صالح الاشتر، دمشق: مجمع اللغة العربية 1961م، ص 17

(2) احمد امين، ضحى الاسلام، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،1998م، ج1، ص 184

(3) نبيل خالد رباح ابو على، مرجع سابق، ص 270

وتفننوا فيها ومنهم من تقلد ديوان الرسائل كسالم مولى هشام بن عبد الملك وتلميذه عبد الحميد الكاتب مولى بنى عامر الذي تولى ديوان الرسائل لمروان بن محمد الأموي اخر خلفاء بنى امية.[1] وهكذا نشأ ديوان الرسائل بروح عربية اثرت فيها فيما بعد مؤثرات فارسية ويونانية افادت منها اساليب الكتابة في هذا الديوان من ناحية اسلوب وطريقة عرض الرسالة. كما صبغت اللغة اليونانية عقلية الشعراء والادباء بآثارها العميقة في التفكير والخيال والمعاني وطرافة التقسيم. وانعكس أثر الثقافة الفارسية في تنوع الاغراض، والتأنق في النثر، والدماثة في الاسلوب مع المحافظة على فصاحة العربية والاخذ بأساليبها.[2] اصبحت هذه الرسائل في العهد الأموي فنا خاصا اختص به كُتّاب الرسائل في ديوان الرسائل واشتهر منهم من كان له فضل في اللغة والادب كعبد الحميد وابن العميد[3] والصاحب بن عباد.[4]

ازدادت الحاجة الى تحرير مثل هذه الرسائل في العصر العباسي الاول نسبة لاتساع رقعة الدولة وازدياد الحاجة الى العديد من المراسلات والترتيبات الادارية. ارتفع شأن ديوان الرسائل لكثرة اعبائه وعظم رسالته فأصبح رئيسه هو الوزير وهو مستشار الخليفة ومستودع اسراره. ولذلك فان الخلفاء كانوا يتحرون في تعيين الكُتّاب في هذا الديوان الدقة الشديدة بناء على شروط فنية واخلاقية عديدة. وكانت مهمة الكاتب في ديوان الرسائل هي تحرير الرسائل الرسمية والسياسية الداخلية والخارجية وهو الذي ينشر بين الناس المراسيم والقرارات والبلاغات والترتيبات الإدارية.[5] وكان كتابة هذه الرسائل تتطلب معرفة واسعة باللغة والادب والتاريخ، وحفظ عدد من الشواهد الشعرية والنثرية، والاقوال والحكم، ولا سيما من القران الكريم والأحاديث الشريفة، وتتصف بالأسلوب الرصين المنمق البلاغي. ساعدت عدة عوامل على نشاط حركة تحرير الرسائل الديوانية مع بداية العصر العباسي. من هذه العوامل: تعقد نظم الحكم السياسية والادارية للدولة العباسية، وكثرة الدواوين وتنوعها، وكثرة المؤهلين من الكُتّاب في مختلف الاقاليم الإسلامية، والاهتمام بالكُتّاب والاعتماد عليهم في تسيير امور الدولة وتوليتهم أرقي المناصب[6] وتدريبهم في دواوين الدولة الرسمية.[7]

(1) محمد نبيه حجاب، مرجع سابق، ص83

(2) محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الادبية في العصر العباسي، الاسكندرية: دار الوفاء 2004م، ص 32

(3) ابن العميد: هو الكاتب محمد بن الحسين بن محمد ابو الفضل بن ابي عبد الله المعروف بابن العميد، كان ابوه مترسلا فنشأ على العلم والادب ودربه والده على الكتابة فبرع فيها وتوسع في الفلسفة، تقلد الوزارة لركن الدولة بن بويه سنة 328هـ وقام بشئون الدولة وجرى مجرى البرامكة في الجود فقصده الشعراء والعلماء من بغداد والشام ومصر وله كتب كثيرة منها كتابه (بناء المدن) الذي يشرح فيه اساليب البناء والتخطيط العمراني ويعتقد انه توفى قبل سنة 367هـ

(4) الصاحب بن عباد: هو ابو القاسم اسماعيل بن عباس بن عباد بن احمد بن ادريس القزويني المعروف بالصاحب بن عباد، كان من كبار وادباء الشيعة الامامية وكان متحدثا ثقة وشاعرا مبدعا واحد اعيان العصر البويهي كتب لابن العميد وتصدر للوزارة بعده سنة 367هـ

(5) عبد السلام جمعة وطلب صبار محل، كُتّاب الرسائل في العصر العباسي الاول، هيئتهم (ازياؤهم) وادواتهم ومهامهم ورسومهم، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية، (العراق)، المجلد 14، العدد 9، تشرين الاول 2007م، ص 124

(6) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 164

(7) مصطفى الحيارى، مرجع سابق، ص 5

شهد العصر العباسي الأول ايضا بروز عدد من الكُتّاب الذين استلموا ناصية البيان واللغة اضافة الى استيعابهم للثقافات التي دخلت الى المجتمع العربي كالثقافة الفارسية والهندية. وتشهد اثارهم من رسائل وخطب وتوقيعات باحتوائها لهذه الثقافات وافادتها منها، فاستوعبت اضافة الى العلوم الاسلامية العلوم العقلية والفلسفة وآداب الفرس السياسية والاجتماعية. وفي هذا الصدد يقول شوقي ضيف: «لا نبالغ إذا قلنا ان المادة الفارسية والسياسية والاخلاقية المترجمة كانت من اهم المؤثرات في رقى الكتابة الديوانية وتطورها. وحقا ان هذا التأثير بدا منذ عصر عبد الحميد الكاتب ولكنه لم يبلغ أشده الا في هذا العصر اذ اتسع نقل الآداب الفارسية وكل ما أثر عن الفرس عن ملوك الفرس ووزرائهم من عهود ووصايا ورسائل الى العمال والولاة وهو مما سالت مادته غزيرة في كتابات الكاتب العباسي.»[1]

عنى ديوان الرسائل في العصر العباسي بتولي تحرير الرسائل الديوانية ونعنى بها الرسائل التي يتبادلها الخلفاء والامراء وقواد الجيش. وتعنى هذه الرسائل بأمور الدولة وشئونها السياسية، ويراعى فيها دقة المعلومات والرسوم المتعارف عليها في مخاطبة مختلف الجهات والاشخاص. ومن هذه الرسائل العهود والمبايعات، ورسائل الفتوح والمواثيق والمناشير، وعقود الامان والبيعات[2] ورسائل الخلفاء الى حكام الاقاليم في تصريف شئون الدولة، ورسائل الاصلاح ورسائل الإنذار، وطلب الطاعة وانتقال الخلافة، والدعوة الى الجهاد والحث على الطاعة او طلب الهدنة او غير ذلك مما يتصل بجوانب السياسة الداخلية والخارجية.[3] وهي تهدف الى توجيه الخطاب ونشر المعلومات بأسلوب هادئ واضح بعيد عن الزخرفة. كانت هذه الرسائل اول امرها خالية الى حد كبير من المبالغات والتهويل والخيال الخصيب. وما لبث الكُتّاب ان افتنوا في اساليبها واستبقوا في تجويدها فلعب الخيال دوره فيها وازدانت بالمحسنات اللفظية والمعنوية وصارت مجالا فسيحا لأفانين البلاغة وتفصح الكُتّاب فأطنبوا حيث يجب البسط والتفصيل وأوجزوا حين استدعى المقام وبلغ بهم الايجاز احيانا حد الاعجاز.[4]

من جهة اخرى سنّ الكُتّاب في العصر العباسي الاول احكاما خاصا للكتابة شكلت في مجموعها ما يمكن ان نسميه (قانون الكتابة). وهو عبارة عن مجموعة من القواعد التي تسعى لجعل الكتابة نفسها تخضع لمعيارية خاصة تحكمها. لقد عمل الكُتّاب الديوانيون وغيرهم على استنباط احكام خاصة لكتابة الرسالة الديوانية فأصبح لهذا النوع من الرسائل احكامه كما للخراج مثلا احكامه التي قلما تتغير وقلما نقع فيها على احكام مستحدثة. وقد ركزت هذه القوانين ايضا على ان كاتب الرسائل مثل كاتب الخراج ينبغي له ان يلم بمعرفة خاصة في حقل اختصاصه تتعلق بكيفية كتابة الرسائل واخراجها. فمن الاهتمام بأدواته من قلم ومداد وقراطيس الى الاهتمام بالبسملة والتاريخ والتصدير وصيغ المخاطبة والدعاء فكل ذلك خضع لقوانين محددة

(1) المرجع السابق، ص467

(2) محمد يونس عبد العال، في النثر العربي، القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر 1996م، ص 162

(3) نبيل خالد رباح ابو على، مرجع سابق، ص 271

(4) محمد نبيه حجاب، مرجع سابق، ص96

سنها الكُتّاب في العصر العباسي الاول واهتموا بالالتزام بها ومراعاتها. وساهم الكُتّاب في العصر العباسي الاول في تطور رسوم تحرير الرسائل الديوانية والسياسية بوضعهم لهذه القواعد التي كان لازما عليهم ان يرعوها ولا يحيدوا عنها في تحرير هذه الرسائل. واهتموا بضبط معاني الرسائل حسب رسوم تعارفوا عليها والتزموا بما يستحب في كل غرض من اغراض تلك الرسائل بما يعرف (بقانون الكتابة) أي مجموعة التنظيمات والاصول والقواعد والرسوم التي يجب على الكاتب مراعاتها في كتابة وتنظيم وضبط معاني الرسالة حسب مواقع المتكاتبين وحسب موضوع الرسالة والغرض منها. مثلت الرسائل السياسية جميع طبقات المكتوب عنهم والمكتوب إليهم واقدارهم حيث توجه من الخليفة الى نائبه او الى الرعية. ومن رؤساء الدواوين الى الولاة في الشئون العامة. ومن الخليفة الى العصاة والخارجين عن الدولة. وما ترفع الرعية من حوائجهم الى الولاة والحكام، وما يرسله قواد الجند من ارض المعركة من اخبار الانتصار او طلب العون وهكذا. ونلاحظ استخدام تعبير (قانون الكتابة) من خلال كتابات الكُتّاب أنفسهم. فعلى سبيل المثال يورد الصابئ قصة تفيد ان أحد العمال تلقى خطاب مطالبة بالخراج كتبه ابو الحسن على بن عيسى بن داؤود بن الجراح (وهو من كبار الكُتّاب، وصف بانه كان معظما لصناعة الكتابة محافظا على مكانه منها متحذرا من عيب يلحقه فيها)، فلجأ العامل لابن الفرات (وزير المقتدر بالله والمعتضد بالله) لان المبلغ كان كبيرا جدا. وكانت هناك منافسة قائمة بين ابو الحسن على بن عيسى وبين ابن الفرات في الاعمال والمنازل والصناعة والكتابة. فلما قرأ ابن الفرات المطالبة قال للعامل: « قد كان من (قانون الكتابة) ان يبتدئ (يعنى على بن عيسى) بذكر الاقتطاع من اصول الغلة ثم يجعل فضل الكيل مؤخرا فاذا صّدر فضل الكيل فقد صح به الأصول، وهذا خطأ فاحش وغلط ظاهر غير محيل.» ويبدو لنا من القصة ان السهو او القصور عن الالمام (بقانون الكتابة) كان يعتبر عيبا كبيرا لان ابن الفرات طلب من العامل ان يواجه ابو الحسن على بن عيسى بالخطأ الذي ارتكبه في خطاب المطالبة والذي يخالف قواعد (قانون الكتابة). وان يعرض عليه ستر ارتكابه لهذا الخطأ وهو صاحب باع في صناعة الكتابة مقابل ان يسقط عنه المطالبة. وقد استجاب على بن عيسى بالفعل وأسقط المطالبة مقابل الا يتم التشهير بالخطأ الذي ارتكبه.[1] وفيما يلي نورد أبرز القواعد التي نوه الكتّاب على ضرورة معرفتها والالتزام بها في تحرير الرسائل خاصة الديوانية او السياسية منها والتي مثلت في مجموعها (قانون الكتابة):

البسملة: اقتضى قانون الكتابة ان تبدأ الرسائل بالبسملة يليها اسم المرسل والمرسل اليه أي: من فلان الى فلان. يلي ذلك دعاء للمخاطب يكتب تحت عبارة بسم الله الرحمن الرحيم. ويلي الدعاء عبارة اما بعد ثم يبدأ الكاتب بإنشاء الكتاب في الموضوع المعين ثم ينتهي الكتاب بالتاريخ فيذكر اليوم والشهر والسنة، ولا يقع التاريخ الا في عجز الكتب. ثم يحرر الكاتب الرسالة فتوضع منها نسخ في الديوان وتنفذ النسخة المحررة بعد تتريبها أي وضع التراب على المداد حتى لا يسيل ثم طيها وسحايتها. والسحاية هي ما شدت به الرسالة بقشرة الصحيفة او القرطاس ثم يلي ذلك

(1) الصابي، الوزراء، ص 145-146

تطيين الرسالة وهو ختمها وهذه مراحل كتابة الرسائل عامة.[1]

التصدير: التصدير او العنوان وهو تحديد للطرفين المتكاتبين. والتصدير شكل من اشكال العنونة يبدأ باسم كاتب الرسالة قبل المخاطب وله قواعد محددة. يقول الصولي: «ولا يكاتب بالتصدير الامام ولا ولى عهده ولا وزيره واما الامام فيكتب بالتصدير الى كل من خاطبه من عامل حرب وخراج وقضاء، وفى الكتب المدونة المنعوتة بالعهود والعقود وجباية الفيء والحصول والنفقات والاقطاعات والامارات والفتوح وما جرى هذا المجرى ويبدأ بنفسه.»[2] ويرافق الدعاء في الغالب التصدير في الكتابة ويأتي بالإضافة الى ذلك في اخر الكتب اذا كان المخاطب هو الامام وولى عهده ووزيره وللثلاثة الدعاء نفسه تقريبا الا انهم قالوا: سلام على امير المؤمنين ورحمة الله تعالى وبركاته، وكذلك الحال لولى عهده في التصدير والدعاء للأخير ولم يقولوا للوزير (وبركاته) ليفرقوا بين المحلين. وقد يكتب في عجز الكتاب للوزير وبركاته لكن لا يكتب ذلك في التصدير وذلك للفرق بين المجلس[3] (أي المرتبة).

مراعاة المنزلة في التصدير والدعاء وتحرير الرسائل:

يقول ابن وهب ان كاتب الرسائل يحتاج الى مراعاة مراتب المكاتبين واستحقاقات كل واحد منهم من الادعية والرسم في تحرير الرسائل إليهم واصناف التحرير وما يليق بكل صنف منها من الخطوط. ويجب في مراعاة مراتب المكاتبين ان يدرك الكاتب ان المراتب ثلاث: مرتبة من فوقك، ومرتبة نظيرك، ومرتبة من دونك. فالمرتبة العليا تنقسم الى ثلاث اقسام: فاعلاها مرتبة الخليفة او الامام ووزيره ومن كان نظير الوزير عنده. والثانية مرتبة الامراء ومن جرى مجراهم. ثم مرتبة الرؤساء بعد هؤلاء واصحاب الدواوين. والمرتبة الوسطى تنقسم الى ثلاث اقسام: اعلاها مرتبة الصديق إذا كان شريفا او عالما او شيخا. والثانية طبقة الصديق إذا كان ذا رحم او ممن يؤنس بهم. والثالثة مرتبة الصديق إذا خلا من هذه الأحوال. واما المرتبة السفلى فهي الاخرى ثلاث اقسام: فاعلاها طبقة من قارب محله عقلك وان كان دونك. والثانية طبقة من جرت لك رياسة عليه او وليت عملا هو من رعيتك فيه. ثم طبقة الحاشية ومن جرى مجراهم من الخدم والاولياء. ولكل طبقة من هذه الطبقات مرتبة في المخاطبة ومنزلة في الدعاء متى زيد عليها او قصر بها عنه وقع في ذلك الخلل والخطأ وعاد بالضرر والاذى. ذلك ان الرئيس متى قصر به عما يستحقه اغضبه ذلك واحقده. والتابع ان زيد على استحقاقه ابطره ذلك وأفسدها اللهم الا ان يكون قد اتى في الخدمة ما يستحق به رفع المنزلة.[4] يكون اول الدعاء بأطال الله بقاءك لان اول ما يسال الله عز وجل الانسان البقاء فمن كانت رتبته عالية كان دعاؤه اطال الله بقاءك. ومن كانت مرتبته دون ذلك كانت مكاتبته بـ (امد الله في عزك). ومن كانت مرتبته دون ذلك كانت مكاتبته بـ (ابقاك الله).

(1) ابن درستويه (عبد الله بن جعفر)، كتاب الكُتّاب، تحقيق ابراهيم السامرائي وحسين الفتلى، الكويت: دار الكتب الثقافية 1977م، ص 156

(2) الصولي، مصدر سابق، ص 41

(3) نفس المصدر، ص 40

(4) ابن وهب، مصدر سابق، ص 271

يلي ذلك المكاتبة بـ (ادام الله عزك) لمن مرتبته عالية وبـ (اعزه الله لمن مرتبته دون ذلك). ثم يلي ذلك الدعاء بالتأييد على هذا الترتيب ويكون الدعاء بالتأييد للسلطان واوليائه ويسقط من مكاتبات النساء ولو جل محلهن ومن مكاتبات اهل الذمة لان التأييد من الله عز وجل لا يقع لأمثالهم. يلي ذلك الدعاء بالكرامة والسعادة وتمام النعمة والزيادة في الاحسان وتتابع الالاء وجميل البلاء وجليل القسم. ولا يخاطب بـ (اتم نعمه عليك) او (زاد فيها عندك) او (ادامها لك) الا لمن دون طبقة النظراء. ولا يخاطب بـ (جعلني الله فداك) و(قدمني قبلك) الا للنظراء. ولا يُخاطب بها الرؤساء ويخاطب الاتباع ومن جرى مجراهم بـ (جعلت فداك) و (قدمت قبلك).[1] ولا يدعى في الكتب الصادرة عن الخليفة الا للوزير او ولى العهد ويدعى لهما بـ (امتع الله امير المؤمنين بك). وان كان المكاتب من رعية او خدم الوزير وصنائع كتب من خادمه فلان او من صنيعته او من غرسه او من عبده بحسب ما يليق بمحله.[2] وهكذا يمضي ابن وهب في تفصيل كيفية الدعاء حسب المنزلة في المخاطبات وهو رسم كما نرى يسير على نظام دقيق يقسم المخاطبين الى طبقات ويراعى هذه الطبقات والمنازل في الدعاء في المراسلات.

الخط:

يهتم الكاتب بعد ذلك بخط الرسالة حيث ان كل رسالة تكتب بخط معين حسب موضوعها. ويختلف الخط باختلاف القلم الذي يكتب به. والاقلام كثيرة منها قلم (السجلات) و(ثقيل الطومار) و(الشامي) و(الرياسي) وغيرهم. فقلم السجلات تكتب به السجلات بما يقطعه الخلفاء ويوعزونه. واما ثقيل الطومار والشامي فكان يكتب بهما لبنى امية. واما بنى العباس فقد اختصوا في مكاتباتهم بقلم يسمى (النصف). ثم طلب المأمون من ذي الرياستين ان تجمع حروف قلم النصف ويباعد بين سطوره فسمى هذا الخط (الرياسي) فصارت المكاتبة عن السلطان بقلم (النصف) و(الرياسي) والمكاتبة إليهم بقلم يسمى قلم (النصف الخفيف). واما المكاتبة من الوزير الى العمال فتكتب بقلم يسمى (الثلث). ويكتب الوزير الى السلطان بقلم يسمى (المنشور). بينما تُكتب الحوائج والظلامات للخليفة بقلم يسمى (الرقاع). واما الاسرار والكتب التي تنفذ على اجنحة الاطيار فتكتب بقلم (الحلية) وهو ذو خط دقيق.[3] وينبغي اصلاح القلم والاهتمام به اذ ان هناك من الحروف والمدات والتعريقات ما يُكتب بوجه القلم ومنها ما يكتب بحرفه ومنها ما يكتب بعرضه ومنها ما يكتب بسنه. ويقول ابن درستويه: «وقد رسّم الكُتّاب في كل ذلك رسما يعمل عليه.»[4] وهناك امور تراعى على وجه الاجمال من جانب الكُتّاب منها الرويّة والصبر في كتابة الرسائل فكان الكُتّاب يوصون الا ينتقل الواحد منهم الى كتابة حرف حتى يستفرغ مجهوده في كتابة الحرف المبدؤ به ويجعل في نفسه انه لا يكتب غيره حتى لا يعجل عنه الى غيره.[5]

(1) نفسه، ص 273-275

(2) نفسه، ص 276

(3) نفسه، ص 282

(4) ابن درستويه، مصدر سابق، ص 119

(5) نفس المصدر، ص 121

ويراعى كذلك تسوية جنبتي الكتاب وحواشيه وتوسيع فصوله (....)، ومما تعدل به السطور ان تجعل اعلى الفاتها ولاماتها وكافاتها المنتصبة وطاءتها متوازية على مقدار واحد غير متفاضلة الرؤوس وتجعل اسافل الحروف المعرقة كالصادات والسينات والنونات والياءات بمقدار واحد.[1]

ضبط معنى الرسالة ومراعاة الغرض من كتابتها:

فصل بعض الكُتّاب (على سبيل المثال ابن قتيبة والعسكري) في مؤلفاتهم بضبط معاني الرسائل وبينوا ما يُستحب في كل غرض من اغراضها. ويفصل العسكري فيما يصدر عن السلطان من اوامر ونواهي بين امرين وذلك بالنظر الى الهدف من الرسالة فالرسائل التي تصدر من السلطان في الامر والنهى يجب ان تؤكد المعاني فيها بجهة كيفية النظم لا بجهة كثرة اللفظ. فاذا كان الامر بفعل او النهى عنه هدفا بذاته فينبغي على الكاتب الا يؤكد المعنى الذي يريد بالقليل من فصيح الالفاظ وبليغ التراكيب. اما الاطالة فمشروطة بالأمور التي يريد ان يبينها السلطان ويحذر منها او يحث عليها. وذلك لما للإطالة في مثل هذه الامور من أثر في النفوس. واما في الحمد والذم والثناء والتقريظ والاستصغار والعدل والتوبيخ فيشبع فيه الكلام ويمد القول حسب ما تقتضيه اثار المكتوب اليه من الاحسان والاساءة والاجتهاد والتقصير ليرتاح بذلك قلب المطيع وينبسط امله ويرتاع قلب المسيء ويأخذ نفسه بالارتداع.[2] اما الرسائل التي يكتبها العمال الى الامراء ومن فوقهم فيراعى فيها الى جانب مكانة المرسل اليه موضوع الرسالة وما يُستحب فيه من الطول والقصر. فاذا كان الكاتب يرفع تقريرا عما اسند اليه من اعمال فعليه ان يمد القول حتى يبلغ غاية الشفاء وتمام الشرح والاستقصاء مع الحرص على انتقاء الالفاظ السهلة القريبة المأخذ السريعة الى الفهم وتجنب الاستكراه والتعقيد.[3] اما إذا كتب الى الخليفة او صاحب سلطة بقول قاله عدوه او نحو ذلك مما قد يسوء صاحب السلطان فعليه ان يكون حاذقا فيختار من الالفاظ ما لا تنخرق معه هيبة الرئيس ويلجأ في مثل هذه الحالة الى التورية او الكناية التي تحفظ على صاحب السلطان هيبته. واما في باب الشكر فيُستحب عدم الاسهاب او المبالغة في الثناء والدعاء لان ذلك فعل الاباعد الذين يتكسبون بتقريظ الملوك واطراء السلاطين. وفي الاستعطاف سواء كان من تابع او متبوع او من النظراء فينبغي الا يكثر شكاية سوء الحال لان في ذلك انكارا لنعمة رئيسه عليه، ويبغي ان يجعل الشكاية ممزوجة بالشكر والاعتراف بشمول النعمة. وفي باب الاعتذار ينبغي على الكاتب تجنب الاسهاب في ايراد الاعذار او الامعان في تبرئة ساحته من الاساءة والتقصير لان ذلك مكروه من صاحب السلطان لما جرت عليه العادة من اعتراف المرؤوسين بتقصيرهم في اداء حقوقهم وتأدية فروضهم ليكون لهم فيما يعقبون من العفو موضع منة مستأنفة تستدعى شكرا.[4] ويُستحب في الرسائل الميل الى الايجاز ولكن يشترط ان يكون الايجاز مقرونا بوضوح المعاني وصحتها وكمالها وان يتحرز فيها مما يوجب الطعن وذلك بالأدلة والشواهد التي تؤكد المعنى.

(1) نفسه، ص 126

(2) العسكري، مصدر سابق، ص 173

(3) الدينوري، ادب الكاتب، مصدر سابق، ص 17

(4) المصدر السابق، ص 175

كذلك اهتمت مؤلفات ادب الكاتب بتوضيح صفات المعاني المستحسنة في الشعر وجميع انواع الرسائل. وقد يبنوا بعض انواع الاخطاء التي وقع فيها بعض الشعراء او الكُتّاب مثل وقوع التناقض في معاني الرسالة الواحدة او تكرار المعاني، او تداخل الاقسام، او فساد المقابلات. ومن الشروط في باب المعاني ايضا الترابط والتسلسل والوحدة الموضوعية وان يكون خروج الكاتب من معنى الى معنى برابطة حتى تكون المعاني اخذة بعضها ببعض. ونبهت هذه المؤلفات ايضا الى ضرورة اشتمال الرسالة على بعض معاني القران الكريم والاخبار النبوية، والافضل حل هذه المعاني وتوظيفها في الرسائل على ايرادها على وجه التضمين فيدخلها في تضاعيف سطوره متمثلا إذا كتب.[1] ولم يمانعوا اللجوء لبعض التعمية في نقل ما لا يحمد عقباه من الاخبار او ما يُفقد الهيبة ذكره كما سمحوا ايضا باستخدام القليل من الخيال المعتمد على الاستعارة والتشبيه والتمثيل.[2] هذه هي الخطوط العامة والقواعد الخاصة بصناعة الكتابة وقد اوردناها بشكل موجز. وتكمن سمة هذه القواعد في انها تُنقل من كاتب الى اخر وتُحفظ بل انها وضعت لهذا الغرض بالذات. كانت بعض هذه القوانين احيانا تُحدد بصورة سلبية مثل ذكر ما لا يستحسن ذكره او كتابته في الكتاب كاجتلاب الشعر إذا كان لغير الكاتب. اضافة الى كل ما سبق من قوانين وجب على الكاتب مراعاتها في صناعته فقد شددت هذه القواعد على ضرورة تملك الكاتب لأدواته اللغوية والتعبيرية حتى يتمكن من التصرف بها والابداع في ميادين البلاغة. وبناء على ذلك حاول الكُتّاب الالتزام بمعيارية لغوية معينة مكنتهم من الحفاظ على نمط معين من البلاغة. لقد كان ابتداع هذه القوانين دليلا على اهمية الكتابة ومؤسستها الادارية في العصر العباسي الاول من جهة، ومن جهة اخرى مثلت دليلا على جهود الكُتّاب المتواصلة على ضرورة تجويد صناعتهم والابداع فيها، بالتالي الحفاظ على مستوى راقي من العمل الإداري والأدبي.

(1) الدينوري، ادب الكاتب، مصدر سابق، ص 14

(2) نبيل خالد رباح ابو على، مرجع سابق، ص 275

الفصل الرابع
طبقة الكتاب وتأثيرها
في مجتمع بغداد

الحياة والثقافة في بغداد خلال العصر العباسي الأول:

كانت بغداد التي اسسها ابو جعفر المنصور سنة 145هـ قصبة الدولة الاسلامية في العصر العباسي الاول. وقد انشأها المنصور قريبة من بلاد فارس وحلفاءه من اهل خراسان، وليبتعد بمركز دولته عن مناوئة الطالبيين. كذلك كان المنصور يتطلع الى ان ينتقل الى مرحلة جديدة من الحكم العباسي الصرف، وليعتمد سياسة تهدف الى اقامة تحالفات جديدة في مجتمع يضم فئات عنصرية قومية ذات ثقافات مختلفة، في وقت كان المجتمع الإسلامي يمر بمرحلة التحول من التنظيمات القبلية الى التنظيمات المدنية بقيام مجتمع جديد تتوافر فيه شروط الاستقرار السياسي والاجتماعي.[1] امتازت بغداد بموقعها الفريد في وادي الرافدين على الضفة الغربية في اعلى نهر دجلة حيث يلتقي دجلة بنهر الصراة. وقد شكل موقعها هذا صلة الوصل ما بين بلاد الشام وبلاد فارس. كما امتازت بأهميتها التجارية كمركز تجارى لوقوعها على الطرق والممرات المائية والبرية والبحرية المتصلة ببقية انحاء الدولة الاسلامية. وكانت ترد اليها المؤن من الشام والجزيرة ومصر والهند والسند والبصرة وواسط وارمينيا واذربيجان عن طريق دجلة والفرات وفروعهما. كما توافرت فيها سبل المعيشة وطيب الهواء وجودة الغذاء. إضافة الى ذلك كانت المنطقة مزدهرة زراعيا ومرتبطة بأنظمة للري منظمة تنظيما دقيقا.[2]

كانت خزائن العباسيين تفيض بالأموال التي تجبى من الضرائب حتى عم الرخاء ورخصت الاسعار. وخصصت الدولة جزءا من المال لأرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين. كما كانت الدولة تدفع من هذه الاموال رواتب الجند، وتنفق منها على كرى الانهار واصلاح مجاريها وكرى الترع التي تأخذ من الانهار الكبيرة لتوصيل الماء الى الأراضي البعيدة وحفر الترع للزراعة وغيرها. وكذلك كانت تنفق النفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ودفن من يموت منهم، وعلى المعدات الحربية والعطايا والمنح التي تمنح للعلماء والادباء.[3] وقد أشرف ديوان الخراج على الأراضي والصرف على عمارة تلك الأراضي. ثم استحدث مشاريع جديدة كتشييد القناطر والجسور والنواظم وانشاء القنوات للري وتقديم المقترحات عن المشاريع واستقدام المهندسين والفعلة وتوفير المواد اللازمة للمشاريع ومتابعة العمل فيها وتطهير الانهار والقنوات والمجاري والمساقى.[4] وبلغت الدولة أزهى عصورها الاقتصادية في عهد هرون الرشيد (170-193هـ) فكان الناس في خير والارزاق دارة والعدل فائض على الناس في أطراف الارض.

وبلغت التجارة في عهد العباسيين مبلغاً عظيماً وكانت البلاد العربية مركزها. وكانت القوافل والسفن تسافر من موانئها وحواضرها إلى كل أطراف العالم المعروف وتعود إليها بمتاجر تلك البلاد. وكانت موانئ البصرة والخليج العربي والمغرب والأندلس محط أنظار التجار قاطبة. [5]

(1) محمد سهيل طقوش، مرجع سابق، ص67

(2) نفسه، ص69

(3) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج2، ص248

(4) ضيف الله يحي الزهراني، مرجع سابق، ص121

(5) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مرجع سابق، ج2، ص260

ومما ساعد على ازدهار التجارة أن العرب كانوا مسيطرين على البحار وطرق القوافل وأنهم عملوا على احياءها بوسائل حديثة بالقياس إلى ذلك العصر. وجه الخلفاء عنايتهم الى الاهتمام بالزراعة فنشطوا في حفر الترع والمصارف واقاموا الجسور والقناطر وفتحوا الأقنية وعنوا بالينابيع واستغلوا مياهها في الري حتى تحولت بعض البوادي إلى جنات ورياض، فكثرت الغلال وحملتها القوافل والسفن إلى أقاصي الأرض. وقد قام هذا الاهتمام بالزراعة على دراسة علمية بفضل المدارس الزراعية التي كان لها أثر في انارة عقول المسلمين فتوسعوا في البحث النظري فدرسوا انواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها واستعملوا الاسمدة المختلفة لأنواع النباتات.[1]

أما من حيث العمارة فقد فاقت بغداد كل حاضرة عرفت في عصرها، فقد بنيت فيها القصور الفخمة التي انفقت فيها مئات الالوف من الدنانير. والتي تأنق مهندسوها في احكام قواعدها وتنظيم امكنتها وتشييد بنياتها. فكان في الجانب الشرقي من الرصافة قصور البرامكة وما انشأؤه من الاسواق والجوامع والحمامات. وبالجانب الغربي قصور الخلافة التي تبهر الناظرين اتساعا وجمالا. وقد امتدت الابنية امتدادا عظيما حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة، واستبحر العمران فيها لما جاورها من الثنايا. وتغالى الناس في حاجاتهم وتأنقوا في معيشتهم حتى صارت بغداد تبهر اعين زوارها لما يرونه من بعد الشبه بين ما عندهم وما يرون من ثراءها وبذخ اهلها وانغماسهم في الملذات واعطاء أنفسهم ما تصبو اليه من اللهو والخلاعة شأن كل امة سالت عليها سيول الثروة.[2] واما الخلفاء فقد اتبعوا الطريقة الفارسية في العيش والحكم والادارة فاذا موائدهم تعد على افخر ما كانت تعد عليه موائد اسياد فارس، وإذا مجالسهم تفرش وتزين على طراز مجالسهم، وإذا دواوينهم تغص بالوزراء والمستشارين و الكُتّاب والحجاب على أحسن ما عرفه كسرى انو شروان.[3] كان اهم ما يميز البيئة الاجتماعية في العاصمة هو اختلاط الشعوب وتعدد العناصر وقد ادى الاستقرار السياسي الى الازدهار الاقتصادي. ولد هذا الرخاء الاقتصادي بدوره حب البذخ واللهو فشاع اللهو على انواعه من معاقرة الخمور الى الرقص والغناء الى التنعم بالفنون والجمال، فشاع التسرى وكثرت حلقات الغناء ومجالس الشراب، وازدهرت تجارة الرقيق.[4]

ازدهرت بغداد خلال العصر العباسي الاول فبلغ عدد سكانها نحو المليونين نسمة ائنذ وتوافد اليها الناس من جنسيات مختلفة.[5] وطبعتها الحضارة الفارسية الطاغية بطابعها وعمرت بظاهر الترف والبذخ ونشطت فيها الحياة بجميع مظاهرها فأضحت ام المدائن الاسلامية وبؤرة العلم ومجتمع العلماء والفقهاء والادباء والشعراء والمتأدبين. واقترن اسمها بعظمة الحضارة العربية الاسلامية التي ظهرت وتألقت في هذا العصر اذ كان لها دور كبير في ميدان العلم والثقافة والفنون والعمارة والازدهار الحضاري بشتى صوره. وكان ابو جعفر المنصور قد دعا العلماء

(1) نفسه، ج2، ص250

(2) محمد الخضري بك، مرجع سابق، ص130

(3) جميل جبر، الجاحظ ومجتمع عصره في بغداد، بيروت: دار صادر (د.ت)، ص 20

(4) نفسه، ص24

(5) عصام سليمان الموسى، مرجع سابق، ص 236

من المفسرين والنحويين ورجال الدين ورواة الحديث الى بغداد بعدما اتم بناءها فحضروا اليها من البصرة والكوفة اللتين كانتا من المراكز المهمة في العالم الإسلامي في ذلك الوقت. وقد مكن هؤلاء لأنفسهم فكونوا طبقة وسطى ارتفعت مكانتها بفضل الرعاية التي تلقوها من الخلفاء ووزراءهم.[1] كما دعا المنصور اليها طائفة من العلماء الذين يعملون بالطب وما يجرى مجراه من العلوم. وازكت حركة الترجمة والتأليف الحياة العقلية فيها فبلغت مبلغها من النضج. واقبلت الحياة على بغداد من كل مكان فنا وغناء وحياة فنية مترفة بدأت في الحجاز وانتقلت الى الشام والكوفة ثم جنيت ثمارها في بغداد، وصفها المقدسي فقال: (مدينة كثيرة الفقهاء والادباء والائمة والملوك).[2]وبحلول منتصف العصر العباسي الأول أضحت بغداد مدرسة عظيمة في ميدان الفقه وعلم الكلام والفلسفة والفنون والعلوم الطبيعية والادبية والعلوم الاسلامية مثل الفقه وعلم الحديث. وكان لوجود اعلام الفقه الإسلامي في بغداد في هذا العصر ومنهم مالك (توفى 179هـ) والشافعي (توفى 204هـ) وابن حنبل (توفى 241هـ) وابو حنيفة (توفى 150 هـ) اهمية كبيرة في جذب طلاب العلم ووفودهم اليها نظرا لما كان لهؤلاء الائمة من شهرة علمية عالية، فقد قصدهم طلاب العلم من كل صوب وانكبوا على تدوين علومهم وتوثيقها. وقد نالت بغداد هذه المكانة العظيمة بين نظيراتها من المدن الاسلامية نتيجة لما تملكه من صفات ومميزات كان له نتائجه الايجابية في جذب الوافدين اليها. ساعدت العديد من العوامل على تشجيع طالبي العلم على القدوم الى بغداد منها موقعها الجغرافي الذي جعلها قريبة من اغلب الامصار مما سهل الرحلة اليها.[3] ومنها تشجيع اهل بغداد للوافدين. ومنها حضور العلماء واقامتهم فيها. ومنها وجود خزائن الكتب فيها مما أسهم في جعلها أعظم مراكز العلم والثقافة في ذلك الوقت.[4] وكانت مساجدها في العصر الاول ساحات علم كبرى حيث تجمع فيها العلماء يلقون بمحاضراتهم في اللغة والنحو والعلوم الدينية وعلم الكلام.[5] ولم يكن يشترط لحضور حلقات العلماء في المساجد غير الرغبة في حضورها فكانت متاحة للجميع. كما كان لوجود (بيت الحكمة) فيها أثر كبير في اجتذاب طلاب العلم والعلماء اليها لينهلوا من خزائنها كل ما يفيدهم. ويوصف بيت الحكمة بانه كان اول مكتبة عامة ذات شأن في العالم الإسلامي. اجتمع فيها العلماء والباحثون ولجأ اليها الطلاب فكانت بذلك اول مركز علمي يحقق للطلاب زادا علميا وفيرا.[6] تبعا لذلك اصبحت بغداد قبلة لطلاب العلم يرحلون اليها ليتمموا فيها ما بدأوه من العلوم الدينية والعربية على اختلافها.

(1) احمد عبد الستار الجواري، الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري، بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي 1991م، ص51

(2) المقدسي (شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد بن ابى بكر)، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ليدن: مطبعة بريل، 1906م، ص 126

(3) اليعقوبي (احمد بن ابى يعقوب اسحق بن جعفر)، البلدان، بيروت: دار الكتب العلمية، 2002م، ص12

(4) طلب صبار محل وحسين خالد مصلح، الوفادات العلمية في العصر العباسي الاول 132-247هـ مجلة أدأب الفراهيدي، (العراق)، العدد20، يوليو 2014م، ص 469

(5) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 101

(6) رفيدة اسماعيل عطا المنان، مرجع سابق، ص55

وكان كبار المحدثين والقراء والفقهاء وحفاظ اللغة وآداب العرب والنحويون كلهم قائمون بالدرس والافادة لتلاميذهم في المساجد الجامعة التي كانت تعتبر مدارس عليا لهذه العلوم. وقلما كان يتم لإنسان وصف عالم او فقيه او محدّث او كاتب الا إذا رحل الى بغداد واخذ عن علمائها. وكان من اهم ثمار هذه الحركة العلمية والثقافية الحياة العقلية المنفتحة التي اتيحت في ذلك العصر ان تمتع الناس بحرية مطلقة في الفكر والعيش إلا من قيود ضرورية. فكانت المناقشات العلمية علنية حول الدين والخلق والمعارف حتى صار المانوي يجادل المسلم في حلقات الدراسة أو الجوامع أو على صفحات الكتب.[1]

عنى الخلفاء عناية عظيمة بنظافة شوارع بغداد وطرقها فكانت الرحاب تكنس كل يوم ويؤخذ التراب الى خارج المدينة. وكان المنصور قد رأى ان وصول الروايا الى قصره لا يتفق مع ابهة مدينته فامر بتوصيل الماء اليها من نهر دجلة.[2] تمتعت النساء بقسط وافر من الحرية في هذا العصر حيث شاركن في الحرب ونظمن الشعر[3]وناظرن الرجال وكن على درجة عالية من الثقافة. كما شاركت امهات وزوجات الخلفاء مشاركة فعالة في امور الحكم مثل زبيدة زوجة الرشيد والخيزران امه.[4] واولع الخلفاء باتخاذ الاماء من غير العرب لأنهن في الغالب كن اوفر جمالا. أضف الى ذلك ان العادة كانت تقتضي الا يرى الرجل من يختارها للزواج من الحرائر رؤية تامة الا في حدود ما يسمح به الشرع الإسلامي. وذلك بخلاف الامة التي يستطيع ان يراها ويتعرف على اخلاقها وطباعها بحكم مخالطتها قبل ان يقدم على الزواج بها. وكانت الكثير من امهات الخلفاء من الاماء فكانت ام المأمون فارسية وام المعتصم تركية وام المتوكل خوارزمية وامهات المقتدر والمستكفي كانتا روميتان وام المطيع صقلبيه.[5]

كان الخلفاء العباسيون يحتفلون بعيدي الفطر والأضحية احتفالا دينيا فيؤمون الناس للصلاة ويلقون عليهم خطبة في فضائل العيد وما يجب على المؤمنين اتباعه للمحافظة على شعائر الإسلام. ثم يتواصل الاحتفال بالعيدين في بغداد حيث تسطع الانوار في ليالي العيد وتتجاوب اصوات المسلمين بالتهليل والتكبير وتزدحم الانهار بالزوارق المزينة بأبهى الزينات، وتسطع من جوانبها انوار القناديل وتتلألأ الانوار الساطعة في قصور الخلافة.[6] كما احتفلت بغداد أيضا بالأعياد الفارسية القديمة وخاصة عيدي النيروز والمهرجان حتى اصبحت من اهم الاحتفالات في العصر العباسي الأول[7] هذه هي صورة العاصمة بغداد في منتصف العصر العباسي الاول وقد حاولت

(1) محمد مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، القاهرة: دار المعارف 1963م، ص485

(2) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج2، ص345

(3) روى عن ام عيسى ولبابة بنتا على بن عبد الله بن عباس عم المنصور انهما كانتا تشاركان في الحروب فكن يمتطين الجياد ويقدن الجند في ميدان القتال بينما عرفت زبيدة زوجة الرشيد بنظمها الشعر واشتهرت بعلو كعبها في الشعر والادب والسياسة.

(4) نفس المرجع، ج2، ص351

(5) نفسه، ج2، ص352

(6) نفسه، ج2، ص354

(7) نفسه، ج2، ص354-357

ان اضع القارئ في قلب هذه الصورة حتى يتسنى له ان يستوعب الجو الاجتماعي والحضاري والثقافي الذي كان سائدا، وحتى نستطيع ان نؤسس للحديث عن طبقة الكتاب والدور الذي لعبته في مجتمع الدولة العباسية. وعن محاولات هذه الطبقة الحفاظ على امتيازاتها باحتكار صناعة الكتابة.

طبقية المجتمع في العصر العباسي الأول:

تسلم العباسيون الحكم والدولة العربية تحكم معظم العالم المعروف حتى ذلك العهد فتدفقت الأموال على مركز هذه البلاد الشاسعة. وخبرت الدولة الاسلامية في العصر العباسي الاول رخاء غير مسبوق. ودرت الأراضي المفتوحة حديثا اموالا لا تقدر على خزينة الدولة. وشهدت الصناعة والتجارة والزراعة ازدهارا كبيرا. وأثري الناس فانصرفوا إما إلى العلم وإما إلى البذخ والترف في الملبس والمأكل والشراب فابتنوا القصور وجملوا الحدائق حولها واقتنوا الجواري والعبيد وتفننوا في الطرب وولعوا بالعزف وتهادوا المغنيات والمغنيين. وتبارى الأمراء والقادة في ذلك اللون من العيش وجارى بعضهم بعضاً في اقتناء النفيس من التحف.[1] وانصبت الاموال في أيدي الخلفاء من منابع عديدة حملها عمال الخليفة من الامصار وكان الخلفاء وغيرهم من كبار رجال الدولة ينفقون من هذه الاموال بسعة ويبالغون في البذخ والترف ويتفننون في ذلك حتى بلغوا حد الاسراف. وأصبح بعض ما يروى عن مظاهر حياتهم ادخل في باب الخيال وأقرب اليه منه الى الواقع. وقد ادى بهم هذا الثراء الى ان يتفننوا في وجوه حياتهم المختلفة فتفننوا في الطعام والشراب وغير ذلك من وسائل العيش وظهرت اثار الحضارة وامارات النعمة في كل جانب من جوانب حياتهم.[2] ورغم الرخاء العام في الدولة فقد اختصت فئات معينة بالقدر الأكبر من الأموال فاثروا منها واستمتعوا بها. وانتشر نظام اقطاع الارض مكافأة او هبة للمقربين لدى الخلفاء والوزراء. وكان ملاك الأراضي يستقلون بإقطاعاتهم دون اهتمام بتحسين امور الناس. ولذلك كان المجتمع في العصر العباسي مقسم الى طبقات اجتماعية متفاوتة. وقد حاول الكثير من المؤرخين تفصيل هذه الطبقات ووصفها وصفا مفصلا من حيث مكانتها وواجباتها ومسئوليتها فوصفها حسن ابراهيم حسن[3] وجرجي زيدان[4] وشوقي ضيف[5] وقد حاولت ان أقدم بدوري وصفا مختصرا يوضح ما كان عليه المجتمع في العصر العباسي الاول من تمايز طبقي.

كان اهم ما يميز المجتمع في ذلك العصر انه كان مقسما الى طبقات اهمها طبقة الخاصة وطبقة العامة. فكانت طبقة الخاصة تضم خمس طبقات ففي الاولى نجد الخليفة وهو صاحب السلطتين السياسية والدينية وهو على رأس النظام السياسي، وقد رأينا كيف ان الخلفاء العباسيين اقاموا سندا على خلافتهم بأنهم ورثة النبي صلى الله عليه وسلم واحاطوا أنفسهم بهالة من

(1) نفسه ج3، ص443

(2) احمد عبد الستار الجواري، مرجع سابق، ص48

(3) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج2، ص348-362

(4) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج5، ص 25-60

(5) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 53-60

التقديس. وقد ايدهم الموالي الفرس الذين كانوا متشبعين بفكرة الحق الإلهي للملوك في دياناتهم التي سبقت الإسلام. ولذلك نجد ان الخلفاء العباسيين اعتبروا اصحاب حق إلهي في الحكم فهم سلطان الله في ارضه.[1] ولذلك كان طبيعيا ان يعظم الشعب قدر الخليفة ويتقرب اليه بالطاعة وبذل الخدمة والتزلف بالمدح والاطراء. يأتي في الطبقة الثانية اهل الخليفة ويقصد بهم بنو هاشم وهؤلاء كانوا ارفع الناس قدرا بعد الخليفة ويسمونهم الاشراف وابناء الملوك. وكانوا يرتزقون بمرتبات يتقاضونها من بيت المال بالإضافة الى صلات الخليفة وهداياه لهم حسب ما يتراءى له. نتيجة لذلك كان الهاشميون اهل سعة ورخاء حيث تمتعوا بشرف الملك ولم يعانوا ويلاته وتبعاته، فانغمس بعضهم في حياة قوامها الدعة والرخاء والترف فابتنوا القصور واستجلبوا الجواري وجمعوا إليهم المغنين والقيان والشعراء والادباء. وكان أكثر مقامهم في البصرة بعيدا عن قصر الخلافة ودسائسه الا من ولاه الخليفة مركزا او عملا، وكان بعضهم فائق الثراء اذ كان الخلفاء يستميلون جانبهم بالأموال خوفا من ان يتطاولوا للخلافة.[2]

في الطبقة الثالثة نجد رجال الدولة وهم الوزراء والكُتّاب والقواد ومن جرى مجراهم من ارباب المناصب العالية وهؤلاء كان اكثرهم من الموالي كآل برمك وآل سهل وآل الفرات وآل وهب وغيرهم. وكان نفوذهم وسلطاتهم تتفاوت تبعا لتغير الخليفة وللسلطات التي يتيحها لوزيره. وفي الطبقة الرابعة نجد ارباب البيوت وهم من اتصل نسبهم بنسب الرسول وقبيلة قريش، وكان الخلفاء يراعونهم ويفرضون لهم العطايا والرواتب ويقدمونهم في مجالسهم. وفي الطبقة الخامسة نجد توابع الخاصة ونعنى بهم طبقة الناس الذين كانوا يخدمون طبقات الخاصة من الجند والاعوان. فالجند كانوا طوائفا كثيرة غير جند الدولة الرسميين اذ استعان الوزراء والامراء والقواد بطوائف من الجند لخدمتهم وحمايتهم وقت الحاجة وفيهم الاتراك والفرس والبرابرة والاحباش وغير ذلك. واما الاعوان فهم خاصة الرجل ورفاقه وجلساؤه واهل ثقته ومشورته، وربما كان بعضهم من اهله فقد جرت العادة على ان يكون لرجال الدولة والاشراف طائفة من الاعوان يجالسهم ويستشيرهم ويعهد إليهم بمهامه واموره وهم يعيشون معه في منزله ويتقاضون رواتبا نظير خدماتهم.[3]

تأتي بعد هذه الطبقات العالية طبقات العامة فأولها طبقات المقربون من الخاصة وهؤلاء هم اهل الفنون والعلماء والفقهاء والادباء والمحدثون والتجار والصناع. وهؤلاء كانت نفوسهم تسمو للتقرب من طبقات الخاصة فيسعوا للتقرب إليهم بما يعجبهم من فنون كالشعر والغناء والادب او يرتزقون ببيع سلع لهم وغير ذلك. فكانوا يعيشون على رواتبهم واعطياتهم. واما الطبقة الاخيرة من العامة فهم سائر من بقي من الامة وهم السواد الاعظم من المجتمع وفيهم المزارعين والصناع والباعة والعيارين والشطار واهل الذمة من النصارى واليهود والصابئة من اهل القرى او المدن على حد سواء. وهؤلاء هم سواد الناس الذين لم يتمتعوا بأي سلطة والذين كانوا يعملون

(1) نفسه، ص21

(2) المرجع السابق، ج5، ص26

(3) نفس المرجع، ج5، ص27

في شتى حقول الكسب.[1] هذا بينما شكل الخدم والرقيق طبقة كبيرة من طبقات المجتمع وانتشروا انتشارا كبيرا حتى اصبحت سمرقند أكبر اسواق الرقيق وكان أهالي سمرقند يتخذون من ذلك صناعة لهم يتعيشون منها.[2] وكان الرقيق من اجناس عديدة كالزنج الذين جلبوا من سواحل افريقيا الشرقية وكانوا يعملون في الصناعة والزراعة.[3] والروم الذين قاموا بالخدمة في بيوت الاغنياء والخلفاء واتخذت جواريهم للتسرى حتى كان بعض من جواريهم امهاتاً للخلفاء. والصقالبة وهم قوم بيض البشرة على جانب كبير من الجمال كان النخاسون يحملونهم من شمال اوروبا فكانت الجواري منهن تتخذ للتسرى بينما بيع الذكور للخدمة والحرب.[4] كان الترف والبذخ الذي عاشت فيه الطبقة العليا من الخلفاء والوزراء والامراء من أبرز سمات الحياة الاجتماعية في العصر الأول. واهتم الخلفاء والوزراء والامراء واهل الحظوة ببناء القصور الفخمة فكانت مضرب الامثال في رونقها وحسن عمرانها واتساعها. وزينت بالحدائق الغناء والاشجار المتكاثفة وعاش الخلفاء والامراء فيها حياة قوامها البذخ وحب الظهور واستأثرت طبقات المجتمع العليا بالثروة فنعموا بحياة يسيرة ومترفة بينما قتر الرزق على طبقات الشعب الدنيا.[5]

طبقة الكتاب :

شهد العصر العباسي الاول تشكل الكُتّاب في طبقة اجتماعية كان الوزراء نخبتها.[6] وقد استطاعت هذه الطبقة ان تحوز على حقوق وامتيازات معينة. وارتبط تشكل هذه الطبقة بتطور النظام الاداري للدولة الإسلامية وبروز منصب الوزارة في مطلع العصر العباسي الأول. وقد حاولت هذه الطبقة الحفاظ على امتياز العمل في السلك الإداري للدولة وما يتيحه من القرب من دار الخلافة فاتجهت نحو تجويد اعمالها والانغلاق على نفسها باحتكار صناعة الكتابة[7]. ومما يجعلنا نؤكد على ان الوزراء كانوا نخبة هذه الطبقة ما اوردته كتابات الكتاب أنفسهم في تصنيفهم لأنواع الكُتّاب فنجد ابن وهب في تصنيفه لأصناف الكتاب يقول: «واما كاتب التدبير فهو وزير السلطان واخص اصحابه به.»[8] ويقول البطليوسي: «انواع الكُتّاب خمسة كاتب خط، وكاتب لفظ، كاتب عقد، وكاتب حكم وكاتب تدبير وكاتب التدبير هو (كاتب السلطان).»[9] كما تعكس لنا كتابات

(1) رفاه تقى الدين عارف، العامة في بغداد في العصر العباسي الاول والثاني، مجلة سر من رأى للعلوم الانسانية، (بغداد)، مجلد7، العدد25، 2011م، ص 149

(2) ادم متز، مرجع سابق، ج1، ص268

(3) محمد عبد المنعم خفاجي، مرجع سابق، ص 22

(4) الصابي، رسوم دار الخلافة، ص8

(5) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 51

(6) محمد كرد على، رسائل البلغاء، ص 178

(7) رويدة رفقة، نمو طبقة الكتاب وتطور الكتابة الديوانية حتى اوائل القرن الرابع الهجري، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الادب العربي، كلية الآداب والعلوم، الجامعة الامريكية في بيروت (لبنان)، 1981م (غير منشورة)، ص121

(8) ابن وهب، مصدر سابق، ص 327

(9) البطليوسي (عبد الله بن محمد بن السيد)، الاقتضاب في شرح ادب الكُتّاب، تحقيق عبد الله البستاني، بيروت: المطبعة الابية 1901م، ص 137

الكُتّاب كذلك انهم كانوا اول من شرع لمجتمع الطبقات في كتاباتهم واول من دافع عن تشكلهم في طبقة اجتماعية. فنجد عبد الحميد الكاتب اول من خاطبهم على انهم (معشر) أي (جماعة) قائلا: «فتنافسوا معشر الكُتّاب في صنوف العلم والادب.»[1] كما حدد عبد الحميد الكتاب في رسالته كأصحاب صناعة مميزة في المجتمع. فالكُتّاب في نظره اعلى فئات السوقة مركزا (أي العامة) من حيث صناعتهم التي يعتاشون بها ومكانهم في المجتمع يأتي بعد الملوك مباشرة لأنهم على حد قوله اصحاب أشرف صناعة وبهم ينتظم الملك وتستقيم للملوك امورهم ويصلح سلطانهم وتعمر بلادهم.[2] وفي تصنيفه لطبقات المجتمع في رسالته العذراء[3] يقول ابن المدبر: «فالطبقة العليا الخلافة (....)، والطبقة الثانية الوزراء والكُتّاب الذين يخاطبون الخلفاء بعقولهم والسنتهم، ويرتقون الفتوق بآرائهم ويتجملون بآدابهم. والثالثة امراء الثغور....، والرابعة القضاة.»[4] وهذا يشبه الى حد بعيد النموذج الاجتماعي الذي عبر عنه عهد اردشير[5] والذي أكد على تقسيم المجتمع الى طبقات خمسة: طبقة رجال الدين، وطبقة رجال الحرب، وطبقة العلماء، وطبقة اهل الرأي، وطبقة اهل الخدمة. وقد نادت مبادئ عهد اردشير ايضا بضرورة الفصل بين الطبقات وضرورة عدم انتقال الافراد الى طبقات لا ينتمون اليها في الأصل. حيث يقول انه يجب ان يشجع اهل كل طبقة للتفوق داخل طبقته ولكن لا يجوز الانتقال من طبقة الى طبقة لان ذلك يهز اركان المجتمع.[6] وكان اردشير يقول:» ما شيء أسرع في انتقال الدولة وخراب المملكة من انتقال هذه الطبقات عن مراتبها حتى يرفع الوضيع الى مرتبة الشريف ويحط الشريف الى مرتبة الوضيع.»[7] كما يتضح لنا من خلال الرسالة العذراء ان ابن المدبر كان يشير الى فئة الكُتّاب (كطبقة) على ان تحتل المرتبة الثانية في السلم الاجتماعي أي بعد الخلافة مباشرة، وهي أقرب الطبقات من الخليفة. كذلك اشار الى ان العلاقة بين افراد هذه الطبقة من الكُتّاب اشبه بعلاقة (القرابة) وهي علاقة تفرض عليهم حفظها ورعايتها وان (مذهب الكتابة) وحده هو الذي يجمع هؤلاء الكُتّاب الذين «تناسبت طبائعهم وتشاكلت ارواحهم فجعلوا الكتابة نسبا وقرابة وان هذه العلاقة اوجبت على اهلها حفظها.»[8] في كل الاحوال فقد تمكن الكُتّاب منذ مطلع العصر العباسي الاول من التكتل في طبقة اجتماعية اخذت في التمدد والتضخم واستطاعت هذه الطبقة ان تحوز امتيازات ومكانة خصوصا في الحضرة[9]

(1) الجهشياري، مصدر سابق، ص48

(2) نفسه، ص 47

(3) رسالة هامة تتصل بصناعة الكتابة وضعها أحد الكتاب وهو ابن المدبر (توفى سنة 279هـ) وسماها العذراء لأنه يقول انها رسالة بكر في معانيها وقد قدم الفصل الثالث من هذا البحث دراسة مفصلة عنها.

(4) محمد كرد على، رسائل البلغاء، ص 178

(5) اردشير بن بابك ابن ساسان (226-241م): هو اول الملوك الساسانيين ومؤسس السلالة الساسانية التي استمرت اربعة قرون وعهد اردشير عبارة عن كتاب في وصايا الملوك كتبه اردشير وضمنه تجاربه في الحياة والحكم، راجع عهد اردشير، تحقيق وتقديم احسان عباس، بيروت: دار صادر 1967م.

(6) احسان عباس، عهد اردشير، ص 25

(7) الجاحظ، التاج في اخلاق الملوك، ص 23

(8) محمد كرد على، رسائل البلغاء، ص 185

(9) الحضرة: يعنى بها عاصمة الدولة العباسية في بغداد، انظر الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص 79

حيث الادارة المركزية مع التوسع في الدواوين والانجازات الواسعة التي تمت في المجال الإداري. وكانت المؤسسات الادارية قد تطورت وتوسعت فازدادت الحاجة الى الكُتّاب المؤهلين المدربين والقادرين على القيام بالأعمال التي توكل إليهم مع معرفة باللغة وبأصول صناعة الكتابة فكان لكل قائد او امير كاتب يكتب له وينظر في تدبير امواله ونفقاته وضياعه. وحتى نساء الخلفاء كن يتخذن الكُتّاب وكذلك كان يتخذهم العلماء والادباء والقضاة للكتابة عنهم.[1]

كان التقليد الذي كان متبعا بتولية او ضم كاتب لولى العهد من اهم العوامل التي مهدت لجعل نخبة الكُتّاب يجدون طريقهم الى الوزارة. وذلك لان الكاتب الذي يرافق ولى العهد يصبح وبشكل تلقائي رئيسا للدواوين ووزيرا يقبض بيديه على السلطة الادارية والسياسية عندما يتولى ولى العهد الخلافة. ومن المعروف ان الاساس لنظام الخلافة الوراثي كان قد وضع في عهد الدولة الاموية وتواصل في عهد الدولة العباسية. وبعد عهد معاوية اتبع الخلفاء رسما يقضى بتعيين ولى عهد لهم او اولياء عهد يعتلون سدة الخلافة من بعدهم. وكان ولى العهد يعتبر من حيث المبدأ هو الخليفة المستقبلي، ولا يمكن خلعه او حمله قسرا على التنازل عن ولاية العهد. ونشير هنا الى ان مرافق ولى العهد في العهد الأموي كان يشار اليه باسم (المؤدب) وهو شخص كان يرافق ولى العهد ويأخذ بتعليمه وتلقينه الآداب على أنواعها. كما نستدل على ذلك من رسالة عبد الحميد الكاتب المسماة (رسالة عبد الحميد الكاتب الى ولى العهد) وهي الرسالة التي كتبها عبد الحميد الى عبد الله بن مروان ولى عهد مروان بن محمد اخر خلفاء بنى امية والتي يذكر فيها لفظ (المؤدبون). [2]

ببداية العصر العباسي ظهر تقليد ضم كاتب الى ولى العهد يرافقه ويختص به على ان يتدرب الاثنين: ولى العهد على الخلافة والكاتب على تسيير الامور الادارية حتى إذا انتقل ولى العهد الى الخلافة استطاع كاتبه ان يتولى رئاسة الدواوين والوزارة بشكل تلقائي. فعلى سبيل المثال قلد المنصور الكاتب ابا معاوية عبيد الله بن يسار كتابة المهدى وكان وليا للعهد. وذكر صاحب الفخري ان المنصور كاد ان يستوزره لكنه آثر به ابنه المهدى فكان غالبا على امور المهدى لا يعصى له قولا.[3] تبعا لهذا التقليد كان كاتب ولى العهد يعتبر مرشحا للوزارة كما ولى العهد مرشح للخلافة. وقد أصبح هذا الامر حقيقة واقعة حينما اعتلى ابو عبيد الله معاوية بن يسار سدة الوزارة تبعا لتولى المهدى الخلافة اذ يشير الجهشيارى الى انه: «لما تقلد المهدى الخلافة قلد ابا عبيد الله وزارته ودواوينه في سنة تسع وخمسين ومائة.»[4]

كانت اول مهمة يوكل بها كُتّاب اولياء العهود هي تنفيذ الوصية التي يكون الخليفة قد وضعها والتي بموجبها يصبح ولى العهد هو الخليفة في المستقبل. وهناك الكثير من الامثلة على الادوار التي لعبها كُتّاب اولياء العهود في تثبيت اصحابهم على ولاة العهد ومساندتهم حتى نيل الخلافة، منهم يحي البرمكي الذي تولى وزارة الرشيد بعد ان كان معلمه وكاتبه. وقد لعب يحي

(1) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 465

(2) محمد كرد على، رسائل البلغاء، (رسالة عبد الحميد الكاتب الى ولى العهد)، ص 139-164

(3) ابن طباطبا، مصدر سابق، 182

(4) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 102

البرمكي دورا هاما في تثبيت الرشيد على ولاية العهد في مواجهة اخيه الهادي الذي تنكر له وعمل على خلعه وتقليد ابنه جعفر مكانه. فعزم هرون على اجابته فمنعه يحي بن خالد كاتبه ولم يزل به حتى ثبته.[1] وكذلك الحال مع الفضل بن سهل الذي لعب دورا في حياة المأمون شبيها بالدور الذي لعبه يحي بن خالد في حياة الرشيد. اذ ثبت الفضل المأمون على الولاية وعمل على مساندته في صراعه مع اخيه الامين على الخلافة وعمل على حصوله على الشرعية الكاملة بعد مقتل الامين ومن ثم اعلانه خليفة للمؤمنين في سنة 198هـ كما رأينا فيما تقدم. فكاتب ولى العهد يعمل على تنفيذ وصية الخليفة التي قضت بتعيين ولى العهد، وبالمقابل يضمن ان يحصل هو على المرتبة الثانية وهي الوزارة إذا ما اعتلى صاحبه كرسي الخلافة وكان هذا التقليد من اهم العوامل التي جعلت وجوه الكُتّاب او البارزين منهم ينتقلون من مرتبة الكتاب الى مرتبة الوزارة كما رأينا.

طبيعة مجتمع الكُتّاب:

كانت صناعة الكتابة هي الرابط الوحيد الذي يجمع المنتمين الى طبقة الكُتّاب سويا. فأفراد هذه النخبة الثقافية لم يكن يجمع بينهم نسب واحد فأغلبهم من الموالي وفيهم النصراني والمجوسي ومنهم العرب المسلمون. على ان الرابطة التي جمعتهم واوجبت مساندتهم لبعضهم البعض هي رابطة (صناعة الكتابة) نفسها. يقول الجهشياري: «حضر ديوان الخراج في ايام الرشيد شيخ من قدماء الكُتّاب ومعه توقيع من الرشيد بقضاء دين عليه، فعنى الكُتّاب به وزجّوا كتابه، فقال لهم احفظوا عنى ثلاثا: الجوار نسب، والمودة نسب، والصناعة نسب.»[2] وتعبر هذه القصة عن الفهم الذي كان سائدا في شكل العلاقات التي تربط الكُتّاب مع بعضهم البعض في داخل طبقتهم الاجتماعية على اختلاف انسابهم وقومياتهم[3]. اما العلاقة التي تجمع بين الوزراء وهم نخبة الكُتّاب وبين الكُتّاب العاديين فقد كانت علاقة رعاية. حيث كان الوزراء يتعهدون من يرون انه بارع في الصنعة برعايتهم ويدخلونه الى دار الخلافة فيكون هذا الكاتب صنيعة فلان من الوزراء. وبهذه الطريقة اورث البرامكة الدولة العباسية بعد نكبتهم العديد من الكُتّاب الذين لا ينتمون الى البرامكة ولكنهم من صنائعهم مثل الحسن والفضل ابني سهل وقد استمر هذا التقليد بالرعاية مستمرا بعد البرامكة.[4] كان الوزراء ايضا يحرصون على الاحسان لجماعة الكُتّاب وتشجيعهم تشجيعا ماديا ومعنويا مما كان له أكبر الاثر في تقدم الكاتب بصنعته.

(1) نفس المصدر، ص 128

(2) نفسه، ص 59

(3) وتقودنا هذه القصة الى ميزة أخرى ميزت العلاقات في مجتمع الكُتّاب وهي ضرورة احترام وتوقير كبار الكُتّاب او ما سموا (مشايخ الكُتّاب) وهو تقليد أشار اليه عبد الحميد الكاتب في رسالته للكتاب بكل وضوح حينما قال: (وان اقعد احدكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانكم فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل رأيه وتجربته وقديم معرفته)، فكان الكتاب يجلون شيوخهم، وكان الوزراء يشاورونهم في مختلف الامور وقد أسهم مشايخ الكُتّاب فيما بعد في تيار ادب الكاتب وفي صياغة قوانين واصول ورسوم الكتابة مثل ابن وهب الكاتب وقدامة بن جعفر الكاتب وغيرهم.

(4) رويدة رفقة، مرجع سابق، ص110

فمـما روى الجهشـيارى ان ارزاق الكُتّـاب كانـت ثلاثمائـة الى زمـن المأمـون، فرفـع الفضـل بـن سـهل ارزاقهـم. كـما روى عـن الحسـن اخيـه انـه كان عـلى سـنة الفضـل في ايثـار كتابـه واكرامهـم.[1] وروى مـن اوجـه تشـجيع الفضـل بـن سـهل المعنـى لجماعـة الكُتّـاب انـه كان إذا كتـب بـين يديـه كاتـب فأحسـن شـكره عـلى رؤوس الملأ وبالـغ في شـكره، وإذا أخطـأ وضـع الكتـاب تحـت مصـلاه وسـكت الى ان يخلـو بـه فيريـه الخطـأ ويعرفـه الصـواب.[2]

لم يكـن الكُتّـاب في هـذه الطبقـة يشـتركون في ديـن او مذهـب واحـد حيـث اتاحـت المسـئولية الاداريـة تـولى غـير المسـلمين للمناصـب الاداريـة في حـين اقتـصرت المسـئوليات القضائيـة والعسـكرية عـلى المسـلمين.[3] وقـد سـبق ورأينـا كيـف ان الكُتّـاب المجـوس والنصـارى تعرضـوا للهـزات والابعـاد بعـد المرحلـة التـي تلـت تعريـب الدواويـن في العهـد الأمـوي وذلـك لأسـباب سياسـية. كـما سـجل التاريـخ ايضـا ان المهـدى قـاد حملـة عـلى الزنادقـة طالـت بعـض الكُتّـاب كـما اشـار الى ذلـك الجهشـيارى بقولـه: « وكان المهـدى قلـد عمـر الكلـواذانى طلبهـم (أي الزنادقـة) وظفـر فيهـم بيزيـد بـن الفيـض، كاتـب المنصـور، فاقـر بالزندقـة.»[4] وتبعـا لذلـك اتخـذت بحـق الكُتّـاب الذيـن يتهمـون بالزندقـة إجـراءات بالإبعـاد مـن الخدمـة، الا ان هـذه الاجـراءات التـي هدفـت الى ابعـاد الكُتّـاب لم تكـن سـوى اجـراءات مؤقتـة ولم يتـم حرمانهـم مـن الوظيفـة الاداريـة بشـكل كامـل وبقـي المجـال فيهـا مفتوحـا امامهـم. عـلى ان اعتنـاق الكاتـب غـير المسـلم للإسـلام ظـل خيـارا متاحـا في كل المراحـل وهـو اجـراء يعطـى الكاتـب غـير المسـلم ضمانـة أكـبر لمنصبـه ويضمـن لـه المزيـد مـن الاسـتقرار والامـان.[5] وفى هـذا الخصـوص يـروى ان يحـي البرمـكي قـال للفضـل بـن سـهل: « انى اراك ذكيـا وسـتبلغ مبلغـا رفيعـا فاسـلم حتـى أسـتطيع ادخالـك في امورنـا (....) فقـال الفضـل بـن سـهل: نعـم، أصلـح اللـه الأمـير.»[6] وتشـير هـذه القصـة الى ان الكُتّـاب كانـوا يسـتجيبون احيانـا للتحـول للإسـلام كإجـراء مهادنـة مـع السـلطة الحاكمـة وان كان سـماح السـلطة الحاكمـة بالتحـاق غـير المسـلمين بالسـلك الإداري بدايـة يفـسر بقـاء بعـض هـؤلاء الكُتّـاب في مناصبهـم مـع احتفاظهـم بدياناتهـم الاخـرى. وقـد اسـتمر الحـال عـلى ذلـك الى ايـام خلافـة المتـوكل عـلى اللـه (205-247هـ) حيـث عمـل عـلى تطهـير الجهـاز الإداري مـن غـير المسـلمين في إطـار حملتـه عـلى المعتزلـة وغيرهـم ممـن اعتبرهـم مبتدعـة في الاسـلام.[7] وهـذا يوضـح ان الاسـتعانة بالكُتّـاب مـن اهـل الذمـة كان سـاريا حتـى ايـام المتـوكل حيـث كان معظـم هـؤلاء الكُتّـاب مـن النصـارى لكنهـم واجهـوا هـذا الاجـراء بالتحـول الى الاسـلام حتـى يضمنـوا اسـتمرار ارزاقهـم.[8] وقـد اعيـد تجديـد هـذه الاجـراءات

(1) الجهشيارى، مصدر سابق، ص26

(2) القضاعـي (ابـو عبـد اللـه محمـد بـن عبـد اللـه بـن ابى بكـر)، اعتـاب الكُتّـاب، تحقيـق صالـح الاشـتر، دمشـق: مجمـع اللغـة العربيـة 1961م، ص 108

(3) رويدة رفقة، مرجع سابق، ص114

(4) الجهشيارى، مصدر سابق، 115-116

(5) المرجع السابق، ص115

(6) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 183

(7) ابن الاثير، مصدر سابق، ج7، ص 982

(8) الطبري، مصدر سابق، ج9، 216

بشأن الكُتّاب من النصارى وابعادهم من الخدمة في عهد المقتدر الا انها طبقت لفترة قصيرة فقط. وقد بقيت الدواوين مفتوحة لأهل الذمة من النصارى للعمل فيها. ونستطيع عموما ان نقول ان العامل الديني لم يكن مقياسا في تحديد مراتب الكُتّاب باستثناء منصب الوزير فقد كان المنصب يتطلب ان يكون من يحتله مسلما.

كان الكُتّاب أنفسهم يتوزعون في مراتب داخل هذه الطبقة. ويتجلى هذا الترتيب على سبيل المثال في وضع صاحب الديوان بالنسبة للكُتّاب العاديين حيث كان هؤلاء يمتثلون اوامره ويكتبون بين يديه. كان صاحب الديوان هو رئيسه والمسئول عن تصريف الاعمال فيه وتوزيعها على الموكلين بها. وقد ذكر الجهشياري اسماء الكُتّاب في العهد الأموي مشيرا الى اختصاصهم فيما يتعلق بكتابة الخراج او الرسائل او البريد دون ان يشير الى انهم ترأسوا هذه الدواوين. ونلاحظ ان الجهشياري في تأريخه لفترة العصر العباسي يستخدم عبارة (تقلد الكاتب ديوان كذا) مشيرا الى انه كان على رأس الديوان، لكنه لا يعطى تفصيلا بأسماء الكُتّاب الذين كتبوا بين يدي اصحاب الدواوين، ولا يشير مثلا الى وجود مبدأ تقسيم العمل في الديوان. ويستخدم الجهشياري عبارة (يكتب بين يديه) للدلالة على وظيفة كاتب صاحب الديوان. وعلى الرغم من ان العبارة تفيد التعميم الا انها تشير الى حقيقة ان كاتب صاحب الديوان كان يضع نفسه بتصرف صاحبه يستعين به هذا ساعة يشاء عندما يرى ضرورة لذلك.[1]

نستطيع ان ندرك ايضا من خلال كتابات الصابي انه كان هناك ثمة تقسيم داخل طبقة الكُتّاب اذ نجد الصابئ يميز بين من سماهم اصاغر الكُتّاب ووجوه الكُتّاب.[2] ومع اننا لا ندرك بالضبط من يعنى بوجوه الكُتّاب مثلا، وما إذا كانت هذه الفئة تضم كُتّابا غير كُتّاب الدواوين ممن اتقن الصناعة وبرع فيها. الا اننا نرجح ان يكون وجوه الكُتّاب هم كُتّاب الدواوين المرشحون لرئاسة الدواوين بسبب اتقانهم لصناعة الكتابة. بينما يمكن ان يشير لفظ اصاغر الكُتّاب الى الوراقين والمحررين وغيرهم من الكُتّاب من الذين لا يشغلون مناصب مهمة. وقد رافق هذا التمايز في المراتب قوانين تشرع لأصول مخاطبتهم وكيفية التعامل معهم يلتزم بها جميع كُتّاب الدواوين على مراتبهم. ويبدو ان صاحب الديوان يخاطب بلفظ (الرئيس) اذ اورد الصابي في سيرة على بن عيسى الجراح «وكتب على بن عيسى في الدواوين وتقلد كثيرا منها رئاسة.»[3] ويتميز الرئيس عادة بتمرسه في الصناعة واتقانه اياها على أكمل وجه. وقد ظهر في مرحلة متأخرة من العصر الاول لقب (الاستاذ) كذلك للإشارة الى رئيس الديوان اذ اورد الجهشياري: «ان ابا العباس احمد بن الفرات أنشأ ديوانا سماه ديوان الدار وجمع اليه سائر الاعمال ودبره بنفسه وكتّابه، واستناب اخاه ابو الحسن على بن محمد بن الفرات فيه، واصطنع كتابا قلدهم مجالسه منهم ابى الحسن على بن عيسى ومحمد بن داؤود بن الجراح عمه فكانا يجلسان بحضرة ابو الحسن فيأمرهما

(1) رويدة رفقة، مرجع سابق، ص 121

(2) الصابي، الوزراء، مصدر سابق، ص 81

(3) الصولي، مصدر سابق، ص 305

وينهاهما ويسميانه استاذا على رسم اصحاب الدواوين اذ ذاك».[1] وقد اتسع نفوذ صاحب الديوان بنهاية القرن الثالث الهجري وتجلى ذلك في اطلاق سراح صاحب الديوان في الأمور التي تتعلق بديوانه فقد يعين من يحتاج من الكُتّاب ويقرر ارزاقهم، وله امتياز استخدام الخاتم فهو الذى يختم الكتب بختمه وختمه عليه اسمه واسم ابيه. وكان الكُتّاب ملزمين بنوع من المعاملة معينة مع رئيس الديوان منها ان يحمل الكاتب دواته وان يخاطبه إذا كاتبه بأسلوب معين وباستعمال نوع معين من الخط فلا يمد في خطه لان ذلك يعتبر نوعا من الاستخفاف بالمخاطب.[2] هذا فيما يختص بالكُتّاب ووضعهم الاجتماعي في العصر العباسي الاول.

ظهور العائلات التي احتكرت صناعة الكتابة:

كان القرب من الخلافة امتيازا كبيرا بالنسبة لطبقة الكُتّاب سعى الكُتّاب اليه وحاولوا الحفاظ عليه عن طريق احتكار صناعة الكتابة التي مثلت صناعة للكسب، لكنها تحقق امتيازا لطبقتهم كان لابد ان يتمسكوا به ويحافظوا عليه. ونستطيع ان نلحظ هذه المكانة من رسالة عبد الحميد الكاتب التي يذكر فيها « فجعلكم معشر الكُتّاب في أشرف الجهات واهل الآداب والمروءات والعلم والرزانة، بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم امورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، ويعمر بلدانهم، ولا يستغنى الملك عنكم، ولا يوجد كاف الا منكم، فموقعكم من الملوك موقع اسماعهم التي يسمعون بها، وابصارهم التي يبصرون بها، والسنتهم التي ينطقون بها، وايديهم التي يبطشون بها.»[3] حاول الكُتّاب الحفاظ على هذا الامتياز بالانغلاق على أنفسهم واحتكار صناعتهم وذلك عن طريق تجويد اعمالهم ورفع مستوى التخصصية فيها. وكان من نتائج ذلك ان اصبحت صناعة الكتابة متعددة في ميادينها ومتخصصة في طبيعتها. كما أدى من جهة اخري الى ظهور عائلات كاملة استطاعت ان تحتكر صناعة الكتابة لعقود متتالية[4] امدت خلالها السلك الإداري والسياسي بالعديد من الكتبة المؤهلين والوزراء البارزين.[5]

كانت هذه العائلات تتصل بخدمة الخلافة عن طريق أحد افرادها الذي ينجح في الوصول الى مركز مرموق، بالتالي يسهم في تقديم المزيد من افراد العائلة لخدمة الخلافة والادارة العباسية. لا شك ان أبرز تلك الاسر التي بدا امتهان صناعة الكتابة منذ العهد الأموي كانت هي اسرة بنى وهب وهي من الاسر العريقة في صناعة الكتابة فكانت الكتابة حرفتهم توارثوها خلفا عن سلف. تعود اصول هذه الاسرة الى قرية واسط وكانوا نصارى واسلموا فيما بعد. وكان جدهم قبال كاتبا ليزيد بن ابى سفيان بالشام ثم لمعاوية من بعده. ثم وصله معاوية بابنه يزيد. وتوفى قبال في ايام

(1) نفسه، ص 148

(2) رويدة رفقة، مرجع سابق، ص 122-123

(3) محمد كرد على، رسائل البلغاء، ص 172

(4) مصطفى الحيارى، مرجع سابق، ص 5

(5) مثال لذلك عائلة بنو وهب الذين توارثوا الكتابة في دواوين الخلافة الاسلامية مدة تقارب الثلاث قرون اذ ذكر ابن خلكان في ترجمة سليمان بن وهب وزير المهتدي العباسي ان جد العائلة الاول ويسمى فنال كتب في ديوان الشام مع قيام الدولة العربية الاسلامية ليزيد بن معاوية لما ولى الاخير الشام. انظر ابن خلكان، ج2، ص 415-418

يزيد فاستكتب يزيد ابنه قيسا ثم كتب قيس لمروان بن الحكم ثم لولده عبد الملك ثم لهشام ابنه وتوفي في عهد هشام. واستكتب هشام ابنه الحصين فظل يكتب له وكتب من بعده لمروان بن محمد. ثم انتقل للكتابة ليزيد بن عمرو بن هبيرة. ولما خرج يزيد الى ابى جعفر المنصور اخذ الحصين معه امانا.[1] نالت هذه الاسرة من الحظوة عن العباسيين أكثر مما نالته عند الامويين ولعل هذا هو السبب الذي جعل بعض الباحثين يظنون انهم خدموا في الدواوين العباسية فقط. وكتب الحصين فيما بعد للمنصور ثم للمهدى وتوفي في خلافة المهدى. واستكتب المهدى عمرا ابنه وظل يكتب له حينا ثم كتب لخالد بن برمك من بعده حتى توفي، فخلفه ابنه سعيد في خدمة ال برمك. وتحول ولده وهب الى جعفر بن يحي فكتب له ثم كتب للفضل بن سهل والحسن بن سهل. وقد قدره الحسن بن سهل حتى قلده كرمان وفارس. وقد أنجب وهب هذا الحسن وهو كاتب وشاعر ولاه محمد بن عبد الملك الزيّات ديوان الرسائل ولم يزل يعمل به الى ان نكبه المتوكل سنة 233هـ وكتب سليمان للمأمون وهو ابن أربع عشرة سنة. وقد تولى سليمان هذا فيما بعد الوزارة للمهتدى بالله ثم المعتمد في الوقت الذي كان فيه اخوه الحسن يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيّات. وقد نكب المعتمد سليمان بن وهب لأسباب يبدو ان من بينها اعتزاز سليمان بنفسه وتعاظمه احيانا على الخليفة وتدبيره اشياء لم يرض عنها. وكانت حادثة خروجه من بغداد الى سامراء سنة 264هـ هي التي اوجبت نكبته. والظاهر انه خرج بغير اذن الخليفة. ولهذا السبب غضب عليه المعتمد فحبسه وقيده وانتهب داره وداري ابنيه وهب وإبراهيم. ومن أشهر رجال هذه الاسرة ابو الحسين اسحق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب وهو واضع كتاب البرهان في وجوه البيان وهو من المراجع المهمة التي تحدثت عن البلاغة وصناعة الكتابة.[2]

من أبرز الاسر التي امتهنت صناعة الكتابة في العصر العباسي كذلك عائلة البرامكة التي تولى افرادها مسئوليات ادارية بالغة الاهمية في خلافة الرشيد. ولا شك ان البرامكة كانوا اول وأشهر من جمع هذه الخصال وتحلى بهذه الآداب وظفر بمثل هذه المكانة التي راجحت مكانة الخليفة نفسه، ومن ثم لعبوا دورا كبيرا في ميدان البلاغة لا يقل عن دورهم التاريخي في مجال السياسة.[3] ثم تبعتهم عائلة بنى سهل والتي كانت شديدة الصلة بالبرامكة التي قدمهم البرامكة أنفسهم لخدمة الخلافة. وتوالى بعد ذلك ظهور مثل هذه التكتلات العائلية مثل: بنو صبيح وهم عائلة احمد بن يوسف بن القاسم وهو كاتب من كبار الكتاب وكان قد ولى الرسائل للمأمون واستوزره المأمون بعد احمد بن ابى خالد. كان ابوه وجده من كتاب الدواوين، وكان ابوه يوسف بن القاسم بن صبيح كاتب من كتاب الدولة الاموية ينتمي الى بيت بلاغة وفضل وقد انتقل الى خدمة الدواوين في ظل الدولة العباسية وعهد اليه يحي بن خالد البرمكي ان يكتب بخبر تولى الرشيد للخلافة الى كل أقاليم الدولة الإسلامية.[4] ومنهم ايضا بنو الفرات وهم من قرية تدعى

(1) ابن وهب، مصدر سابق، ص 25-27

(2) نفسه، نفس المكان

(3) محمد نبيه حجاب، مرجع سابق، ص 87

(4) خير الدين الزركلي، الاعلام، بيروت: دار العلم للملايين 2002م، ج1، ص 272

بابلي صريفين من النهروان الأعلى. وكان لهم بها اقارب يزيدون على ثلاثمائة نفس. واول من ساد منهم ابو العباس احمد بن محمد بن موسى بن الفرات وكان حسن الكتابة، ظاهر الكفاية، خبيرا بالحساب والاعمال، متقدما على اهل زمانه في هذه الأحوال. واما ابو الحسن على بن محمد بن موسى الفرات فقد وزر للمقتدر على ثلاث فترات.[1] ومنهم ايضا بنو الجراح وهم من اهل دير قنى واشهرهم على بن عيسى بن داؤود بن الجراح الذي كتب في الدواوين، والذي يقول عنه الصابي انه قد عمل في الكثير من الدواوين وتقلد رئاسة الكثير منها وقلده المقتدر وزارته وتدبير امره.[2] ومنهم بنو المدبر وهم احمد ومحمد وابراهيم وجميعهم شاعر مترسل بليغ ولأحمد كتاب يسمى المجالسة والمذاكرة.[3]

ساهم النظام الذي كان سائدا بتدريب صغار الكُتّاب في الدواوين حتى نهاية القرن الاول من الدولة العباسية في ان يكرس لنظام توارث صناعة الكتابة اذ كان معظم المتدربين من ابناء الكُتّاب الذين هم في الخدمة بالفعل.[4] ويبدو ان صغار الكُتّاب والمتدربين كانوا يعملون تحت امرة أحد الكُتّاب الكبار. فكان هذا الكاتب المسئول يقوم بتقسيم الاوقات في الليل عليهم ليظلوا تحت الطلب في حالة احتاج الخليفة الى عمل عاجل في أي ساعة من ساعات الليل. روى عبيد الله بن سليمان بن وهب القصة التالية على لسان والده سليمان وهو ابن اربعة عشر عاما آنذاك والتي اشارت الى هذا (التقليد)، يقول: «كان مبدأ سعادتي إنني كنت صبيا بين يدي محمد بن يزداد وزير المأمون وكنا جماعة من الصبيان بين يديه. وكان إذا راح الليل وذهب داره بات واحد منا في دار المأمون بالنوبة لمهم عساه يعرض في الليل. وكانت ليلة نوبتي فخرج الخادم وقال: هاهنا أحد من نواب محمد بن يزداد؟ فقال الحاجب له: «نعم هاهو ذا»، فأدخلني الى المأمون فقال لي: اعمل نسخة في المعنى الفلاني ووسع بين سطورها واحضرها لأصلح منها ما اريد إصلاحه. قال فخرجت سريعا وكتبت الكتاب بغير نسخة وبيضته واحضرته اليه فلما رآني قال: كتبت النسخة؟ قلت بل كتبت الكتاب فقال: بيضته؟ قلت: نعم، فزاد في نظره الىّ كالمتعجب مني، فلما قرأه تبينت الاستحسان في وجهه، ورفع رأسه الىّ وقال ما أحسن ما كتبت يا صبي ولكن اريد ان تقدم هذا السطر وتؤخر هذا السطر وخط عليهما بقلمه فأخذت الكتاب وخرجت وجلست ناحية ثم محوت السطرين وعملت ما اراد وجئته بالكتاب وكان قد ظن إنني أبطله او اكتب غيره فلما قرأه لم يعرف مبدأ المحو فاستحسنه وقال لي: يا صبي لا أدري من أي شيء أعجب أمن سرعة محوك ام من سرعة فهمك ام من حسن خطك ام من سرعتك؟، بارك الله فيك، فقبلت يده وخرجت».[5] والقصة تعطينا ملمحا عما كان يتم من التدريب العملي على الكتابة بإبقاء صغار الكُتّاب والمتدربين في الخدمة اثناء الساعات التي يرجع فيها كبار الكُتّاب الى دورهم للراحة

(1) الصابئ، الوزراء، ص 11 وما بعدها.

(2) نفس المصدر، ص 305 وما بعدها.

(3) ابن النديم، مصدر سابق، ص177

(4) مصطفى الحيارى، مرجع سابق، ص4

(5) ابن وهب، مصدر سابق، ص 26-27

في الليل. ومن الواضح ان التدريب في دواوين الدولة كان أفضل انواع التدريب وأقدمها اذ يذكر الجهشياري ان هذا النوع من التدريب كان سائدا في عهد الدولة الاموية كذلك. ويذكر أيضا انه بعد تعريب الدواوين في العراق سنة 78هـ على يد صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج بن يوسف تتلمذ على يديه عدد من الكُتّاب الذين تولوا الدواوين في العراق حتى نهاية الدولة الاموية. كما نجد ان الكثير من الكُتّاب الذين ذاع اسمهم فيما بعد تلقوا تدريبهم الاولى في دواوين الدولة منهم سالم مولى هشام بن عبد الملك واحمد بن يوسف.[1]

اصبحت هذه العائلات تشكل نوعا من الارستقراطية السياسية والثقافية (إذا صح التعبير)، اذ كان المنتمون اليها يشغلون الوظائف المرموقة كولاية الخراج والوزارة.[2] كما شكلت مصدرا افادت منه السلطة في التزود بكبار المسئولين الاداريين. وكانت هذه العائلات تقوم بتدريب صغارها على مهنة الكتابة منذ نعومة اظافرهم في دواوين الدولة.[3] وقد توكل امر تهذيب الصغار او تلقينهم العلوم الاسلامية والفقه والادب والتاريخ الى معلمين مختصين، فيذكر لنا ابن خلكان على سبيل المثال ان يحي بن خالد البرمى دفع بابنه جعفر منذ نعومة اظافره الى القاضي ابى يوسف الحنفي لتعليمه فعلمه وفقهه.[4] ولا شك ان البرامكة كانوا اول من اتبعوا هذا التقليد.[5] ينبغي ايضا الاشارة الى ان ابناء هذه العائلات لم يرثوا (المنصب) ولكنهم كانوا يرثون (الصناعة). ولم يكن في امكان اسرهم ان تضمن لهم مكانا في دواوين الحكومة لكن كان من المنطقي ان الدولة كانت تتجه بشكل طبيعي الى الاستعانة بمن توفر من الكُتّاب الذين يتقنون هذه الصناعة. وهكذا كان التدريب والتجويد في الاعمال هو الضمانة الوحيد للعثور على موطئ قدم في الادارة فضلا عن الترقي في المناصب. وهكذا عمد الاباء الى تحضير اولادهم ليتولوا مناصب ادارية في دواوين الدولة وأصبحت الصناعة وراثية من هذه الجهة. على ان ذلك لا يعنى ان جميع الكُتّاب انتموا الى مثل هذه العائلات. فقد اشارت الكثير من الدلائل الى ان عددا من الكُتّاب البارزين والوزراء واصحاب الدواوين انتموا الى عائلات لم تعرف بإتقان هذه الصناعة. وربما اتصلوا بدار الخلافة عن طريق أحد افراد اسرهم الذي يمكن ان يكون قد خدم فيها عن غير طريق الكتابة. فعلى سبيل المثال نجد ان محمد بن عبد الملك الزيّات وزير المعتصم (221-227هـ)[6] والذي وزر ايضا للمتوكل اتصل بدار الخلافة عن طريق والده الذي كان يتولى امر المشمس والفساطيط والة الجمازات[7] ولكنه

(1) مصطفى الحيارى، مرجع سابق، ص4

(2) رويدة رفقة، مرجع سابق، ص 108

(3) المرجع السابق، ص5

(4) ابن خلكان، مصدر سابق، ج1، ص329

(5) محمد نبيه حجاب، مرجع سابق، ص 87

(6) محمد بن عبد الملك الزيات: هو محمد بن عبد الملك بن ابان وكان جده ابان يجلب الزيت الى بغداد من مواضعه فسمى بالزيات لذلك، كان شاعرا بليغا وزر لثلاث خلفاء هم المعتصم والواثق والمتوكل وقد نكبه المتوكل وقتله في سنة233هـ وله رسائل مجموعة وصف بانه كان نادرة زمانه عقلا وفهما وذكاء وكتابة وشعرا وادبا وخبرة بآداب الرئاسة وقواعد الملوك، كان وزيرا قديرا اعاد للوزارة هيبتها فيذكر الفخري انه نهض بالوزارة نهوضا لم يكن لمن تقدمه من اضرابه، راجع ابن طباطبا، ص 314. وراجع سيرته في فهرست ابن النديم، ص177.

(7) المشمس: مظلة كانت تحمل لتقى الخليفة من الشمس والفساطيط هي ضرب من الابنية في السفر دون السرادق، والة الجمازات هي مدرعة صوف ضيقة الكمين تعتبر من حلى الجمال. انظر الطبري، ج9، ص 20

مكـن مـن اتقـان صناعـة الكتابـة فاحتـل عـدة مواقـع اداريـة مهمـة.[1]

اتخاذ الكتابة وسيلة للتواصل الاجتماعي:

نقـل كُتّـاب العـصر العبـاسي الاول الكتابـة الى مسـتوى جديـد لتصبـح ناقـلا للمشـاعر ووسـيطا في التواصـل الاجتماعـي بـين النـاس في مجتمـع الدولـة العباسـية. واعتنـى مجتمـع الكُتّـاب كغـيره مـن المجتمعـات الراقيـة بمختلـف مناسـبات الحيـاة الاجتماعيـة فـكان فيهـا التهنئة والتعزيـة والاهـداء والزيارة وغـير ذلـك مـن الصـلات الانسـانية التـي يتصـل بهـا النـاس بعضهـم مـع بعـض.[2] وقـد عـبر كُتّـاب العـصر العبـاسي الاول عـن هـذه المناسـبات بواسـطة الرسـائل الشـخصية او الاخوانيـة[3] والتـي صـورت ملامـح المجتمـع في ذلـك العـصر وروابـط الافـراد وعلاقاتهـم ومـا يتعلـق بجوانـب حياتهـم كلهـا. نعنـى بالرسـائل الاخوانيـة جميـع الرسـائل غـير الديوانيـة والتـي تعتـبر أقـرب الى الادب مـن الرسـائل الديوانيـة لوجـود العواطـف والتخيـلات. وهـي مجـال يُظهـر فيـه الكاتـب مقدرتـه عـلى الصياغـة الانشـائية الأدبيـة. ويلحق بهـذا النـوع الرسـائل الوعظيـة والرسـائل الدينيـة الجدليـة. وقـد ترتقـي بعـض الرسـائل الاخوانيـة لتصـير نصـا راقيـا في اسـلوبه والفاظـه ومعانيـه وافـكاره. وتحتمـل الرسـائل الاخوانيـة موضوعـات كثـيرة منهـا العتـاب والاعتـذار والتهنئـات وغـير ذلـك مـن الموضوعـات التـي كان يعالجهـا الشـعر[4] فهـي اوسـع مجـالا وأقـرب الى الابانـة. وهـي تعكـس افـكار الكاتـب وعواطفـه الشـخصية وتصـور كثـير مـن اراء النـاس ومنازعهـم وآرائهـم واخلاقهـم واحـوال الامـة التـي يعيشـون فيهـا[5] عـلى اختـلاف الظـروف في الحـزن والفـرح وفى اللقـاء والـوداع وفى الوفـاة وولادة الاولاد وفى السـفر والعـودة منـه الى غـير ذلـك مـن الموضوعـات الشـخصية والاجتماعيـة.

لا يسـتبعد بعـض المؤرخـين ونقـاد الادب العـربي ان تكـون بدايـات هـذا النـوع مـن الرسـائل يعـود الى مـا قبـل الإسـلام.[6] ومـن اسـف ان معظـم الرسـائل الاخوانيـة في الجاهليـة والصـدر الاول مـن الاسـلام لم تصـل الينـا بسـبب ان الادبـاء والمؤرخـين مـا كانـوا يهتمـون بهـذا النـوع مـن الكتابـة. ومـا كانـوا يعتبرونـه فنـا مـن الفنـون اذ اولـوا اهتمامهـم لتسـجيل الرسـائل السياسـية والديوانيـة اكـثر مـن الرسـائل الاخوانيـة.[7] ومـع ذلـك فقـد حفظـت لنـا رسـالة اخوانيـة مـن النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم الى معـاذ بـن جبـل يعزيـه في وفـاة ابـن لـه يقـول فيهـا: «سـلام عليـك، فـاني احمـد اللـه الـذى لا الـه

(1) رويدة رفقة، مرجع سابق، ص109

(2) اسـماء عبـد الـرؤف عطيـة اللـه، الرسـائل في العـصر العبـاسي انواعهـا وخصائصـه الفنيـة، بحـث مقـدم لنيـل درجـة الدكتـوراه في الادب والنقـد، جامعـة ام درمـان الاسـلامية 2009م، ص 73

(3) سـماها بعـض نقـاد الادب بالرسـائل الاجتماعيـة محتجـين بـان مجالهـا كان أرحـب مـن الرسـائل التـي تتسـم بالمـودة او الطابـع الأخـوي وأنهـا شـملت مجـالات اخـرى مثـل رسـائل الهجـاء والشـكوى والاسـتعطاف التـي راجـت في العـصر العبـاسي الاول.

(4) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 491

(5) طه حسين واخرون، التوجيه الأدبي، القاهرة: المطبعة الاميرية 1940م، ص 20-23

(6) حسـين نصـار، نشـأة الكتابـة الفنيـة في الادب العـربي، مكتبـة الثقافـة الدينيـة 2002م، ص85، ويسـتبعد شـوقي ضيـف هـذا الـرأي ويقـول ان افـتراض بعـض النقـاد ان العـرب عرفـوا الكتابـة الفنيـة او النـثر الفنـي قبـل الاسـلام هـو نـوع مـن الغلـو، انظـر شـوقي ضيـف، الفـن ومذاهبـه في النـثر العـربي، ص 104

(7) حسين نصار، مرجع سابق، ص 90-91

الا هو اما بعد، فعظم الله لك الاجر والهمك الصبر، ورزقنا واياك الشكر، ثم ان انفسنا واهلينا وموالينا من مواهب الله السنية وعوارفه المستودعة نمتع بها الى اجل معدود وتقبض لوقت معلوم، ثم افترض علينا الشكر اذا اعطى والصبر اذا ابتلى، وكان ابنك من مواهب الله السنية وعوارفه المستودعة، متعك به في غبطة وسرور وقبضه منك باجر كثير الصلاة والرحمة والهدى ان صبرت واحتسبت فلا تجمعن عليك يا معاذ خصلتين: ان يحبط جزعك صبرك فتندم على ما فاتك فلو قدمت على ثواب مصيبتك قد اطعت ربك، وتنجزت موعودة ان عرفت ان المصيبة قد قصرت عنه، واعلم ان الجزع لا يرد ميتا ولا يدفع حزنا فاحسن الجزاء وتنجز الموعود ، وليذهب اسفك ما هو نازل بك، فكأن قد.»[1] ومن يتأمل هذه الرسالة - اذا كانت وصلتنا كما هي ولم يغير فيها الرواة- لوجدها تسير على نفس النمط الذى سارت عليه مكاتبات الرسول صلى الله عليه وسلم السياسية. بل ان روح الرسول صلى الله عليه وسلم وعاطفته الدينية تتجلى فيها أكثر من غيرها. ولا غرابة لأنها رسالة اخوانية يصدر فيها الكلام عن عواطف الرسول صلى الله عليه وسلم الانسانية واحاسيسه الشخصية الشيء الذي لا يظهر في كتب المعاهدات او الامان وغيرها من الكتب السياسية. ويلاحظ فيها ايضا روح الوعظ والإرشاد. ولعل ذلك ايضا من اسباب السمو في اسلوبها وهي سمة ظلت ظاهرة في كل الرسائل الاخوانية حتى العصر الأموي، فلا يستطيع الباحث الفصل بين الرسائل الاخوانية والرسائل الدينية فصلا تاما في ذلك العصر. اذ كان الغالب على الرسائل الاخوانية انها عملت على التواصل في المناسبات والحوادث الاجتماعية مع احتفاظها بروح الوعظ والارشاد. وازدهر فن الرسائل الاخوانية في مطلع العهد الأموي فشهد العصر سرعة نموها ووفرة معانيها وتعدد اغراضها.[2] ويقرن شوقي ضيف نمو الرسائل الاخوانية بعصر الفتوح الاسلامية وتفرق العرب في البلدان الاسلامية اذ يجعل البُعد المكاني دافعا للتراسل بين الناس في مهامهم وشئونهم الشخصية وفى التهنئات والتعزية وفى العظة والعبرة.[3] ونجد عددا من الرسائل الاخوانية في هذا العصر وهي رسائل بسيطة اللغة صريحة الاسلوب لا ترمى الا الى الافهام دون تجمل. وقد استخدمت كوسيلة للتواصل وللوعظ والارشاد بشكل بلاغي. وخير مثال لها رسالة محمد ابن الحنفية الى اخيه الحسين وقد افترقا متغاضبين فيقول فيها: « من محمد بن على الى اخيه الحسين بن على، اما بعد، فان لك شرفا لا ابلغه، وفضلا لا أدركه، فأن امى امرأة من بنى حنيفة وأمك فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو كان ملء الارض نساء مثل امى ما وفين بأمك، فاذا قرأت رسالتي هذه فالبس رداءك ونعليك وسر الىّ لترضيني واياك ان اسبقك الى ذا الفضل الذي انت اولى به منى، والسلام.»[4]

ما لبث هذا النوع من الرسائل في نهاية العصر الأموي ان بدأ في العمل كوعاء للتعبير عن المشاعر الشخصية وشهد قفزة في خصائصه وفى وظيفته على يد عبد الحميد الكاتب، فها هي رسالة له الى اخيه يعرفه بمولوده الجديد فيقول:» اما بعد، فاني ما اتعرف من مواهب الله نعمة

(1) احمد زكى صفوت، جمهرة رسائل العرب، بيروت: المكتبة العلمية 1939، ج1، ص 86

(2) نبيل خالد رباح ابوعلى، مرجع سابق، ص276

(3) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص 104-105

(4) احمد زكى صفوت، مرجع سابق، ج2، ص24

خصصت بمزيتها واصفيت بخصيصتها كانت اسر لي من هبة الله لي ولدا سميته «فلانا»، وأملت ببقائه بعدى حياة لذكرى وحسن خلافة في حرمتي واشراكه إياي في دعائه شافعا لي الى ربه عند خلواته في صلاته وحجه وكل موطن من مواطن طاعته. فاذا نظرت الى شخصه تحرك به وجدى وظهر به سروري وتعطفت عليه منى انسة الولد وتولت به عنى وحشة الوحدة، فانا به جزل في مغيبى ومشهدى، احاول مس جسده بيدي في الظلم، وتارة اعانقه وارشفه، ليس يعدله عندي عظيمات الفوائد ولا منفسات الرغائب سرني به واهبه لي على حين حاجتي فشدّ به ازرى، وحملني من شكري فيه ما قد ادنى بثقل حجم النعم السالفة الىّ به ، المقرونة سراؤها في العجب بتارات ما يدركني فيه من رقة الشفقة عليه مخافة مجاذبة المنايا اياه ووجلا من عواصف الايام عليه.»[1] ففي هذه الرسالة نستطيع ان ندرك نوعا من الاطناب بسبب تفصيل مشاعره الشخصية، وما يشعر به ويشارك به اخاه من فرحته بمولوده. وخلاصة القول ان الرسائل الاجتماعية في العصر الأموي شهدت نموا متسارعا، كما شهدت وفرة في معانيها وتعددا في اغراضها.[2] واعتبرت رسائل عبد الحميد الكاتب الاخوانية قفزة قوية في فن الرسائل الاخوانية في ذلك العصر، وهي التي مهدت لجعل الرسائل الاخوانية وسيط للتواصل الاجتماعي في العصر العباسي الاول اذ استخدمت لنقل المشاعر وتفصيل الاحاسيس بنوع من التفصيل والاطناب.

ببداية العصر العباسي الاول استقرت اصول هذه الرسائل وتحددت معالمها تنوعت اغراضها[3] واتسعت مجالاتها حتى اصبحت قادرة على التعبير عن أكثر الموضوعات التي عبر عنها الشعر العربي قديما وكان من النادر ان تؤدى بالنثر. وكان من نتيجة هذا التطور ان أصبح فن النثر وفن الرسائل بخاصة يطرق ابواب الادب الخالص ويعبر عن اهم موضوعاته. وعمد كتاب الرسائل الى ابتكار اساليب جديدة اخرجت الرسالة عن الصورة التقليدية التي ظلت تلقى بظلالها على الرسائل الاخوانية والرسائل الديوانية سواء في الشكل أو المضمون.[4] فشملت التهنئة والتعزية والعتاب وغير ذلك مما يصور العواطف الخاصة بقدر ما بين الافراد من روابط وصلات. والرسائل الاخوانية افسح مجالا من الرسائل الرسمية وأخصب خيالا، وأكثر قدرة على تصوير المجتمع وعلاقاته، فأغراضها جمة واساليبها متنوعة. وازدهرت هذه الرسائل الاخوانية في ذلك العصر نتيجة لرقى الحياة وتحولها من حياة البساطة الى حياة المدنية التي فيها الكثير من التكلف والتأنق. وتطورت سريعا على أيدي كُتّاب ذلك العصر لتصبح وسيطا حقيقيا للتواصل بين الناس في مجتمع العصر الأول. ولا نبالغ إذا قلنا ان حصر جميع الاغراض التي عالجتها هذه الرسائل في شرق البلاد الاسلامية وغربها امر بعيد المنال، وذلك لتغلغل هذه الرسائل في جميع مرافق حياة الناس اليومية ووجوه علاقاتهم الاجتماعية.

(1) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج2، ص 549

(2) نبيل خالد رباح ابو على، مرجع سابق، ص276

(3) نفس المرجع، نفس المكان

(4) فائد محمود محمد سلمان، فن الرسائل عند سهل بن هرون وعمرو بن مسعدة (دراسة فنية موضوعية موازنة)، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الادب العربي، جامعة النجاح (فلسطين)، 2011م، ص11

اتاحت عوامل كثيرة للكتابة ان تلعب دور الوسيط في التواصل الاجتماعي بين الناس في مجتمع الدولة العباسية. من هذه العوامل اتساع رقعة البلاد الاسلامية وتعدد بيئاتها. ومنها انتشار الكتابة وتوفر ادواتها.[1] ومنها تطور نظام البريد في عهد عمر بن لخطاب اذ كان الخليفة عمر حريصا على الاتصال الدائم والمستمر مع عماله في الاقاليم ولذلك قام بتطوير نظام البريد. فكان الناس يكتبون الى الخليفة شكاويهم عبر البريد، كما كتبوا الى بعضهم البعض وكتب الرجال في الثغور الى اسرهم بالمدينة. [2] ومنها ظهور طبقة ممتازة من الكُتّاب الذين تمتعوا بإجادة الكتابة وخاصة من كان منهم يكتب في الدواوين، اذ كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة واسعة وكانوا يعنون بتحبير كلامهم وتجويده، وحشد كل ما يمكن فيه من عناية فنية. ومنها مرونة النثر في ذلك العصر ويسر تعابيره وقدرته على تصوير المعاني بجميع تفاريعها. وهي قدرة لا تتاح للشعر لارتباطه بقواعد موسيقية معقدة من وزن وقافية. طوع كُتّاب العصر العباسي الاول اساليب النثر ومرنوها على تحمل كثير من المعاني الجديدة غير المألوفة.[3] فصورت الرسائل الشخصية او الإخوانية الطفرة التي عاشها العباسيون والحضارة التي تقلبوا فيها. وأصبح هذا النوع من الرسائل أعلق بالفن من الرسائل الرسمية او الديوانية. ويكفي ان ننظر الى كثرة الدواوين وانتشارها في جميع ارجاء البلاد الاسلامية ونتخيل جيوش الكُتّاب المدربين العاملين فيها، ثم ننظر الى الجانب الشخصي من حياتهم وما استدعته ظروفهم وحياتهم الاجتماعية من ألوان الرسائل واغراضها لنعرف حجم الرسائل الاجتماعية ومدى انتشارها وتعدد اغراضها في العصر العباسي الأول. وفيما يلي اعرض بإيجاز الى اهم الاغراض التي عالجتها الرسائل الاخوانية في العصر العباسي الاول:

التهنئات:

شغلت رسائل التهنئة حيزا كبيرا بين الرسائل الاخوانية وذلك لكثرة المناسبات السعيدة واتساع مجال التهنئة. وفيها تتاح فرصة التعبير عن المشاعر الشخصية من مودة واخاء. كان هذا النوع من الرسائل معرضا لاستعراض البلاغة وميدانا للتباهي بالمقدرات البيانية. يقول عنها القلقشندي: «هي من الكتب التي تظهر فيها مقادير افهام **الكُتّاب** ومنازلهم من الصناعة ومواقعهم من البلاغة.»[4] وقالت البرامكة: «رسائل المرء في كتبه دليل على عقله وشاهد على غيبه.»[5] ولذلك تفنن الكُتّاب في اظهار هذه المقدرات عند تحريرهم للرسائل الاخوانية. هذه رسالة في التهنئة بمولود كتبها احمد بن يوسف الى بعض اخوانه يهنئه بمولود له فقال:» بارك الله في مولودك الذي اتاك وهنأك نعمته بعطيته ومالّك كرامته بفائدته، وادام سرورك بزيادته، وجعله بارا تقيا، ميمونا مباركا زكيا، ممدودا له في البقاء، مبلغا غاية الامل، مشدودا به عضدك، مكثرا به

(1) المرجع السابق، ص276

(2) عبد الفتاح رجب حمد، نظام البريد عند العرب والمسلمين خلال العصر الإسلامي الوسيط، مجلة جامعة عمر المختار، (ليبيا)، المجلد5، العدد23، 1999، ص 6

(3) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 491

(4) القلقشندي، مصدر سابق، ج 9، ص5

(5) احمد زكي صفوت، مرجع سابق، ج4، ص195

ولـدك، مداما بـه سرورك، مدفوعـا بـه الآفـات عنـك، مشـفوعا بأكـثر العـدد مـن طيـب الولـد.»[1]

التهادي:

كـثرت الهدايـا في العـصر العبـاسي الاول الى الخلفـاء والـوزراء وقـواد الجيـش وولاة الاقاليـم وغيرهـم. وكان التهـادي يهـدف لتحقيـق منفعـة او التعبـير عـن الشـكر او تأكيـد مـودة ونحـو هـذه المعـاني. كان النـاس يختـارون للتهـادي عـادة مناسـبة مثـل عيـد مـن الاعيـاد او ختـان بعـض الاولاد أو التهنئـة بالـزواج او بنيـل ترقيـة او منصـب او القـدوم مـن سـفر او غيرهـا مـما يعـرض مـن مناسـبات اجتماعيـة تسـتدعى التهـادي والتقـرب بالهدايـا. وتنوعـت الهدايـا عـلى اختـلاف الطبقـة الاجتماعيـة والعلاقـات الانسـانية والقـدرة الماديـة. ولكـن اكثرهـا كان طيبـا وعطـرا وتحفـا ثمينـة. وربمـا اهـدوا السـيوف والخيـل[2] والجـواري إذا كـن ذوات جـمال او يجـدن فنـا مـن الفنـون التـي تعجـب المُهـدى اليـه مثـل الغنـاء او الرقـص. واقتضـت العـادة بـين النـاس ان يرفـق المُهـدِى رسـالة مـع الهديـة الى المُهـدى اليـه. وفى هـذا النـوع مـن الرسـائل تفنـن كاتبيهـا في اسـتخدام المحسـنات البديعيـة مثـل الجنـاس والطبـاق والمقابلـة ووظفـوا الشـعر اذ أدرجـوا في رسـائلهم بعـض ابيـات الشـعر مـن نظمهـم او نظـم سـواهم. كـما ضمنـوا رسـائلهم بعـض آيـات القـران الكريـم او معانيـه وتشـبيهاته. كذلـك المحـوا غالبـا الى الخلفيـة الاجتماعيـة والثقافيـة لمجتمعهـم. هـذه رسـالة ارسـلت ليحـي البرمـكي في مناسـبة ختـان أحـد ابنائـه فأرسـل لـه وجـوه الدولـة والقـواد والكُتّـاب الهدايـا السـنية كل بحسـب قدرتـه. فتظـرف احـد صنائعـه مـن الكُتّـاب وارسـل يهديـه وعـاء مـن ملـح مطيّـب واخـر مـن سُـعد وهـو نبـات طيـب الرائحـة ويعتـذر ضمنـا عـن قصـور مقدرتـه عـلى اهـداء مـا هـو اغـلى فقـال: «لـو تمـت الارادة لأسـعفت العـادة ، ولـو سـاعدت القـدرة عـلى بلـوغ النعمـة لتقدمـت السـابقين الى خدمتـك ، واتبعـت المجتهديـن في كرامتـك ، ولكـن قعـدت بي القـدرة عـن مسـاواة اهـل النعمـة وقـصّرت بي الجِـدة[3] عـن مباهـاة اهـل المُكنـة[4] وخشـيت ان تطـوى صحيفـة الـبر وليـس لي فيهـا ذكـر، فأنفـذت المفتتـح بيمنـه وبركتـه وهـو الملـح والمختتـم بطيبـه ونظافتـه وهـو السُـعد، باسـطا يـد المقـدرة، صابـرا عـلى الم التقصـير، متجرعـا غصـص الاقتصـار عـلى اليسـير، والقائـم بعـذري في ذلـك (ليـس عـلى الضعفـاء ولا عـلى المـرضى ولا عـلى الذيـن لا يجـدون مـا ينفقـون حـرج)، والمُهـدى ضـارع في الامتنـان عليـه بقبـول مقدرتـه والاحسـان اليـه بالإعـراض عـن جرأتـه.»[5] فـيروى انـه عندمـا عرضـت الرسـالة عـلى يحـي بـن خالـد امـر بإفـراغ الانـاءان عـلى ان يُمـلأ احداهـما دراهـما والاخـر دنانـير ويهُـدى الى صاحبهـا اعجابـا بتلطفـه وبلاغتـه وحُسـن بيانـه. وهـذه رسـالة اخـرى في التهـادي ارسـلتها احـدى الجـواري الى الخليفـة المأمـون وقـد اهدتـه (تفاحـة) وكتبـت اليـه رسـالة طويلـة المحـت فيهـا الى عـدة امـور كشـفت عـن سـعة معرفتهـا واطلاعهـا، اذ اشـارت الى قـول الرشـيد «ان خـير الفاكهـة التفـاح»، والى مـا روى عـن ارسـطو انـه طلـب تفاحـا عندمـا كان يحتـضر.

(1) نفس المرجع، ج3، ص367

(2) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 499

(3) الجِدة: الغنى

(4) المُكنة: الاستطاعة والقدرة.

(5) نفس المرجع، نفس المكان

كما تعرضت لرأى طبي يبين الفوائد العلاجية للتفاح ومنافعه التي تكاد لا تحصى. وضمنت رسالتها ابياتا شعرية في وصف التفاح والوانه المختلفة. والرسالة دليل على سعة ثقافة الجواري في ذلك العصر وسعة مداركهن وثقافتهن مما يدل على تنوع مصادر الثقافة واتساعها وسهولة نيلها لمن رغب فيها، تقول: «لما رأيت تنافس الرعية في الهدايا وتواتر الطافهم عليك فكرت في هدية تخف مؤنتها وتهون كلفتها ويعظم اثرها ويجل موقعها فلم اجد ما يجتمع فيه هذا النعت ويكمل فيه هذا الوصف الا التفاح، فأهديت لك منها واحدة في العدد كثيرة في التقرب، واحببت يا امير المؤمنين ان اعرب لك عن فضلها واكشف لك عن محاسنها واشرح لك لطيف معانيها وما قالت الاطباء فيها وتفنن الشعراء في اوصافها حتى ترمقها بعين الجلالة، وتلحظها بمقلة الصيانة، فقد قال ابوك الرشيد رضى الله عنه: (احسن الفاكهة التفاح)، اجتمع فيه الصفرة الدرية والحمرة الخمرية والشقرة الذهبية وبياض الفضة ولون التبر. يلذ بها من الحواس: العين ببهجتها، والانف بريحها، والفم بطعمها، وقد قال ارسطاطاليس الفيلسوف عند حضوره الوفاة واجتمع اليه تلاميذه: التمسوا لي تفاحة اعتصم بريحها واقضي وطري من النظر اليها، وقال ابراهيم بن هانئ: ما علل المريض المُبتلى ولا سكنت حرارة الثكلى، وردت شهوة الحبلى، ولا جمعت فكرة الحيران، ولا سكنت حنقة الغضبان، ولا تحبب الفيان في بيوت القيان بمثل التفاح».[1] وتدلنا بساطة الهدية وطول الرسالة على ان الغرض الاهم في التهادي انما كان هو الرسالة واستعراض المقدرات البلاغية والثقافية أكثر من الهدية نفسها. فجاءت رسالتها معرضا للمحسنات البديعية والبلاغية وتصويرا لمدى اتساع ثقافتها ومقدراتها التعبيرية.

التعزية:

شارك الكُتّاب بعضهم بعضا في الاحزان وعند وفاة عزيز لدى أحدهم. فكانت مواساتهم تعبيرا عن المشاعر المفعمة بالاسى والحزن. ودارت معانيها حول اظهار جسامة الفقد وطلب السلوى من الله على فراق الميت وتبيين قدرة الله وسنة الحياة من موت وفناء. وتحدثوا عادة عن ثواب المنكوب في بعض اهله على حسن صبره وما ينبغي عليه من التسليم بقضاء الله وقدره. وقد يعرضون ايضا لذم الدنيا واحوالها من انها مكدرة للصفو منغصة للسرور[2] وغير ذلك من المعاني. وقد غلب على هذا النوع من الرسائل المعاني الدينية كما مالت الى استخدام الفاظ سهلة ومعاني واضحة وارتبطت الى حد كبير بقدر المخاطب وثقافته واتسمت بالقصر وعدم لاطالة.[3] هذه رسالة قصيرة بليغة في التعزية كتبها كلثوم بن عمرو العتابي[4] الى أحد اصدقائه

(1) خالد الحلبونى، الرسائل النثرية الشخصية في العصر العباسي، مجلة جامعة دمشق، (سوريا)، المجلد25، العدد الاول والثاني، 2009م، ص 47

(2) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 493

(3) نبيل خالد رباح ابو على، مرجع سابق، ص277

(4) كلثوم بن عمرو العتابي: هو كلثوم بن عمرو بن ايوب العتابي، من اهل قنسرين، كان شاعرا مقدما من شعراء الدولة العباسية وكاتبا حسن الترسل وكان منقطعا الى البرامكة فوصوله بالرشيد فبلغ عنده كل مبلغ ثم كتب المأمون في اشخاصه اليه ووصله بصلات سنية وبلغ به من التقديم والاكرام اعلى محل، انظر جمهرة رسائل العرب، ج3، ص 397

فقال: « ان اشد من المصيبة حرمان الاجر فيها والحسبة، وقد ذهب منك ما رزئت به، فلا يذهب عنك ما عوضت، قال الشاعر

وعوضت اجرا من فقيد فلا يكن فقيدك لا يأتي واجرك يذهب[1]

الاعتذار والاستعطاف:

تبادل الكُتّاب كذلك رسائل في الاستعطاف والاعتذار. وقد تراوحت هذه الرسائل في مستويات عدة اذ ارتبط الاعتذار بتساوي درجة المعتذر والمعتذر اليه، اذ يعتذر الكُتّاب عن خطأ ارتكبه في حق من يحرص على مودته من اخوانه وأصدقائه. هذا بينما ارتبطت رسائل الاستعطاف بذوي النفوذ من اصحاب السلطان وذلك باستلال سخيمة نفسه واستمالة قلبه وطلب مودته. اشترطت الكتابات في ثقافة الكاتب في هذا النوع من الرسائل حسن اختيار الالفاظ الرقيقة التي تحمل في طياتها المعاني التي تستدر العطف. كما اشترطوا على الكاتب ان « يستعمل فيها فكره ويوفيها حقها من الجودة والترتيب واستيفاء المعاني. وان يذهب لاستعمال الالفاظ الجامعة لمعاني العذر والملوحة بالبراءة بما قُرن به ولا يخرج لفظه مخرج من يقيم الحجة على براءة الساحة مما يرمى به لان ذلك مكروه من الرؤساء لما يشعرهم به من جورهم وظلمهم له، كذلك لأنه لا يترك لهم موضع منة في العفو عنه.»[2] هذا كتاب كتبه ابو العباس بن جرير في الاعتذار الى الفضل بن يحي البرمكي يعتذر عما يكون قد بدر منه فغير عليه قلب الفضل: « لا اعلم منزلة توحشني من الامير ولا توحشه منى، لأنني في المودة له كنفسي وفي الطاعة كيده وانما الطفه من فضله وقد بعثت بعض ما يحتاج اليه في سفره.»[3] وهذه رسالة ابراهيم بن سيابة الشاعر يستعطف بها يحي البرمكي:» للأصيد الجواد، الواري الزناد، الماجد الاجداد، الوزير الفاضل، الاشم الباذل، اللباب الحلاحل، من المستكين المستجير، البائس الضرير، فاني احمد الله ذي العزة القدير، اليك والى الصغير والكبير بالرحمة العامة، والبركة التامة. اما بعد، فاغنم وأسلم واعلم ان كنت تعلم ان من يرحم يُرحم، ومن يحرم يُحرم، ومن يحسن يغنم، ومن يصنع المعروف لا يعدم. وقد سبق الىّ تغبضك علىّ واطراحك لي وغفلتك عنى بما لا اقوم له ولا اقعد ولا انتبه ولا ارقد، فلست بحي صحيح ولا بميت مستريح، فررت بعد الله منك اليك وتحملت بك عليك.»[4] وقد روى ان يحي ما ان تلا هذه الرسلة حتى عفا عن جرمه وعفا عنه ووصله.[5]

كثرت الرسائل الاجتماعية في العصر العباسي الاول وتعددت مجالاتها وتنوعت مواضيعها حتى يجد الباحث صعوبة في حصرها جميعا. فمنها رسائل الوصايا والنصائح حيث تناصح الكُتّاب في امور دينهم ورسائل الوعظ والنهى عن المحرمات. ومن الملاحظ ان الروح الدينية كانت غالبة على جميع اشكال هذه الرسائل وانتشرت فيها الحكمة والاستشهاد بالأقوال الحكيمة.

(1) احمد زكى صفوت، مرجع سابق، ج3، ص 400

(2) القلقشندي، مصدر سابق، ج9، ص 165

(3) المرجع السابق، ج3، ص157

(4) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص495

(5) الجهشيارى، مصدر سابق، ص157

وكانت بعض الاغراض الزمانية المعينة تجعل نوعا معينا من الرسائل يزدهر في حقبة محددة ثم ما تلبث ان تتلاشى بزوال دواعيها. فعلى سبيل المثال تلاشت تدريجيا الرسائل التي كانت رائجة في العصر الأموي لطلب الثأر وذلك بعد استقرار الحكم واستتباب الدولة للأمن في العصر العباسي الأول. كما ظهرت اغراض للكتابة في بيئة معينة لم تتوافر في بقية البيئات. فعلى سبيل المثال ظهرت اغراض للكتابة في الرسائل الاندلسية المعاصرة مما لم يتواجد في المشرق في ذلك الوقت مثل رسائل وصف الرحلات التي تحدث فيها الكُتّاب عن رحلاتهم الى بعض المدن ووصفوا مشاهداتهم فيها. هذا بالإضافة الى الموضوعات الخاصة التي نجد ان كاتبا معينا اختص بها دون غيره مثل كتابة الكاتب في موضوعات عنى بها دون غيره مثل كتابة بعض الكُتّاب في مفهوم الصداقة وصفات الصديق الحق او صفات من يمكن الاعتماد عيه في جليل الأمور.[1] وعلى اية حال فان هذا التنوع في المواضيع والاغراض ضمن لتيار هذه الرسائل ان يظل في تجدد مستمر وان تظل الكتابة وسيلة للتواصل الاجتماعي بين الكُتّاب وغيرهم من الفئات في مجتمع العصر العباسي الاول وما بعده.

علاقات الخلفاء ووزرائهم:

تمتع الوزراء وهم نخبة طبقة الكُتّاب بوضع اجتماعي متميز في العصر العباسي الأول. اذ كان منصب الوزير من المناصب التي تتطلب اتصالا مباشرا بالخليفة ودار الخلافة. لذلك نجد ان علائقا اجتماعية متميزة جمعت بين الخلفاء ووزراءهم تعدت حدود الاعمال الادارية والرسمية الى حدود المجالسات والمسامرات. كان من اهم الاسباب التي ساعدت على تطور شكل العلاقات الاجتماعية بين الخلفاء ووزرائهم هي الشخصية المثقفة والموسوعية التي تمتع بها الوزراء والتي نبعت من حقيقة كونهم كانوا في الاصل كُتّابا اخذوا أنفسهم بأنواع مختلفة من الثقافة والعلم. هذا في الوقت الذي كان خلفاء العصر الاول أنفسهم من المهتمين بالعلم والادب. ففي عصر السفاح تطالعنا سيرة اول خلفاء بنى العباس وهو ابو العباس السفاح فيذكر المسعودي انه «كان يحب مسامرة الرجال ومحادثتهم»[2] ويترفع عن مجالسة النساء حتى انه كان يقول: «انما العجب ممن يترك ان يزداد علما ويختار ان يزداد جهلا، فسئل عن تأويل ذلك فقال: يترك مجالسة الرجال ويدخل الى امرأة او جارية فلا يزال يسمع سخفا ويرى نقصا».[3] واما وزيره ابو سلمة الخلال فقد ذكر المؤرخون انه كان مثقفاً ومسامراً جيدا فذكر المسعودي انه «فكهاً ممتعاً اديباً عالماً بالسياسة والتدبير.»[4] كما ذكر ابن طباطبا ان ابا سلمة الخلال «كان رجلًا كريماً، فصيحاً، عالماً بالأخبار والاشعار والسير والجدل والتفسير».[5] فكان ابو العباس يأنس به لأنه كان ذا مفاكهة حسنة وكان ممتعاً في حديثه، اديباً عالماً بالسياسة والتدبير.[6] وشهد عصر السفاح ايضا

(1) نبيل خالد رباح ابوعلى، مرجع سابق، ص281-282

(2) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص226

(3) نفس المصدر، ج3، ص 220

(4) نفسه، ج3، ص226

(5) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص 155

(6) ابن خلكان، مصدر سابق، ج2، ص 195-196

بداية هذه العلاقات المتميزة التي جمعت الخلفاء مع وزرائهم والتي كان لها بعد اجتماعي ملموس. ومن هذه العلاقات المميزة التي جمعت الخلفاء بوزرائهم علاقة السفاح بخالد بن يحي جد البرامكة والذي كان يقوم بمهام الوزير لكنه لم يتسم بالوزارة في عهد السفاح تطيرا بمصير ابى سلمة الخلال. ذكر ابن طباطبا قصة كان لها دلالة كبيرة في القاء الضوء على البعد الاجتماعي في علاقة الخلفاء بمن تولى خدمتهم من الوزراء اذ يحكى ان خالدا دخل يوما على السفاح فقال له السفاح: «يا خالد ما رضيت حتى استخدمتني»، ففزع خالد وقال: «كيف يا امير المؤمنين وانا عبدك وخادمك؟، فضحك وقال:» ان ريطة ابنتك تنام مع ابنتي في مكان واحد فأقوم بالليل فأجدهما وقد سرح الغطاء منهما فارده عليهما»، فقبل خالد يده وقال: «مولى يكتسب الاجر في عبده وامته.»[1] والقصة تدل بوضوح على ان الخليفة وخالدا كانا يعيشان في نفس القصر وان ابناءهما كانوا يخالطون بعضهم بعضا حتى ان ابنة الخليفة كانت تنام في نفس الفراش مع ابنة خالد البرمكي.

واما الخليفة ابو جعفر المنصور فقد عرف بحبه للعلم ومجالسة العلماء وقد شجع الكثير من العلماء والشعراء والادباء للقدوم الى بغداد بعد ان اتم بناءها.[2] وعصره شاهد على علاقة متميزة جمعته مع وزيره ابى ايوب الموريانى الذي ذكر الجهشيارى انه كان اول اتصاله بالمنصور فتى حدث من قرية من قرى الاهواز يقال لها الموريان. وذكر الجهشيارى ان الموريانى كان خفيفا ظريفا على القلب متأتيا لما يريده منه ابو جعفر وكان قد اخذ من كل شيء طرفا (يعنى كان مثقفا بأنواع مختلفة من العلوم). وكان يقول ليس من شيء الا وقد نظرت اليه الا الفقه فلم انظر فيه قط وقد نظرت في الكيمياء والطب والنجوم والحساب والسحر.[3] وقد أسند إليه المنصور بعض الأعمال فكان أول عمل إداري لأبي أيوب في خلافة المنصور هو النيابة عن عبد الملك بن حميد، كاتب المنصور، في حال غيابه عن مجلس الخليفة. وحدث أن مرض عبد الملك بداء النقرس فلزم داره وقام أبو أيوب بالعمل نيابة عنه. وقد وفق في أدائه، مما زاد منزلته عند المنصور، حتى قلده وزارته، والإشراف على الدواوين وتدبير شئون الدولة. ومما يدل على علو منزلته عند المنصور أنه عيّن جميع أهله وأقربائه في المناصب الإدارية.[4] وبلغت منزلته ان العامة قالوا انه سحر ابا جعفر واتخذ دهنا يمسحه على وجهه إذا اراد الدخول عليه.[5] وبلغت مكانته عند المنصور ان ام سليمان الطلحية زوجة المنصور اعدت يوما مجلسا في الصيف لأبى جعفر وجعلت فيه الرياحين والثلج وسائر الطيب. فلما صار اليها أعجبه بردة وحسنه ثم قال لها: ما انتفع بما انا فيه، قالت ولمه يا امير المؤمنين؟ قال انه ليس معي ابو ايوب فيحدثني ويؤنسني، قالت له: يا امير المؤمنين انما هيأته لسرورك فتبعث اليه، فبعث اليه فحضر اليه فقال: كما

(1) المصدر السابق، ص156-157

(2) طلب صبار محل وحسين خالد مصلح، مرجع سابق، ص474

(3) الجهشيارى، مصدر سابق، ص95

(4) نفس المصدر، نفس المكان

(5) نفسه، ص 96

رأيت طيب هذا الموضع ولذته لم انتفع به حتى تكون معي فيه فدعا له واقام معه.[1]

تميز الخليفة المهدى بمحبته للعلم لذلك دعا معظم العلماء في عصره للقدوم اليه في بغداد وتكفل بدفع نفقات سفرهم من بلدانهم اليه لمحاورتهم ومناقشتهم والافادة من علومهم. وكانت بغداد في عهده قد اضحت مركزا مهما لرواد العلم والمعرفة مما كان له أكبر الاثر في اثراء المناخ الثقافي في عهده. عرف ايضا عن المهدى علاقته بوزيره يعقوب بن داؤود الذي لعب في بداية اتصاله بالمهدى دور الناصح والمسامر بعد ان أعجب المهدى بعلمه وكفاءته. فقال يعقوب للمهدى ذات مرة: يا امير المؤمنين هاهنا امور لا تنتهي الى علمك فان وليتني عرضها عليك وبذلت جهدي في نصيحتك فقربه وادناه.[2] صارت منزلة يعقوب تعلو عند الخليفة تدريجيا فاستطاع في وقت قصير أن يحوز على ثقة الخليفة فكان يدخل عليه وقتما يشاء ويقدم له النصائح في امور كثيرة مثل امر الثغور، وبناء الحصون، وتقوية الغزاة، وتزويج العزّاب، وفكاك الاسرى، والقضاء على الغارمين، والصدقة على المتعففين، فحظي بذلك عند المهدى.[3]

وشهد عهد هرون الرشيد اقوى العلاقات التي جمعت بين الخلفاء ووزرائهم وهي علاقة الرشيد بأسرة البرامكة جملة. كان وزيره يحيى بن خالد يتعهد دار الخلافة حتى انه كان ينظر الى قصر الرشيد وحرمه ويغلق ابواب القصر وينصرف بالمفاتيح معه. وبلغ من ثقة الرشيد فيه ان زبيدة زوجة الرشيد شكته للرشيد فقال له يا ابت- وكان يدعوه بذلك- مال زبيدة تشكوك؟ فقال له: أمتهم انا في حرمك يا امير المؤمنين؟ قال: لا، قال: فلا تقبل قولها في.»[4] وتدلنا هذه القصة على ان يحي بن خالد تمتع بنفوذ كبير وعلاقة متميزة جمعته مع الخليفة حتى انه كان يشرف على بيت الخليفة وخاصة اهله بنفسه. واما جعفر بن يحي 142) 187-هـ) وهو أصغر من اخيه الفضل فكان جليس الرشيد ونديمه. وكان يقضى معه أكثر ساعات الليل والنهار وقد انزله الرشيد بالخلد بالقرب من قصره كان الرشيد يسميه اخى.[5] ويبدو أن ظرف، وفصاحة وذكاء وتأدب جعفر وسهولة أخلاقه جعلته أكثر حظًا مع الرشيد من بقية أخوته وأكثر إدلالاً عنده فكان الرشيد يأنس بجعفر كل الانس وينادمه. ويبدو ان جعفر كان يتدخل في كل ما يتعلق بالرشيد وكان يدخل في منادمته، ويذكر الطبري ان اباه كان ينهاه عن ذلك، ويأمره بترك الانس به فيترك امر ابيه ويدخل معه فيما يدعوه اليه.[6] من جهة اخرى كانت الحظوة التي نالها جعفر من الرشيد قد سببت شيئا من التباعد بين جعفر واخيه الفضل لان الفضل كان يلتمس من جعفر ان يتيح له بعض اختصاص الرشيد إياه. يقول الجهشياري «الى ان صار احدهما يسبع الاخر» يعنى يقع فيه.[7] وكان يحي بن خالد وهو رجل قد عركته التجارب يعرف ان مثل هذه العلاقة يمكن ان تنسى المرء انه

(1) نفسه، نفس المكان
(2) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص184
(3) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 119-117
(4) ابن خلكان، مصدر سابق، ج1، ص333
(5) الجهشياري، مصدر سابق، ص158
(6) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 293
(7) المصدر السابق، ص 145

يتعامل مع الخليفة فتوقعه في المخاطر، فكان ينصح ابنه بان يكف نفسه عن ذلك.[1]وكتب يحي الى ابنه جعفر مرة يلومه في ذات الموضوع قائلا: «انى انما اهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها امرك وان كنت اخشى ان تكون التي لا شروى لها.»[2] كما تقدم الى الرشيد مرة بقوله: «يا امير المؤمنين، انى والله اكره مداخلة جعفر معك ولست امن ان ترجع العاقبة في ذلك علىّ منك. فلو اعفيته واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم اعمالك كان ذلك واقعا بموافقتي وامن لك علىّ.» ولكن الرشيد لم يوافقه الرأي وانما المح له انه لا يخشى على جعفر منه حقيقة ولكنه يريد ان يقدم عليه الفضل فقال له: «يا ابت ليس بك هذا، ولكنك انما تريد ان تقدم عليه الفضل».[3] وذكر ابن خلكان ان جعفر كان من علو القدر وعظم المحل عند هارون الرشيد بحالة انفرد بها ولم يشارك فيها، كان متمكنا عند الرشيد غالبا على امره واصلا منه وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه أحد سواه، حتى يقول ابن خلكان ان الرشيد «كان قد اتخذ ثوبا له زيقان فكان يلبسه هو وجعفر جملة ولم يكن له صبر على جعفر». وزيق القميص هو ياقة القميص او ما يحيط منه بالعنق ومعني ذلك ان الرشيد من شدة حبه لجعفر امر بصنع ثوب يطرحانه على نفسيهما وفى هذا معنى القرب والمودة لأنه لم يكن يصبر على فراق جعفر وكان يحب جلسته بالقرب منه.[4]

اما الفضل بن يحي (-147 193هـ) فقد رضع من ام هرون الرشيد بينما رضع الرشيد من ام الفضل فكان اخا لهرون الرشيد بالرضاعة.[5] وقد عهد اليه الرشيد فيما بعد بتربية ابنه الامين ليلعب في حياته دورا شبيها بما لعبه والده يحي مع الرشيد. واسكنه معه في قصره المعروف بالخلد وضم اليه اعماله ودواوينه.[6] يحكى الجهشيارى قصة ذات دلالة مهمة فيما يتعلق بهذه العلاقة التي جمعت الرشيد بالفضل وهي علاقة الاخوة بالرضاعة وقد وقعت القصة في زمن المنصور. يقول الجهشيارى ان المنصور كان قد صرف خالد بن يحي من الديوان وقلدها ابا ايوب الموريانى، وقلد خالدا بلاد فارس فأقام بها خالد مدة. وخلال ذلك كان الموريانى يسعى به عند المنصور خوفا من ان يعود الى بغداد فيحتل موقعه السابق عند المنصور، فظل يسعى به ويتهمه بأخذ اموال بغير وجه حق حتى اتهم المنصور خالدا والزمه ثلاثة الاف درهم. ولم يكن المبلغ الذي طلبه المنصور عند خالد ولكن المنصور لم يصدقه. وطالت هذه الازمة حتى بدأ اصدقاء خالد البرمكي يحاولون اعانته ببعض المال ليوفيه الى المنصور. وعندها وجهت الخيزران ام الرشيد بجوهر قيمته ألف ألف درهم ومئتا ألف درهم الى خالد ليؤديها للخليفة رعاية للرضاع بين الفضل ابنه وبين هرون ابنها. واتصل ذلك بابي جعفر فتحقق عنده قول خالد انه لا يملك الا ما حكى فصفح له عن المال.[7] وتوضح هذه القصة مدى تغلغل هذه العلاقات التي ربطت الخلفاء مع وزرائهم في حياة الخلفاء الاجتماعية وانعكاساتها على اسر الطرفين.

(1) نفس المصدر، ص 199
(2) نفسه، ص 177
(3) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص293
(4) ابن خلكان، مصدر سابق، ج1، ص332
(5) المصدر السابق، ج8، ص 230
(6) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 148
(7) نفس المصدر، ص67

شهد عصر المأمون علاقة اخرى متميزة جمعت بين المأمون وبين السهليين الحسن والفضل ابني سهل والتي اثمرت زواج المأمون بابنة الحسن بن سهل بوران. ذكر ابن خلكان ان الفضل بن سهل كان رجلا ذا فضائل وكان متشيعا وكان عالما بعلم النجوم.[1] عمل الفضل بن سهل كاتبا للمأمون حينما كان وليا للعهد.[2] وكان تأثيره كبيرا على المأمون وعلى العلاقات داخل البيت العباسي وعلى مجرى تاريخ الدولة العباسية السياسي.[3] بعد مقتل الفضل بن سهل في عام 201هـ استوزر المأمون الحسن بن سهل جبرا لمصابه بوفاة اخيه وتزوج ابنته بوران وذلك في سنة 202هـ.[4] وربطت بين المأمون والحسن علاقة متميزة اذ كان الحسن بن سهل أعظم الناس منزلة عند المأمون. وكان المأمون شديد المحبة لمفاوضته فكان إذا حضر عنده طاوله في الحديث.[5] الا ان الحسن بدا ينزوي تدريجيا عن الحياة العامة لأنه فيما يبدو كان مصابا بالاكتئاب بعد مقتل اخيه الفضل.[6] وظل على تلك الحالة الى ان توفي في سنة 236هـ. ولما جاء عهد المعتصم تألق من بين وزراؤه محمد بن عبد الملك الزيّات الذي يحدثنا عنه ابن طباطبا فيقول:» كان ابوه تاجرا موسرا في ايام المأمون. ونشأ محمد فتأدب وقرأ وفهم. وكان ذكيا فبرع في كل شيء حتى صار نادرة وقته عقلا وفهما وذكاء وكتابة وشعرا وادبا وخبرة بآداب الرياسة وقواعد الملوك.[7] وبانتهاء عهد المعتصم ضعف امر الوزارة عموما وكثرت نكبات الوزراء وصاروا يتغيرون بسرعة في مناصبهم فأفلت شمس الوزارة المؤسسة الادارية التي قدمت أكفأ وابرع كُتّاب وساسة العصر العباسي الاول فلا نكاد نلقى من اخبار الوزراء الا النكبات والتقتيل والعزل.

على عظم الدور الذي لعبه هؤلاء الوزراء في ميادين السياسة في الدولة الاسلامية وعلى متانة العلاقات التي جمعتهم مع خلفائهم الا انهم تعرضوا الى كثيرٍ من النكبات والمحن لأسباب عديدة. وقد ذكرت المصادر اسباب هذه النكبات. والكثير من هذه الاسباب ـ في كثيرٍ من الأحيان ـ يمكن غفرانها، والعفو عن صاحبها، لولا هوىً متّبع، وحسدٌ كامنٌ طوته الجوانح والصدور. ولا سيما إذا ازدحام الشعراء بأبواب الوزراء، وقصد الناس إليهم طمعا في صلاتهم جعل الخلفاء يضمرون حَسَداً لهم. وقد يرونهم منافسين لهم في جميل ذكرهم، وعظيم سلطانهم. وخاصةً إذا سعى الساعون، وأرجف الواشون، فأوقدوا نار الفتنة. لقد كان لمقتل أبي سلمة الخلّال، الملقب بـ (وزير آل محمد)، مع أثره المحمود في الدعوة العباسية، أثرٌ في تخوّف رجال الدولة من التسمّي بالوزارة. ومع ذلك فمن الوزراء الذين نكبوا في العصر العباسي الاول ابو ايوب سليمان بن مخلد الموريانى الذي نكب وسجن في عهد المنصور. ويعقوب بن داؤود الذي سجن في عهد المهدى حتى اخرجه الرشيد من السجن. ومحمد بن عبد الملك الزيّات الذي عُذب وقتل في عهد

(1) ابن خلكان، مصدر سابق، ج4، ص41

(2) نفس المصدر، ج4، ص 41-42

(3) على عبد الرحمن العمرو، مرجع سابق، ص 265

(4) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص222

(5) نفس المصدر، ص223

(6) الطبري، مصدر سابق، ج8، ص 568

(7) المصدر السابق، ص 233-234

المتوكل. إن النكبات والمِحَن، التي تعرّض لها الكتّاب والوزراء في العصر العباسي الأول عديدة. الأمر الذي يومئ إلى حقيقة بادهه، وهي أن الخلفاء العباسيين كانوا شديدي الحذر والريبة من رجالات الدولة. كما كانوا حريصين أيّما حرص على سلطانهم، وعدم مزاحمة أحد إياهم عليه، مهما كانت كفايته ومعرفته وبصره بسياسة العباد والبلاد. الشيء الذي جعلهم أميل إلى البطش والاستبداد وعدم العفو، منذ قيام الدولة. إذ كان يهولهم أن يُسلب سلطانهم، وتُزال دولتهم، التي سعوا إلى قيامها مرهوبة الجانب، متماسكة البنيان. نتيجة لذلك نلاحظ تملص بعض الشخصيات العظيمة من قبول الوزارة في ذلك العصر لما عهدوه من وخيم عواقبها وسوء مغبة الاضطلاع بها. لأنهم كانوا يدركون ان مصيرهم يكون الى القتل ومصير اموالهم واموال ذويهم الى المصادرة.

الوزراء وسيط بين الحضرة والادباء والعلماء:

كانت طبقة الكتاب في واجهة الطبقات التي كان لها اتصال مباشر بدار الخلافة في الحضرة. وهذا ما جعلها قيمة على الحركات الفكرية والادبية والشعرية اذ كان الوزراء هم صلة الوصل بين الشعراء والعلماء واللغويين والنسابة والادباء والرواة ودار الخلافة. وكان هؤلاء يقصدونهم احيانا لبلوغ صاحب السلطان طلبا لعرض جهودهم العلمية والادبية عليه وطمعا في الصلة والاحسان إليهم ماديا ومعنويا.[1] وهكذا كان كل من يلمع نجمه من هؤلاء العلماء والشعراء والمثقفين يستدعى الى دار الخلافة او دار الولاية او دور الوزراء فكانت العطايا تُسبغ عليه وقد يُفرض له راتبا شهريا. ثم صارت تلك عادة في الدولة فأصبح العلماء يقصدون هؤلاء الوزراء طمعا في الوصول الى دار الخلافة عبرهم. فتقربوا إليهم واهدوا إليهم مؤلفاتهم وكتبهم. نما هذا الدور الذي لعبه الوزراء في بداية العصر العباسي الاول وعظم فأصبح الوزراء يستقطبون عددا لا يستهان به من المتصلين بالثقافة الى العيش في بغداد. وبذلك جعلوا من بغداد نقطة التقاء لشتى الروافد الثقافية فانعكست هذه الظاهرة ايجابا على المناخ الاجتماعي في بغداد الذي تميز بانه أصبح محتشدا بصفوة المتعلمين والعلماء والشعراء في العالم الإسلامي. وقد خلق ذلك مناخا ثقافيا فريدا وثيق الصلة بالأنشطة الثقافية التي كانت تتم داخل هذا المجال الاجتماعي. ويجوز انه كان من البديهي ان تكون بغداد مركزا لتجمع العلماء والادباء والشعراء خاصة وهي مركز الخلافة الإسلامية، الا ان اهم الاسباب التي دفعت العلماء والمتأدبين الى الحضور الى بغداد هو تشجيع الخلفاء ووزراؤهم لهذه الوفادات[2] حيث وصلوهم بالعطايا المادية والمعنوية.

كان من اهم أسباب تشجيع الخلفاء للعلم والعلماء هو ان خلفاء العصر العباسي الاول كانوا على جانب كبير من العلم والادب. الشيء الذي انعكس على جميع جوانب الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية، فمما روى ان ابا جعفر المنصور كان «جيد المشاركة في العلم والادب، فقيه النفس.»[3] بينما وصف المهدى بأنه « تأدب وجالس العلماء وتميز.»[4] وكان الهادي « فصيحا قادرا

(1) رويدة رفقة، مرجع سابق، ص 110

(2) طلب صبار محل وحسين خالد مصلح، ص469-470

(3) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 422

(4) نفس المصدر، ص440

على الكلام اديبا.»[1] ووصف هرون الرشيد بانه كان « فصيحا مليحا له نظر في العلم والادب.»[2] بينما وصف المأمون بانه كان «أفضل رجال بنى العباس حزما وعزما وعلما ورأيا ودهاء وهيبة وشجاعة وسؤددا وسماحة» وانه عالما بالشرع واللغة والنجوم والفلسفة والمنطق.[3] وقيل عن الواثق بالله (227-232) انه كان عالما واهتم باهل العلم اهتماما كبيرا وجالس علماء الحديث واللغة لما عُرف عنه من الفصاحة والبلاغة والادب.[4] ولم يخالف هذه الظاهرة من خلفاء العصر الاول الا الامين والمعتصم اذ انغمس الاول في اللهو ولم يعرف عنه اهتمامه بالعلم، بينما كان المعتصم اقل خلفاء العباسيين علما ومعرفة اذ «كان يكتب ويقرأ قراءة ضعيفة.»[5] كما عني خلفاء العصر العباسي الأول بالشعر واللغة وكانوا يحرصون على تعليم اولادهم واولياء عهودهم بواسطة نخبة من علماء عصرهم فالمنصور ضم الشرقي بن القطامي[6] الى ابنه المهدى واوصاه ان يعلمه اخبار العرب ومكارم الاخلاق وقراءة الاشعار. ثم علمه المفضل الضبي[7] اللغة والشعر وأهدى اليه مجموعته المفضليات.[8] وعهد الرشيد بتعليم ابنه الامين الى على بن المبارك الاحمر النحوي[9] ثم الكسائي.[10] وعهد بتعليم المأمون الى سيبويه[11] وغيره. وفي العموم كان الخلفاء العباسيون يجلون العلم والعلماء. وكانوا يطلبون العلم في الامور الفقهية والشرعية كلها، ويعقدون المجالس للنظر فيها، ويقربون إليهم الفقهاء والمحدثين. ثم انهم تطرقوا بعد ذلك الى النحو واللغة والتاريخ لارتباط تلك العلوم ببعضها البعض. كما عنوا بالمسائل العقلية عناية فائقة، وعنوا بحفظ الاشعار وروايتها، كما عنوا بمجالس المناظرة بين العلماء والشعراء ورونقها وتنظيمها وقيد المناقشات فيها.[12] ولما

(1) نفسه، ص451

(2) نفسه، ص 457

(3) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 105

(4) طلب صبار محل وحسين خالد مصلح، مرجع سابق، ص 482

(5) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 520

(6) الشرقي بن القطامي: هو العلامة الوليد بن الحصين بن جمال بن حبيب بن جابر من بنى عمرو بن امرئ القيس، والحصين والد الشرقي هو المعروف بالقطامي. كان عالما بالنسب وافر الادب فاقدمه المنصور الى بغداد وعهد اليه بتعليم المهدى.

(7) المفضل الضبي: هو المفضل بن محمد الضبي من كبار علماء الادب في الكوفة. كان موثوقا وله كتاب في رواية الشعر يسمى المفضليات وهو قرابة المائة وثلاثين قصيدة جمعه للخليفة المهدى واهداه اليه، توفى سنة 168هـ

(8) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 100

(9) على بن المبارك الاحمر النحوي: شيخ العربية على بن المبارك وقيل على بن الحسن تلميذ الكسائي وقيل انه كان يحفظ أكثر من اربعين ألف بيت شاهدا في النحو، ندبه الرشيد لتعليم اولاده، توفى بطريق مكة سنة 194هـ انظر المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص291

(10) الكسائي: ابو الحسن على بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الكسائي، (119-189هـ) نحوي من اصول فارسية، كان امام الكوفيين في النحو واللغة وسابع القراء السبعة ويعد المؤسس الحقيقي للمدرسة الكوفية في النحو. تأدب على يديه الامين والمأمون، توفى 197هـ

(11) سيبويه: هو عمر بن عثمان بن عنبر الحارثي اللقب بسيبويه (148-180هـ)، لغوى من اصول فارسية يعتبر امام النحاة واول من بسط علم النحو، اخذ النحو عن الخليل بن احمد ومن اثاره كتاب سيبويه في النحو.

(12) محمد محمد عيسى فيض، أثر الحكام وثقافتهم في تطور الادب في العصر العباسي الاول، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الادب، جامعة ام درمان الاسلامية، 2008م، ص 18

اقامـوا في العـراق واحـاط بهـم اهـل العلـوم الطبيعيـة والفلسـفة مـن السريـان والفـرس واطلعـوا عـلى شيء مـن تلـك العلـوم تاقـت أنفسـهم اليهـا واشـتغلوا بهـا، وكان ذلـك الاشـتغال باعثـا عـلى اسـتنارة الخلفـاء والامـراء.[1] وتقديـرا مـن خلفـاء بنـى العبـاس للعلـم واحساسـا منهـم بأهميتـه فلـم يكونـوا يسـتكتبون ويسـتوزرون الا مـن ظنـوه عالمـا في المقـام الاول بالعلـوم الدينيـة وبعدهـا بمـا شـاء لـه اللـه مـن العلـوم التـي كانـت سـائدة في ذلـك الوقـت ونتيجـة لذلـك كان وزراء العـصر العبـاسي الاول عـلى قـدر عـال مـن الثقافـة والعلـم.[2]

ان هـذه الثقافـة الواسـعة التـي تمتـع بهـا معظـم خلفـاء العـصر العبـاسي الاول كانـت مـن اهـم الاسـباب التـي جعلتهـم يقـدرون العلـم والعلـماء. فكانـوا يجزلـون لهـم العطايـا ويسـتقبلونهم في مجالسـهم ويحرصـون عـلى اسـتقدامهم والتمتـع بمعارفهـم وعلومهـم. فوجـد العلـماء مـن المفسريـن والنحويـين والـرواة مـن الخلفـاء اذانـا صاغيـة وقلوبـا واعيـة ويـدا سـمحة فياضـة بالعطـاء كان لهـا أكـبر الاثـر في نهضـة العلـوم والآداب.[3] فـكان الرشـيد يكـرم العلـماء ويحـرص عـلى اصطحابهـم معـه في رحلاتـه واسـفاره. وقـد تـوفي عـلى بـن حمـزة الكسـائي النحـوي وامـام القـراءة المشـهور ومحمـد بـن الحسـن الشـيباني القـاضي صاحـب ابى حنيفـة وهـما في معيـة الرشـيد بالـري سـنة 189هـ [4] وروى ان المأمـون لمـا اسـتقر ببغـداد امـر بـان يدخـل عليـه الفقهـاء والعلـماء ليختـار جلسـاءه فاختـير لـه منهـم مائـة رجـل ليكونـوا خاصتـه وجلسـاؤه. فـمازال يختارهـم طبقـة بعـد طبقـة حتـى حصـل منهـم عـشرة كان بـشر المريـسى[5] أحدهـم. كانـت هـذه السياسـة التـي انتهجهـا الخلفـاء مـن الاسـباب التـي شـجعت وزراء العـصر الاول عـلى الاهتـمام بدورهـم بالعلـماء والادبـاء والشـعراء وجعلتهـم يحرصـون عـلى تشـجيع هـؤلاء للحضـور الى العاصمـة مـما سـاهم في خلـق منـاخ ثقـافي واجتماعـي مميـز في بغـداد.

بـدا الـدور الـذي لعبـه الـوزراء في اسـتقطاب العلـماء والمتأدبـين الى بغـداد مـع البرامكـة اذ يشـير الجهشـيارى الى ان جعفـر بـن يحـي اوصـل الأصمعـي الى الرشـيد.[6] وكان الأصمعـي يؤلـف في التاريـخ فأكمـل كتابـه (سـير الملـوك) في بيـت الحكمـة بأمـر مـن الرشـيد وذلـك في سـنة 173هـ وهـو مـن الكتـب المهمـة التـي صنفـت لتاريـخ ملـوك العـرب وسـيرهم واشـعارهم ووصاياهـم. وقـد اسـتعان في تأليفـه بالكتـب التـي كانـت في خزانـة بيـت الحكمـة.[7] ومـما سـاعد الـوزراء عـلى احتـواء العلـماء وتشـجيعهم بالجوائـز والصـلات تلـك الثقافـة التـي توفـرت للـوزراء أنفسـهم وهـي التـي سـاعدت في ان يقـدر هـؤلاء الـوزراء العلـم والمشـتغلين بـه منهـم. عـلى سـبيل المثـال احتضـن البرامكـة بحكـم كونهـم

(1) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج3، ص198

(2) المرجع السابق، ص 5-12

(3) محمد نبيه حجاب، مرجع سابق، ص 76

(4) احمد عبد الستار الجواري، مرجع سابق، ص52

(5) بـشر المريـسى: هـو بـشر بـن غيـاث بـن ابى كريمـة المـرسى المتكلـم، شـيخ المعتزلـة كان ينظـر اولا في الفقـه ثـم غلـب عليـه علـم الـكلام، تـوفى سـنة 219هـ

(6) الجهشيارى، مصدر سابق، ص 145

(7) سعيد الدياجي، بيت الحكمة، الموصل: مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر 1975م، ص 32-36

من المتأدبين الادباء من الكُتّاب والشعراء وتفضلوا عليهم بالرعاية والتشجيع.[1] وكان الفضل بن الربيع من المهتمين بالأدب يقول عنه الفخري انه كان عالما بأحوال الملوك وآدابهم وكان يحضر مجالس العلم.[2] وكذلك فعل الحسن بن سهل الذي كان كاتبا للمأمون قبل ان يصير اول وزير في خلافته كما تقدم وقد وصف بانه كان عالما بآداب الملوك.[3] وكثيرا ما ناظر هؤلاء الوزراء العلماء وجادلوهم في الأمور الفلسفية والبحثية، فذكر المسعودي ان يحي بن خالد كان يميل الى البحث والمناظرة وكان ذا علم ومعرفة وبحث ونظر، وكان له مجلس يجتمع فيه اهل الكلام من اهل الاسلام وغيرهم من اهل النحل فيتناقشون في امور المنطق والفلسفة والبلاغة والشعر والادب. وذكر المسعودي طرفا من الموضوعات التي كانت تتم مناقشتها والمناظرة فيها في هذا المجلس فذكر «الكمون والظهور، والقدم والحدوث، والاثبات والنفي، والحركة والسكون، والمماسة والمباينة، والوجود والعدم، والجر والطفرة، والاجسام والاعراض، والتعديل والتجريح، ونفى الصفات واثباتها، والاستطاعة والافعال، والكمية والكيفية، والمضاف والامامة أنص هي ام اختيار.»[4] ونستطيع ان ندرك عند استعراض هذه المواضيع ان مجالس المناظرة كانت قد وصلت في هذا العصر درجة عالية من التخصصية وان مرتاديها والمشاركين بها كانوا على درجة عالية من الثقافة والعلم. في أحيان اخري كان الوزراء يرتبون لمناظرة بين العلماء الذين يعرفون اختلاف وجهات نظرهما في مواضيع معينة. روى عن يحي بن خالد انه هو الذي استدعى الكسائي ليناظر سيبويه على ما هو مفصل في كتب الادب.[5] وفوق ذلك كان الوزراء يصلون هؤلاء العلماء بصلات جزيلة. فمما وروي عن يحي البرمكي انه وابنيه الفضل وجعفر فتحوا ابوابهم للعلماء والادباء وأكرموهم بالصلات الوفيرة والعطايا الجزيلة حتى لتروى في ذلك روايات تشبه الاقاصيص.[6] ومما أثر عن البرامكة انهم كانوا « يحبون العلم والعلماء ويبذلون الاموال في تقريبهم.»[7] فيقال ان يحي بن خالد وصل ابراهيم الموصلي[8] بستمائة ألف درهم وضيعة بمائة وستين ألف درهم واعطى يحي ابنه اسحق الموصلي مائة ألف درهم ليبتاع بها دارا واعطاه ابنه جعفر مائة ألف لفرشها واعطاه ابنه الفضل مائة ألف اخرى لزخرفتها واعطاه ابنه محمد مائة ألف اخرى لنفقتها.[9] وكان يحي

(1) محمد نبيه حجاب، مرجع سابق، ص 87

(2) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص211

(3) نفسه، ص221

(4) المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص306

(5) محمد نبيه حجاب، مرجع سابق، ص 87

(6) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص 327

(7) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، القاهرة: دار الهلال (د.ت)، ج2، ص23

(8) ابراهيم الموصلي: أشهر مغنيي العصر العباسي، ولد سنة 125هـ بالكوفة من اصول فارسية ولكنه لقب بالموصلي لإقامته بالموصل وتنقل بين المدن وتعلم الغناء الفارسي فصار من أمهر المغنين والملحنين استدعاه الخليفة المهدى الى بغداد فقدم عليه وصار مغنيا للخلفاء. عاصر الرشيد وتوفى في ايام المأمون سنة 188هـ ابنه اسحق الموصلي ايضا من مشاهير المغنين والملحنين في العصر العباسي.

(9) نفس المرجع، ص 47

بـن خالـد يجـرى عـلى سـفيان بـن عيينـة[1] كل شـهر ألـف درهـم. فـكان سـفيان يدعـو لـه في سـجوده بقولـه: «اللهـم انـه كفـاني المؤنـة وفرغنـى للعبـادة فأكفـه امـر اخرتـه.»[2] كـما روى ان الواقـدي[3] قـدم بغـداد مـن المدينـة وهـو في اسـوأ حـال فصـار الى يحـي بـن خالـد وهـو لا يعرفـه. فوضـع الطويلـة[4] عـلى رأسـه وجلـس بـباب دار يحـي. وركـب يحـي وخـرج فـراه جالسـا عـلى بـاب داره في زي القضـاة. فقـام الواقـدي فانثنـى عليـه ودعـا لـه. ومـر يحيـى في موكبـه الى دار امـير المؤمنـين ثـم انـصرف، وإذا الواقـدي في مجلسـه ذاك فقـام اليـه وأثنـى عليـه ودعـا لـه، فدخـل يحـي الي منزلـه وجلـس الواقـدي. فسـأل عنـه يحـي قـال: مـن هـذا الشـيخ الـرث الهيئـة؟ فلـم يعرفـه أحـد، فقـال يحـي: ويحكـم لا اشـك انـه شـيخ اصيـل معـه علـم وفقـه. ودعـا بكيـس فيـه اربعـة الاف دينـار وامـر وكيـلا لـه ان يدفعهـا اليـه. وكان قصـارى الواقـدي ومنـاه ان يصلـه بألـف درهـم. فخـرج الرسـول فوضـع الكيـس في حجـره. فلـما رأى عظـم الكيـس اقبـل يدعـو ليحـي ويثنـى عليـه. ثـم قـام فانـصرف الى منزلـه وقـد اخذتـه الرعـدة والحـرص ان يعـرف مـا بالكيـس ويعـرف منتهـاه. فلـما صـار الى حجرتـه اسـتعار مـن بعـض جيرانـه ميزانـا وصنجـات ثـم فتـح الكيـس فـاذا اربعـة الاف دينـار فـكاد ان يغـشى عليـه مـن السـرور. فـرم مـن حالـه واتخـذ ثيابـا سـوية وعـزم عـلى ان ينـصرف الى المدينـة. فلـما كان مـن الغـد بكّـر عـلى يحـي ليودعـه فدخـل وانشـد فـراه عالمـا فقيهـا مسـامرا بليغـا فأعجـب بـه، ثـم قـام ليودعـه فقـال لـه يحـي: اقـم عندنـا ولـك في كل حـول هـذا المقـدار، فأقـام عنـده.[5]

ومـن الـوزراء الذيـن شـجعوا الحركـة الثقافيـة ايضـا محمـد بـن عبـد الملـك الزيّـات وزيـر المأمـون الـذي شـجع حركـة الترجمـة تشـجيعا كبـيرا فازدهـرت في عهـده العلـوم والمعـارف. وشـجع العلـماء وأجـزل لهـم العطـاء وقـد ذكـر ان عطـاؤه للنقلـة والنسـاخين كان يقـارب في كل شـهر ألفـي ينـار. وقـد نقلـت باسـمه كتـب كثـيرة وترجمـت باسـمه جماعـة مـن اكابـر الأطبـاء.[6] وعـلى هـذه الشـاكلة اهتـم وزراء العـصر العبـاسي الاول اهتمامـا خاصـا بالعلـماء فـكان للجوائـز الماديـة التـي بذلهـا وزراء ذلـك العـصر عـلى فئـة المتأدبـين مـن العلـماء والشـعراء والادبـاء والقضـاة والمترجمـين أثـر كبـير في نهضـة العلـوم والآداب والفنـون. فقـد كفـى هـؤلاء مئونـة الكـد في طلـب العيـش فاسـتطاعوا ان يتفرغـوا

(1)سـفيان بـن عيينـة: سـفيان بـن عيينـة بـن ابي عمـران (107-198هـ)، امـام ومحـدث شـهير عـرف بالزهـد والـورع، اجمـع النـاس عـلى صحـة حديثـه وروايتـه وروى عنـه عـدد كبـير مـن العلـماء الاجـلاء والائمـة الكبـار مثـل الشـافعي واحمـد بـن حنبـل وابـو بكـر بـن ابي شـيبة.

(2) ابـن كثـير (الامـام الحافـظ ابـو الفـداء اسـماعيل)، البدايـة والنهايـة، ج10، تحقيـق محمـد بيومـي وعبـد الـلاه المنشـاوي واحمـد رضـوان مهنـا، المنصـورة: مكتبـة الايمـان (د.ت)، ص566

(3)الواقـدي: ابـو عبـد اللـه محمـد بـن عمـر بـن واقـد السـهمي (130- 207هـ)، مـن أقـدم المؤرخـين في الاسـلام ومـن حفـاظ الحديـث، كان مشـهورا بروايـة الاخبـار والسـير والمغـازي والحـوادث وايـام النـاس. كان تاجـرا بالمدينـة لكنـه خسـر مالـه فانتقـل الى بغـداد سـنة 180هـ ايـام الرشـيد واتصـل بيحيـى بـن خالـد عـلى النحـو الـذي تقـدم وقربـه يحـي بـن خالـد مـن الرشـيد فـولى القضـاء وظـل ببغـداد الى ان تـوفى فيهـا.

(4) الطويلة: كان القضاة يلبسونها وهي قلنسوة طويلة حولها عمامة ذات لون اسود.

(5) البيهقي (محمد بن ابراهيم)، المحاسن والمساؤى، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم القاهرة: دار المعارف، 1991م، ج1، ص 185

(6) ابن ابى اصيبعة (موفق الدين ابو العباس احمد بن القاسم)، عيون الانباء في طبقات الاطباء، بيروت: دار مكتبة الحياة، (د.ت)، ص 284

للإنتاج والابداع. كما كان لها مردودها النفسي في اشعار العلماء بقيمتهم امام المجتمع. نتيجة لهذا الاحتفاء والتشجيع لمع العلماء الموسوعيين مثل الجاحظ والذين حولوا كتبهم الادبية الى دوائر معارف واسعة[1] تناولت الوانا عيدة من الفنون والادب.

الوزراء والشعر والشعراء:

كان العرب يعنون بالشعر ويجلونه. بل لم يكونوا يقدسون شيئا من علوم الحياة وفنونها أكثر من تقديسهم للشعر الذي استودعوه افكارهم واخبارهم وحفظوا به فخرهم ومناسبهم، وساقوا به جيوشهم وجحافلهم. وقد ضمن العرب الشعر من اخبارهم وعاداتهم وشئون حياتهم ما جعله مكان فخرهم ومفزع امرهم. وفي العهد الإسلامي كان من اسباب رواج صناعة الشعر في الدولة الاسلامية ان الخلفاء أنفسهم كانوا ينظمون الشعر ويبحثون فيه وكان لبعضهم قصائد جيدة. ومن أشهر الخلفاء الشعراء في العهد الأموي يزيد بن معاوية وكان قد جمع شعره في ثلاثة كراريس ذكر ابن خلكان انه قرأها وحفظها عن ظهر قلب لشدة غرامه بها.[2]

حافظ الشعر على مكانته القديمة خلال العصر العباسي فلم ينل من مكانة الشعر في مجتمع الدولة العباسية الحقيقة الواقعة بان دولة بنى العباس قامت على سواعد الفرس. لقد ظل الخلفاء والحكام والسادة وجمهرة الامراء والادباء يحملون فوق اكتافهم رؤوسا عربية حفظوا فيها تراث اجدادهم ومفاخر اباءهم واقبلوا على الشعر وانشاده. كان بعض الخلفاء أنفسهم يقرضون الشعر. فكان الرشيد على سبيل المثال من أكثر الخلفاء اهتماما بالشعر وقائليه. وكثيرا ما بعث الى أحد الشعراء او الادباء من المهتمين بتراث العرب الشعرى يسأله عن تتمة قصيدة او بيت من الشعر. كما كان يلعب دور الناقد للشعراء، وكثيرا ما كان ما يمتحن الشعراء بطلب ارتجال الشعر في حينه.[3] وعموما اهتم الخلفاء العباسيون بالشعر واحضروا لأبنائهم المؤدبين ليقفوا على الشعر واستظهاره. وجلسوا للشعراء مجالس اثابوا فيها واعطوا ووهبوا من المنح ما وهبوا. وقد قابل شعراء العصر العباسي هذه الثقافة العالية والاهتمام بالشعر من جهة الخلفاء بمزيد من الاهتمام بشعرهم وعملوا جهدهم في تجويد بضاعتهم واعادة النظر فيها عدة مرات حتى تصل الى مستوى ترضى فيه اذواقهم الفنية لضمان القبول عند ممدوحيهم.[4] كما استخدموا الشعر في الكثير من الاغراض فاستخدموه في المفاخرة واستحقاق الخلافة وفى الهجاء والتحريض. وكثيرا ما كان الشعراء يستشفعون بالشعر على قضاء حاجاتهم ويقدمونه امامهم في مخاطبة الخلفاء والوزراء عند الغضب.[5]

تطور الشعر في العصر العباسي الاول تطورا كبيرا واخذ في التحول تبعا لمقتضيات العصر وظروف الزمان ومسايرة للحياة الاجتماعية والاقتصادية. وتطور كذلك تبعا لما جدّ على احوال الناس ومعايشهم من الترف والغنى وما يستلزمه الترف والغنى من الاستمتاع بألوان الملذات،

(1) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص102

(2) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج3، ص 133

(3) عبد الله احمد الذنيبات، المجالس الشعرية والنقدية في مجالس الخليفة هرون الرشيد، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الادب العربي، جامعة مؤتة، (الاردن)، 2009م، ص 21-22

(4) محمد محمد عيسى فيض، مرجع سابق، ص 91

(5) احمد فريد الرفاعي، مرجع سابق، ص 185

والافتتان في بناء القصور والسفن وانشاء الحدائق والمنتزهات. فوق ذلك فقد كانت الحياة السياسية والفكرية حادة عنيفة، فقد اشتدت الصراعات بين العباسيين والعلويين من جهة. وبلغ النزاع غايته بين اصحاب المذاهب وزعماء الآراء من جهة اخري. اضافة الى حركة الترجمة ودخول عناصر جديدة الى مجتمع الدولة الإسلامية. وأثر ذلك المناخ تأثيرا كبيرا في افكار الناس واخيلتهم واساليبهم. وفى هذا المناخ كان الشعر مرآة صادقة لما شهده العصر من حوادث وتيارات. وساهم الصراع الحزبي الذي كان دائرا في العصر الاول حول الخلافة ما بين العباسيين والعلويين وغيرهم من الاحزاب السياسية التي كانت لا تزال تقاتل في سبيل الوصول الى الحكم في ان يلعب الشعراء دورا كبيرا في الحياة الحزبية. فكان للخلفاء شعراء اختصوا بهم وكان للوزراء شعراء اختصوا بهم ولسائر الامراء شعراء.[1] ومدحت مجموعات اخرى من الشعراء احزابا سياسية او جماعات طامعة في الخلافة مثل الامويين وغيرهم.[2] وساهم الصراع الدائر حول السلطة بين العباسيين والعلويين في تكتل الشعراء في مجموعات فكل شاعر او مجموعة من الشعراء تختص بفئة معينة من اصحاب هذا الصراع. فكان للعباسيين شعراؤهم وللعلويين شعراؤهم. وتعددت موضوعات الشعر تبعا لتنوع طرق الحياة وتشعب الأمور في ظل حياة المدنية. فعلى سبيل المثال اسرف الناس في شرب الخمر فافتتن الشعراء في وصف الخمر ووصف كؤوسها. وتخير الناس السقاة من الغلمان ومن في زي الغلمان فوصف الشعراء السقاة وتغزلوا في الغلمان. واولع الناس بالصيد فوصف الشعراء الصيد وما يجرى في مجال الصيد. وافتتن الناس بالبناء والقصور ففتحوا مجال الشعراء لوصف القصور وآيات البنيان ومظاهر العمران.[3] واشتدت المنافسة بين الشيعة والعباسيين فاخذ شعراء كل فريق ينضحون عن رأيهم ويؤيدون مذهبهم. وألف العلماء في الفقه والاخلاق والكلام فاخذ الشعراء يعالجون نظم الفقه والاخلاق والكلام. وهكذا ونتيجة لهذه المستجدات الحضارية والاجتماعية طرأ على الشعر نوع من التطور في الموضوعات والاساليب فتعددت اغراض الشعر وتنوعت الوانه.[4] فبنهاية العصر العباسي الاول ارتقت الحياة العقلية ونشطت التيارات الادبية وشهدت موضوعات الشعر تجديدا تمثل في ظهور اغراض جديدة في الشعر كالوصف الذى اهتم بوصف القصور والبساتين والسفن التي تمخر عباب دجلة والفرات في بغداد، ووصف الكتابة وادواتها كالأقلام والالواح، ووصف الطبيعة والبساتين والقيان المغنيات وادوات الطرب، وكلها ظواهر متعلقة بالمناخ الثقافي في بغداد وكل مظاهر الحياة الحضارية في العصر العباسي الاول.[5] وفى هذا الجو الذي شجّع الشعر فان الشعراء اعتمدوا طوال العصر العباسي الاول الا (في اوقات قليلة) في كسب عيشهم على التقرب من الخلفاء والامراء والوزراء وكبار رجال الدولة. فكانوا يتقربون الى هؤلاء بقصائد المدح الرنانة ابتغاء الجوائز والصلات. ولهذا كان الاغراق في المدح من اهم سمات الشعر في هذا العصر[6] حيث كان الشعر هو الطريق الوحيد الذي تمكن من خلاله الشعراء من التقرب للطبقة الحاكمة. في هذا الجو، لعب الوزراء في العصر العباسي الاول دورا عظيما في تشجيع الشعر

(1) شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص341

(2) محمد مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، القاهرة: دار المعارف 1963م، ص376

(3) ساهرة عبد الحفيظ محمد حمدان، صورة الخلافة في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية، جامعة النجاح في فلسطين، 2010، ص 158

(4) المرجع السابق، ص 409

(5) مصطفى الشكعة، الشعر والشعراء في العصر العباسي، بيروت: دار العلم للملايين 1979م، ص 795

(6) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج2، ص280

وتحفيز الشعراء. كان للبرامكة وزراء الرشيد على سبيل المثال دور كبير في تشجيع شعراء عصرهم تشجيعا ماديا ومعنويا. وكان لهذا العطاء دافعه القوى الذي حرك طموح الادباء فامتلأت بهم الساحة الادبية مشيدين بفضل البرامكة وبالثناء عليهم. فقالوا فيهم وافاضوا وافردوا لهم في ديوان الشعر العربي ما لا يزال الى يومنا هذا يلهج بالثناء عليهم وعلى مآثرهم. وكان من اهم الشعراء الذين مدحوا البرامكة ابان بن عبد الحميد اللاحقي[1]، وأشجع بن عمرو السلمي[2] ومسلم بن الوليد[3]، الرقاشي[4]، وبشار بن برد[5] وأبو نواس[6] وغيرهم. ان تشجيع الوزراء من بعد خلفاءهم للشعر ونظمه وتحفيز الشعراء ومدهم بالعطايا ساهم ضمن اشياء كثيرة في ارتقاء الشعر في ذلك العصر وساهم في رفع مكانة الشاعر في المجتمع.

كان البرامكة اسخياء مع الشعراء لدرجة الاسراف. وقد يصل أحدهم شاعرا في قصيدة لا تتجاوز ابياتها اصابع اليد الواحدة بمقدار من المال كان يعد ثروة في ذلك الزمان. كان لهذه الدفعات المادية دور مهم في تحفيز قرائح الشعراء من خلال التنافس في تجويد العمل الفني حتى يلقى قبولا وهوى في نفس الخليفة او الوزير. وكان الشعراء يدركون ان البرامكة من الادباء الذين يميزون الغث من الثمين لذلك بذلوا جهدا مضاعفا لتجويد اشعارهم. فأصبح الخامل من الناس يجتهد في قول الشعر طمعا في العطايا، فما بالك بأصحاب المواهب الذين اجتهدوا ليجودوا

(1) ابان اللاحقي: من موالي البصرة، اتصل بالبرامكة واختص بهم وكان من رواد الشعر التعليمي اذ نظم بجانب كليلة ودمنة ارجوزة مزدوجة في الصوم والزكاة وقصائد في نشأة الخلق وعلم المنطق، توفى سنة 200هـ.

(2) أشجع بن عمرو السلمي: هو ابو الوليد أشجع بن عمرو السلمي من بنى سليم من قيس عيلان، شاعر فحل كان معاصرا لبشار، ولد باليمامة ونشأ بالبصرة وانتقل الى بغداد فاستقر بها مدح البرامكة وانقطع الى جعفر بن يحي فقربه الرشيد وأعجب به فأثرى وتحسنت حاله، عاش الى ما بعد وفاة الرشيد ورثاه، توفى في حوالي سنة 195هـ.

(3) مسلم بن الوليد: هو ابو الوليد مسلم بن الوليد (140-208هـ) فارسي الاصل كان جده مولى ال سعد بن زرارة الخرجى ، ولد في الكوفة وتلقى اللغة السليمة من البادية، وانتقل الى البصرة مع اخيه ويبدو انه مضى يثقف نفسه بكل معارف عصره فقرا في الآداب المترجمة واختلف الى متكلمي البصرة وحذق على ايديهم النظر والتفكير وتصحيح المعاني والخلوص الى دقائقها وطرائقها الخفية وكان عالما بالشعر الجاهلي والشعر العربي القديم، اغلب شعره في المدح، اتصل بيزيد بن مزيد الشيباني قائد هرون الرشيد ووالية على اليمن ثم اتصل بهارون الرشيد ومدحه ومدح البرامكة وحسن رأيهم فيه ثم اتصل فيما بعد بذي الرياستين الفضل بن سهل ومدحه فاحسن اليه الفضل وولاه اعمالا بجرجان واصبهان ، مدح كذلك جماعة من كتاب الدواوين والولاة وكبار رجال الدولة في عهد الرشيد والمأمون، ، لما قتل الفضل بن سهل لزم منزله ولم يمدح احدا بعده. لقبه الرشيد بصريع الغواني لقوله: هل العيش الا ان اروح مع الصبا *** وأغدو صريع الكأس والاعين النجل، الا انه كان يعيش حياة اسرية هادئة ولم ينغمس كغيره من شعراء عصره في المجون واللهو وقيل انه تزهد في اخر حياته وتوفى بجرجان في 208هـ.

(4) الرقاشي: هو الفضل بن عبد الصمد مولى رقاش وهو من ربيعة كان شاعرا مطبوعا سهل الشعر نقى الكلام، مدح الرشيد واجازه الا ان انقطاعه كلن للبرامكة.

(5) بشار بن برد: هو ابو معاذ بشار بن برد بن يرجوخ العقيلي (96-168هـ) فارسي الاصل كان امام الشعراء المولدين في العصر العباسي الاول عاصر نهاية الدولة الاموية وبداية العباسية ولمع نجمه ف عصرها الاول، كان اعمى البصر وكان شاعرا فحلا غزير الشعر سمح القريحة، اتهم في اخر حياته بالزندقة وضرب بالسياط حتى مات.

(6) ابو نواس: هو الحسن بن هانئ الحكمي الدمشقي، شاعر عربي من أشهر شعراء العصر العباسي الاول، ولد بالأحواز وأمه فارسية انتقل الى البصرة في طفولته وتلقى فيها تعليمه ثم انتقل الى بغداد ومدح هرون الرشيد والبرامكة واختص بهم وانتقل بعد نكبتهم الى مصر واتصل بالى الخراج فيها واسمه الخصيب بن عبد الحميد فأحسن وفادته، عاد الى بغداد بعد وفاة الرشيد وصار نديما لابنه محمد الامين، وكان يعاب عليه شعره الماجن ووصفه للخمر ومجلسها وتوفى في بغداد قبل ان يدخلها المأمون سنة 199هـ.

صنعتهم مما دفعهم الى مراجعة اشعارهم وتهذيبها وتقويم اعوجاجها للوصول الى اعمال فنية جميلة تكون نموذجا فذا يعلق في نفوس المتلقين. يجسد هذه الحقيقة نصيب الاصغر بأبيات قالها في الفضل بن يحي حين انشده:[1]

ما لقينا من جود فضل بن يحي جعل الناس كلهم شعراء
علم المفحمين ان ينظموا الاشعار منا والباخلين السخاء

وهذه حقيقة استطاع نصيب الاصغر ان يثبتها بصدقه في التناول. ويروى صاحب كتاب الأغاني ان ابان اللاحقي كان قد صنع كتاب كليلة ودمنة شعرا في اربعة عشر ألف بيت واهداه الى جعفر البرمكي. وذكر ان جعفر وهب له عشرة الاف دينار واعطاه الفضل خمسة الاف دينار.[2] وبلغ من اهتمام البرامكة بالشعراء ان يحي بن خالد قلد ديوان الشعر لإبان اللاحقي. فكان الشعراء يرفعون اليه اشعارهم في البرامكة فيسقط ما يرى اسقاطه ويعرض ما يرى عرضه.[3] كما ان الفضل بن يحي امر احمد بن سيار الجرجاني[4] ان يميز اشعار الشعراء ويعطيهم على قدر استحقاقاتهم. وروى الجهشيارى قصة طريفة في ذلك فقال ان جماعة من الشعراء فيهم ابان اللاحقي وأشجع السلمي مشت الى احمد بن يسار وأقنعوه ان يضع شعر ابى نواس ولا يلحقه بنظرائه منهم. فلما عرض ابو نواس شعره على الجرجاني رمى به وقال: هذا لا يستحق قائله درهمين فهجاه ابو نواس وقال:

بما اهجوك لا أدري لساني فيك لا يجرى
إذا فكرت في قدرك اشفقت على شعري

واتصل الخبر بالفضل فوصل ابو نواس وارضاه[5]. وقد اقترح بعض المؤرخين انه ربما كان تكالب الشعراء على مدح البرامة واحدا من أسباب نكبتهم سنة 187هـ اذ زاحموا الرشيد في حب الشعراء ومدحهم.[6] اما الفضل والحسن ابنا سهل فقد شجعت عطاياهما الشعراء على مدحهم والتنويه بفضلهم في الحكم والسياسة، يقول مسلم ابن الوليد منوها بتدبيره الامر للمأمون حتى أسقط الامين:

اقمت خلافة وازلت اخرى جليل ما اقمت وما ازلت[7]

وعاش الحسن بن سهل بعد اخيه الفضل طويلا فكثر الشعراء على بابه وكان ممن اختص به ابو تمام ومحمد بن عبد الملك الزيات ومحمد بن وهيب[8] الذي قال فيه:

(1) الجهشيارى، مصدر سابق، ص150
(2) الأصفهاني (ابو الفرج على بن الحسين)، الأغاني، بيروت: دار احياء التراث العربي، (د.ت)، ج 23، ص155.
(3) المصدر السابق، ص165
(4) احمد بن سيار الجرجاني: كان شاعرا راوية مداحا ليزيد بن مزيد الذي كان واليا على اليمن في خلافة الرشيد.
(5) الجهشيارى، مصدر سابق ، ص147
(6) نفس المصدر، نفس المكان
(7) ابن خلكان، مصدر سابق، ج4، ص 41-42
(8) محمد بن وهيب: هو محمد بن وهيب الحميري، شاعر من شعراء بغداد، كان يستمنح الناس بشعره، مدح الحسن بن سهل فأعجب به واوصله الى المأمون حتى مدحه ولم يزل منقطعا له الى ان توفى، كان يتشيع وله مراث في اهل البيت، انظر شوقي ضيف، العصر العباسي الاول، ص340

بك تجتدى النعمى وتستدرك المني وتستكمل الحسنى وترعى الاواصر
لما رأى الله الخلافة قد وهت دعائمها والله بالأمر خابر
بنى بك اركانا عليها محيطة فانت لها دون الحوادث ساتر[1]

كما اشتهر محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق بتشجيع الشعراء بالعطايا المادية وللحسن بن وهب[2] فيه اشعار كثيرة وكذلك امتدحه ابو تمام بشعر رصين.[3]

برز الشاعر في نهاية هذا العصر بحلة المثقف اذ أصبح الشعراء في ذلك الوقت جزء من الطبقة المفكرة في المجتمع فاخذوا بأطراف من الافكار الجديدة وتأثروا بالصراعات الفكرية التي كانت حولهم وانغمروا في لجج الصراع العقلي.[4] وكان من شعراء ذلك العصر من تمتع بالثقافة الواسعة والعلم حتى نال احترام الملوك والوزراء على فضلهم وشعرهم نذكر منهم الشاعرين العتابي[5] والخريمى.[6] وقد اثرت ثقافة هؤلاء الشعراء في انتاجهم الشعرى فنظموا في الشعر الأخلاقي والإنساني وتطرقوا الى المواقف الخلقية وفلسفة الصداقة وتعريف الصديق والحكمة والفضيلة ومسالكهما[7] وغير ذلك من المواضيع التي طرقت لأول مرة.

(1) ابن خلكان، مصدر سابق، ج4، ص 41-42

(2) الحسن بن وهب: هو الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين بن قيس بن قنان بن متى الحارثي ولد في سنة 186هـ ينتمي الى ال وهب وهي من أعرق الاسر التي تولت الكتابة للخلفاء، عمل الحسن كاتبا عند الوزير محمد بن عبد الملك الزيات وولاه ديوان الرسائل وبعض الاعمال بدمشق وتوفي في دمشق وهو يتولى البريد اخر ايام المتوكل وهو شاعر مترسل فصيح واحد ظرفاء الكتاب.

(3) نفس المصدر، نفس المكان

(4) احمد عبد الستار الجواري، مرجع سابق، ص 197

(5)العتابي: كلثوم بن عمرو بن ايوب الملقب بالعتابي وهو حفيد عمرو بن كلثوم صاحب احدى المعلقات في الجاهلية وكان شاعرا مجيدا مدح البرامكة ومدح طاهر بن الحسين وكان اديبا مصنفا له من المصنفات كتاب المنطق وكتاب الآداب وكتاب فنون الحكم وكتاب الالفاظ وغيرها.

(6) الخريمى: اسحق بن حسان بن قوهي وكنيته ابو يعقوب ولقب بالخريمى لأنه كان مولى لآل خريم أصله من الفرس وازدهر شعره ايام الرشيد والمأمون ومدحهما ولكنه انقطع لمحمد بن منصور كاتب البرامكة ومدحه. يعتبر رائد الشعر التعليمي فهو صاحب القصيدة الطويلة التي وصف فيها تخريب بغداد في عهد الفتنة بين الامين المأمون والتي جعل منها وثيقة تاريخية.

(7) احمد عبد الستار الجواري، مرجع سابق، ص 197

الخـاتـمة:

اختصت هـذه الدراسـة بالـدور السـياسي والثقـافي والاجتماعـي الـذي لعبـه الكُتّـاب في العـصر العبـاسي الأول (132-247هـ 749-861م)، وألقـت الضـوء عـلى السياسـة والثقافـة والمجتمـع في ذلـك العـصر. وتعرضـت خـلال ذلـك لنوعـين مـن التنظيـمات الإداريـة والسياسـية في الدولـة الإسـلامية، أولهـما هـو نظـام الـوزارة الـذي اسـتحدثه العباسـيون في بدايـة عهدهـم تأثـرا بالنظـم الفارسـية في الحكـم والإدارة. وثانيهـما هـي الدواويـن التـي ارتبـط ظهورهـا بصناعـة الكتابـة التـي تطـورت مـن ثـم إلى مؤسسـة إداريـة أثـرت بشـكل مبـاشر في الثقافـة والسياسـة وكان لهـا أثـر عظيـم في هذيـن المجالـين في العـصر العبـاسي الأول ومـا تـلاه.

مـن أبـرز النتائـج التاريخيـة التـي اسـتخلصتها هـذه الدراسـة ان الدولـة العباسـية قامـت عـلى اكتـاف الفـرس واسـتعانت بخبراتهـم الاداريـة والسياسـية فاتخـذت منهـم الكُتّـاب والـوزراء. وكان مـن هـؤلاء شـخصيات تمتعـت بخـبرات متقدمـة في الكتابـة والسياسـة، فلعبـوا ادوار مؤثـرة وسـاهموا في صنـع الاحـداث السياسـية والثقافيـة في العـصر العبـاسي الاول. وخلصـت الدراسـة الى ان التأثـير الـذي خلفـه الكُتّـاب في المجـال الثقـافي أكـبر وأعظـم مـن دور الـوزراء. بينـما كان تأثـير الـوزراء في المجـال السـياسي أكـبر وأعظـم مـن دور الكُتّـاب. ويعـود هـذا بالـضرورة الى طبيعـة المنصـب والمهـام التـي كان يمارسـها كل مـن الوزيـر والكاتـب في ذلـك العـصر. فمـن الطبيعـي ان يكـون المجـال الـذي يؤثـر فيـه الوزيـر هـو المجـال السـياسي بينـما يؤثـر الكاتـب في المجـال الثقـافي.

وخلصـت الدراسـة الى ان معظـم النظـم الاسـلامية لم تتشـكل بعـد الاسـلام ولم تنضـج في وقـت قصـير. ذلـك ان نظـم الحكـم لا تظهـر طفـرة واحـدة بـل هـي نـوع مـن التغيـرات التـي تحتـاج الى وقـت طويـل. وهـي لا تقـف عنـد حـد وليـس لهـا نهايـة. وان اصـول بعضهـا ترجـع الى الانظمـة التـي كانـت سـائدة في الـشرق الادنى قبـل الإسـلام. وان العـرب أفـادوا مـن الانظمـة التـي كانـت موجـودة في البـلاد التـي شـملتها الفتوحـات الاسـلامية مثـل الانظمـة الساسـانية والبيزنطيـة في الشـئون الاداريـة والماليـة. وتجلـت عبقريتهـم في طبعهـم هـذه النظـم بطابـع إسـلامي فريـد. امـا اسـتحداث نظـام الـوزارة فـكان مـن اهـم الاصلاحـات السياسـية في العـصر العبـاسي الـشيء الـذي عكـس تأثـرا بالنظـم الفارسـية القديمـة، وسـاعد عـلى مركزيـة السـلطة. وقـد اعتـبرت الـوزارة فيـما تـلا العـصر العبـاسي الاول واحـدة مـن دعائـم النظـام الدسـتوري في الدولـة الاسـلامية.

وخلصـت الدراسـة أيضـا الى ان ظهـور الكتابـة كصناعـة في الدولـة الاسـلامية ارتبـط بظهـور الدواويـن في الامصـار التـي ضمتهـا الفتوحـات الى كيـان الدولـة الإسـلامية. حيـث بـدأت الكتابـة في الحقـل الإداري في التطـور منـذ مطلـع العـصر العبـاسي الأول بمعـزل عـن اللغـة العربيـة. لكنهـا ارتبطـت باللغـة العربيـة بعـد تعريـب الدواويـن في عهـد الخليفـة الأمـوي عبـد الملـك بـن مـروان فأصبحـت العربيـة اداتهـا ومجالهـا. وانتقلـت الكتابـة كصناعـة الى مرحلـة مـن الرقـى والكـمال خـلال العـصر العبـاسي الأول. وارتبطـت ببلاغـة العربيـة والمقـدرة التعبيريـة والفصاحـة وشـمول الحكمـة مـع الايجـاز. وسـاهمت الكتابـة في هـذه المرحلـة في خدمـة الثقافـة العربيـة حيـث ترجمـت كتـب الوصايـا والعهـود الفارسـية

فوفر هذا التيار الفكري مادة اولية للفلسفة العربية والاسلامية في الحكم والادارة في العصر الإسلامي الوسيط. ولعبت هذه المؤلفات فيما بعد دورا في الفكر والعمل السياسي في الدولة الاسلامية. وتحولت الكتابة فيما تلا ذلك الى مؤسسة ادارية عتيقة لها رسومها وتقاليدها. واصبحت ترفد الدولة بالإداريين الاكفاء. وظلت الكِتابة كمؤسسة ادارية تضمن تزويد السلك الإداري بالوزراء الاكفاء والكتبة المتميزين، كما كان لها فيما بعد عظيم الاثر في الفكر والثقافة العربية والاسلامية.

وخلصت الدراسة كذلك الى ان مؤسسة الكتابة واصلت التطور خلال العصر العباسي الأول فتطورت رسوم الكتابة الديوانية وبلغت حدا من الاجادة في الصنعة، واصبحت لها قواعد وقوانين محددة. وهو الشيء الذي ساهم في رقى ديوان الرسائل في العصر العباسي الاول وفى العصور التي تلته على حد سواء. كذلك ساهمت الكتابة في العصر العباسي الاول في بروز اللغة الادارية التي تعبر عن اوامر ومقاصد الحاكم بأساليب فنية بالمعنى البلاغي العربي للكلمة، اذ الفت تلك اللغة بين مقتضيات التعبير الإداري وجمالية القول الفني. واصبحت رسائل كتاب العصر العباسي الاول وتوقيعاتهم وعهودهم هي الادوات المعبرة عن قضايا السلطة وهي لسان حال الدولة في ذلك العصر، واضحت نتيجة لذلك وثائق تاريخية مهمة لمن اراد دراسة الحياة السياسة والثقافية والاجتماعية في تلك الفترة التاريخية.

ومن النتائج التي كشفها استقراء مجتمع الدولة العباسية في بغداد في العصر الأول ان المجتمع كما كان متمايزا بنوع من الطبقية الاجتماعية، وقد تشكل الكُتّاب في محيطه في طبقة اجتماعية ساهمت في طبع ثقافة وحياة المجتمع بالثقافة والنظم الفارسية التي تجلت في أسلوب الحياة وتقاليد ورسوم الحكم. وقد حاولت طبقة الكُتّاب الحفاظ على امتيازاتها بانغلاقها على نفسها واحتكارها لصناعتها. كما تحولت الكتابة بفضل كُتّاب العصر العباسي الاول الى وسيط للتواصل الاجتماعي في مجتمع الدولة العباسية. ولعب الوزراء دور الوسيط في استقطاب عدد مقدر من المتأدبين والمثقفين والعلماء والشعراء الى بغداد. فأصبحت بغداد نتيجة لذلك نقطة التقاء لروافد ثقافية عديدة الشيء الذي أنعش الحياة الثقافية فيها خلال العصر العباسي الاول.

المصادر والمراجع:

القران الكريم:

المصادر:

(1) ابـن ابي اصيبعـة: (موفـق الديـن ابـو العبـاس احمـد بـن القاسـم)، **عيـون الانبـاء في طبقـات الاطبـاء**، بـيروت: دار مكتبـة الحيـاة، (د.ت).

(2) ابـن الابـار: (ابـو عبـد اللـه محمـد بـن عبـد اللـه بـن ابي بكـر القضاعـي)، **اعتـاب الكتـاب**، تحقيـق صالـح الاشـتر، دمشـق: مجمـع اللغـة العربيـة 1961.

(3) ابـن الاثـير: (عـز الديـن بـن الحسـن عـلى بـن محمـد)، **الكامـل في التاريـخ**، اشراف ابـو صهيـب الكرمـي، بـيروت: بيـت الافـكار الدوليـة، 1997م.

(4) ابـن الحـداد: (محمـد بـن منصـور بـن حبيـش)، **الجوهـر النفيـس في سياسـة الرئيـس**، تحقيـق رضـوان السـيد، بـيروت: دار الطليعـة 1983م.

(5) ابـن المدبـر: (ابـو اليـسر إبراهيـم بـن محمـد)، الرسـالة **العـذراء في موازيـن البلاغـة وأدوات الكتابـة**، (ضمـن رسـائل البلغـاء)، بـيروت: دار الكتـب العربيـة الكـبرى، 1913م.

(6) ابـن المقفـع: (ابـو محمـد عبـد اللـه روزبـة بـن داذويـه)، **الادب الصغـير**، تحقيـق وائـل بـن حافـظ بـن خلـف، القاهـرة: دار البشـير للثقافـة والعلـوم، 2011م.

(7) ابن النديم: (محمد بن اسحق)، **الفهرست**، بيروت: دار المعرفة، ط2، 1997م.

(8) ابـن وهـب: (ابـو الحسـين اسـحق بـن ابراهيـم بـن سـليمان)، البرهـان **في وجـوه البيـان**، تحقيـق حنفـي محمـد شرف، القاهـرة: مطبعـة الرسـالة، 1969م.

(9) ابـن خرداذبـة: (ابـو القاسـم عبيـد اللـه بـن عبـد اللـه)، **المسـالك والممالـك**، ليـدن: مطبعـة بريـل، 1889م.

(10) ابـن خلـدون: (ولى الديـن عبـد الرحمـن)، **مقدمـة ابـن خلـدون**، تحقيـق عبـد اللـه محمـد الدرويش، دمشـق: دار يعرب 2004م.

(11) ابـن خلـكان: (ابى العبـاس شـمس الديـن احمـد بـن محمـد بـن ابى بكـر)، **وفيـات الاعيـان وانبـاء ابنـاء الزمـان**، بـيروت: دار صـادر 1972م.

(12) ابـن درسـتويه: (عبـد اللـه بـن جعفـر)، **كتـاب الكتـاب**، تحقيـق ابراهيـم السـامرائي وحسـين الفتـلى، الكويـت: دار الكتـب الثقافيـة 1977م.

(13) ابـن طباطبـا: (محمـد بـن عـلى بـن طباطبـا)، **الفخـري في الآداب السـلطانية والـدول الاسـلامية**، بـيروت: دار صـادر 1970م.

(14) ابـن طيفـور: (ابـو الفضـل احمـد بـن طاهـر الكاتـب)، **كتـاب بغـداد**، تحقيـق محمـد زاهـد بـن الحسـن الكوثـري، القاهـرة: (د.ن) 1949م.

(15) ابـن كثـير: (الامـام الحافـظ ابـو الفـداء اسـماعيل)، **البدايـة والنهايـة**، تحقيـق محمـد بيومـي وعبـد

الـلاه المنشـاوي واحمـد رضـوان مهنـا المنصـورة: مكتبـة الايمـان (د.ت).
(16) ابـو حيـان التوحيـدي (عـلى بـن محمـد بـن العبـاس)، **الامتـاع والمؤانسـة**، تحقيـق احمـد امـين واحمـد الزيـن، القاهـرة: مطبعـة لجنـة التأليـف والترجمـة والنـشر 1944م.
(17) الأصفهاني (ابو الفرج على بن الحسين بن محمد)، **الأغاني**، بيروت: دار احياء التراث العربي، (د.ت).
(18) .....، **مقاتـل الطالبيـين**، تحقيـق السـيد احمـد صقـر، قم: منشـورات الشريف الـرضى 1416هـ.
(19) الأندلـسي (ابـو القاسـم صاعـد بـن احمـد بـن صاعـد)، **طبقـات الامـم**، بـيروت: المطبعـة الكاثوليكيـة للآبـاء اليسـوعيين، 1912م.
(20) البطليـوسي (عبـد اللـه بـم محمـد بـن السـيد)، **الاقتضـاب في شرح ادب الكتـاب**، تحقيـق عبـد اللـه البسـتاني، بـيروت: المطبعـة الابيـة 1901م.
(21) البيهقـي (محمـد بـن ابراهيـم)، **المحاسـن والمسـاؤى**، تحقيـق محمـد ابـو الفضـل ابراهيـم القاهـرة: دار المعـارف، 1991م.
(22) البـلاذري (احمـد بـن يحـي بـن جابـر البغـدادي)، **فتـوح البلـدان**، القاهـرة: شركـة طبـع الكتـب العربيـة 1901م.
(23) الترمذي (ابو عيسى محمد بن عيسى)، **سنن الترمذي**: القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1965م.
(24) الثعالبـي: (ابـو منصـور محمـد بـن عبـد الملـك بـن محمـد) **تحفـة الـوزراء**، تحقيـق حبيـب عـلى الـراوي وابتسـام مرهـون، بـيروت: الـدار القوميـة للموسـوعات 2006م.
(25) الحموي (شهاب الدين ابى عبد الله ياقوت بن عبد الله)، **معجم البلدان**، بيروت: دار صادر 1977م.
(26) الجاحـظ (ابـو عثـمان عمـرو بـن بحـر)، **التـاج في اخـلاق الملـوك**، تحقيـق احمـد زكى باشـا، القاهـرة: (د.ن)، 1914م.
(27) .....، **البيـان والتبيـين**، شرح وتحقيـق عبـد السـلام محمـد هـرون، القاهـرة: مكتبـة الخانجـي 1998م.
(28) .....، **رسـائل الجاحـظ**، تقديـم وشرح عـلى ابـو ملحـم، بـيروت: دار ومكتبـة الهـلال 2002م.
(29) الجهشـيارى (ابوعبـد اللـه محمـد (، **الـوزراء والكتـاب**، القاهـرة: مطبعـة عبـد الحميـد حنفـي 1938م.
(30) الدينـوري (ابـو محمـد عبـد اللـه بـن عبـد المجيـد بـن مسـلم بـن قتيبـة)، **الامامـة والسياسـة**، تحقيـق محمـد محمـود الرافعـي، القاهـرة: مطبعـة النيـل، 1904.
(31) .....، **ادب الكاتب**، تحقيق محمد الدالي، بيروت: مؤسسة الرسالة (د.ت).
(32) الذهبـي (شـمس الديـن محمـد بـن احمـد بـن عثـمان)، **سـير اعـلام النبـلاء**، تحقيـق شـعيب الارنـؤوط، بـيروت: مؤسسـة الرسـالة 2001م.
(33) السـيوطي (جـلال الديـن عبـد الرحمـن بـن ابى بكـر)، **تاريـخ الخلفـاء**، الدوحـة: وزارة الاوقـاف والشـئون الاسـلامية، 2013م.
(34) .....، **حسـن المحـاضرة في اخبـار مـصر والقاهـرة**، تحقيـق محمـد ابو الفضـل ابراهيـم، القاهـرة: دار احيـاء الكتـب العربيـة، 1968م.
(35) السـبكي (تـاج الديـن عبـد الوهـاب بـن تقـى الديـن): **طبقـات الشـافعية الكـبرى**، تحقيـق محمـود

محمد الطناحى وعبد الفتاح حلو، دمشق: فيصل عيسى البابي الحلبي 1964م.
(36) الصابي (ابو الحسن هلال بن محسن)، **تحفة الامراء في تاريخ الوزراء**، تحقيق عبد الستار احمد فراج، القاهرة: مكتبة الاعيان (د.ت).
(37) .....، **الوزراء او تحفة الامراء في تاريخ الوزراء**، تحقيق عبد الستار احمد فراج، القاهرة: دار احياء الكتب العربية 1958م.
(38) .....، رسوم **دار الخلافة**، تحقيق ميخائيل عواد، بيروت: دار الرائد العربي 1986م.
(39)
(40) الصولي (ابو بكر محمد بن يحي بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول)، **ادب الكتاب**، القاهرة: المكتبة السلفية 2010م.
(41) الطبري: (ابو جعفر محمد بن جرير)، **تاريخ الطبري**، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم القاهرة: دار المعارف 1967م.
(42) العسكري (ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل)، **الصناعتين: الكتابة والشعر**، تحقيق مفيد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية 1981م.
(43) .....، **ديوان المعاني**، شرح احمد حسن بسحج، ج1، بيروت: دار الكتب العلمية 1994م.
(44) العباسي (الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمر)، **اثار الاول في ترتيب الدول**، تحقيق عبد الرحمن عميرة، بيروت: دار الجيل 1989م.
(45) الغزالي (ابو حامد محمد بن محمد بن محمد)، **التبر المسبوك في نصيحة الملوك**، ضبط وتصحيح احمد شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية 1988م.
(46) القرطبي (ابو عبد الله محمد احمد)، **الجامع لأحكام القران**، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية 1963م.
(47) القضاعي (ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ابى بكر)، **اعتاب الكتاب**، تحقيق صالح الاشتر، دمشق: مجمع اللغة العربية 1961م.
(48) القضاعي (محمد بن سلامة بن جعفر الشافعي)، **عيون المعارف وفنون اخبار الخلائف**، تحقيق جميل عبد الله محمد المصري، القاهرة: مركز البحوث واحياء التراث الإسلامي، 1995م.
(49) القلقشندي (ابو العباس احمد)، **صبح الاعشى في كتابة الانشاء**، القاهرة: دار الكتب المصرية 1922م.
(50) المسعودي: (ابو الحسن على بن الحسين (، **التنبيه والاشراف**، ليدن: مطبعة بريل1893م.
(51) .....، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بيروت: المكتبة العصرية 2005م.
(52) المقدسي (شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد بن ابى بكر)، **أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم**، ليدن: مطبعة بريل، 1906م.
(53) الماوردي (ابو الحسن على بن محمد بن حبيب)، الاحكام **السلطانية والولايات الدينية**، تحقيق احمد مبارك، الكويت: مكتبة دار ابن قتيبة 1989م.
(54) اليعقوبي (احمد بن ابى يعقوب بن جعفر بن وهب)، **تاريخ اليعقوبي**، ج2، ليدن: 1883م.
(55) .....، **البلدان**، بيروت: دار الكتب العلمية، 2002م.

(56) مسكويه (ابو علي احمد بن محمد بن يعقوب)، **تهذيب الاخلاق**، تحقيق ودراسة عماد الهلالي، بيروت: منشورات الجمل 2011م.

المراجع الحديثة:

(1) احمد امين، **ظهر الاسلام**، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1999م.
(2) .....، **ضحى الاسلام**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،1998م.
(3) اثار بن المقفع، بيروت: دار الكتب العلمية، 1989م.
(4) احمد زكي صفوت، **جمهرة رسائل العرب**، بيروت: المكتبة العلمية 1939م.
(5) احمد عبد الستار الجواري، **الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري**، بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي 1991م.
(6) احمد فريد الرفاعي، **عصر المأمون**، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1927م.
(7) احسان عباس، **ملامح يونانية في الأدب العربي**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1977م.
(8) احمد مختار العبادي، **في التاريخ العباسي والفاطمي**، بيروت: دار النهضة العربية، (د.ت).
(9) جرجي زيدان، **تاريخ آداب اللغة العربية**، تقديم شوقي ضيف، ج2، القاهرة: دار الهلال (د.ت).
(10) .....، **تاريخ التمدن الإسلامي**، القاهرة: مؤسسة هنداوي للثقافة والتعليم 2012م.
(11) جميل جبر: **الجاحظ ومجتمع عصره في بغداد**، بيروت: دار صادر (د.ت).
(12) جورج غريب، **ادب الرحلة**، بيروت: دار الثقافة 1979م.
(13) حسام الدين السامرائي، **المؤسسات الادارية في الدولة العباسية**، القاهرة: دار الفكر العربي، (د.ت).
(14) حسن ابراهيم حسن، **تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، بيروت: دار الجيل 1996م.
(15) حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن، **النظم الاسلامية**، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية 1939م.
(16) حسين نصار، **نشأة الكتابة الفنية في الادب العربي**، مكتبة الثقافة الدينية 2002م.
(17) خير الدين الزركلي، **الاعلام**، بيروت: دار العلم للملايين 2002م.
(18) سعيد الدياجي، **بيت الحكمة**، الموصل: مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر 1975م.
(19) سليمان بن عبد الله المديد السويكت، **منهج المسعودي في كتابة التاريخ**، الرياض: المؤلف، 1986م.
(20) سلوى قنديل، **المختار من كتاب تدبير الدول لابن نباتة المصري**، تقديم رضوان السيد، بيروت: مركز ابن الازرق لدراسات التراث السياسي، 1433هـ
(21) سميرة مختار الليثي، **جهاد الشيعة في العصر العباسي الاول**، بيروت: دار الجيل 1978م.
(22)
(23) شوقي ابو خليل، **هرون الرشيد امير الخلفاء واجل ملوك الدنيا**، دمشق: دار الفكر المعاصر 1996م.
(24) شوقي ضيف، **الفن ومذاهبه في النثر العربي**، القاهرة: دار المعارف 1961م.
(25) .....، **العصر العباسي الاول**، القاهرة: دار المعارف، 1966م.
(26) ضيف الله يحي الزهراني، **النفقات وادارتها في الدولة العباسية**، مكة: مكتبة الطالب الجامعي 1986م.
(27) طه حسين واخرون، **التوجيه الأدبي**، القاهرة: المطبعة الاميرية 1940م.

(28) طه حسين، **من تاريخ الادب العربي**، بيروت: دار العلم للملايين 1991م.
(29) عبد العزيز الدوري، **الجذور التاريخية للشعوبية**، بيروت: دار الطليعة 1981م.
(30) .....، **العصر العباسي الاول: دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي**، بيروت: دار الطليعة 1997م.
(31) .....، **النظم الاسلامية**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية 2008م.
(32) عبد الرحمن حسين العزاوي، **التاريخ والمؤرخون**، بغداد: دار الشئون الثقافية العامة 1993م.
(33) عهد اردشير، تحقيق وتقديم احسان عباس، بيروت: دار صادر 1967م.
(34) علي عبد الرحمن العمرو، **أثر الفرس السياسي في العصر العباسي الاول**، الرياض: شركة العبيكان للنشر، 1992م.
(35) على محمد الصلابي، **الدولة الاموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار**، بيروت: دار المعرفة، 2008م.
(36) على يوسف السبكي، **الرسائل النبوية**: دراسة وتحقيق، القاهرة: (د.ن)، 1980م.
(37) قدامة بن جعفر الكاتب، **الخراج وصناعة الكتابة**، تحقيق محمد حسين الزبيدي، بغداد: دار الرشيد 1981م محمد الزحيلى، **الامام الطبرى**، دمشق: دار القلم 1999م.
(38) محمد الخضري بك، **محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية (الدولة العباسية)**، تحقيق محمد العثماني، بيروت: دار القلم 1986م.
(39) محمد احمد دمج، **مرايا الامراء**: الحكمة السياسية والاخلاق والتعاملية في الفكر الإسلامي الوسيط، بيروت: مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع1994م.
(40) محمد دياب الاتليدى، **اعلام الناس بما وقع للبرامكة من بنى العباس**، بيروت: دار صادر 1990م.
(41) محمد سلام مدكور، **معالم الدولة الاسلامية**، الكويت: مكتبة الفلاح 1403هـ.
(42) محمد سهيل طقوش، **تاريخ الدولة العباسية**، بيروت: دار النفائس2009م.
(43) محمد عبد المنعم خفاجي، **الحياة الادبية في العصر العباسي**، الاسكندرية: دار الوفاء 2004م.
(44) محمد كرد على، **رسائل البلغاء**، القاهرة: دار الكتب العربية الكبرى 1913م.
(45) .....، **الادارة الاسلامية في عز العرب**، القاهرة: مطبعة مصر، 1934م.
(46) محمد مصطفى هدارة، **اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري**، القاهرة: دار المعارف 1963م.
(47) محمد نبيه حجاب، **بلاغة الكتاب في العصر العباسي الاول: دراسة تحليلية نقدية لتطور الاساليب**، مكة: مكتبة الطالب الجامعي، 1986م.
(48) محمد يونس عبد العال، **في النثر العربي**، القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر1996 م.
(49) مصطفى الحيارى، **الدواوين من كتاب الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر الكاتب**، عمان: الجامعة الاردنية 1986م.
(50) مصطفى الشكعة، **الشعر والشعراء في العصر العباسي**، بيروت: دار العلم للملايين 1979م.
(51) محمود بن احمد الطحان: **الخطيب البغدادي بين المحدثين والفقهاء**، الرياض: المؤلف 1984م.
(52) مفتاح يونس الرباصى، **المؤسسات التعليمية في العصر العباسي الاول (132-232هـ)**، مصراتة: منشورات جامعة 7 اكتوبر 2010م.
(53) نبيل خالد رباح ابوعلى، **نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656هـ**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م.
(54) يحي وهيب الجبوري، **الكتاب في الحضارة الاسلامية**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998م.
(55) يسرى عبد الغنى: **معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني الهجري**، بيروت: دار الكتب العلمية، 1999م.

(56) الكتب المعربة:
(57) ادم متز، **الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري او عصر النهضة في الاسلام**، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة، بيروت: دار الكتاب العربي، ط 5، 1948م.
(58) ديمتري غوتاس، **الفكر اليوناني والثقافة العربية**، ترجمة ونقل نقولا زيادة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2003م.
(59) يوليوس فلهاوزن، **تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الاموية**، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر1968.
(60) الرسائل العلمية:
(61) احمد عبد القادر محمود عقل، **صراع الحضارات وأثره في الشعر العربي في العصر العباسي الاول (القرن الثاني الهجري)**، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية، جامعة النجاح (فلسطين)، 2003م (غير منشورة).
(62) احمد سعيد احمد الزهراني، **اثار البرامكة وبنى سهل والصوليين على النثر الفني**، دراسة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الادب العربي، جامعة م القرى (مكة المكرمة)، 1990م (غير منشورة).
(63) اسماء عبد الرؤف عطية الله، **الرسائل في العصر العباسي انواعها وخصائصه الفنية**، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في الادب والنقد، جامعة ام درمان الاسلامية (السودان)، 2009م (غير منشورة).
(64) بدرية لافي رميثان اللهيبى، **إثر علوم الفرس على علوم العرب من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر العباسي الثاني**، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ والحضارة الاسلامية، جامعة ام القرى (مكة المكرمة)، 2015م (غير منشورة).
(65) جمال محمد سرحان، **المسامرة والمنادمة عند العرب حتى القرن الرابع الهجري**، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية، الجامعة الامريكية في بيروت(لبنان)، 1978م (غير منشورة).
(66) رفيدة اسماعيل عطا المنا، **بيت الحكمة البغدادي وأثره في الحركة العلمية في الدولة العباسية (132-656هـ)**، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ، جامعة الخرطوم، (السودان) 2009م (غير منشورة).
(67) رويدة رفقة، **نمو طبقة الكتاب وتطور الكتابة الديوانية حتى اوائل القرن الرابع الهجري**، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الادب العربي، كلية الآداب والعلوم، الجامعة الامريكية في بيروت (لبنان)، 1981م (غير منشورة).
(68) ساهرة عبد الحفيظ محمد حمدان، **صورة الخلافة في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين**، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية، جامعة النجاح (فلسطين)، 2010م (غير منشورة).
(69) سامي محمد يوسف الجعفري، **التنافس على السلطة في العصر العباسي الاول (132-232هـ)**، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة سانت كليمنتس (العراق) 2010م (غير منشورة).
(70) عبد الله احمد الذنيبات، **المجالس الشعرية والنقدية في مجالس الخليفة هرون الرشيد**، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الادب العربي، جامعة مؤتة (الاردن)، 2009م (غير منشورة).
(71) فائد محمود محمد سلمان، **فن الرسائل عند سهل بن هرون وعمرو بن مسعدة (دراسة فنية موضوعية موازنة)**، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الادب العربي، جامعة النجاح (فلسطين)، 2011م (غير منشورة).

(72) فيصل حسين طحيمر العلى، ف**ن الترسل عند عبد الحميد الكاتب وابن العميد**، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية، جامعة النجاح (فلسطين)، 2001م (غير منشورة).

(73) محمد محمد عيسى فيض، **أثر الحكام وثقافتهم في تطور الادب في العصر العباسي الاول (132-232هـ)**، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الادب، جامعة ام درمان الاسلامية (السودان)، 2008م (غير منشورة).

الاوراق العلمية:

(1) حمدان عبد المجيد الكبيسي، **مؤسسة الوزارة في الدولة الاسلامية اصولها وتطورها**، مجلة المؤرخ العربي،) العراق): الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب العدد29، السنة الثانية عشرة، 1986م، ص 139-148.

(2) خالد الحلبونى، **الرسائل النثرية الشخصية في العصر العباسي**، مجلة جامعة دمشق، (سوريا)، المجلد25، العدد الاول والثاني، 2009م، ص 37-66.

(3) رفاه تقى الدين عارف، **العامة في بغداد في العصر العباسي الاول والثاني**، مجلة سر من رأى للعلوم الانسانية (العراق)، مجلد7، العدد25، 2011م، ص 145-175.

(4) زين العابدين موسى الجعفر وخلود كريم وسوسن عباس: **الكتابة الرسمية في صدر الاسلام حتى القرن الرابع الهجري**، مجلة آداب البصرة (العراق)، 2011م، العدد56، ص203-238.

(5) شاكر محمود عبد المنعم، كتّاب النبي (ص)، مجلة المؤرخ العربي (العراق)، العدد 4، 1977م، ص 169-209.

(6) طلب صبار محل وحسين خالد مصلح، **الوفادات العلمية في العصر العباسي الاول 132-232هـ**، مجلة آداب الفراهيدي (العراق)، العدد 20، يونيو 2014م، ص 465-505.

(7) عبد السلام جمعة وطلب صبار محل، **كتاب الرسائل في العصر العباسي الاول: هيئتهم (ازياؤهم) وادواتهم ومهامهم ورسومهم**، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية (العراق)، المجلد 14، العدد 9، 2007م، ص 104-135.

(8) عبد الفتاح رجب حمد، **نظام البريد عند العرب والمسلمين خلال العصر الإسلامي الوسيط**، مجلة جامعة عمر المختار (ليبيا)، المجلد5، العدد23، 1999، ص1-13.

(9) عصام سليمان الموسى، **الورق وتطور صناعته في العصر العباسي**، مجلة جامعة دمشق (سوريا)، المجلد 27، العدد 3، 2011، ص211-252.

(10) على عبد الرحمن ابا حسين، مكة مركز الدعوة العباسية، مجلة المؤرخ العربي (العراق)، العدد 5، 1977م، ص 177-206.

(11) فايزة اسماعيل أكبر، **وزراء العصر العباسي الاول 132-232هـ مجلة المؤرخ العربي (العراق)، العدد الثامن**، المجلد الاول، مارس 2000، ص3-48.

(12) مروان عاطف الضلاعين، **السلع التجارية في اسواق بغداد في العصر العباسي الاول**، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية (العراق)، مجلد 36، العدد3، 2009م، ص 618-643.

(13) يعقوب بورنجف وسيد مجتبى حسينى، **موضوعات الحكم والوصايا الفارسية وتوجهاتها**، مجلة التراث الأدبي (إيران)، السنة الثانية، العدد السابع، بوشهر: 1969م، ص 41-61.

رقم الإيداع (2021/0678)